فى تـــاريخ
الدولة العربية الإسلامية
(تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية)



إعـداد

أ.د. كمال السيد أبو مصطفى
أستـاذ التـاريخ الإسـلامـى
والحضـارة الإسـلاميـة
كلية التربية - جامعة الإسكندرية

د. أسـامـة أحمـد حمّـاد
مـدرس التـاريخ الإسـلامـى
والحضـارة الإسـلاميـة
كلية التربية - جامعة الإسكندرية



مـركـز الإسـكـنـدريـة للكتـاب
٤٦ ش د/ مصطفى مشرفة - سوتير سابقا
الإسكندرية - ت : ٤٨٤٦٥٠٨

فى تاريخ
الدولة العربية الإسلامية
(تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية)

إعــــداد

أ.د. كمال السيد أبو مصطفى
أستاذ التاريخ الإسلامي
والحضارة الإسلامية
كلية التربية - جامعة الإسكندرية

د. أسامة أحمد حمّاد
مدرس التاريخ الإسلامي
والحضارة الإسلامية
كلية التربية - جامعة الإسكندرية

مركز الإسكندرية للكتاب
٤٦ش د. مصطفى مشرفة - الأزاريطة - الأسكندرية
ت .ف ٤٨٤٦٥٠٨ - ٠٠٢٠٣
alexbookeenter@yahoo.coo

بسم الله الرحمن الرحيم

(قالوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلا مَا عَلَّمْتَنَا إنكَ أنتَ العَلِيمُ الحكِيمُ)

صدق الله العظيم

(سورة البقرة - الآية : ٣٢)

تمهيد

«جغرافية بلاد العرب»

تمهيد

جغرافية بلاد العرب*

التحديد الجغرافي للجزيرة العربية :-

كان العرب قديما يعرفون معنى الجزيرة كما نعرفه اليوم، ويطلقون على بلادهم بهذا المعنى، ويرون أن الأنهار والبحار تحيط بها من جميع الجوانب يؤيدنا في جزيرة ذلك ما ورد في " معجم البلدان" مسنداً إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : " وإنما سُميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في مثل جزيرة من جزائر البحر ..."[١] ومعنى ذلك أن بلاد العرب - وإن كانت البحار تحيط بها من ثلاث جهات فقط وهي الشرق والغرب والجنوب - فإن نهر الفرات يحفها من الشمال الشرقي إلى الشمال، خاصة وأن العرب يدخلون في جزيرتهم كلا من سوريا ولبنان وفلسطين، ويتضح ذلك من تفسير ابن الكلبي الوارد عند ياقوت في مادة: (جزيرة العرب)، فحدود الجزيرة طبقا لذلك عند العرب هي بحر عُمان، ثم خليج العرب والمحيط الهندي وخليج عدن جنوبياً، والبحر الأحمر ثم سيناء والبحر المتوسط غرباً، ونهر الفرات إلى قنسرين في شمال غربي سوريا شمالاً.

وربما كان السبب في تحديد ابن عباس وابن الكلبي لجزيرة العرب على النحو السابق شرحه هو إحساس العرب الفاتحين في بدايات العصر الإسلامي بتقارب سكان سوريا وفلسطين وسيناء مع سكان بلاد العرب الأصلية في الجنس واللغة والعادات والتقاليد.

كذلك يذكر ابن خلدون مؤكداً هذا التحديد العربي لبلادهم بأن جزيرة العرب بين فارس والقلزم" وكأنها داخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب، وبحر القلزم من الغرب، وبحر فارس من الشرق ، وتفضي إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما"[٢]

---

* إعداد د. أسامة حماد

[١] الهمداني : صفة جزيرة العرب، نشر محمد عبد الله بن بليهد النجدي، القاهرة، ١٩٥٣، ص٤٧، ياقوت: معجم البلدان، مادة جزيرة العرب، مجلد ٢، ص ١٣٧.

[٢] ابن خلدون : المقدمة، ج١، ٢٨١ - ٢٨٢.

الأقسام :

وبناء على آراء المؤرخين والجغرافيين المسلمين السابقين نلاحظ أن العرب يدخلون سوريا ولبنان وفلسطين فى هذا التقسيم، فى حين أننا إذا طالعنا أشعارهم وأخبارهم نلاحظ أنهم يقسمون جزيرتهم خمسة أقسام فقط هى : تهامة - الحجاز - نجد - العروض - اليمن، وجميعها واقعة فى داخل شبه الجزيرة حتى حدود بادية الشام، أي لا تدخل فيها بلاد الشام وماوالاها، ولحل هذا التعارض نقول بأن بلاد العرب الأصلية هى شبة الجزيرة إلى حدود بادية الشام فقط، فهذا هو المهد العربي الحقيقي الذي يضم بين جوانبه العرب الصرحاء .. أما تحديد ابن عباس وغيره فهو فى رأينا مبنى على الناحية الجيولوجية أولاً إذا أن طبيعة أرض الهلال الخصيب من الناحية الجيولوجية وأيضا طابعها الصحراوي العام لا تختلف فيه كثيراً عن سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية، أضف إلى ذلك ما وجده المسلمون عند فتوحاتهم لبلاد الشام وفلسطين من أنساب عربية ولغات تمت إلى لغة العرب بقرابة واضحة فمن هنا أدخلوها في تقسيماتهم الجغرافية لشبه الجزيرة.

وعلى ذلك فأقسام الجزيرة - كما أوضحا - عند العرب خمسة وأساس هذا التقسيم عندهم هو جبل السراة، وهو أعظم جبال العرب، وبالأحرى هو سلسلة جبال تمتد من اليمن جنوباً إلى أطراف بادية الشام شمالاً بموازاة البحر الأحمر، تتفاوت فى الارتفاع والانخفاض وتقسم جزيرة العرب إلى قسمين غربي وشرقي.

والآن نعرض بإيجاز لأبرز مظاهر السطح فى هذه الأقسام الخمسة الرئيسة لشبه جزيرة العرب:

١- ***تهامة :*** وهى القسم الغربي لجبال السراة وتشمل المنطقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن جنوباً إلى العقبة شمالاً وتتسم بشدة الهبوط والانحدار ولذا عرفت بتهامة أو الغور أي الأرض المنخفضة، هذا وقد ورد اسم تهامة فى بعض النصوص العربية الجنوبية بهذه الصورة " تهمت" فحاول بعض العلماء إيجاد علاقة بين هذه اللفظة وبين لفظة "tiamtu"البابلية بمعنى "البحر" بينما اتجه آخرون للقول بأن الكلمة ترجع لأصل سامي قديم له علاقة بانخفاض أرضها عن مستوى سطح البحر، ولذلك فهي شديدة الحرارة والرطوبة صيفاً، ومن هنا سميت بهذا الاسم المشتق من التهم أي شدة الحر وركود الريح، وقيل أيضاً أن التَّهَمَة هي الأرض المنصوبة نحو البحر ولانخفاض أرض تهامة

سميت بالغور[١] هذا وكان العرب يضيفون اسم تهامة إلي اسم القسم الذي تحاذيه من أجزاء الحجاز واليمن، فكانت هناك تهامة الحجاز، وتهامة عسير وتهامة اليمن، ويغلب على أكثر أجزاء تهامة شدة الحرارة وقلة النبات والأرض الرملية، وتقع فيها كثير من الموانئ العربية مثل جدة وينبع في الحجاز، والمخا وزبيد والحديدة فى بلاد اليمن [٢].

٢- *نجد:* وهى اسم للأرض التى أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام ... أى القسم الشرقي من سلسلة جبال السراة، وهذا القسم يأخذ في الاتساع حتي يصل إلى أرض العروض فى الشرق حيث اليمامة والبحرين وسمى بنجد أي الأرض المرتفعة فهي بصفة عامة هضبة عالية تتوسط شبه جزيرة العرب وتعد أوسع أقاليمها ويتخللها أودية صالحة للزراعة منها وادي الرمة، ووادي عاقل ووادي حنيفة، وقد قسّم العرب نجد إلى قسمين هما *نجد العليا* وهى ما يلي الحجاز وتهامة، *ونجد السفلى* وهي ما يلى العراق. وكانت نجد حتى القرن السادس الميلادى ذات غابات وأشجار وبخاصة في عالية نجد قريباً من جبال شَمَّر فى الشمال، كما تقع بها أرض طيء وجبلي أجأ وسلمى.

أما أشهر مدن نجد فهي مدينتي حائل وتقع بأدني جبل أجأ، وفيد الواقعة على طريق الحج العراقي على سفح جبل سلمى[٣]

أما صحراوات نجد فلعل من أهمها : صحراء النفود، وكانت تُعرف قديماً ببادية السماوة أو الدهناء[٤] . ثم غلب عليها اسم النفود، وتقع شمال الجزيرة العربية وتمتاز بكثبانها الرملية الناعمة وتمتد على مساحة كبيرة من الأرض فيبلغ طولها من تيماء نحو الشرق نحوا من ٤٥٠ كم، وعرضها من الجوف إلى جبل شَمَّر بنجد نحو ٢٥٠ كم[٥] .

أما القسم الشرقي من نجد فيعرف بالوشوم، وإن أدخله ياقوت ضمن أرض اليمامة، أما سهل نجد الفسيح الممتد بين الوشوم شرقاً وحرة خيبر غرباً وجبال

---

(١) أحمد أمين سليم، جوانب من تاريخ وحضاة العرب في العصور القديمة، الإسكندرية، ١٩٩٦، ص ١٩-٢٠ ؛ السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب " تاريخ العرب قبل الإسلام، الإسكندرية، ب، ت، ص ٧٠.

(٢) البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، ص ٦٣؛ السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق، ص ٧١.

(٣) ياقوت الحموي، نفسه، مادة فيد، ص ٢٨٢؛ البلدان اليمانية عند ياقوت ص ٢٩٧؛ سالم، نفسه. ص ٧١-٧٢.

(٤) ياقوت، نفسه، مجلد ٤، ص ٧٠.

(٥) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد ١٩٥٠- ١٩٥٩، ج١، ص ٩٣.

طيء شمالاً فيُسمى القصيم وهى تعنى فى اللغة الرمل الذى ينبت شجر الغضا، والغضا شجر من الأثل، ويُسمي أهل نجد بإسم أهل الغضا لكثرته فى نجد.

٣- *الحجاز*: أو سلسلة جبال السراة وهي نفسها تعرف بأرض الحجاز، وهى تلك المنطقة الجبلية المرتفعة التى تحجز بيْن تهامة ونجد، وامتداده بينهما بحذاء الساحل [١]. وسمي حجازاً أيضا لأنه يحجز بين الغور والشام. وتمتد سلسلة جبال السراة من حدود الشام إلى حدود اليمن، وتتخلل أرض الحجاز عدة أودية منها وادي القرى، وهو وادٍ مشهور بين العُلا والمدينة المنورة وكان يمر به طريق القوافل التجارية القديم بين جنوبي بلاد العرب وبين سوريا ومصر وهو طريق كان يمثل أحد شرايين التجارة فى العالم القديم، وتقع فى وادي القرى عدة مدن هامة من بينها : مدينة العُلا وتعد من أهم المناطق القديمة الواقعة فى ذلك الوادي، ومدينة الحجر : المعروفة بمدائن صالح وكانت من أهم المدن القديمة فى شمال الحجاز بحكم كونها منزلاً هاماً من منازل الطريق التجاري بين جنوبي بلاد العرب وبين سوريا ومصر، وكان يتفرع منها طريق الحجيج لمصر والشام والعراق. وفي هذا الوادي أيضا تقع مدينة قرح، وهى المدينة التى يُعتقد بأنه كان فيها هلاك قوم النبي هود "قوم عاد" وهي من الأسواق الكبيرة فى الجاهلية الأولى، وكانت تقع عند التقاء طريق مصر القديم بطريق الشام، ومن مدنه أيضا الطائف وخيبر وفدك وتيماء، وفي الحجاز أيضا مدينة يثرب مدينة الرسول ﷺ وهي تقع في أرض بركانية بين حرتين شمالى جبل أحد [٢].

ومن أودية يثرب (المدينة) وادي العقيق، وهو من أخصب أوديتها وأكثرها عمراناً، ووادي بطحان وبه منازل يهود بنى النضير، أما ثالث أوديتها فهو وادي قناة الذي يبدأ من الطائف وينتهي عند قبور شهداء أحد وهو صالح للزراعة.

أما مدينة الطائف فهي أيضا من المدن الواقعة فى الحجاز كما ذكرنا آنفاً، وتبعد عن مكة حوالى ٨٠ كم إلي الجنوب الشرقي منها، وأصل التسمية يرجع إلى حائطها الذي كان يحيط بها ، ويقال أيضا من طواف أهلها حول معبودها من الأوثان قبل الإسلام. كما تسمى الطائف أيضا وادي وج.. وأرضها مرتفعة حوالي ٥٠٠٠قدم فوق سطح البحر، وكان أكثر سكانها قبل الإسلام من ثقيف، وإلى جوارهم سكنت بعض بطون من حمير، ويحيط بالطائف أودية كثيرة تسيل فيها المياه فى موسم الأمطار، وحولها آبار وعيون كثيرة. وفى جنوبي مكة أيضا جبال

---

[١] ياقوت ، نفسه، مجلد ٢ ، مادة حجاز ص ٢١٩.

[٢] القلقشندي: صبح الأعشي، ج٤/٢٤٦؛ راجع أيضا: الهمداني: المصدر السابق، ص٤٨، سالم: نفسه، ص٧٣ ؛ أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص ٢٠-٢١، راجع أيضا :ياقوت الحموي: معجم البلدان، مجلد ٢، (مادة حرة)، ص ٢٤٥.

عُرفت باسم سراة هذيل نسبة إلى قبائل هذيل التي كانت تسكنها، وتسكن أيضاً فى الجبال الواقعة بين مكة ويثرب، وإلى جوارها تقطن أيضا قبائل سليم وكنانة.

٤- ***العروض "اليمامة":*** وهو القسم الرابع من تقسيمات العرب لبلادهم، والعروض هو الشيء المعترض، ويحدد ابن الكلبي العروض بأنها بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما[١]، وسميت عروضاً لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق، كما عُرفت هذه المنطقة قديما باسم "جوا" وعندما سكنتها بعض القبائل العربية البائدة واتخذتها موطناً مثل طسم وجديس صارت تعرف باليمامة نسبة إلى اليمامة بنت سهم بن طسم، وقيل أيضاً أن التسمية نسبة لأشهر بلادها وهى اليمامة الواقعة جنوب غرب الإحساء[٢]. وقاعدة اليمامة قديما مدينة "حجر". أما البحرين فإقليم فسيح قريب من الخليج العربي، وكانت قاعدته "هجر" وقصبة هجر الإحساء [٣] ومن الأقوال الواردة أيضا فى تسميتها بالعروض أن عمرانها أخذ بالعرض على خلاف بقية أجزاء الجزيرة فإن عمرانها يمتد طولياً من الجنوب إلى الشمال، ولعل التسمية أيضاً ترجع لوقوعها فى جانب من الجزيرة أو من هضبة نجد، ويقال أن العروض هو ما خالف أرض العراق من أرض العرب... وهى تسميات كلها تنطبق على تلك البقعة الجغرافية. ونلاحظ أن أغلب أراضي إقليم العروض صحراوية ويتخللها عدة سهول ساحلية ترتفع عن ساحل البحر في الجهات الغربية، وتشمل العروض اليوم منطقة كبيرة، تضم البحرين والإحساء واليمامة وشبه جزيرة قطر والكويت[٤].

٥- ***اليمن :*** وهو القسم الخامس من أقسام الجزيرة العربية حسب تقسيمات العرب ... وهو القسم الجنوبي فيها، ومصطلح اليمن أطلق فى النصوص العربية الجنوبية على منطقة عربية صغيرة بالقياس إلى التقسيم العربي المتأخر، إذ كانت تذكر إلى جانب سبأ وحضرموت وذي ريدان وقتبان وغيرها.

أما عن سبب تسمية هذه البلاد باليمن فهو موضع خلاف فهناك من يذهب للقول بأن ذلك نسبة إلى أول من سكنها من العرب الذى قال له والده قحطان أنت أيمن ولدى[٥]، أو لأنها تقع على يمين الكعبة، بينما يذهب فريق ثالث إلى القول بأن السبب يكمن فى في طبيعة البلاد نفسها فهي بلاد الخير والبركة واليُمن، بينما يرى

---

[١] ياقوت : المصدر السابق، مجلد، (مادة عروض)، ص ١١٢.

[٢] ياقوت: نفس المصدر، مادة (يمامة) مجلد ٥ ص ٤٤٢.

[٣] ياقوت : المصدر السابق، مادة " حجر" ص ٣٩٣؛ السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٧٣.

[٤] أحمد أمين سليم: المرجع السابق ، ص٢١-٢٢.

[٥] أحمد أمين سليم : نفسه، ص ١٩.

فريق رابع بأنها سميت بذلك لتيامن العرب إليها لأنها أيمن الأرض.. أو لأن الناس قد زادت أعدادهم بمكة فلم تتحملهم فالتأمت بنو يمن إلى اليمن .

بينما هناك من يرجح بأنها سميت اليمن من "يمنات" الواردة في نقش يرجع لأيام الملك "شمريهرعش". وواضح من هذا العرض أن تلك الآراء لم تذكر لنا شيئاً عن الاسم الذي كان يطلق عليها قبل أن تسمى باليمن[١] .

ويمكن القول بأن الموقع الجغرافي لبلاد اليمن ساعدها على القيام بدور همزة الوصل بين المراكز الحضارية فى الشرق الأدنى كأحد معابر التجارة العالمية منذ القدم، الأمر الذي أكسبها من الثراء ما ساعد على قيام حياة حضارية لا ترتكز على التجارة فقط، بل تعتمد أيضاً على الزراعة التى ازدهرت لتوافر مقوماتها فتضاريس اليمن كما سيأتي ذكره ـ كانت أحد العوامل المساعدة على الازدهار، فقد هيأت الطبيعة الجبلية لهذه الأرض المنّعة، كما ساعد الارتفاع وتباين المناخ على خلق بيئة جغرافية متميزة فتنوعت الغلات الزراعية بها تنوعاً كبيراً[٢].

وفى الجنوب الشرقي من تهامة اليمن تقع منطقة عدن ويليها شرقاً منطقة حضرموت الممتدة على ساحل بحر العرب ثم منطقة سيحوت والتى تنتهي شمالاً لمنطقة الربع الخالى، ومن شرقي سيحوت تبدأ سواحل مهرة المعروفة عند جغرافي العرب باسم الشَّحْر وهو اسم يُطلق اليوم على الميناء الغربي لبلاد مهرة فقط ويعرف هذا الأقاليم فى وقتنا الحاضر باسم ظفار، وهى غير ظفار القديمة الواقعة عند جبل ريدان.

ثم يلي منطقة ظفار هذه منطقة عُمان وهي أرض جبلية ذات هضاب وسهول ساحلية، وفي بعض نواحيها عيون ومجاري مياه معدنية، وأعلى قمة بها هي قمة الجبل الأخضر "٩٠٠٠قدم"، ويحيط بها أراض خصبة، وفى عُمان عدة مدن قديمة منها صحَار، ونزوى ودُبا التي كانت سوقاً مشهوراً فى الجاهلية وأغلب سكانها من الأزد. والعمانيون شهروا قديماً بركوب البحر والتجارة البحرية مع سواحل إفريقيا الشرقية والهند.

---

[١] الهمدانى : نفسه ، ص١٥١؛ سالم: نفسه، ص٧٤؛ إسماعيل بن الأكوع: البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، ص ٣١١ ؛ د متولي: جغرافية شبة جزيرة العرب، ص٢٥٦ ـ ٢٥٨.

[٢] سعد زغلول عبد الحميد: فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٧٥، ص٦٩-٧٠.

تقسيمات أخرى للجزيرة العربية

هناك أيضاً تقاسيم أخرى لشبة الجزيرة العربية غير ما ذكرناه سابقاً فعلى سبيل المثال: يقسم جغرافيو اليمن شبه الجزيرة العربية إلى قسمين: فالهمداني يقول " هي" أي الجزيرة العربية "عند" أهل اليمن يمن وشام، فجنوبها اليمن وشمالها الشام ونجد وتهامة، ولهذ التسمية أصل فى الجاهلية فالعرب قديماً كانوا يسمون الواقع بيمين الكعبة اليمن، وما يقع شمالها باسم الشام... وفي لفظ اليمن معنى اليمين، وفى لفظ الشام معنى الشمال. ويبدو أن كلمة الشام ترجع إلى كلمة " شمأل" الوارد ذكرها في النصوص القديمة، وعُرفت اليمن عند العرب أيضاً بالخضراء لكثرة مزارعها ونخيلها وغروسها، كما عُرفت كذلك عند العرب ببلاد العرب السعيدة، وفى خيراتها قيل:

هي الخضراء فاسأل عن رُباها	يخبّرك اليقين المخبرونا
ويمطرها المهيمن في زمـــان	به كل البريـــة يظمؤونا
وفي أجبالها عـز عزيـــــز	يظل له الورى فتقاصرينا
وأشـــجار منـــورة وزرع	وفاكهة تروق الآكلينـــا[1]

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كانت عليه بلاد اليمن من ازدهار حضاري، يقول الله تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)[2].

أما المؤرخون والرحالة من اليونان والرومان فقد قسموا شبه الجزيرة العربية إلى أقسام ثلاثة طبقاً للحالة السياسية التى كانت عليها هذه البلاد فى القرن الأول الميلادى وهذه الأقسام هى:

١- ***بلاد العرب الصخرية أو " الحجرية"*** "ARABIA PETRAEA" "أو " ARABIA PETRIX. " وتشتمل على المثلث الواقع بين خليجي البحر الأحمر والمنطقة التى تليه إلى الشمال الشرقي حيث مملكة الأنباط وعاصمتها البتراء، وقد سميت بالصخرية أو الحجرية إما نسبة إلى عاصمتها أو لطبيعة المنطقة الصخرية، وكانت حدود هذه المنطقة تختلف اتساعاً وانكماشاً طبقاً للظروف السياسية، فكان الأنباط يقيمون في الأراضي الجبلية والمرتفعات

---

[1] الهمداني: نفسه، ص٥١؛ ياقوت: معجم البلدان، مادة عين مجلده، ص ٤٤٧؛ الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة العرب، القاهرة ١٩٢٤؛ ج١، ص٢٠٣.

[2] سورة سبأ، آية ١٥-١٦.

المجاورة لها فى شرق البحر الميت ووادي عربة وما يليه شرقاً، أما الأقسام الباقية فسكنتها قبائل عربية مجهولة الإسم عُرفت عند اليونان والرومان بالسبئية وكانت تقطن وراء مناطق نفوذ الأنباط والرومان وهي قبائل جنوبية فى الغالب[1] هذا وقد ضم الرومان بلاد النبط بعد سقوط دولتهم عام ١٠٦ م إلى المقاطعة الرومانية التى عُرفت باسم Arabia Provencia أرابيا بروفنسيا.

٢- *بلاد العرب الصحراوية* : ARABIA DESERT ، وكانت تطلق على بادية الشام فى أغلب الأمر، وهناك من يذهب للقول بأنها هى المناطق الصحراوية التى تقع بين سوريا ومصر، وهى مقسمة بين شعوب متباينة الصفات والمزايا، وفي شمالى هذه المنطقة كانت تقع مملكة تدمر والتي كانت الزبّاء من أشهر ملوكها وهذا القسم يمثل القسم الأعظم من هذه الأقسام الثلاثة لكثرة صحراوتها[2].

٣- *بلاد العرب السعيدة*:" ARABIA FELIX " والمقصود بها الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة حيث تقع بلاد اليمن، وعُرفت بالسعيدة أو الأرض الخضراء لكثرة محاصيلها وتنوعها، واعتدال مناخها.

أما عن المناخ في بلاد العرب فتُعد شبه الجزيرة العربية، من بين المناطق شديدة الحرارة، وبخاصة فى الأراضي المنخفضة مثل تهامة وداخل الأودية حيث تشتد الحرارة صيفاً ولا تخف وطأتها إلا فى المناطق المرتفعة مثل مناخ نجد والجبال المطلة عليها والطائف، والقمم الشديدة الارتفاع تغطيها الثلوج أحياناً لفترات وجيزة.. أما الأمطار فى شبه الجزيرة فتعتمد على نظام رياح المحيط الهندي جنوباً، والبحر المتوسط شمالاً، وبالطبع فنظام الأمطار يختلف باختلاف وضع كل منطقة أي الاختلاف بين الصحراوات والمناطق الجبلية والمنخفضات واتجاه امتداد الأودية.. إلخ، وتمتاز المناطق الجبلية المواجهة للرياح الممطرة القادمة من المحيط الهندي مباشرة كاليمن وحضرموت وعُمان بدرجة عالية نسبياً من الخصوبة والرطوبة مقارنة بمناطق الهضاب الداخلية التى تحجبها الجبال. وكذلك بالجبال الشرقية والشمالية التى لا تحصل إلا على مقدار ضئيل من الأمطار مثل الحجاز، فجدة مثلاً يتسم مناخها بالرطوبة العالية على مدار السنة بتأثير القرب من البحر الأحمر والرياح الشمالية الغربية القادمة من المتوسط، وفى نفس الوقت

---

[1] أحمد أمين سليم: المرجع السابق، ص١٢٧.

[2] س.م: نفسه، ص٦٦-٦٩ ، وتنقسم هذه المنطقة بدورها لثلاثة أقسام هى الحرات والدهناء أو صحراء الجنوب، وصحراء النفود.

تتميز بالحرارة العالية نسبياً لانخفاض مستوى الأرض بها، في حين تتسم مكة بالجفاف الشديد نظراً لوقوعها بين حلقة من الجبال.

وفيما عدا القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية أي اليمن التى تتمتع بنظام أمطار منتظم وكاف، فإن الأمطار فى سائر بقاع شبه الجزيرة تتسم غالباً بعدم الانتظام والانقطاع، وعادة ما تسقط في الشتاء وبداية الربيع، وأحياناً تأتي الأمطار في بعض السنوات بوفرة شديدة وعلى شكل سيول عارمة تدمر فى طريقها الكثير من مظاهر الحياة والعمران، ولكن بصورة عامة فإن شبه الجزيرة العربية تُعد من المناطق شديدة الجفاف، وإن كان علماء الجيولوجيا يعتقدون بأن صحراء شبه الجزيرة العربية الجنوبية كانت قديماً منطقة تجري بها الأنهار وتضم أراضي خصبة، ثم تحولت بمرور الزمن وتدريجياً إلى ما هي عليه الآن من جفاف، ويعتقدون أيضاً بإمكانية استخراج المياه من باطنها بصورة أفضل مما هو عليه الأمر الآن.

الفصل الأول

«أحوال العرب قبل الإسلام»

الفصل الأول

أحوال العرب قبل الإسلام*

(١)

الحياة السياسية

ينقسم سكان شبه الجزيرة إلى قسمين بدو وحضر، والبداوة هي الشكل البدائي للحياة، ولا تزال تمثل أسلوب حياة للعديد من سكانها، ولا يزال البدو يحتفظون بالخصائص الأصيلة للعرق العربي بصورة أكبر منها لدى الحضر، وذلك بحكم بعدهم عن الاختلاط بأقوام أخرى من خارج الجزيرة العربية [١]، ولعل من السمات البارزة للبدوي حرصه على الاستقلالية والحرية، ولذا فهو يضيق بحياة المدن المقيدة بنظم محددة، ويُفضل عليها الحياة الخشنة رغم قسوتها لتعوده الحياة الطليقة، ويتولى القيادة في البادية رئيس يسمى شيخ القبيلة وله ولاية التحكم وحق الفصل فى المنازعات والخصومات التي تنشأ بين أفراد القبيلة، وله قيادة القبيلة فى أوقات الحرب وفى التنقل والترحال، وتنتقل الزعامة فى القبيلة عن طريق الإرث، ومن شروط الزعامة للقبيلة العقل والشجاعة والسخاء، ولذا فإن شيخ القبيلة هو الذي يتكفل بإقراد الضيف خيمته نظراً للفاقة الشديدة التى تغلب على أفراد القبيلة، كما يُلاحظ أن شيخ القبيلة يلتزم فى أحكامه بمراعاة رأي الجماعة. ورغم سمات كرم الضيافة وحماية الجار، فإن السفر فى البادية كان أمراً محفوف بالمخاطر ويتطلب بالضرورة رفقة الحماية، لأن قسوة الحياة والفقر يدفعان البدو للإغارة والقتل حتى صار ذلك من مستلزمات الحياة فى الصحراء، ولذا يلجأ الضعيف فى سبيل البقاء إلى الاحتماء بالقوى لحمايته من خطر الأقوياء، ويسمى هذا الفرد الضعيف في عُرف العرب "دخيلاً" لذلك شاع عقد المعاهدات بين القبائل لمواجهة القبائل الأقوى منها وتتم مراسم عقد هذه التحالفات وفقاً لطقوس خاصة.

أما عن فكر البدوي فلا يتجاوز مفهوم القبيلة فهي فى مخيلته المجتمع الأكثر كمالاً، ومن ناحية الفكر الاجتماعي فلا يتعدى الأمر عنده حدود المنفعة الفردية ولذا يفتقر البدو لنظام حكومي منتظم ولمجتمع مكتمل الأركان، أي لا سلطة تحكمه، ولذا يظل معرضاً للتشتت والفرقة، فقسوة الحياة ومناخها تؤكد عنده الميل إلى الفردية وتدعمها، ورغم هذه السلبية، إلا أن هذه الحياة المنعزلة تؤدي من ناحية أخرى لاعتماد البدوي على نفسه والاستفادة من قدراته لأقصى درجة ممكنة،

---

* إعداد د. أسامة حماد.

[١] علي أكبر فياض: تاريخ الجزيرة العربية والإسلام، ترجمة د. عبد الوهاب علوب، مركز النشر، جامعة القاهرة ١٩٩٣، ص١٠ - ١١.

وتجعله نقياً بعيداً عن المخالطة، ولعل الأدب الجاهلي قد صور حياة البدو بشكل يُعد نموذجاً للروح الفردية وانعكاساً لانسجام الحياة في البادية وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم.

ويلاحظ أن العامل الأهم في قيام مدن شبه الجزيرة بصفة عامة هو التجارة لوقوع شبه الجزيرة على أول الطريق إلى آسيا وأوروبا، ولذا لعبت دوراً هاماً منذ القدم في التجارة بين القارتين، ولم يكن السفر بالبحر شائعاً بين عرب الجزيرة، وإنما السفر بالبر هو الأساس. وقد ازدهرت بالجزيرة العربية عدة طرق تجارية برية كان يراعي في اختيارها وجود واحات على الطريق للتزود باحتياجات السفر والراحة. وقامت هذه الطرق بدور خطوط الاتصال بين خليج عُمان والخليج العربي من ناحية والبحر المتوسط ومصر من ناحية أخرى. ومن هذه الطرق طريق شمالية تبدأ من الخليجين المذكورين (وخاصة من ساحل عُمان) وتنتهي منها لميناء صور على المتوسط مروراً ببادية الشام وفلسطين، ولهذا الطريق امتداد لخليج العقبة وميناء غزة بهدف الوصول إلى مصر، وعلى هذا الطريق نشأت مدن هامة ووجدت الواحات مثل بابل والحيرة و دوامة الجندل (الجوف حالياً) وتدمر وغيرها، وكانت هذه الطريق أيضاً تربط العراق بالبحر المتوسط ومصر... مما أدى لقيام حركة تجارية نشطة في شمال شبه الجزيرة العربية [1].

أما الطريق الأخرى فهو طريق شبه الجزيرة العربية الجنوبي، حيث كانت السفن القادمة من الهند تفرغ حمولتها في ميناء عُمان أو غيره من موانئ الجنوب، ثم تحملها قوافل العرب البرية بموازاة الساحل الجنوبي إلى اليمن، ومنها بمحاذاة ساحل البحر الأحمر إلى ميناء أيلة على خليج العقبة أو ميناء غزة على البحر المتوسط، وقامت على طول هذا الطريق عدة مدن زاهرة وعديد من الواحات الهامة ومن بينها مكة ويثرب (المدينة المنورة).

ويرجح العلماء أن هذا الطريق الجنوبي كان هو الطريق الرئيس للتجارة في العهود القديمة بشبه الجزيرة يليه الطريق الشمالي، لمروره بمراكز إنتاج المحاصيل الزراعية الجنوبية علاوة على قيامه بدوره كمعبر للتجارة الواردة من الهند، ثم تدهورت مكانة هذا الطريق عقب استيلاء الرومان على مصر وحكمها، وقيامهم بتدعيم الطرق التجارية البحرية ومنها طريق البحر الأحمر الذي يبدأ من باب المندب حتى مصر، فصارت مكانة الطريق الجنوبية هذه التي تصل بين جنوب شبه الجزيرة ومصر مهددة بالتوقف، وبدأ عُمران المدن والقرى الواقعة على هذا الطريق في الانكماش والخراب، بل وهاجرت بعض قبائل الجنوب إلى

---

[1] **Lammens(H);la Mecque a la Veile de L' hegire, Beyrouth, ١٩٢٤, p.١٠٧.**

الشمال حيث كان الطريق الشمالية لا يزال مزدهراً، فيما عدا اليمن التي ظلت بها حركة تجارية نشطة مع الشمال لكونها مركزاً إنتاجياً ويؤكد ذلك القرآن الكريم حيث كانت قوافل قريش التجارية قد خصصت فصل الشتاء لرحلة مكة الذاهبة إلى اليمن [1].

ومثلت هذه الحركة التجارية بين شمال وجنوب شبه الجزيرة مجالاً طيباً لأعمال العرب حيث احترف بعضهم مهمة النقل والحراسة لهذه التجارات، والبعض الأخر اتخذ مساكن على الطرق والمنازل وأقاموا تجارة، بينما اعتمد فريق ثالث في حياته على فرض الإتاوات أو الإغارات المسلحة على القوافل التجارية المارة بمضاربهم أو بالقرب منها.

أصل العرب وأقسامهم: أما عن أصل هؤلاء العرب وأقسامهم فيقسمهم الإخباريون العرب إلى فرعين الأول ويسمى ***العرب البائدة*** وهم الذين بادوا واندثروا وزالت آثارهم، ولا نجد لهم أية أخبار سوى ما ورد منها في القرآن الكريم والشعر الجاهلي مثل قوم عاد وثمود وجرهم الأولى وغيرهم. أما الفرع الثاني ***فهو العرب الباقية***، وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى فرعين الأول ويطلق عليه "العرب العاربة" أي الراسخون في العروبة وأصل العرب وهم طوائف قحطانية مواطنها بلاد اليمن وينتسبون إلى قحطان الذي ينتهي نسبه لسام بن نوح عليه السلام، ومن أشهر قبائل العرب العاربة أو القحطانية أو عرب الجنوب أو اليمنية قبيلة كهلان وينتسب إليها الأوس والخزرج والغساسنة وكذلك قبيلة حمير ومنها قبائل قضاعة وبلى وجهينة وكلب وغيرها.

والفرع الثاني من العرب الباقية يسمى العرب المستعربة أو المتعربة وهم الذين تعلموا العربية عن العرب العاربة، وذلك لأن سيدنا إسماعيل عليه السلام كان يتكلم بغير اللسان العربي (السريانية أو العبرانية)، فلما هاجرت قبيلة جرهم اليمنية إلى مكة وسكنوا مع سيدنا إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر وتزوج منهم، تعلم هو وأولاده عنهم العربية، ولذا أطلق عليهم اسم "العرب المستعربة" وعرفوا أيضاً بالعدنانية نسبة إلى عدنان من نسل سيدنا إسماعيل عليه السلام، وكانوا يسكنون الحجاز ومن أشهر قبائلهم مُضر أو قيس ومنها قبيلة قريش وثقيف وهوازن وبني سُليم وغيرها ويطلق عليهم جميعاً العرب القيسية أو المضرية أو عرب الشمال[2]. وأياً ما يكون التاريخ القديم وتقسيمات الإخباريين لعرب الجزيرة، فإن

---

(1) القرآن الكريم، سورة قريش ومن المعروف أن قريش كانت لها رحلتان إحداهما شتاءً لليمن والأخرى صيفاً تتجه إلى الشام.

(2) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، ج١، ص٩ وما يليها؛ سالم نفسه، ص ٤٣ وما بعدها.

الأمر المسلم به هو أن سكان شبه الجزيرة في العصر موضوع الدراسة ينقسمون إلى قسمين رئيسين هما: القحطانيون فى الجنوب، والعدنانيون فى الشمال، وكل قسم أقام عدة ممالك أو إمارات معاصرة لبعضها أو متعاقبة زمنياً، وسنعرض الآن بإيجاز لأهم تلك الممالك التى قامت بشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام:

ممالك جنوب شبه الجزيرة العربية:

يطلق الإخباريون العرب عليهم اسم العرب القحطانيين، وكما أوضحنا يقال بأنهم من نسل يعرب بن قحطان، وأن قحطان هذا نزح من بابل إلى اليمن عندما تفرق أبناء نوح، وأصبح ملكاً، وفي ذلك الوقت كان لا يزال هناك بقايا لقوم عاد يقطنون جنوب الجزيرة العربية فتعلم يعرب بن قحطان منهم اللغة العربية، وعندما تولى المُلك بعد أبيه قام بتوزيع البقاع المحيطة على إخوته فأعطى عُمان لعمان بن قحطان، وحضرموت لحضرموت بن قحطان[1]، وقد خلف يشجب والده يعرب، ثم تلاه عبد شمس والذي نُعت أو كني بسبأ من كثرة سباياه، وكان له بنون من بينهم حمير وكهلان ، وتولى حمير المُلك،، واستقر الحكم فى أسرته، أما نسل كهلان فقد تفرقوا في الصحراء وصاروا بدواً.

هذا هو ملخص تاريخ القحطانيين أو تاريخ جنوب الجزيرة العربية بناء على روايات الإخباريين العرب والتى يختلط الجزء الأول منها وحتى غزو الأحباش لليمن بالكثير من الأساطير والمغالطات، أما الجزء الآخر فيتطابق في معظمه مع التاريخ الحقيقي كما سنوضح فيما بعد .

وبالرجوع للمصادر الموثوق في صحتها التاريخية للعديد من النقوش التي أسفرت عنها التنقيبات الأثرية الحديثة فقد اتضح تاريخ جنوب الجزيرة العربية إلى حد كبير، وتوافرت معلومات قيمة عن الأقوام العربية التى سكنت شبه الجزيرة والدول التي قامت في نواحيها وأوضاعها السياسية والاجتماعية نوجزها فيما يلي:

فجنوب الجزيرة العربية يُعد مهداً لأقدم حضاراتها، فعلى أرضها عاشت أقوام على امتداد طرقها التجارية وبحذاء البحر الأحمر من سكان المدن من قبل الميلاد بحوالي ألف سنة، وكان لهذه الشعوب نظام اجتماعي إقطاعي يشابه تقريباً ما كان قائماً فى بابل القديمة، وكانت فى القول الراجح تتكلم لهجات مختلفة للغة واحدة وكأنهم قبائل مختلفة تتفرع من أصل واحد. وكان لهم خط مشترك من نوعية الخط الفينيقي ولكن بحروف تزيد عنه، وله صورة خاصة من حيث الشكل فكانوا

---

(1) على أكبر فياض. المرجع السابق ، ص٢١.

يدونون الأحرف بالمقاطع ويرسمون بين الكلمات خطوطاً تفصل بينها عمودياً، والأسطر تتوالى من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين.[1]

وقامت على هذه الأرض ممالك متعددة مختلفه المساحة، ناصبوا بعضهم العداء وكان الأقوياء يجذبون الضعفاء لتبعيتهم أو يزيلونهم تماماً... وكانت السلطة في هذه الدول أولاً بيد الكهنة ورجال الدين والذين عرفوا باسم المكاربة (مفردها مكرب)، ثم في عصور تالية آلت السلطة إلى الملوك، واقتصر سلطان الكهنة على الشؤون الروحية، وكان لهذه الشعوب آلهة متعددة، يشترك في عبادتها عدد من القبائل، وكانت التجارة هي الحرفة الرئيسة لتلك الممالك وقد أصابوا منها ثراءً وسلطاناً عظيمين.

ولعل من أشهر هذه الدول الجنوبية والتي وردت أسماؤها في المصادر التاريخية، ***معين وحضرموت وقتبان وسبأ وحمير***، وكل دولة من هذه الدول استقرت في بقعة محددة من جنوب شبه الجزيرة العربية، وكانت تلك الدول معاصرة لبعضها البعض.

وكانت أقدم هذه الدول ***مملكة معين*** والتي قامت في منطقة الجوف الجنوبية، وعاصمتها كانت تسمى " قرنا" وتقع شمال سد مأرب، وورد ذكر هؤلاء باسم "المعونيين" في الكتابات اليهودية القديمة، وكذلك عند استرابون في ق ١ قبل الميلاد، وكانت هذه المملكة ذات قوة وثراء، وتشير المصادر إلى أسماء ٢٦ ملكاً معينياً وردوا في النقوش الأثرية، ويمثلون عدة أسر توالت على حكم معين، وكان المُلك ينتقل بينهم بالتوارث، وكان لكل ملك لقب خاص بالإضافة إلى اسمه، أما الكهنة ورجال الدين فأطلق على الواحد منهم اسم "مزواد" أو "مسود"، ونلاحظ أن النقوش التى وردت فيها أسماء الملوك لا يرد فيها ذكر لسلطة رجال الدين الأمر الذي يشير إلى أن عهد سيطرتهم على الشؤون السياسية كان قد انتهى منذ زمن، وتنقسم المملكة إلى عدة ولايات على كل ولاية والي يعرف باسم "كبير" يتولى الحكم بإذن الملك ورئيس الكهان لفترة محدودة وكانوا يعبدون الأوثان، ومن أشهر آلهتهم عشتر، وود، وشمس والتي احتلت مكانة هامة لدى الشعب المعيني الذي اعتاد الحج إلى معابدهم.

أما نطاق سيطرة مملكة معين فقد امتد لسواحل الخليج العربي والبحر المتوسط، وفي الجزء الشمالي من طريق اليمن التجاري الواصل إلى فلسطين وميناء غزة أقامت معين عدة مستوطنات ربما كانت نقاطاً عسكرية أو محطات

---

(١) علي أكبر فياض، المرجع السابق، ص٢٣.

تجارية منها العُلا، ومدين، ومعان، وتيماء، وتذكر بعض المصادر أن ميناء غزة كانت تحت السيطرة المعينية، وتم العثور على آثار لتجار من معين في مصر واليونان، ومن خلال ملاحظة التشابه بين أهالي معين وأهالي بابل في الأسماء الشخصية وأسماء الآلهة وبعض العادات الاجتماعية يرجح بعض العلماء أن أصول المعينيين من أراضي العراق وقد هاجروا من هناك إلى مواطنهم الجنوبية هذه، وكان يعاصر دولة معين مملكتان جنوبيتان أخريان، إحداهما حضرموت وكانت قائمة في نفس المنطقة التي تعرف حتى الآن بذات الاسم، والثانية دولة قتبان وكانت تقع في الجنوب الغربي من اليمن بجوار حضر موت وكانت عاصمتهما تدعي "تمنع" وتقع جنوب شرق سد مأرب قرب المنطقة المعروفة الآن باسم كحلان "كهلان".

مملكة سبأ:

وفيما بين أراضي هذه الممالك الجنوبية الثلاث (معين - حضرموت - قتبان) وفي أزمانها، عاشت أقوام آخرين باسم سبأ، وبالتعاون مع الحميريين قاموا بتأسيس أكبر دولة في جنوب شبه الجزيرة العربية وهي دولة أو مملكة سبأ... والتي يرجع بداية تأسيسها إلى ق ٨ قبل الميلاد، وامتد عمر لاحقتها حمير إلى ق ٦ الميلادي أي إلى قرب ظهور الإسلام، وهذا التاريخ الطويل للدولة كان مليئاً بالحروب الداخلية بغرض التوسع، وحروب خارجية بهدف صد المغيرين من الأجانب كالأحباش والرومان، علاوة على أوضاع اجتماعية مليئة بالتفاصيل منها بناء سد مأرب وانهياره، وهجرة أقوام من الجنوب للشمال.. هذه الدولة التي بدأت بالسبأيين وانتهت بالحميريين قطعت أربع مراحل عبر فترة زمنية امتدت لحوالي ألف وأربعمائة سنة، واتخذت خلالها ٤ عواصم متتالية، وكانت ترتبط في كل مرحلة منها بواقعة تاريخية هامة لها أثر واضح على تطورها.

فالمرحلة الأولى تمتد من بداية قيام سبأ إلى حوالي ٥٥٠ق م، وفيها كانت السلطة في يد رجال الدين (المكاربة) وكانت عاصمة الدولة صرواح (شرق صنعاء الحالية)، ومن خلال النقوش تم التعرف على أسماء خمسة عشر مكرباً تناوبوا على حكم سبأ في هذه الفترة، ونلاحظ على هذه الأسماء وجود أكثر من اسم مكرر منها (يا يتعمر) وكان أحدهم يحكم في أواخر ق ٨ قبل الميلاد وهو الذي شيد مأرب أو هو الذي أتم بناؤه بعد أن كان قد بداه أبوه، ومن المعروف أن هذا السد الذي ورد ذكره في القرآن الكريم يُعد عملاً عملاقاً في هذا العصر حيث حول المنطقة إلى بقعة عامرة تحظى بالثراء، وكان حفيد (يا يتعمر) هذا، ويدعى "كربل وتر" رجلاً قوياً وهو الذي قضى على دولة معين التي تحولت منذ زمنه إلى مجرد إمارة تابعة لسبأ فترة من الزمن.

وبعد عصر " كربل وتر" **يبدأ عصر الملوك أو الفترة الثانية** من فترات مملكة سبأ وانتقلت فيها العاصمة إلى ***مدينة مارب***، وافتقدت سبأ في هذه المرحلة سمة الحكم المركزي، وصار الأمراء المحليون أشبه بحكام مستقلين كل في ولايته، وتعددت التحديات أمام السلطة المركزية للدولة السبأية، فرأينا العديد من هؤلاء الأمراء يحكمون إلى جانب الملوك كل في منطقته فيقوم على سبيل المثال شيخ قبيلة همدان وهي من القبائل الكبرى بإدعاء الأحقية في الحكم ضد الأسرة الملكية الأصلية فيجلس على عرشها بمساعدة أحباش اليمن والحضارمة، وبنجاحه في ضم أراضي قتبان إلى سلطانه وكان يسكنها قوم يعرفون بريدان، صار يعرف " بملك سبأ وذي ريدان"، إلى أن قام ملوك الأسرة الأصلية بسحق آل همدان واسترداد ملكهم فخصوا أنفسهم باللقب السابق.

أما المرحلة الثالثة والتي تبدأ من ١١٥قبل الميلاد إلى حوالي ٢٨١م، ففيها عاد اسم الدولة مرة أخرى ليصبح "سبأ وذي ريدان" ، إلا أن السلطة انسحبت تدريجياً من السبئيين لتستقر في أيدي الحميريين، كما انتقلت العاصمة أيضا من ***مارب إلى ظفار*** حيث مركز القبائل الحميرية، وفي هذه المرحلة حدث الغزو الروماني لجنوب الجزيرة العربية، لطمع الرومان في اليمن وما تحظى به من ثراء زراعي وسيطرة على الطرق التجارية، فخرجت حملة إيليوس جالوس والي مصر الروماني عام ٢٥ق٠م قاصدة أراضي شبه الجزيرة عن طريق ساحل البحر الأحمر وربما دخلتها من ينبع الحالية وسارت باتجاه اليمن عن طريق الحجاز حتى وصلت إلى مأرب وضربت حولها الحصار ولكن جالوس اضطر لفك حصاره بعد عدة أيام لنقص الماء وغادر شبه الجزيرة كلها عائداً إلى مصر بعد أن خرب عدة مدن في حملته هذه.

وتحت سيطرة الحميريين حظيت دولة سبأ وذي ريدان بقوة متميزة نظراً لتمرس الحميريين على القتال، علاوة على تفوقهم العددي على سائر قبائل الجنوب، ***وفي المرحلة الرابعة(٢٨١-٥٢٥م)*** زالت دولت حضرموت على يد الملك الحميري "شمريهرعش" وأصبحت جزءاً من الإمبراطورية الحميرية ليحمل الملك الحميري لقب "ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات" والمقصود بالأخيرة المناطق الواقعة شرق حضر موت وحتى عُمان، ولعل ملوك هذه المرحلة الأخيرة هم الذين عرفوا في المصادر التاريخية العربية باسم التبابعة(مفردها تبع) وامتدت سيادة الدولة في تلك المرحلة إلى الشمال حتى يثرب.

وفي أواسط ق ٤ دخلت المسيحية اليمن وانتشرت بين السكان وأصبحت نجران مركزاً هاماً لتلك الديانة السماوية، لترتبط مناطق انتشار المسيحية باليمن بعلاقات جيدة مع دولة الحبشة المسيحية والإمبراطورية البيزنطية، وإلى جانب

المسيحية كان بدولة حمير تنظيم يهودي أقامة المهاجرون اليهود لليمن منذ القدم وربما من عهد دمار أورشليم، وكان هذا التنظيم بعمل على نشر الديانة اليهودية ... فبدأت الوثنية تتراجع أمام هاتين الديانتين السماويتين.

وفي أوائل ق٦م غزا الأحباش اليمن مجدداً، وفي هذه المرة ظهر أمير يمني يسمى (ذي نواس) هزم الأحباش، وخلع الملك الحميري الموجود ويدعى (ينوف) وتولى الحكم بنفسه ويقال بأنه اعتنق اليهودية واضطهد النصارى عندما سمع باضطهاد بيزنطة لليهود، وعزم على إبادتهم وهو ما ورد ذكره في قصة أصحاب الأخدود بالقرآن الكريم، كذلك قام بقتل التجار البيزنطيين القاصدين اليمن متبعاً بذلك سياسة التشدد العملي ضد الروم وحلفائهم الأحباش. ثم ظهر أمير يمني من نسل "ينوف" يدعى "سميقع" وربما كان يدين بالمسيحية فأعلن ثورته على ذي نواس وطلب العون من الحبشة، في نفس الوقت غضبت بيزنطة مما حدث لتجارها علاوة على غضبها من اليمن لعلاقته الطيبة مع عدوتهم فارس، فحَرَّض نجاشي الحبشة على غزو اليمن، فجرد ملك الحبشة عام ٥٢٦م جيشاً لليمن تحت قيادة أرياط، الذى نجح في إيقاع الهزيمة بذي نواس وقتله وقاموا بتنصيب "سميقع" ملكاً على اليمن، بينما اختار أرياط ومساعده أبرهة الإقامة كل في منطقة ما مع جيشه، ثم انقلب أبرهة على قائده وخلع سميقع عن العرش، وتولى هو ملك اليمن، وبعده تولى حكم اليمن ولداه أكسوم ثم مسروق وامتد حكمهما قرابة ٥٠ عاماً، وفي حدود ٥٧٠م استمد أحد الأمراء الحميريين ويدعى سيف بن ذي يزن العون من فارس وعاد بصحبته جيش فارسي بقيادة " بهروز" فقتل مسروقاً الحبشي وطرد الأحباش ونَصَّب ذي يزن نفسه ملكاً عليها، ولم يمر وقت طويل حتى اغتيل على يد خدمه من الأحباش ويقال أن ذلك تم بتحريض من فارس، لتقع اليمن تحت السيطرة المباشرة للفرس الذين ظلوا يحكمون البلاد بمساعدة الزعماء المحليين "الأقيال" حتى ظهور الإسلام، وجدير بالذكر أن اختلاط الفرس باليمنيين نتج عنه جيل جديد أطلق عليه اسم الأبناء والذين تكرر ذكرهم مراراً في العصر الإسلامي.

وفي أواخر حكم الأحباش لليمن شهدت البلاد عدة وقائع منها انهيار سد مأرب والذي انهار تقريباً فيا بين سنوات ٥٤٢، ٥٧٠م على أثر "سيل العرم" ؛ لتتخرب بذلك أجزاء كبيرة من اليمن ويترتب على ذلك هجرة الكثير من السكان إلى مناطق أخرى.

ولعل من الحقائق التاريخية التي توافرت لنا في عهد سبأ وحمير أن اليمن كانت مقسمة إلى أقاليم يعرف كل إقليم منها باسم "محفد" ويضم كل محفد عدة قلاع تنتمي إلى أمير تسمى القلعة بإسمه مسبوقاً بكلمة "ذو " فيقال ذو غمدان أي قلعة غمدان، ومن مجموع عدة محافد والقرى التابعة لها تتكون منطقة تعرف بالمخلاف

ويسمى أمير المخلاف "قيل" ويتخذ اسم كل مخلاف من محفد أو قصر يسكنه القيل نفسه، وكان أمراء سبأ وحمير يرتدون الملابس الفاخرة والزينات المترفة ويعيشون في قصور فخمة، ويأكلون ويشربون في أوان من الذهب والفضة،واشتهر في التاريخ الخط الحميري المعروف بالخط المسند وتسمى لغتهم بالحميرية او السبئية وهي أقرب للغة الحبشية من اللغة العربية الشمالية .

ممالك شمال شبه الجزيرة العربية:

نلحظ وجود فروق كبيرة عند دراسة تاريخ شمال الجزيرة مقارنة بجنوبها، فعلى خلاف الجزء الجنوبي الذي تحيط به المياه من ثلاثة جوانب مما يجعلها مغلقة، نجد شمال شبه الجزيرة يجاور بادية الشام وبالتالي يجاور العديد من شعوب الدول القديمة في الشام والعراق ومصر مما جعل الشمال أكثر حركة لكونه ممراً للقوافل التجارية ومعبراً للهجرات والغزوات العسكرية، ومن ثم فقد قامت فيه عدة دول وممالك عربية مستقلة لعبت أدواراً رئيسة في تاريخ الجزيرة العربية مثل **دولة الحيرة.** وكانت تقع على ضفاف الفرات، **ودولة تدمر** في حلب **ودولة كِندة** في دومة الجندل (الجوف الشمالية حاليا)، **ودولة الغساسنة** في الشام وغيرها.

ولعل الآثار والنقوش التي اكتشفت في هذه المناطق توضح لنا أنه بعد انهيار سد مأرب في اليمن شاع النزوح من الجنوب إلى الشمال فاستقرت بعض هذه القبائل في تلك البقاع السابقة واتخذتها موطناً لها، وفيما يلي سنوجز الحديث عن بعض هذه الممالك الشمالية.

دولة الحيرة (اللخميون):

قامت على الطريق التجارية الشمالية ثلاث دول هي الحيرة، والغساسنة، وكندة، وكلها في الأصل عبارة عن قبائل من المهاجرين الجنوبيين النازحين للشمال سواء بغرض التجارة أو في أعقاب انهيار سد مارب حسب الإخباريون العرب، وقامت هذه القبائل بتأسيس دول ظل بعضها قائماً حتى ظهور الإسلام، وكانت هذه الدول ذات سمات عربية واضحة، ويتضح ذلك على سبيل المثال من النقوش التي تم الكشف عنها في أراضي "لخم" حيث كانت اللغة المتداولة عندهم أقرب إلى لغة أهل الحجاز، اتضح وجود صلات وعلاقات متعددة بين هذه الدويلات وبين العرب البدو الشماليين، مثال ذلك نزول شعراء البادية ضيوفا شبه دائمين على بلاط ملوك الحيرة والغساسنة ينظمون القصائد في مديحهم.

ومن خلال الروايات التي ساقها الإخباريون العرب نستطيع القول بأن هذه الدويلات كانت شبه متحضرة وشبه مستقلة، وكانت كل واحدة تتبع واحدة من الدول

الكبرى المجاورة وتعد أداة في يدها، فكان اللخميون تابعين للفرس، والغساسنة تابعين للروم يساعدونهما في الحروب وينعمون بحمايتهما، وفي أوقات السلم بين الدول الكبرى تشغل هذه الدويلات بالحروب فيما بينها أو بالإغارة على سكان البادية أو بصد غاراتهم المتعددة.

وكانت الحيرة عاصمة تلك الدولة وهي مدينة جنوب الكوفة حالياً، والحيرة في السريانية معناها القلعة أو الحصن، وكانت هذه المنطقة فاصلة بين أراضي العراق وبادية الشام وكان سكانها من مختلف قبائل العرب شمالية وجنوبية، وفي أواسط القرن الثالث الميلادى كان على رأس هذه الإمارة رجل من قبائل الجنوب يدعى جذيمة الأبرش وقد دخل في حروب مع زنوبيا ملكة تدمر، وفي النهاية سقط أسيراً في يدها فقتلته في عام ٢٧٠م، وتولى حكم الإمارة من بعده ابن أخته عمرو بن عدي بن نصر من قبيلة لخم وبه بدأت سلسلة ملوك اللخميين المعروفين باسم المناذرة واستمروا في الإمارة حتى عام ٦٠٢م تقريباً.

وقد ظهرت المسيحية في الحيرة حوالي ق٤م وانتشرت تدريجياً بين أهلها، إلا أن ملوك الحيرة كانوا يكبحون الميل إليها مراعاة للبلاط الفارسي المزدكي (المجوسي) الذي كان يناهض المسيحية، وظل هذا الأمر قائماً حتى أعلن النعمان بن المنذر اعتناقه لها في أواخر ق٦م منتهزاً فرصة السلام القائم بين بيزنطة وفارس لتنتشر المسيحية في أرجاء فارس حتى أن إحدى زوجات كسرى قد اعتنقتها وفرضت حمايتها على أتباعها.

هذا وقد مثلت دولة الحيرة حاجزاً يحول بين بلاد الفرس المسيطرة على أراض العراق وبين عرب البادية، وكانت بمثابة نقطة حراسة أيضاً في مواجهة دولة الروم، ولذا كان أمر حمايتها والإبقاء عليها موضع اهتمام دولة الفرس والتى استمدت بالإضافة إلى ذلك من الحيرة عوناً كبيراً في حروبها ضد الروم، الأمر الذي جعل تاريخ الحيرة وملوكها يرتبط بشكل واضح بتاريخ دولة الساسانيين.

أما عن أشهر ملوك الحيرة فيأتي ***امرؤ القيس*** الأول على رأسهم والذي عثر على قبره في "نمارة" بحوران الشرقية، وعلى قبره نقش يُعد من الناحية التاريخية ومن ناحية الخط واللغة وثيقة هامة. ومن كبار ملوكهم أيضاً النعمان الأول بن امرؤ القيس، والذي ينسب إليه قصر الخورنق وأسطورة سنمار الشهيرة المتعلقة به، ومن مشاهير ملوك هذه الدولة أيضاً ***المنذر بن ماء السماء*** وتولى حكم الحيرة في أوائل ق٦م، وكان مرتبطاً ارتباطاً شديداً بدولة الفرس وتحالف معها عسكرياً ضد الروم والغساسنة، ولقي مصرعه في واحدة من تلك الحروب ضد الغساسنة عام ٥٥٤م، أما آخر ملوك الحيرة فهو ***النعمان بن المنذر*** الذي تردد اسمه

كثيراً في قصائد الشعراء العرب الذين قصدوا بلاطه وقاموا بمدحه، وفي حوالي عام ٦٠٢م أرسل ملك فارس خسرو برويز إلى النعمان يطلب منه المثول في بلاطه، حيث اعتقله فترة من الوقت وبعدها قتله تحت أقدام الفيلة في رواية، وفي رواية أخرى أنه مات بالطاعون، وقام خسرو بعد موت النعمان بتولية أمير عربي من قبيلة طئ يدعى إياس بن قبيصة على عرش الحيرة تحت الوصاية الفارسية، وبعد حوالي تسع سنوات قام خسرو بضم الحيرة إلى بلاده بصفة نهائية وعَيَّن عليها حاكماً فارسياً، وما زاد الأمر سوءاً أنه بعد وفاة النعمان أرسل خسرو يطالب بالأموال التي كانت للنعمان عند بني شيبان والتي أودعها عندهم على سبيل الأمانة أثناء توجهه لفارس، فرفض بنو شيبان تسليم الأموال لكسرى فأعلن الحرب عليهم، ونجح العرب في توحيد صفوفهم وإنزال الهزيمة بالفرس وهي الهزيمة التي كشفت عن ضعف دولة فارس، وعرفت هذه المعركة في التاريخ العربي باسم يوم ذي قار وهو موقع قريب من مدينة الكوفة، لينتشر الخبر في أرجاء شبه الجزيرة العربية لتصبح هذه الموقعة منطلقاً لقيام العرب بإرسال جيوشهم لفتح فارس في العصر الإسلامي.

وفي بداية خلافة أبو بكر الصديق (ﷺ) وأثناء حروب الردة، أعلن أحد أبناء النعمان الثورة على الفرس في الحيرة، وتولى زعامة العرب المرتدين هناك، ولكن ما لبث أن لقي مصرعه على يد جيوش الخلافة الإسلامية لتصبح الحيرة تابعة للدولة العربية الإسلامية.

دولة الغساسنة:

قامت هذه الدولة في شمال شبه الجزيرة العربية في منطقة حوران قريباً من ممتلكات الدولة البيزنطية، وكان لهذه الدويلة نفس الوضع والدور الذي كان لمملكة الحيرة مع الدولة الساسانية، وكان ملوك الغساسنة يلقبون من قبل بيزنطة بلقب (بطريق)، ويحصلون على رواتب سنوية من الروم.

أما عن أصل الغساسنة فتشير الروايات العربية إلى أن أصولهم من عرب الجنوب، وعند نزوحهم من الجنوب أقاموا لفترة في تهامة قرب عين ماء يقال لها غسان فصاروا ينتسبون إليها، ثم قاموا بهجرتهم الثانية في ق٥م حيث انتقلوا من تهامة إلى حوران الخاضعة في ذلك الوقت لطائفة من العرب تدعى الضجاعمة وكانوا حلفاء للروم، ثم دب الضعف بينهم في أوائل ق٦م لتنهار دويلتهم في حوران، ويقوم البيزنطيون بتنصيب رجلاً من غسان على حكم حوران يسمى الحارث بن جبلة عام ٥٢٩م، ليصبح حكم المنطقة متوارثاً في نسله، وكان العرب ينسبون هذه السلسلة من حكام الغساسنة إلى اسم جد الحارث وهو آل جفنه.

ويعد الحارث بن جبلة من أكبر ملوك الغساسنة، وله حملات شهيرة إلى جانب الروم ضد الفرس وحلفائهم من ملوك الحيرة، وتردد اسمه كثيراً على ألسنة الشعراء ومن هذه الأشعار مَعلَّقة الحارث بن حِلِّزة، وبعد الحارث تولى ولده المنذر الحكم لمدة ١٣ عاماً... ثم غضب عليه الروم فقاموا بخلعه ونفيه إلى جزيرة صقلية حيث مات هناك، ولعل سبب غضبة الروم عليه ترجع لمسألة دينية تتعلق بمذهب الغساسنة وهو المذهب اليعقوبي الذي تعارضه بيزنطة.

وبعد المنذر ثار أبناؤه الأربعة بقيادة أكبرهم النعمان على الروم ونقلوا مقرهم من حوران للبادية ومنها انطلقوا لمهاجمة الممتلكات الرومية، ولكن نجح الروم في القبض على النعمان وسيق أسيراً للقسطنطينية حيث سُجن .. ليتوقف ذكر تلك الدويلة في المصادر التاريخية، وأثناء الفتوحات الإسلامية يتواتر الحديث من جديد عن أمير غساني يدعى جبلة بن الأيهم كان ضمن جيوش الروم وقاتل ضد المسلمين ثم اعتنق الإسلام وبعدها ارتد إلى المسيحية، وهناك أيضاً خبر عن حرب خالد بن الوليد ضد أمير غساني آخر يدعى الحارث بن الأيهم، والراجح أن دولة الغساسنة قد تقوضت أركانها في أعقاب موت النعمان السابق ذكره ولم يتبق من أسرة الغساسنة سوى بعض الأمراء الصغار الذين ولوا على أماكن متفرقة، ويؤكد ذلك ابن العبري بقوله أن الغساسنة بعد زوال دولتهم تفرقوا ورحلوا إلى المناطق المحيطة، وظل عدد منهم في الموصل والعراق حتى عهد ابن العبري (ق٧هـ/١٣م)، وقد ظلوا ثابتين على المسيحية على المذهب اليعقوبي.

دولة الأنباط:

وقامت دولتهم في الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية، والأنباط أصولهم سامية، وكان مركز دولتهم مدينة البتراء، وفرضوا سيطرتهم على الطريق التجاري الشمالي الممتد من الخليج العربي إلى البحر المتوسط، وعن أصولهم السامية اختلف المؤرخون، فيقول البعض بأنهم من أصل عربي، بينما يقول فريق ثان أنهم لم يكونوا عرباً ويطلقون عليهم اسم الآراميين، وكان خطهم ولغتهم آرامية، بينما يجمع فريق ثالث بين الرأيين قائلاً بأن الأنباط في أوائل عهدهم عندما وردوا إلى تلك المنطقة كانوا آراميين صرحاء، وبعد استقرارهم بشمال الحجاز اختلطوا بالعرب فظهر جيل جديد هو أنباط العرب، ويعتبر البعض أن لفظ نبطي مشتق من اسم بنايوت (بنايوط) بن إسماعيل الوارد ذكره في التوراة ويرون أن هذا الشعب من نسله.

أما *البتراء* عاصمة الأنباط فكانت نقطة التقاء الطرق التجارية لشمال وجنوب الجزيرة العربية وتقع على رأس طريق الشام - مصر، ورغم وقوعها في

منطقة جبلية جافة تفتقر إلى سبل الحياة ، إلا أنها حظيت بتجارة مزدهرة وانتجعها الناس بفضل موقعها التجاري، ونظراً لاتصال الأنباط بالرومان، فقد اتخذت دولتهم وعاصمتهم لوناً حضارياً أوروبياً تدل عليه آثارها الباقية حتى اليوم، ويربط البعض بينها وبين اسم "الرقيم" الوارد في القرآن الكريم.

وقد ورد ذكر الأنباط في النقوش الأشورية عند الحديث عن الحروب بين أشور والأنباط، كما ورد ذكرهم عند ديودور الصقلي الذي يذكر أن انتيجون خليفة الإسكندر في مقدونيا قام بغزو البتراء مرتين ولكنه فشل في فتحها فاضطر لعقد الصلح معها، لتحظى البتراء بمكانة عظيمة منذ ذلك الوقت، وتبدأ في التوسع والفتوحات حتى يصل نفوذها شمالاً حتى دمشق وجنوباً حتى صحراء الحجاز الشمالية، وغرباً نحو الدلتا المصرية منتهزة فرصة ضعف الدولة السلوقية، وقد أمدتنا النقوش الأشورية بأسماء ١٣ ملكاً نبطياً من بينهم الحارث الثالث الذي تمت التوسعات السابقة في عهده، ومعروف عنه في المصادر الإغريقية بأنه كان صديقاً ومحباً للإغريق[١].

مملكة تدمر:

تعد دولة تدمر من أكبر الدول التي قامت في الجزء الشمالي من شبه الجزيرة وكانت في البداية مجرد واحة ببادية الشام شرق دمشق تقع على الطريق التجاري الشمالي.

وفي أواخر ق الأول الميلادى صارت دولة مستقلة، وتدريجياً خضعت لحماية الرومان ودارت في فلك الدولة الرومانية لكونها من المناطق التي أدخلها الإمبراطور تراجان في الكورة العربية الرومانية عام ١٠٦م، وينهض دليلاً على ذلك ما قام بها من تنظيمات إدارية تشبه نظام المدن الإغريقية، وأثناء حروب الفرس والرومان نالت مكانة عسكرية عالية لفتت أنظار الرومان، وقدم شعب تدمر المعونة العسكرية والاقتصادية للدولة الرومانية في هذه الحروب، ومقابل ذلك صار للتدمريين نفس حقوق مواطني روما أي اكتسبوا صفة المواطنة الرومانية[٢]، وأسبغ أباطرة الرومان على أعيان تدمر الرتب والألقاب الرومانية، فكان الحاكم يلقب

---

[١] سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام، ص١٥٧-١٦٤ وما بعدها، وقد سقطت تدمر وزال استقلال الانباط إثر حملة الإمبراطور تراجان التي أنفذها من سوريا إلى البتراء عام ١٠٦م، لتدمج هذه المملكة في الكورة العربية الرومانية والتي صارت بُصري عاصمة لها لترث تلك المدينة البتراء اقتصاديا وسياسياً... راجع :سالم: نفسه، ص ١٦٧.

[٢] مثل حق الملكية المطلق، الحرية الكاملة في إدارة سياسة المدينة، حق إعفاء تجارتهم من الضرائب.

بالرئيس التدمري، ثم أقر الرومان عليهم نظام حكم وراثي تتولاه أسرة واحدة، واتخذ هؤلاء الحكام لأنفسهم ألقاباً رومانية منها لقب "القنصل" [1].

وفي عهد شابور الأول الساساني إنحاز "أذينة الثاني" حاكم تدمر إلى الرومان رغم انتصار شابور على الإمبراطور الروماني فاليريان، فهاجم أذينة الثاني الفرس وطردهم من آسيا الصغرى والشام وغيرها، وعاد بالغنائم والأسرى من الفرس وأرسلهم إلى الإمبراطور الروماني الجديد (جالينيوس بن فاليريانوس) عام ٢٦٤م، وفي مقابل ذلك أسبغ عليه الرومان بلقب حاكم المشرق وولي عهد الإمبراطور، وبمقتضى ذلك أصبح أذينة ملكاً على الشام وشمال الجزيرة العربية وأرمينيا وغيرها، ومنحه مجلس الشيوخ الروماني لقب أوغسطس وهو لقب أباطرة الرومان[3].

ثم تم اغتيال أذينة على يد ابن أخيه في حمص أثناء إعداده لحملة أخرى ضد الفرس[4]، ليتولى الحكم من بعده ابنه وهب اللات تحت وصاية أمه زنوبيا، وفي هذا الوقت كان الاضطرابات قد بدأ في الدولة الرومانية فاستغلت زنوبيا الفرصة وهاجمت آسيا الصغرى وانتزعتها من سيطرة الرومان وضمتها لدولتها كما سيطرت على مصر أيضاً، وقامت بوضع اسمها واسم ولدها على العملة وتلقبت وولدها بألقاب الملوك، مما أدى لغضب الرومان فاستعد أورليان قيصر روما لسحق التدمريين، فاستولى على آسيا الصغرى ومصر بالتدريج ثم عاد لتدمر وضرب عليها الحصار، فرحلت زنوبيا وولدها عنها طالبة العون من الفرس، ولكن أسرهما الرومان قرب الفرات، واصطحبهما الإمبراطور معه إلى روما، وأثناء عودته ثار أهل تدمر ضد الحامية الرومانية فعاد الإمبراطور. وقام بتدمير المدينة عام ٢٧٢م لتفقد المدينة عظمتها القديمة إلى الأبد. أما زنوبيا وولدها فقضيا ما تبقى من عمرهما في المنفى قرب روما ووافتهما المنية هناك.

وتُعد زنوبيا واحدة من أشهر ملكات الشرق رويت عنها القصص وكانت أشبه بأبطال التاريخ منها إلى النساء، وكان بلاطها أشبه بملوك الفرس من حيث الأبهة والعظمة، وفي جيشها كانت أقرب في تصرفاتها من القادة الإغريق والرومان، بالإضافة إلى جمالها الأخاذ.

أما عن أصل التدمريين وهل هم عرباً أم آراميين فالأمر موضع خلاف بين العلماء، والقدر المتفق عليه في الشأن هو أن نقوش تدمر كتبت بلغة وخط آرامي مع

---

[2] سالم: نفسه، ص١٧٥-١٧٧.

[3] سالم : نفسه، ص١٧٨.

[4] سالم : نفسه، ص١٧٩.

وجود ألفاظ يونانية ولاتينية ممتزجة باللغة الآرامية، وبقيت من آثار تدمر أطلال معبد ومقبرة في المكان الذي لا يزال يعرف بذات الاسم "تدمر"، ونلاحظ من هذه الآثار تأثر المباني التدمرية بطرز البناء الإغريقي.[1]

كانت هذه الممالك أهم المراكز الحضارية التي قامت في شمال شبه الجزيرة العربية، وكانت تعد مجتمعات متقدمة نسبياً وبلغت في تطورها السياسي والإداري مرحلة الدولة، وإلى جانبها في الشمال أيضا قامت مراكز أخرى لمجتمعات حضرية مستقرة ولكنها لم تصل لمرحلة الدولة، من بينها مكة، ويثرب والطائف وغيرها.

٣- حواضر الحجاز قبل الإسلام:

أ- مكة: وتقع ضمن منطقة تهامة في واد منبسط ضيق يأخذ شكل هلال بين جبلي أبي قبيس وقيقعان وهو واد تحيط به الجبال من كل جانب فتكاد تحجبه إلا من ثلاثة منافذ أحدهما يصله بطريق اليمن، والثاني يصله بطريق مؤد إلى البحر الأحمر وينتهي عند مرفأ جدة، بينما يصل الثالث بالطريق المؤدية إلى فلسطين، ويتميز مناخ هذا الوادي بالجفاف والحرارة العالية، ويستمد ماؤه من آبار تستجمع مياهها بدورها من أمطار الشتاء والربيع والتى تسقط أحيانا على شكل سيول غزيرة تتدفق من الجبلين المحيطين إلى قلب الوادي، ولذا فقد أقام الأهالي مصدات للسيول منذ القدم في الجبل بهدف حماية الكعبة والتي تضررت مراراً من هذه السيول، وآثار هذه المصدات كانت لا تزال باقية حتى وقت قريب مضي وفي قاع الوادى والمسمي البطحاء تقع الكعبة، و المسجد الحرام، ثم تمتد منازل الأهالي حتى سفوح الجبال. وترجع أهمية هذه المدينة في العهود القديمة إلى موقعها على الطريق التجارى الممتد من اليمن إلى الشام ومصر، وقد زاد وجود الكعبة من أهمية المدينة فصارت منذ الجاهلية مزاراً دينياً ومطافاً للعرب، ولذا نلاحظ عبر الحقب التاريخية المختلفة أن القبائل العربية على اختلافها كانت تتقاتل من أجل بسط السيطرة عليها، ومن هذه الطوائف العربية آل جرهم، وخزاعة، وأخيرا قريش التي نجحت في بسط نفوذها على مكة بصورة مستقلة واستمرت سيطرتها قائمة عليها حتى ظهور الإسلام.

اشتقاق اسم مكة في الروايات المختلفة:

اختلف الإخباريون العرب في معنى اسم مكة، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى فمنهم من قال:

---

[1] راجع عن حضارة التدمريين وآثارهم : سالم: .نمرجع السابق، ص ١٨٨-١٩٠؛ جواد على: المرجع السابق، ج٣/٧٦-٨١، ١٢٩.

١- "سُميت مكة لأنها تَمُكُّ الجبَارين أي تذهب نخوتهم "[١].
٢- ويقال أنها سميت مكة "لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمك فيه أن نصفر صفير المكّاء حول الكعبة، وفكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا كانوا بها، والمكّاء طائر يأوي الرياض [٢]. والمُكَاء الصفير فكأنهم كانوا يحاكون بالصفير صوت المكاء[٣].
٣- وقال قوم : سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها، وهي في هبطة بمنزلة المكوك "،والمكوك لفظ عربي أو معرب ورد في أشعار العرب فقال الأعشى:والمكاكي والصِّحاف من الفضة٠ ٠والضامرات تحت الرجال .
٤- ويرى ياقوت في معجمه إنما سميت مكة من "مَكَّ" الثدي أي مصه لقلة مائها لأنهم كانوا يمتكون الماء: أي يستخرجونه، وقيل أنها تمك الذنوب، أي تذهب بها كما يَمُك الفصيل ضرع أمه فلا يبقى فيه شيئا. وقيل سميت مكة لأنها تمك من ظلم أي تنقصه وينشد قول بعضهم :

يا مكة الفاجرَ مكي مَكّا ۞ ولا تمكيّ مَذحِجا وعَكّا

٥- ويذهب علماء اللغة للقول بأنها "سميت مكة" لأنها عُبِدت فيأتونها من جميع الأطراف وذلك من قولهم: أمتك الفصيل أخلاف الناقة أي جذب جميع ما فيها جذباً شديداً فلم يبق فيها شيئاً"[٤]. ولما كانت مكة مكاناً للعبادة فقد امتكت الناس أي جذبتهم من جميع الأطراف.
٦- ويقال أيضا إنما سميت مكةِ "لازدحام الناس بها من قولهم " قد أمتَك الفصيل ضَرْع أمه إذا مصه مصاً شديدا" ، ويعترض ياقوت على هذا التفسير فيقول "غلط في التأويل لا يشبه مص الفصيل الناقة بازدحام الناس، وإنما هما قولان" [٥].
٧- كذلك جاء ذكر مدينة مكة في جغرافية بطليموس تحت اسم ماكورابا MACORABA [٦] ومعناها (مقدس) أو حرم، مما يدل على أن مكة منذ نشأتها كانت مقاماً دينياً ومركزاً للعبادة قبل الإسلام بوقت طويل، ولعل لهذا الاسم ارتباط بالبيت العتيق الذي كان سبباً في شهرتها كعاصمة دينية للعرب في الجاهلية، فكلمة ماكورابا قريبة من "مكرب" التي عرفت بمحافد اليمن زمن دولة سبأ، وهو لقب لكهنة سبأ أصحاب السيطرة الدينية والدنيوية في الدولة،

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، مادة مكة مجلد ٥ ص١٨١-١٨٢.
(٢) ياقوت : نفسه، مادة مكة.
(٣) نفس المصدر .
(٤) ياقوت : نفسه، مجلد٥، ص١٨٢.
(٥) ياقوت : نفس المصدر، مجلد٥ ، ص ١٨٢؛ سالم : المرجع السابق، ص ٣٩٤.
(٦) جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص١٨٨.

وهذا يجعلنا نقول بأن مكة ربما كانت تعني "المقربة" إلى الله لكونها مدينة مقدسة، ويورد بروكلمان تفسيراً آخر بأن مكة مشتقة من مكرب أو مقرب العربية الجنوبية وهو لفظ بمعنى الهيكل [٢]، ويرى آخرون أنها مشتقة من "مك" في البابلية بمعنى البيت[٣]. وورد اسم آخر لمكة في القرآن الكريم هو "بكة" في قوله تعالى في سورة آل عمران[٤] (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين)(٩٦- ٩٧) . ولعل المقصود ببكة أنها موضع البيت ومكة هو موضع القرية[٥]، وقيل سميت "بكة" لأن الأقدام تبك بعضها بعضاً أمام البيت، قيل أن بكة موضع البيت ومكة هو الحرم كله، وينقل ياقوت رواية أخرى عن زيد بن اسلم تفيد بأن بكة هي الكعبة والمسجد، ومكة هي ذو طوي وهو بطن الوادي[٦]. وهو المقصود بقوله تعالى: (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيدكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً)[٧]. ويرى آخرون بأن بكة هي نفسها مكة وأبدلت فيها الميم باء على عادة ولهجة أهل الجنوب ومن هؤلاء الأستاذ جواد علي الذى يعتقد بأن بكة ليست سوى لهجة من لهجات القبائل التى تبدل الميم باء[٨]. ووردت في المصادر العربية أسماء أخرى لمكة، منها الباسة لأنها تبس أي تحطم الملحدين، وقيل تخرجهم، وسميت أيضا بأم القرى[٩]، وسميت أيضا الحاطمة لأنها تحطم من استخف بها، وسميت البيت العتيق لأنه عتق من الجبابرة[١٠]،وسميت أيضا الحرم، وصلاح والبلد الأمين[١١]، كذلك سميت البلد في قوله تعالى : (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ

---

[٢] بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ج١، ص ٣٣. حتى : تاريخ العرب، ص ١٢٤.

[٣] جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص ٢٧٥.

[٤] سورة آل عمران آية ٩٦-٩٧.

[٥] الأرزقي: أخبار مكة، ج١/ ١٨٨. ياقوت: معجم البلدان، مجلد ٥، ١٨٢.

[٦] ياقوت : نفسه.

[٧] القرآن الكريم، سورة الفتح، آية ٢٤.

[٨] جواد علي : المرجع السابق، ج٤، ص ١٨٩.

[٩] في القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) سورة الأنعام آية ٩٢.

[١٠] الأزرقي، نفسه، ج١٨٩/١، وورد الاسم في قوله تعالى (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) سورة الحج آية ٤٩.

[١١] في القرآن الكريم في سورة التين آية ١-٣ : (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأمين)

بَهَذَا البَلَدِ)[١] وسمى الله تعالى الكعبة بالبيت المحرم في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم : (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)[٢]، كما سماها أيضا البيت الحرام في قوله تعالى : (جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيتَ الحَرَامَ قِيَاماً للنَّاسِ وَالشَّهْرَ الحَرَامَ وَالهَدْيَ وَالقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم)[٣] .ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن جميع الأسماء التي أطلقت على مكة تفيد بكونها منذ بداية نشأتها مقاماً دينياً ولهذا لا نستبعد أن يكون اسم مكة كان يعرف باسم مكرب أي مقدس، ثم تحول إلى مكة"[٤].

تاريخ مكة قبل الإسلام :

مكة مدينة قديمة ورد إسمها في العديد من المصادر اليونانية والرومانية وأيضا في روايات الإخباريين العرب، وقد ذكرها بطليموس الإسكندري تحت اسم "ماكورابا" كما سبق القول. ولكننا نعتقد بأنها أقدم عهداً من هذا الجغرافي الذى عاش في القرن الثاني الميلادى، خاصة وأن هناك إشارات لمؤرخين آخرين أقدم عهدا أفادت بوجود عدد من المواضع التي نالت حرمة وقداسة عند عرب الجاهلية، وتقع هذه المواضع في غرب الجزيرة العربية، ورغم أن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا أسماء هذه المواضع، إلا أننا لا نستبعد أن تكون مكة من ضمن هذه المواضع التي قصدها العرب بالزيارة.

وفي ضوء عدم العثور على كتابات موغلة في القدم تشير إلى اسم هذه المدينة قديماً، أو عن تاريخها البعيد، فإنه من العسير علينا معرفة تاريخ قيامها أو تحديد الوقت الذي أصبح فيه هذا المكان حاضرة وبلداً، وأغلب الظن أن هذا يرجع إلى آلاف السنين الماضية. والراجع أن واديها ـ السابق ذكره ـ قد اتخذ من قبل أن تبنى مكة موئلاً لراحة القوافل التجارية العابرة من الشمال والجنوب، بسبب ما كان فيه من عيون الماء، فعلى طول الطرق التجارية عبر الصحراء، وجدت عدة أماكن متفرقة اتخذها المسافرون محطات لراحتهم، ومنها وادي مكة، أما عن أقدم من حكم مكة والحجاز بصفة عامة فطبقا لروايات الإخباريين العرب هم: العمالقة وعليهم السميدع بن لاوي[٥]، وخلفهم بنو جرهم، وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام قد

---

(١) سورة البلد آية ١-٣

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٧

(٣) سورة إبراهيم آية ٣٧.

(٤) سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٧٩.

(٥) ياقوت : نفسه، مادة مكة، ص ١٨٧؛ الأزرقي، أخبار مكة، ج ٤٠/١؛ المسعودي: مروج الذهب ج١٦/٢.

أسكن ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر، وأقام قواعد البيت العتيق بمعاونة ابنه اسماعيل الذي تزوج من جرهم التي كانت منازلهم بمكة وما حولها، وطبقاً لذلك فالقول الراجح أن إسماعيل عليه السلام هو أول من اتخذها مقاماً وسكناً، بعد أن كانت مجرد محطة وسوقاً للقوافل التجارية الذاهبة والآيبة بين الشمال والجنوب، وبعد إسماعيل قام بأمر البيت الحارث بن مضاض الجرهمي، وهو أول من ولى البيت من جرهم التي ظلت تقوم بأمر البيت فترة من الزمن وأبناء إسماعيل مع أخوالهم لا يرون أن ينازعوهم أمر البيت لصلة القرابة والنسب، ثم وفدت خزاعة اليمنية المهاجرة من اليمن لمكة ، فنزلوا بظاهر مكة، وهزموا الجرهميين وطردوهم منها فتفرقت جُرهم ومعها أبناء إسماعيل حول مكة وفي تهامة، وآل أمر الإشراف على البيت إلى خزاعةبقيادة عمرو بن لحي الذي غَير دُين إبراهيم عليه السلام وبَّدله بعبادة الأوثان، حيث ذكرت المصادر أنه عمل على تنشيط الحج إلى مكة بعد أن تدهور حالها بسبب ظلم جُرهم واعتداءاتها على القوافل والتجار وإهمال بئر زمزم فطمر، فأخذ يقيم موائد الطعام في موسم الحج، وييسر جلب الماء من الآبار المنبثة حول مكة ، فنال منزلة كبيرة بين قومه والقبائل المحيطة بمكة، كذلك تروي المصادر أنه استحضر معه من البلقاء بالشام أصناماً نصبها حول الكعبة[1] ليُرَغِّب القبائل العربية في القدوم والحج لمكة في ضوء عدم معرفتها بالحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، ووجد عمرو بن لحي استجابة لفعله هذا من القبائل العربية مما يرجح معه أن الحنيفية كان أمرها قد ضعف بين العرب وحتى بين أبناء وأحفاد إسماعيل عليه السلام أنفسهم، وظلت خزاعة تلي أمر البيت، بينما احتفظت مضر بحق الإجازة بالناس من عرفة، والأفاضة بهم غداة النحر إلى منى[2].

ثم تشعبت مضر وبطون كنانة، وصاروا أحياء وبيوتات في ظاهر مكة ، إلى أن تمكن قصي بن كلاب بن مرة من انتزاع ولاية البيت والسيادة على مكة من خزاعة، وإلى قصي يرجع الفضل في جمع قريش وترتيبها على منازلها بمكة[3]، ولذا فتاريخ مكة الحقيقي يبدأ من أيام قصي بن كلاب بن مرة القرشي الذي تولى أمر مكة حوالي منتصف القرن الخامس الميلادى. أما ما قبل ذلك فكلها روايات وصلت إلينا عن طريق الإخباريين العرب والمدة بينهم وبين هذه العهود بعيدة، بعكس الحال بالنسبة لقصي وقريش التي استقرت في مكة ونهضت بها لتجعلها مدينة لها مكانتها الاقتصادية والدينية المتميزة. فقد أصبحت في عهد السيادة القرشية تتمتع بتوجيه عربي عام حتى ظهور الإسلام في أوائل ق٧م، وبين قصي.

---

[1] ابن هشام : السيرة ج٧٩/١. اليعقوبي: ج٢١١/١؛ الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج٢، ص٨٠.

[2] المسعودى ، نفسه ج٥٧/٢..

[3] المسعودى ، نفسه ج٥٩/٢.

وبداية البعثة النبوية مدة لا تزيد عن ١٥٠ عاما، وهي مدة كانت أحوال قريش فيها متصلة بمكة ولا يمكن نسيان أحداثها، في ضوء ما نعرفه عن قوة الذاكرة العربية.

وقبل المضي في سرد موجز لتاريخ مكة، نلقي الضوء على اسم قريش، والذي لم يصل فيه الباحثون إلى رأي حاسم، فالطبري على سبيل المثال يقول بأنه صفة أطلقت على بعض زعمائها الأولين مثل النضر بن كنانة، وقيل إنما سميت قريش قريشاً بدابة في البحر تدعي القرش فشُبّه بنو النضير بن كنانة بها لأنها أعظم دواب البحر قوة، وقيل أن النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس فيسدها بماله. والقرش فيما زعموا التفتيش فكان بنوه يقرّشون أهل الموسم عن الحاجة فيسدونها بما يبلغهم، وقيل أن النضر بن كنانة كان اسمه قريشا، وقيل: لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بني النضر حتى جمعهم قصي بن كلاب فقيل لهم قريش من أجل أن التجمع هو التقرش فقال العرب: تقرّشت بنو النضر أي تجمّعوا[1].

وفي لسان العرب[2]" وقريش دابة في البحر لا تدع دابة إلا أكلتها... فجميع الدواب تخافها، وقريش قبيلة سيدنا محمد ﷺ، أبوهم النضر بن كنانة بن خزيمة، فكل من كان ولد النضر فهو قريشي ... ونفس المعنى ورد في حديث ابن عباس في ذكر قريش قال: هي دابة تسكن البحر تأكل دوابه. وقال الشاعر

وقريش هي التي تسكن البحر ۞ بها سُميت قريش قريشاً

وقيل سميت بذلك لتقرشها، أي تجمعها إلى مكة من حواليها بعد تفرقها في البلاد حين غلب عليها قصي بن كلاب، وبه سمي قصي مجمعا، وقيل سميت بذلك لأنهم كانوا أهل تجارة، ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع من قولهم: فلان يتقرش المال أي يجمعه.

وبعد أن ألقينا الضوء على اسم قريش وسبب إطلاقه نعود للحديث عن تاريخ مكة وهذا يؤدي بنا بالضرورة للحديث عن قصي بن كلاب، والذى يبدأ تاريخ مكة الحقيقي - كما أسلفنا - من أيامه، عندما تولى السيادة عليها فى منتصف القرن ٥م.

وعن مولد قصي تفيد الروايات بأن أمه تزوجت رجلا من بني عذرة بعد وفاة " والده كلاب بن مرة" وحملها العذري إلى مضارب قبيلته ببادية الشام ومعها ولدها"زيد" وكان طفلاً ولُقب بقصي وشاع هذا اللقب عليه لبعده عن دار قومه حيث تربى في حجر زوج أمه حتى صار شاباً. ولما علم بحقيقة نسبه عاد إلى قومه واستقر بمكة. وعن ذلك يروى الأزرقي أن قصياً - وكان ... وهو في بادية الشام قد دار حديث بينه وبين رجل من قضاعة الذي قال له " ألا تلحق بنسبك

---

[1] الطبري: تاريخ الطبري، ج١٨٧/٢ وراجع أيضا، مصعب الزبيدي، نسب قريش، ص ١٢.
[2] ابن منظور : بيروت ، دار صادر، ١٩٦٨، مجلد /٣٣٥.

وقومك فإنك لست منا " فرجع إلى أمه يستفسر منها عما قاله القضاعى له، فأعلمته بحقيقة نسبه وأنه خير منه وأكرم، وأنه "إبن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وأن قومه يسكنون عند البيت الحرام وما حوله"، فأجمع قصي أمره على الخروج إلى قومه واللحاق بهم وكره المقام في بادية الشام بأرض قضاعة، وخرج في موسم الحج قاصداً مكة فأقام بها[1]، وتزوج من إبنة زعيم خزاعة وكان يلي الكعبة وأمر مكة وتدعي " حُبَّي بنت حُليل بن سلول الخزاعي"، فولدت له عبد الدار وهو أكبر أولاده، ثم عبد مناف، وعبد العزي، فلما حضرت حُليل الوفاة دعى قصياً وجعل له ولاية البيت المحرم وأسلم إليه المفتاح، فلما مات حُليل رفضت خزاعة أن يلي قصي أمر البيت، فطلب قصي من قومه من قريش وكنانة نصرته فأجابوه[2]، فاجتمع الناس بمكة للقتال مع قصي ضد خزاعة، وكان موسم الحج قد اقترب، وفاوض الحكماء خزاعة في أن تسلم لقصي ما أوصى به حُليل، وعظموا عليهم القتال في الحرم فرضت خزاعة ذلك، فوقع القتال بمنى، ثم تداعوا للصلح والتحكيم فحكم بينهم أحد أشراف كنانة ويدعى "يعمر بن عوف الكناني" فحكم لقصي بحجابة الكعبة وولاية أمر مكة خلفا لحُليل " فتولى قصي حجابة الكعبة وأمر مكة " وجمع قومه من قريش من منازلهم إلى مكة يستعز بهم وتملك عليهم. فكان قصي أول رجل من كنانة يصيب مُلكاً، وأطاعه قومه فكانت إليه الحجابة والرفادة والسقاية، والندوة، واللواء، والقيادة، فحاز بذلك شرف مكة، وأنشأ دار الندوة، وفيها كانت قريش تجتمع لتقضي أمورها، ولم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي إلا من بلغ عمره أربعين سنة للمشورة، وكان يدخلها ولد قصي كلهم وحلفائهم. ومنذ ذلك التاريخ أخذت مكة تمضي قدماً في طريق أو طور الاستقرار والتحضير والتنظيم الإداري والاقتصادي، حتى أصبحت وبحق زعيمة الجزيرة العربية في نهايات ق٦م.

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ج١/١٠٤.

(٢) رتب قصي الأمور ترتيباً متميزاً من أجل أن يكون له حكم مكة وسدانة البيت وهو ترتيب ينم عن دهاء واضح وقوة شخصية، فنجده يتصل سرا بعشائر قريش وبطونها المتفرقة في تهامة وحول مكة، فوحد كلمتها، كما حالف بطون من كنانة وراسل أخاه لأمه من بنى عذره ويدعى " رَزَاح بن ربيعة بن حرام العذري " ليمده بالعون إذا اقتضى الأمر، فلما مات صهره، استولى قصي على مفتاح البيت الحرام وأعلن أحقيته بالولاية بناء على وصية صهره، فلما عارضته خزاعة رافضة أن يلي غيرها مناصب البيت الحرام، استنفر قصي قريش وكنانة، واستمد أخاه فقدم مع رجاله من قضاعة، لينجح قصي بهذا الترتيب في إلحاق الهزيمة بخزاعة وحلفائها من بنى بكر.

الأوضاع السياسية الداخلية لمكة قبل الإسلام.

١ - تنظيمات قصي لإدارة مكة

أ- الوظائف المتعلقة بالبيت الحرام:

تولى قصي بن كلاب حكم مكة طوال حياته، وجعل من دار الندوة مركزا للحكم والإدارة، واهتم بعمارة البيت الحرام، وصارت وظيفة السدانة أو الحجابة أهم تلك الوظائف، كما نظم سفاية الحج، وجعلها وظيفة ثابتة عُرفت باسم "السقاية"، واستمرت هذه الوظيفة من أعظم الوظائف بمكة نظراً لطبيعة مكة وشح المياه بها، فكفالة الماء في هذا البلد الفقير الحار تيسر للحجيج مهمة أداء المناسك والإقبال على الحج بيسر وسهولة، كما فرض على قريش "خَرْجا" تدفعه له لكي يتمكن من توفير الطعام للوافدين على مكة من فقراء الحجيج في موسم الحج، وجعل هذا الفرض أمراً مقرراً وصار وظيفة ثابتة كما سيأتي في شرح وظائف البيت الحرام - عُرفت" بالرفادة" ، كما كان له " كما سبق القول "الرياسة العامة والقيادة واللواء، وبذلك جمع وظائف وإدارات مكة كلها في يده طوال حياته وظل محترما مهاباً مطاعاً أمره بين الناس.

فلما كبر قصي كان ولده عبد الدار أكبر أولاده، أما إبنه الثاني عبد مناف فقد حاز الشرف والمكانة المتميزة في المجتمع المكي في زمن أبيه وشاع ذكره، ولم يبلغ أحد آخر من أولاده مكانة عبد مناف، وكان قصي وزوجه حُبيّ يحبان عبد الدار ويرفقان به لأنه وهو الأكبر لم يبلغ مكانه وشرف عبد مناف، ولذا اجتمع رأيهما على أن يخصا عبد الدار بشيء يزيد من مكانته ويلحقه بأخيه الأصغر منه، وذلك بأن يقسم قصي مناصبه السابقة أو أمور مكة الستة بين ابنيه فأعطى عبد الدار السدانة (الحجابة) ودار الندوة واللواء [1] وأعطى عبد مناف السقاية، والرفادة، والقيادة، وينبغي أن نتحدث عن هذه الوظائف المتعلقة بإدارة مكة والبيت الحرام بشيء من الإيضاح:

---

[1] وظلت بيده حتى مات لتنتقل الحجابة من بعده لولده عثمان، بينما آل أمر دار الندوة لإبنه الثاني ويدعى عبد مناف بن عبد الدار، راجع: الأزرقي أخبار مكة. ج١/٦٢، سالم: المرجع السابق، ص ٣١٦ -٣١٧. والأرجح ما ذكره ابن هشام وهو قيام عبد الدار بجميع مهـ مكة فلما هلك قصي، أجمع بنو عبد مناف على أخذ ما بيد بني عبد الدار لأنهم رأوا انفسهم اولى منهم بذلك لشرفهم عليهم، فانقسمت قريش نتيجة لذلك إلى قسمين أو حزبين واحد على رأسه بنو عبد مناف وحلفائهم من بني أسد وبني زهرة، وبني تيم وبني الحارث، والحزب الآخر برئاسة بني عبد الدار وحلفائهم من بني مخزوم وبنى عدي وبني سهم وآخرين، وأجمع الفريقان على الحرب ثم تداعوا إلى الصلح مقابل التقسيم الوارد بالمتن وظلوا على ذلك حتى ظهور الإسلام. راجع ابن هشام : ج١/١٣٨-١٣٩،سالم :نفسه، ص ٣١٧.

- السدانة:

هي رعاية البيت والقيام على إعداده للزائرين، والسادن[1] هو خادم الكعبة وبيت الأصنام، وجمعها السَّدنة، وكانت السدانة لبني عبد الدار في الجاهلية وظل "بنو عثمان بن عبد الدار" على الحجابة حتى فتح مكة فقبضها منهم الرسول ﷺ وفتح الكعبة ودخلها، ثم خرج مشتملا على المفتاح، فطلب منه العباس بن عبد المطلب أن يجعل لهم (أي بنو عبد المطلب) الحجابة مع السقاية، فأنزل الله عز وجل على نبيه: (إِنَّ اللهَ يأمُرُكمْ أن تؤدُوا الأمَانَاتِ إلى أهْلِهَا وَإذا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاس أن تَحْكُمُوا بالعَدْلِ[2]) فأبقاها الرسولﷺ لهم في الإسلام حيث دعا عثمان بن طلحة من بني عبد الدار فدفع إليه المفتاح قائلا: (خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله سبحانه ... لا ينزعها من أيديكم إلا ظالم) فتوالت بينهم، ليقوموا على سدانة الكعبة وخدمتها وتولي أمرها وفتح بابها وإغلاقه.

ولذا كانت هذه الوظيفة من الوظائف الهامة نظراً لمكانة مكة الدينية عند العرب وكون البيت الحرام هو الذي أعطى لمكة هذه المكانة... ومن المعروف أن موسم الحج ووفود الحجيج يمثلان أهمية كبرى لمكة من الناحية الاقتصادية، ولذلك اهتمت قريش بالبيت الحرام وجلبت إليه أصنام القبائل وأقامتها حول الكعبة، ويُعد ذلك في نظرهم تكريماً للأصنام بوضعها في أول بيت وضع للناس، ويعتبر أيضا تكريماً للقبائل المتعبدة لهذه الأصنام، وإغراءً للعرب بالحج إلى الكعبة للطواف بالبيت وتقديم القرابين لأصنامهم... هذه المفاهيم الجاهلية الخاطئة قام الإسلام بتصحيحها بعد الفتح فكان أول أعمال رسولنا الكريم هو تحطيم هذه الأصنام قائلا "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا"، وجدير بالذكر أن هذه الوظيفة ليست من مستحدثات قصي الإدارية، وإنما هي وظيفة قديمة ترجع لبدايات الكعبة نفسها، فمن الطبيعي أن يكون لكل مركز ديني سدنته.

- السقاية: [3]

هي وظيفة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها ومرتبطة بالكعبة وموسم الحج إليها، ولها أهميتها في بلدة مثل مكة شحيحة المياه، يجد الزائر إليها مشقة كبيرة في الحياة إذا لم يجد المياه متوافرة خاصة في موسم الحج حيث تزداد وبكثرة أعداد

---

[1] ابن منظور : لسان العرب، م١٣، ص٢٠٧

[2] سورة النساء آية ٥٨

[3] هي حياض من أدم كانت توضع على عهد قصي بفناء الكعبة ويسقى فيها الماء العذب المجلوب من الآبار على ظهور الأبل.

الوافدين إلى مكة لأداء الفريضة،ولهذا فمهمة السقاية صارت بالغة الأهمية خاصة بعدما طمرت بئر زمزم نتيجة إهمال جُرهم لها بعد هزيمتها، أمام خزاعة وخروجهم من مكة ويقال أنهم طمروها لمضايقة خزاعة وجعل مهمة الحج عسيرة[1].

ولم تذكر المصادر قيام خزاعة على إعادة حفر زمزم ثانية حتى جهل الناس موضعها وعملوا على توفير المياه للحجيج من مصادر أخرى، وعندما تولى قصي أمر مكة اهتم بتنشيط الحج وحفر الآبار، لجلب المياه لمكة، وبعد قصي حفرت العشائر القرشية آباراً أخرى كثيرة توفيراً للماء، ولكن لم يفكر أحد في إعادة حفر بئر زمزم سوى عبد المطلب بن هاشم عندما آل إليه أمر مكة ومعها تلك الوظيفة، ووجد مشقة كبيرة في توفير الماء للأعداد المتزايدة من الحجاج الوافدين لمكة، ففكر في حفر بئر زمزم وظل يبحث عن مكانها حتى اهتدى إليها وأعاد حفرها[2]. فتوافرت المياه لمكة وزوارها، ومن هنا اعتبرت هذه الوظيفة مع السدانة من أعظم الوظائف بمكة وموضع فخر القرشيين، وبعد الفتح الإسلامي لمكة ألغى الرسول الكريم كل المناصب الإدارية فيما عدا هاتين الوظيفتين مما ينهض دليلا على أهميتهما القصوى [3].

- ***الرفادة:***

وهي إطعام الحاج في موسم الحج، وذكرنا آنفا أن قصي فرض خرجاً على قريش تخرجه من أموالها وتدفعه إليه، ليصنع به طعاما يقدمه للحجيج في عرفات ومنى باعتبارهم ضيوف الله وأحق الضيوف بالإكرام هم ضيوف الله وما دامت قريش هي التي تسكن في حمى البيت فعليها القيام بهذا الواجب السامي [4]. فكانت هذه الوظيفة والعمل عليها من جانب قصي يمثل حكمة سياسية متميزة، فإمداد الحاج بالطعام يدعو لمزيد من الإقبال على مكة، خاصة في ضوء مشقة السفر قديماً وصعوبة حمل المؤن اللازمة لمسافات طويلة في الصحراء، علاوة على فقر البادية الملحوظ، فكان إطعام الطعام فضيلة كبرى ينال عليها صاحبها المنزله الرفيعة بين العرب، كما أن "المؤاكلة" تُعد عقد جوار في عرف العرب، فيكون بإمكان قريش

---

(1) ابن هشام ، نفسه، ج١/١٢٦.

(2) ابن هشام ، نفسه، ج١/١٢٦.

(3) ورد في القرآن الكريم ذكر هاتين الوظيفتين في قوله تعالى: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) سورة التوبة :آية ١٩.

وانظر أيضا ابن هشام، ج٤/٣٢. الطبري: نفسه ٢/٣٢٧.

(4) ابن هشام، السيرة، ج١ / ١٤١-١٤٢.

أن تسير آمنة في أراضي هذه القبائل التي أكلت طعامهم في موسم الحج، وهذه الوظيفة ليست من مستحدثات قصي أيضا وإنما يرجع إليه تطويرها وتنظيمها وجعلها وظيفة ثابتة إذ يروي الإخباريون أن عمرو بن لحي الخزاعي كان يطعم الحجيج ويقيم موائد الطعام في موسم الحج[1].

هذه الوظائف الثلاث السابقة - كما رأينا - ليست وظائف قبلية وإنما هي وظائف استلزمها وجود الكعبة بمكة، والحج إليها والرغبة في تيسيره، حتى تربح مكة من ورائه الفوائد المادية والأدبية الضرورية لها كبلد يعتمد في حياته على التجارة والتواصل مع قبائل العرب من حولها، ولذا يمكن اعتبارها مزايا تعطى للقرشيين فرصا متزايدة للكسب المادي وإعلاء لمنزلتهم ومكانتهم الأدبية بين القبائل.

ب - إدارة مدينة مكة:

لا نستطيع موافقة الإخباريين العرب تماماً في قولهم بأن "قصي" هو الذي أنشأ مكة واستحدث لها المناصب السابقة كلها، فالواقع التاريخي يقول أن القرية المكية انتظمت بدءاً من عهد عمرو بن لحي زعيم خزاعة، حيث دخلت في طور واضح من التنظيم الاجتماعي والإداري، بعد أن مرت بطور الاضطراب والحروب والقتال على السيادة. وكان أساس الحياة في هذا الوادي يقوم على قبول الهجرة من القبائل القادمة من الجنوب. وقد استمر النظام الحكومي قبل قصي عدة قرون، وكانت الوظائف الاجتماعية موجودة، ولكنها كانت لا تزال في أحوالها الأولية في عهد عمرو وبنوه، وبقي على قصي" أن يكمل الذي بدأه "عمرو بن لحي" وبنوه، ويبتكر ويجدد في تلك الوظائف الحكومية ويشيد دار الندوة.

ويجب علينا أن نلاحظ أن هذا التنظيم الحكومي في مكة سواء في عهد خزاعة أو في عهد قصي ما هو إلا تنظيم قبلي في جوهره، وإن بدا نظاماً جمهورياً من حيث أنه لم يكن الزعيم أو صاحب النفوذ فيه يلقب بالملك، وبالرغم من أن الحكم كان شورياً يخضع لرأي الجماعة ورقابتها، فلا ينبغي أن نبالغ مبالغة المؤرخ " لامانس Lammans" فنظن أن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية

---

(1) أبن كثير: البداية والنهاية، ج١٨٧/٢، وقد ظلت السقاية والرفادة ومعها القيادة لعبد مناف حتى توفى فتولى من بعده ولده هاشم علي السقاية والرفادة، وتولى عبد شمس بن عبد مناف القيادة، وكان هاشما يطعم الناس في كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش، ويروى أنه أصاب الناس في سنة قحط، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقا وكعكاً فقدم به مكة في الموسم فهشم ذلك الكعك، ونحر الجزور وطبخه وجعله ثريدا وأطعم الناس حتى أشبعهم فسمي بذلك هاشماً، وكان يدعى قبل ذلك "عمرو"، وظل علي ذلك حتى توفي، واستمر ولده عبد المطلب يفعل ذلك من بعده حتى توفي، فقام بهذا الأمر بعده ولده أبو طالب في كل موسم حتى جاء الإسلام.

كما نعرفها حديثاً، فالواقع أنه رغم نمو العلاقات التجارية والاقتصادية في مكة فإن مجتمعها كان مجتمعاً قبلياً، وهذه الوحدة التي أسسها قصي ما هي إلا اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض لغرض سدانة الكعبة من جهة، والقيام علي تجارة القوافل من جهة أخرى، ولا سلطان لعشيرة على أخرى، بل كانت كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة مفروضة عليها لأحد، وكل ما في الأمر أن اشتراكهم جميعا في مصلحة واحد خفف من غلواء هذه الحرية، ولكنه تخفيف لم يخرج بقريش عن النظام القبلي المعروف في الجاهلية.

وكانت أمور قريش وإدارة شؤون مكة تتم عن طريق:

١- مجلس الملأ:

بالرغم من أن مجلس الشيوخ "الملأ" كان وسيلة الحكم في مكة، والقائم على تنظيم شؤونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإنه لم يخضع في تنظيم أعماله لقانون مكتوب، وإنما كان ينظر في الشؤون المكية حسب قوانين العرف والعادة، ولم يقض على حرية الأفراد فكان كل فرد يتمتع بحريته مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة، وهذا هو نفس النظام الذي كان سائداً في القبيلة العربية في كافة أنحاء شبة الجزيرة، فللفرد حريته وللجماعة حقوقها التي لا تتناقض مع هذه الحرية.

وعلى ذلك كانت القرارات الحاسمة في مجلس "الملأ" هي القرارات الجماعية، ويرجع الفضل الأول في قوة مكة إلى قوة زعمائها وقدرتهم على تكوين رأي عام، وحل المناقشات وحسم المنافسات والصراعات الداخلية التي تنشأ بين العشائر على أساس المصلحة العامة، والمحافظة على تماسك ووحدة القبيلة التى كانت تتطلبها الظروف التى تعيش فيها قريش كقبيلة تجارية مستقرة في بلد يعتمد في حياته على التجارة وما تجلبه لأهله من وسائل الرزق، كما يعتمد على قدسية البيت الحرام الذي يقوم فيه ويجلب إليه الحجاج من كافة أطراف الجزيرة العربية، وما يترتب على ذلك من حصول القبيلة على مركز أدبي ممتاز بين القبائل، ومن تجارة داخلية واسعة تدر على سكان البلد الحرام الرزق والثروة، وكان أي تفكك في داخل البلد يعرض مركز أهله للانهيار، ولذلك كان لا بد من أن يضع له أهله من الأنظمة والقوانين ما ينظم حياته، ويقر الأمن فيه ويحفظ الحقوق، ويضمن حماية من يفد إليه من الأذى، ولقد نجح " ملأ قريش" في المحافظة على تماسك القبيلة، فاستطاعوا حل العديد من الخلافات الداخلية حلاً سلمياً، كما استطاعوا أن يرضوا شعور العشائر، ويحدوا من تنافسها على السلطة بأن توسعوا في قاعدة الحكم القبلي لمكة، فأنشأوا

الوظائف المساندة للوظائف السابق الإشارة إليها وأسندوا لكل عشيرة وظيفة خاصة تمارسها في نطاق القبيلة، ومع أن بعض هذه الوظائف لم يكن ذا قيمة إلا أنه أرضى شعور القبائل وأشعرها بمشاركتها في الحكم والمعاونة على حفظ تماسك القبيلة.

ولم يكن رأي "مجلس الملأ" ملزماً إلا حين توافق عليه العشائر كلها؛ ومع ذلك فإن العشائر كان يمكنها التخلص منه إذا رأت ذلك، فمثلا (بنو زهرة) تراجعت ولم تشارك في معركة بدر رغم موافقتها وخروجها، وكذلك "بنو عدي" لم تخرج إلى القتال برغم الإجماع عليه، كذلك كان الفرد يستطيع الخروج على هذه القرارات ، ولم تكن هناك عقوبة تفرض على الخارجين عليها، مثال ذلك ما فعله أبو لهب عم النبي عندما خرج على إجماع العشيرة، وانضم لباقي بطون قريش عندما أجمعت على مقاطعة بني هاشم، والعباس بن عبد المطلب رغم تضامنه مع عشيرته، فإنه ظل على علاقاته الودية مع باقي البطون القرشية حرصا على تجارته معهم، وإلى جانب مجلس الشيوخ (الملأ") كان للعشائر أنديتها الخاصة التي تجتمع فيها حين تدعو الضرورة لمناقشة الأمور الخاصة بالعشيرة، وكان يمكنها أن تتخذ قراراً يخالف رأي مجلس القبيلة (الملأ)، ومثال ذلك ما رواه ابن هشام عن اجتماع بنو هاشم وبنو المطلب للتشاور والاتفاق على حماية محمدﷺ ومواجهة قريش.[1]

٢ - *دار الندوة:*

هي الدار التي بناها قصي بن كلاب، وكانت فسيحة واسعة ملاصقة للمسجد الحرام، وفيها كانت قريش تقضي شؤونها العامة، وقد سميت الدار بهذا الاسم لاجتماع النداة بها لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر ندوا إليها للتشاور[2]، والندوة هي الجماعة، ودار الندوة أي دار الجماعة[3]، وأهم خصائص دار الندوة، أنها كانت دار مشورة قريش، فيها يجتمع ملؤها للتشاور في أمورها، ولم يكن يدخلها للمشورة من غير بني قصي إلا ابن أربعين سنة، في حين كان يدخلها بنو قصي وحلفاؤهم.

وكانت تُقضي في دار الندوة أموراً غير المشاورة فقد اتخذها قصي مركزاً للحكم، حيث كانت قريش تعقد فيها لواءها إذا خرجت للحرب، ومن دار الندوة كانت ترحل قوافلها للتجارة، وفي فنائها تحط هذه القوافل حمولتها إذا رجعت، وإذا

---

(١) ابن هشام: السيرة،ج١/٢٨١، ١٣٠-٢٨٢، ج٢/٢٥٨؛ الواقدي: المغازي، ص٣٠-٣١؛الطبري، نفسه، ج٢/١٤٣، ١٥٩.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، م٩/٢٧٩.

(٣) ياقوت: نفس المصدر، م٩/٢٧٩، الألوسي: نفسه، ج١/٢٤٨.

بلغ غلام لقريش عُذر فيها (أي خُتِنَ)، وإذا بلغت جارية لقريش جاء بها أصحابها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعها (أي قميصها) ثم درعها إياه، ثم انقلبت إلي أهلها فحجبوها، والظاهر أن الغرض من هذين الأمرين الأخيرين مجرد تعريف بالبالغين من قريش ذكوراً أو إناثاً.

ودار الندوة في مكة على هذا النحو كانت فيما يبدو تشبه "الإكليزيا" في أثينا، إلا أن الملأ المكي كان أكثر تعقلاً وشعوراً بالمسئولية من " الإكليزيا " اليونانية، وأقل تأثراً بالانفعالات العاطفية، وذلك لأن الملأ كان يتكون من رؤساء العشائر وأصحاب الرأي والحكمة فيها، وعلى حين كان الأثينيون يقبلون في عضوية الإكليزيا كل رجل أمين مستقيم، كان أهل مكة حريصين على أن يكون للشخص المنضم لدار الندوة حياته العملية المتميزة وقدرته الظاهرة على القيادة، وإنشاء دار الندوة وتخصيصها لهذه الوظيفة يعتبر بداية لمرحلة جديدة عاشتها مكة تبلورت فيها النظم القبلية القديمة.

__والوظيفتان الرئيستان بعد ذلك في عهد قصي هما اللواء والقيادة:__

__واللواء__: هي الراية التي تُعقد فيجتمع إليها المحاربون، ويسلمها قصي لمن يتولى القيادة العامة للجيش[1]، أما الثانية فهي:

القيادة: أي قيادة الجيش عند الحرب، وقد يتولاها قصي بنفسه أو ينيب عنه من يتولاها، وهاتان الوظيفتان كانتا موجودتين في تنظيم القبيلة العربية وهما من اختصاص شيخ القبيلة، فشيخ القبيلة هو الذي يعلن الحرب على القبائل الأخرى ويدعو المحاربين إلي الاجتماع، كما أنه يقود القبيلة في حروبها أو ينيب عنه من يقودها، وكل ما استحدثته قريش أو قصي في هذه الناحية أنها وكلت أمر هذه الوظائف إلى عشائر معينة من قريش تتوارثها وذلك لأنه لم يصبح لقريش بعد موت قصي زعيم عام ترجع إليه القبيلة، وإنما أصبح يحكمها "الملأ" المكون من رؤساء العشائر الذين اعتبروا أنفسهم متساوين من حيث المبدأ، واقتسموا المناصب فيا بينهم.

هذه هي المناصب الرئيسة التي برزت في عهد قصي والتي جمعها كلها في يده، ثم اقتسمها بعد ذلك أبناء عبد الدار وأبناء عبد مناف ولدي قصي، ولكن تطلع البطون القرشية إلى التقدم والمشاركة في شئون مكة، وحرص الملأ على وحدة القبيلة وإرضاء العشائر، أدى إلى أن يستحدثوا عشر وظائف أخرى هي:

---

[1] وكان اللواء بدوره في يد بني عبد الدار حتى يوم أحد فقتل عليه من قتل منهم ثم بطل اللواء بعد أن دخل بنو عبد الدار في الإسلام، راجع: الأزرقي، نفسه، ج١، ص ٦٢-٦٣؛ سالم: المرجع السابق، ص ٣١٨.

١ - *العمارة:* وهي مراعاة الأدب والوقار في البيت الحرام، فلا يتكلم فيه بهجر ولا رفث ولا ترفع فيه الأصوات.

٢ - *المشورة:* وهي أنهم لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحبها.

٣ - *الحجابة :* وهي إغلاق البيت وفتحه للزائرين.

٤ - *الأشناق:* وهي جمع الأموال الخاصة بالديات والمغارم والقيام على أدائها.

٥- *القبة :* وهي خيمة تجمع فيها أسلحة الجيش.

٦ - *الأعِنَّة:* وهي قيادة الخيل.

٧- *السفارة:* وهي الاتصال بالقبائل الأخرى في المفاوضات والمنازعات.

٨- *الأيسار:* وهي الأزلام التي يضرب بها عند هُبل كبير الأصنام في جوف الكعبة.

٩ - *الحكومة :* وهي الفصل في المنازعات والخصومات.

١٠ - *الأموال المحجرة:* وهي الأموال المسماة للآلهة[1].

وحين ظهر الإسلام كان الشرف في قريش قد انتهى إلى عشرة رهط من عشرة أبطن تولوا هذه المناصب الستة عشرة كلها وهم:

١. العباس من بطن هاشم ... وله السقاية.
٢. ابو سفيان من بطن أمية ... وعنده راية قريش والقيادة.
٣. الحارث بن عامر من بطن نوفل ... وكانت إليه الرفادة.
٤. عثمان بن طلحة من بطن عبد الدار... وكانت لَهُ اللواء والسدانة مع الحجابة والندوة وكانت لنفس البطن .
٥. يزيد بن زمعة من بطن أسد ... وله المشورة.
٦. أبو بكر الصديق من بطن تيم.... وإليه كانت الأشناق.
٧. خالد بن الوليد من بطن مخزوم .... وكانت له القبة والأعِنَّة.
٨. عمر بن الخطاب من بطن عدي.... وإليه كانت السفارة.
٩. صفوان بن أمية من بطن جُمَح .... وإليه كانت الأيسار.

---

[1] الألوسي: نفسه،ج ٢٤٨/١ -٢٤٩.

١٠. الحارث بن قيس من بطن سهم... وإليه كانت الحكومة والأموال المحجرة.

وقد استمرت هذه المناصب حتى فتح مكة حين ألغاها الرسول ﷺ كلها فيما عدا سدانة البيت والسقاية كما أسلفنا، وكانت هذه المنصب لا توكل إلى الأفراد بل توكل إلى البطون، وكل بطن يرشح للوظيفة ورئاستها من تكتمل فيه صفات القيادة والرئاسة وكانت الفضائل الشخصية هي الأساس في تولي هذه المناصب، ويلاحظ من دراسة هذه المناصب أن بعضها كان تفريعاً لبعض الوظائف الستة الرئيسة، وبعضها الآخر ليس له قيمة كبيرة، ولكنها جميعا من صميم التنظيم القبلي للقرية المكية فيما عدا ما كان منها متصلاً بالكعبة والبيت الحرام.

<u>الحرص على إقرار الأمن في مكة:</u>

وكما حرص رجال قريش على وحدة القبيلة وتضامنها كذلك حرصوا على إقرار الأمن في مكة سواء لأهلها أو للقادمين عليها، ووقفوا في وجه كل من تحدثه نفسه من أهلها أو غيرهم بالاعتداء على حرية الناس وأمنهم، أو ظلم القادمين إليها للمتاجرة والمبادلة، وذلك أن مكة كانت تعتمد في حياتها على ما تجلبه إليها التجارة من الرزق سواء منها الخارجية أو الداخلية، وإذا كانت تجارة قريش الخارجية قد اتسعت بحيث ضمنت للعشائر الغنية التي تشارك فيها ثروة كبيرة، فإن رجال قريش قد حرصوا على سلامة التجارة الداخلية، حتى تضمن العشائر التي لم تشارك بصورة قوية في التجارة الخارجية ما يكفل لها أسباب الرزق في التجارة الداخلية، لذلك وقفوا في وجه كل ما من شأنه أن يعطل هذه التجارة أو يحد من نشاطها.

ومن أجل هذا قام ***(حلف الفضول)*** وكان سببه المباشر أن (العاص بن وائل السهمي) اشترى بضاعة من رجل يمني قدم مكة، وأبى أن يدفع الثمن، ولجأ اليمني إلى بطون (الأحلاف) فلم تنصفه، فأدى هذا إلى رد فعل قوي بين البطون القرشية الأخرى التي كانت تعتمد على التجارة الداخلية، ورأت فيه محاولة من العشائر الغنية المهيمنة على التجارة الخارجية لبسط هيمنتها على التجارة الداخلية أيضا بمضايقتها للتجار الوافدين على مكة، لذلك تنادى بنو هاشم وأسد وزهرة وتيم، لعقد حلف للوقوف ضد هذا الاتجاه، ومنع كل ظلم يقع في مكة سواء على أهلها أو على الغرباء، فاجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا في الأمر، ثم انتقلوا إلى دار عبد الله بن جدعان أحد أثرياء مكة من بني (تيم)، حيث عقدوا حلفا سموه " حلف الفضول" تعاهدوا فيه على أن يكونوا يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه.

وهكذا تبين لنا الغرض من هذا الحلف وهو الوقوف في وجه الظلم الذي قد يتسبب في أن تحرم هذه الضعيفة من أسباب معاشها، وقد حقق الحلف نتيجة مباشرة، فقد دفع العاص بن وائل ثمن البضاعة التي أخذها من اليمني، كما استقرت الحرية العامة في مكة، وقد بقيت آثار هذا الحلف إلى ما بعد الإسلام، حتى لقد نادى به الحسين بن علي ﷺ حين وقعت بينه وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والي المدينة زمن الخلافة الأموية منازعة في مال كان بينهما، وتداعت أطراف الحلف لنصرة الحسين مما اضطر الوليد إلى إنصافه.

بهذه السياسة الحسنة أمنت مكة واستطاعت المحافظة على وحدة القبيلة الداخلية، وتوطيد السلام والأمن في ربوعها وأمنت عادية القبائل العربية، وبذلك نالت تفوقاً كبيراً وحظيت باحترام عام من كافة أنحاء الجزيرة العربية، وأصبحت تنافس (صنعاء) في زعامة الجزيرة العربية، بل أنها تفوقت عليها في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، وأصبحت الحاضرة العربية التي تتجه إليها نفوس العرب وعواطفهم القومية، وبخاصة بعد أن فقدت اليمن استقلالها، وتدهورت مكانة مملكتي الحيرة والغساسنة.

٢ - ***الطائف:***

وهي من المدن القديمة في منطقة الحجاز، وتقع على مقربة من مكة، اشتهرت بخصوبة التربة واعتدال المناخ ووفرة المياه وكثرة البساتين، ويرى بعض الباحثين أنها سميت بالطائف للطواف حول بيت اللات، حيث كانت الطائف المركز الوثني الثاني في بلاد العرب، ويتركز بها عبادة اللات.

وكانت قبيلة ثقيف تسكن بالطائف وهي تنقسم إلى قسمين أحدهما يسمى بنى مالك والآخر يُطلق عليه الأحلاف، وعلاوة علي ذلك كان يسكن قرب الطائف قبيلة هوازن، كما أقام فيها أفراد من حمير وقريش واليهود من أجل التجارة.

وقد اشتهرت الطائف بالزراعة وخصوصا الحنطة (القمح) والفاكهة مثل الكروم والتين علاوة على السمن والعسل، وكانت معظم فواكة مكة تأتى من الطائف [1] كذلك برز أهل الطائف في التجارة، فكانت قوافلهم تتجه إلى مكة والعراق والشام وفارس .

٣- يثرب

وهى مدينة قديمة تقع إلى الشمال من مكة على مسافة ٥٠٠كم ولها ، عدة أسماء أخرى مثل طيبة ودار الهجرة والمدينة ، ومدينة الرسول والدار، الإيمان ،ويرى

---

(١) سالم: نفسه، ص ٣٣٢- ٣٣٣.

البعض أن أسم يثرب لعله مشتق من التثريب أي المؤاخذة بالذنب أو من الثرب بمعنى الإفساد ويضيف أصحاب هذا الرأي أن الرسول الله ﷺ نهى عن تلك التسمية(يثرب) وأطلق عليه طيبة[1].

وتتميز المدينة أويثرب بأنها تقع في بسيط أو سهل من الأرض يكثر به الأشجار والبستاين ويتوفر فيها مياه الأبار والعيون ، ويحيط بهذا السهل مجموعة من الحرات والجبال الوعرة مثل جبل أحد وجبل عير وغيرهم ، وأشتهرت يثرب بالنخيل و الكروم و الحبوب والخضراوات ، وحقق الكثير من أهلها الثراء لامتلاكهم الأراضي الزراعة والبساتين علاوة على علاقاتهم التجارية مع الحواضر الحجازية الأخرى وبلاد الشام .

وكان سكان يثرب يتألفون من عنصرين مختلفين هما العرب أي قبائل الأوس والخزرج واليهود وهم ثلاث قبائل : بنو قينقاع وبنو النضير، وبنوقريظة وقد أدى أختلاف القبائل والعناصر السكانية داخل يثرب إلى وجود صراعات وحروب من أجل التنافس على السيادة سواء الصراع بين العرب وبعضهم البعض أو بين العرب واليهود واستمر ذلك إلى أن هاجر رسول الله ﷺ فأصلح بينهم

---

[1] سالم: نفسه، ص ٣٣٢- ٣٣٣.

ثانيا: الحياة الدينية في بلاد العرب قبل الإسلام:

سادت بلاد العرب قبل الإسلام عدة عبادات منها ما يلي:

١. الطوطمية:

كانت الكثرة الغالبة من العرب – ومن بينها قريش – في الجاهلية على الوثنية، ولهم اعتقاد بقوى إلهية متعددة من الكواكب ومظاهر الطبيعة، وفي أسماء قبائلهم ما يدل على ذلك، حيث تلتف الجماعة حول طوطم يدافع عنها مثل كلب، وثعلبة، وغيرهما، كما اعتقدوا أيضاً بقوى خفية في بعض الجمادات والطيور والنباتات والحيوانات، وهذه الطوطمية عبارة عن مرحلة من مراحل الاعتقادات الفطرية المتواجدة في المجتمعات البدائية(Primitive Societies)، ولا نزال نراها عند القبائل البدائية في أفريقيا وآسيا ومجتمعات عدة في أمريكا الجنوبية، كما وجدت عند الأمم القديمة كاليونان وغيرهم [١].

وقد يكون الطوطم حيواناً فيبقي عليه صاحبه ويقدسه، وإذا كان نباتاً لا يقطعه ولا يأكله إلا عند الضرورة القصوى [٢]، ويمكننا أن نلاحظ الطوطمية في كثير من مظاهر حياة العرب في الجاهلية من الوجهة الدينية مثال ذلك ما يلي:

١ـ كان العرب يقدسون الحيوان لتحصيل البركة، كذلك كانوا يعتقدون بحماية الطوطم لأهله عند وقوع الخطر، ولذا اعتادوا على حمله معهم في المعارك مثلما فعل أبو سفيان عندما حمل اللات والعزي يوم أُحُد[٣].

٢ـ كذلك كان العربي يتفاءل بالطير كالحمامة، ونباح الكلب دليلاً عنده على مقدم الضيوف، ويتشاءم من رؤية الغراب ويعتبره نذير شؤم[٤]، كما كانوا يتسمون بأسماء حيوانات مثل أسد، وفهد، وكلب، وذئب، وضبيعة، أو بأسماء طيور مثل نسر، أو بأسماء حشرات مثل حنش، وحية، أو أجزاء من الأرض كصخر وحجر، وهذه التسميات كلها من قبيل التفاؤل وتشير من ناحية أخرى إلى تقديس العرب للحيوانات والنباتات وغيرها، ونلاحظ أن العرب كانوا يتعمدون تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء كضرار وحرب وكلب، وتسمية عبيدهم بمحبوب

---

(١) Smith, W. Roberston: King & Marriagein Early Arabia, London, ١٩٠٣, ٢١٧-٢٥١٠

(٢) محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية في الإسلام، القاهرة ١٩٣٧، ص ٥٥، ٨٣، ٨٦-٨٨؛ جواد علي :نفسه، ج٣٢/٥؛ راجع أيضا :القلقشندي: صبح الأعشي، ج٣١٢/١

(٣) ابن الكلبي: كتاب الأصنام،نشره أحمد زكي باشا،القاهرة ١٩٦٥، ص ١٠؛ محمد عبد المعبد خان، نفسه، ص ٧٩.

(٤) الألوسي: نفسه/ ٣ أجزاء القاهرة ١٩٤٥، ج٣٣٥/٢.

الأسماء كنجاح وفلاح وغيرها ويقولون عن ذلك " إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا" (١).

٣- وكان العرب يحرمون لمس الطوطم أو التلفظ باسمه، بل يجعلون له كنية فيكنون الأسد بأبي الحارث والضبع بأم عامر، والملدوغ بالسليم(٢)، وإذا مات حيوان من نوع الطوطم حزنوا عليه واحتفلوا بدفنه، وتحزن عليه القبيلة عدة أيام (٣). ولذا كان العربي يتجنب قتل الحيوان اعتقاداً منه أنه لو قتله سيجازى بقتله، كما كان يمتنع عن قطع النبات وأكله إلا عند الضرورة (٤).

٢ • *مظاهر الطبيعة:*

كان العربي بدوره أيضاً يؤمن بوجود قوى روحية خفية تؤثر في العالم، وهذه القوى موجودة في مظاهر الطبيعة الموجودة حوله من كائنات كالنبات والجماد والحيوان والطير - كما سبق القول - وفي مظاهر الطبيعة الأخرى كالكواكب والنجوم(٥). وربط بين هذه الكائنات والظواهر الطبيعية وبين القوى الروحية الخفية وقدسها، ثم تطور هذا المعتقد الوثني عند العرب إلى عبادة قطع من الصخور التي يستحسن هيئتها، وكانت معظمها بيضاء اللون لها علاقة بالغنم واللبن(٦).

ولعل من أمثلة تلك الصخور "ذو الخلصة" وكان صخرة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج، وكانت بأرض تبالة على الطريق الواقع بين مكة واليمن(٧). ومنها " الجلسد" وكان صنماً لحضرموت على شكل أو هيئة "الرجل العظيم" وهو صخرة بيضاء ذات رأس أسود(٨)وإذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان، ومنها أيضا " سعد" وكان صخرة طويلة بساحل جدة(٩)، وأيضاً ذات أنواط" وكانت

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١/٣١٢.

(٢) محمد عبد المعيد خان: الأساطير،ص ٧٨؛ انظر أيضاً: سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام، ص٤٠٥ وما بعدها.

(٣) الألوسي: نفسه، ج٢/ ٣٥٨.

(٤) ابن قتيبة الدينوري: كتاب المعارف، القاهرة ١٣٠٠ هـ ، ص٣٠٥ حيث ورد أن بني حنيفة عندما عبدوا إلهاً صنعوه من نوع من الأطعمة فلما أصابتهم مجاعة أكلوه فقال بعضهم:

أكلت حنيفة ربها   زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم   سوء العاقبة والتباعة

راجع أيضا : طبقات الأمم لصاعد الأندلسي، ص ٥٧.

(٥) جواد علي : نفسه، ج٥/٢٢.

(٦) محمد عبد المعيد خان: الأساطير، ص٩٨.

(٧) ابن الكلبي: الأصنام، ص ٣٤.

(٨) ياقوت الحموى: معجم البلدان،ج٥/٤٩٨،مادة الجلسد

(٩) ابن الكلبي: نفسه، ص٣٧ وما بعدها. ابن هشام: السيرة، ج١/ ٨٣،وكان هذا الصنم لبني مالك من كنانة. راجع سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص٤٢٤.

شجرة خضراء يقدسها العرب ويأتون إليها كل عام تعظيماً لها فيذبحون عندها، وكانت قائمة بالقرب من مكه[1]. وببطن نخلة من مكة أيضاً كان هناك ثلاث شجرات (سمرات) فبني عليها بيت للعزي، وأقيم لها مذبح ينحرون فيه لأصنامهم[2].

ونسج العرب حول تلك المعبودات قصصاً وأساطير، فمثلاً صور بخياله الخصب الصفا والمروة وهما صخرتان رجلاً وامرأة مسخهما الله حجرين، وصور أيضاً على نفس الحال إساف ونائلة رجلاً وامرأة ممسوخين حجرين على موضع بئر زمزم[3].

ويُعد تقديس العربي لهذه المظاهر الطبيعية من قبيل الإجلال وليس على أنها تمثل أرباباً، ونستدل على ذلك من قصصه التي نسجها حول تلك الأوثان ويظهر منها أنه لم يعبدها في البداية على أنها خالقة البشر والكون، بدليل أنه كان يأكلها في وقت الشدة[4]، ثم تطور الأمر وأصبح الوثن في نظر العربي رباً بدءاً من القرن السادس قبل الميلاد عندما تأثر بالوثنية المجاورة في العراق واليمن[5]. فعن أهل اليمن أخذ عرب الشمال بعامة عبادة الكواكب الثالثوت الكوكبي (القمر – الشمس – الزهرة) فكان القمر الإله الأكبر، يليه الشمس وهي اللات، وهي زوجة القمر في تصورهم ومنها ولد الوُزي أي الزهرة أو فينوس، والقمر كان يسمى عند أهل معين " ود " وعند سبأ "ورخ" وكهل باعتباره أكبر الآلهة سناً ومقاماً، وكان يطلق على جميع أسماء القمر لفظ مشترك هو "أيل" أي الإله ويقابله هُبَلْ عند عرب الشمال، وكان للقمر منزلة عظمى عند الجنوب ولذا لقبوه بالحكيم والصادق والحامي والعادل فكان فهو دليل الحادي ورسول القافلة[6].

أما الشمس فصنم عبده العرب قبل الميلاد، وبه تسمى أفرادهم فكان هناك عبد شمس، ويقال أن أول من تسمى به هو سبأ الأكبر لأنه أول من عبد الشمس، وهي أنثى في تصورهم فتسمي عند معين "نكرح" وعند سبأ بذات حميم.

---

(1) . ياقوت : نفسه، مجلد ١ مادة أنواط.
(2) ابن الكلبي: نفسه، ص٢٥؛ انظر أيضاً:سالم : تاريخ الوب قبل الإسلام، ص ٤٢٢.
(3) ابن هشام: السيرة، ج٨٤/١؛ سالم : المرجع السابق، ص ٤٢٤.
(4) محمد عبد المعيد خان : الأساطير، ص١٠٧.
(5) الأساطير، ص١١١.
(6) جواد علي: نفسه، ج١٢١/٥.

أما الزهرة أو عثتر، فهو عند عرب الجنوب إله مذكر فهو إله الزهرة، وعند الشمال أنثى وهي العُزّي، والزهرة هو المعني به "النجم الثاقب" في القرآن الكريم فهو أكثر النجوم لمعاناً، كما عُرف أيضاً بذي الخلصة وملك[1].

أما الوثنية عند عرب الشمال فكان صورة قريبة من الوثنية البابلية حيث تأثروا بكلدة وأشور فكلمة صنم أصلها صلم Salm الآرامية[2]، فدخلت هذه الكلمة بلاد العرب مع دخول الأصنام، حيث جلبوها من الشام لجهلهم في ذلك الوقت بفنون النحت، ومن هذه الأصنام المجلوبة هُبل وهو بعل عند بابل، واللات وهي اللاتو البابلية، ومناه هي مناتو البابلية، كما جلبوا أيضاً العُزّي وهي عشتار البابلية[3].

٣ . الأصنام:

استعمل العرب اصطلاحين هما أصنام، وأوثان للدلالة على التماثيل التي عبدوها في الجاهلية، ولفظة أصنام (مفردها:صنم)وهو تمثال، أما أوثان ومفردها (وثن) فيقصد بها الصنم الذي يرمز إلى الإله، وهناك فرق بينهما فالتمثال أو الصنم كما ذكر ابن الكلبي ما كان مصنوعاً من خشب أو معدن مثل الفضة أو الذهب وعلى صورة إنسان، وإذا كان من حجارة فهو وثن[4].

وكانت الأصنام تقدم إلى الآلهة لتوضع في معابدها تقرباً لها، لإجابتها دعاء من يدعوها لقضاء حاجة له، أي تقدم كنذور للآلهة، أما الأوثان فهي تماثيل منحوتة في الحجر ترمز للإله، وإليها تقدم القرابين وتنحر الذبائح[5].

وكانت أصنام العرب في الجاهلية على أشكال متعددة فمنها ما كان على صورة إنسان أو حيوان وتصنع من الخشب أو المعدن كما ذكرنا ولعل أول من اتخذ الأصنام من بني إسماعيل حين فارقوا دينه هو هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر عندما عبد وقومه سواعاً بأرض ينبع، وقضاعة عبدت وداً بدومة الجندل، وخيوان من همدان اتخذوا لأنفسهم معبوداً يدعى يعوق بأرض همدان من بلاد اليمن، وذو الكلاع من حمير اتخذوا نسراً بأرض حمير، وأهل جرش من مذحج اتخذوا يغوث بجرش... وقد وردت أسماء هذه الأصنام الخمسة في القرآن الكريم في قوله تعالى

---

[1] أبن الكلبي: نفسه، ص٣٤، وراجع أيضاً نلسون: الديانة العربية القديمة، فصل في كتاب التاريخ العربي القديم، ترجمة د.فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٥٨، ص٢٠٩، ٢٢٣.
[2] الأساطير : ص١١٣.
[3] الأساطير : ص١٢٠.
[4] ابن الكلبي: كتاب الأصنام، ص٥٣، انظر أيضا: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤١٢.
[5] جواد علي: المرجع السابق، ج٥/٧٨.

(وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً[1].وبعد ذلك جاء عمرو بن لُحَيّ زعيم خزاعة فنشر عبادة الأصنام بين عرب الحجاز فيروي ابن الكلبي أنه وصل لضفة جدة فوجد فيها أصناماً قذفها ماء البحر إلى شط جدة، فوارتها الأتربة فحملها حتى أتى تهامة ودعا العرب لعبادتها فأجابه عوف بن عذرة فأعطاه ودا فحمله لوادي القرى وأقره بدومة الجندل، وسمى ابنه عبد ود وهو أول من سُمي به، وجعل عوف ولده عامر سادناً له... هذا الصنم هو الذي هدمه خالد بن الوليد بعد غزوة النبي ﷺ لتبوك[2]، كذلك تعبدت قريش لصنم إسمه ود[3].أما سواع فهو صنم هذيل وكنانة وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر أخرى من مضر ويُعتقد بأنه كان إله الشر والهلاك وفي ذلك يقول الشاعر:

تراهم حول قيلهم عكوفاً ۞ كما عكفت هذيل على سواع[4]

بينما كان يعوق صنم هَمْدان وَخَوْلان وما والاهما من القبائل، وَيَغُوث صنم مذحج وهوازن، وفي اسم يغوث ويعوق ما يشير إلى الأرواح الحافظة فيغوث تعني "معين"، ويعوق تعني" يحفظ ويمنع"،أما نسر فمعبود حمير ومنه إشارة للطائر المعروف بهذا الاسم، وكان على صورة طائر النسر ونستدل على ذلك من رواية الطبرسي في معجمه لتفسير القرآن (ج١٠/ ٣٦٤) حيث ذكر ن ودّ على صورة رجل وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر من الطير" [5].

ومن أصنام العرب القديمة مناة وكان منصوباً على ساحل البحر بين مكة والمدينة وكان موضع تعظيم كل العرب، والجميع يزوره ويهدون له ويذبحون، وكان على هيئة صخرة، وظل هذا الصنم موضع تعظيم العرب حتى فتح مكة عام ٨هـ، حيث هدمه علي بن أبي طالب كَرَّم الله وجهه بأمر رسول الله ﷺ، وأخذ من معبد مناه سيفان كان الحارث بن أبي شَمِر الغساني ملك غسان قد أهداهما لها وهما السيفان اللذان ذكرهما علقمة في شعره قائلاً:

مظاهر سربالي حديد عليهما ۞ عقيلاً سيوف: مخذوم ورسوب[6]

---

[1] سورة نوح، الآية ٢١- ٢٣، وراجع أيضاً جواد علي: نفسه، ج٥/ ٨١؛ ابن الكلبي : نفسه: ص٩ -١١؛ ابن هشام: السيرة، ج١/٨١-٨٢.

[2] ابن الكلبي، ص٥٥-٥٦؛ياقوت : نفسه، مجلده مادة ود ص ٣٦٧.

[3] ياقوت، نفس المصدر، ص٣٦٦؛ جواد علينفسه : ج٥/ص ١٢٨.

[4] ابن الكلبي: الأصنام ، ص ٥٧.

[5] راجع أيضاً: ابن الكلبي: الأصنام، ص ١٠-٧٥.

[6] ابن الكلبي: نفسه، ص١٣-١٤، ياقوت: معجم البلدان، مادة مناه، ص٢٠٤-٢٠٥.

فوهبهما الرسول لعلي بن أبي طالب كَرَّم الله وجهه، ولعل ذا الفقار سيف علي هو أحدهما[٧].

ومناه لفظة مشتقة من المنية المنون ومنها مني وهو موضع بمكة يراق فيه الدم ، وكانت مناة من آلهة الموت عند بابل وتعرف بمناتو، كما عرفت أيضاً عند الأنباط[١].

والصنم الثاني من أصنام العرب المشهورة والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم هو اللات ... وهي من الأصنام التي أدخلها عمرو بن لحي على العرب وأخذوها من الأنباط. وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العُزّي فأقاموا لها بيتاً كان محل تعظيم العرب، وظلت اللات ربة ثقيف حتى أسلمت قبيلة ثقيف، فأرسل النبي ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها، وحرقها بالنار[٢].

أما العُزّي وكانت شجرة بواد نخلة عندها وثن تعبده غطفان وهي نفسها عشتار عند بابل وكانت رمزاً للشتاء عند العرب بدليل قول عمرو بن لحي لعمرو بن ربيعة والحارث بن كعب "إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف، ويشتو بالعُزّي لحر تهامة"، ثم أصبحت العُزّي عند العرب إلهة الخضر حينما قامت على ثلاث شجرات في وادي نخلة، وفي أقوالهم صعدت للسماء في صورة امرأة حسناء وعُرفت بالزهرة، وصارت عند عرب الجاهلية إلهة الزواج، فكانت الفتاة إذا طالت الزواج نشرت جانباً من شعرها، وكحلت إحدى عينيها ودعت أن تتزوج قبل الصباح أي قبل أن يطلع نجم الصباح وهو الزهرة[٣] .

ولما فتح النبي ﷺ مكة في العالم الثامن للهجرة عهد إلى خالد بن الوليد بقطع شجرة العُزّي، فقطعها وهو ينشد:

يا عُزّ كُفرانك لا سُبْحَانَك ۞ إني رأيت الله قد أهانك[٤]

---

(١) ابن الكلبي: نفسه، ص١٥، ومناه هذه هي المذكورة في قوله تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) ونلاحظ أنها أصنام إناث عبدها عرب الجاهلية كما ورد في القرآن الكريم: سورة النجم، آية ١٩ـ ٢٣.

(٢) ياقوت :معجم البلدان، ج٥/٢٠٤، الأساطير، ص١٢٨، وجدير بالذكر أن مناة لم تمثل القدر كمناة البابلية لأن الدهر رجل عند العرب ولذا كانوا يحلفون أمامها فقط والعثور على سيفي الحارث في حرمها يؤكد ذلك لأن السيف رمز العدالة والإنصاف عند العرب. راجع سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص٤١٨.

(٣)ياقوت : نفسه ، مجلد ٥ ، مادة اللات، ص ٤ . ابن الكلبي. ص ١٦-٢٧ وراجع ايضا ص ١٠٨/١٠٩. سالم : المرجع السابق، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٤) الأساطير الوثنية، ص ١٢٠ ـ ١٢٣، راجع أيضاً: ابن الكلبي، ص ٢٥، الأزرقي: نفسه ج١/ص٧٤؛ الألوسي، نفسه، ج٢/٣٣٠؛ سالم: نفسه ، ص ٤٢١ـ ٤٢٢.

(٤) ابن الكلبي: الأصنام، ص ١٧؛ ياقوت: معجم البلدان: مادة العُزّي ؛ سالم: نفس المرجع، ص ٤٢٢.

وهناك أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش وسائر قبائل العرب في الجاهلية غير ما ذكرناه ويقال أن الرسول عند فتح مكة وجد في الكعبة حوالي ٣٦٠ صنماً، وكان أعظمها عند قريش هُبل وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش على هذه الحال، فجعلتها له من ذهب، وعُرف بُهَبل خزيمة نسبة إلى "خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر" أول من نصبه في جوف الكعبة، وباسمه كان ينادى أبو سفيان في معركة أحد صائحاً " أعْلُ هبل، وعنده ضرب عبد المطلب سيد مكة بالقداح على ابنه عبد الله [1].

ومن أصنام قريش المشهورة أيضاً إساف ونائلة وكان أحدهما ملاصقاً للكعبة والثاني في موضع زمزم، ثم وضعت قريش الأول بجوار الثاني وكانوا ينحرون عندهما، ومن أصنامهم أيضاً مناف، وشمس، وذو الشَّرَى وكان من أصنام عرب الشمال وأيضاً صنماً لبني الحارث بن يشكر من قبائل الأزد، وقد أقاموا له معبداً ضخماً في سلع، وقد ورد اسم هذا الصنم في نقوش البتراء وبُصرى، وهو يقابل الإله "ديونيسيوس" عند اليونان ، ومن أصنامهم أيضاً ذو الكفين وكان لقبائل دوس وقد أحرق على يدي الطفيل بن عمرو الدوسي عندما أمره رسول الله بتحريقه ونستدل من ذلك على أنه كان مصنوعاً من الخشب[2].

وكان العرب يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من الحجارة يصبون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها للآلهة، ويقدسون هذه الأنصاب ويعدونها مقراً لبعض الأرواح [3].

وكانت بعض البيوت التي اتخذوها لأصنامهم تمثل كعبات كبيرة يحج إليها عرب الجاهلية مثل كعبة " ذي الخلصة" وهي الكعبة اليمانية، وكعبة الطائف وهي بيت اللات، لكن الكعبة بيت الله الحرام هي التي وصلنا عنها ما كان العرب يقيمونه حولها من شعائر عند زيارتها فيطوفون بها أسبوعاً ويسعون بين الصفا والمروة، وكان على ثم يقفون بعرفة ويفيضون منها إلى المزدلفة ثم منى، وكانوا يتبركون بالحجر الأسود ويتمسحون بأركان الكعبة، ويقال أن طوافهم كان سبعة أشواط، وكان منهم من يطوف عرياناً، وقد أبطل الإسلام ذلك العري[4].

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، القاهرة ١٣٤٨هـ، ج٢، في روايته عن فتح مكة؛ ابن الكلبي: الأصنام، ص ٢٨؛ سالم : المرجع السابق، ص ٤٢٣.

[2] جواد علي: نفسه، ج٥/ ١١٣-١١٩. ابن الكلبي : نفسه، ص ٣٧. سالم: المرجع السابق، ص ٤٢٤.

[3] ويتضح ذلك في قوله تعالي (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[4] الأزرقي: أخبار مكة، ج١/ ١١٤- ١١٦ وما بعدها.

كذلك كان من تقاليدهم رمي الجمرات في منى وتقديم الضحايا وذبحها عند الأنصاب وكانت لهم طقوس متعددة في نذورهم وقرابينهم، ابطلها الإسلام تماماً، كذلك كان لكل قبيلة تلبية في حجها ذات صيغة معينة هدمها الإسلام أيضاً، وجعل العرب للحج أربعة أشهر معلومات سموها الأشهر الحرم (وهي رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم) وكان الحج إلى مكةِ في ثالثها، واسمه يدل على أن الحج كان فيه، وكانت هذه الأشهر لا يستباح فيها الدم ولا تنشب الحروب، فكانت هذه الأشهر بمثابة الهدنة بين العرب، حتى يتيسر قدوم العرب من الأماكن البعيدة إلى الأماكن المقدسة لأداء مناسكهم في أمن تام وأمان.. وكانوا في هذه الشهور يتاجرون ويميرون ويقيمون أسواقهم ومن أشهرها سوق عكاظ.

٤ - عبادة الكواكب والنجوم والنار:

وجدت طائفة من العرب اعتنقت عبادة الكواكب والنجوم كالقمر والشمس والزهرة وغيرها من الكواكب الأخرى مثل الثريا، عطارد، الشعرى، الدبران، فتروي المصادر أن كنانة كانت تعبد القمر والدبران، وجُرهم كانت تسجد للمشتري، وبعض قبائل لخم وقريش وخزاعة عبدت الشعري اليمانية، كما عبدت طيء الثريا وسهيل.. ولعل أول من سَنّ للعرب عبادة الشعرى هو جد وهب بن عبد مناف أبو آمنة أم الرسول ﷺ ويدعى جزء بن غالب، وقد ورد ذكر لهذه العبادة في القرآن الكريم في قوله تعالى(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)[١]. وهو جزء من نجوم الجوزاء وسُمي العبور لأنه عبر المجرة[٢].

أما الثريا فهي مجموعة من النجوم الصغيرة يصل عددها إلى عشرين نجماً، وهناك المرزم وهو معبود آخر لقبيلة طيء وهو نجمان أحدهما يتبع الشعرى ويسمى "كف الكلب" والآخر يعرف بالكوكب الأخفى[٣].

وقد عُرف عبدة الكواكب بالصابئة وورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى والصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَعمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون)[٤] فالصابئة طبقاً لما سبق ينقسمون إلى مؤمن وكافر. والمؤمنون هم الصابئة الحنفاء، والصابئة الكافرون هم المشركون الذي يعظمون الكواكب السبعة والبروج الأثني عشر ويصورونها في معابدهم، وكان لكل كوكب يعبدونه هيكل أي معبد، فللشمس هيكل وللمريخ هيكل وللقمر هيكل وهكذا.

---

[١] القرآن الكريم : سورة النجم، آية ٤٩.

[٢] سالم : المرجع السابق ، ص ٤٢٦.

[٣] الألوسي : نفسه ،ج٢/٢٣٩-٢٤٠، سالم :نفسه، ص٤٢٧

[٤] القرآن الكريم: سورة البقرة : الآية ٦٢ ، وراجع ايضا ايات اخرى ورد فيها ذكر الصابئة مثل سورة المائدة آية ٦٩، وسورة الحج الآية ١٧.

ويزعم الصابئة قائلين عن أصل دينهم أنهم أخذوا محاسن ديانات العالم قولاً وفعلاً ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً وعملاً ولهذا عرفوا بالصابئة أي الخارجين[1].

كذلك عرف العرب عبادة النار أو السجوسية عن طريق الفرس في الحيرة، وفي اليمن والبحرين، وانتشرت المجوسية في تميم، ومنهم زرارة بن عدس التميمي وولده حاجب، ومنهم الأقرع بن حابس[2] وأبو الأسود جد وكيع بن حسان. كذلك انتقلت الزندقة للعرب من الحيرة، ووجدت الزندقة عند قريش نظراً لاحتكاكهم التجاري ببلاد فارس، والزندقة نوعان زندقة وثنية: وهي القول بالنور والظلمة والتي عرفت بالمزدكية والمانوية والزرادشتية، وهناك زندقة دهرية وهم المؤمنون بالدهر فيقول الله تعالى عنهم (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ)[3]. أي أنهم قوم ينكرون الخالق والبعث والحساب وقالوا بالدهر المفني[4].

٥ـ اليهودية والنصرانية:

انتشرت اليهودية في جزيرة العرب قبل الإسلام وبصورة خاصة في اليمن والحجاز وذلك عن طريق هجرة اليهود من فلسطين إثر اصطدامهم بالرومان سنة ٧٠ق٠م وهدم الهيكل، وزادت هجرتهم عند اصطدام الإمبراطور هادريان بهم سنة ١٣٢م ففر كثير منهم إلي الحجاز، ونزل العديد منهم إلى اليمن [5]، حيث نجح يهود اليمن في ق٦م في التأثير على ذي نواس الحميري بإدخاله في دينهم، وحرضوه على التنكيل بنصارى نجران والذي نزلت فيهم الآية الكريمة (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ۞ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)[6].

وربما كان السبب في استجابته لليهود واليهودية خشيته من تغلغل النصرانية ومن ورائها سلطان بيزنطة والحبشة السياسي والاقتصادي ببلاده، مما يُخشى معه على ملكه واستيلاء الأحباش عليه، وهو ما حدث حيث قام الأحباش وبتحريض من بيزنطة بالثأر لإخوانهم من نصارى نجران، فأزالوا دولة ذي نواس

---

[1] الألوسي: نفسه ، ج٢/٢٢٥، جواد علي، نفسه، ج٥/ ٣٦٨، سالم : نفس المرجع، ص ٤٢٧.
[2] ابن قتيبة: المعارف، ص ٢٠٥؛ الألوسي: نفسه، ج٢/ص٢٣٥؛ سالم: نفسه، ص ٤٢٨.
[3] القرآن الكريم : سورة الجاثية، الآية ٢٤.
[4] الألوسي : نفسه ، ج٢/٢٢٠..
[5] سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤٣٣.
[6] القرآن الكريم : سورة البروج، الآيات ٤-٧، وهناك رأي يقول بأن ذي نواس دعا أهل نجران للوثنية لا لليهودية فنقمته عليهم لأنهم كانوا يؤمنون بالله، راجع سالم :المرجع السابق ،ص١٢٥-١٢٧..

الحميري عام ٥٢٥م، وجثموا على صدر أهل اليمن نحواً من ٥٠ عاماً حتى أجلاهم عنها سيف بن ذي يزن الحميري بمساعدة الفرس[1].

ويبدو أن الفترة التي مكثها الأحباش باليمن قد أدت إلى تشتت اليهود وتفرقهم وخروج بعضهم منها، ولكن ظل منهم بقايا هناك دخل بعضهم في الإسلام مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه وغيرهما.

أما يهود الحجاز فقد انتشروا في واحات الحجاز مثل خيبر ويثرب وتيماء ووادي القرى، ولعل أهم عشائرهم في يثرب كانت عشائر بنو النضير وبنو قينقاع، وبنو قريظة، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج، وعملوا عندهم في الزراعة والحدادة، وصناعة الأسلحة ونسج الأقمشة، والصياغة، وعمدت العشائر اليهودية للإيقاع بين القبيلتين العربيتين مما أدى لنشوب حروب دامية بينهما استمرت حتى دخلوا الإسلام، فجمعهما الرسول ﷺ، وآخى بينهما، أما اليهود فقد ناهضوا الرسول وأثاروا معه الكثير من المناقشات التي صورها القران الكريم، كما حاولوا الوقيعة بين المسلمين، مما اضطر معه الرسول إلى إخلاء المدينة المنورة منهم كما سيأتي ذكره في الفصل القادم.

وتشير كتب السيرة إلى قيام يهود يثرب بتدارس دينهم في دور خاصة بهم عُرفت بالمدارس وكانوا يقرأون فيها التوراة ومزامير داود بالعبرية.. ثم تدريجياً اتخذوا من اللغة العربية لغة حياة يومية، حتى أنهم تعربوا ونظم بعضهم شعراً عربياً... كذلك تعرب يهود خيبر وفدك وتيماء، ولكنهم جميعاً اضمروا ثم أظهروا للإسلام والمسلمين العداء، فحاربهم الرسول وانتصر عليهم، وفي عهد عمر بن الخطاب تم إجلاء كل من ليس له عهد منهم، فخرج معظمهم من الجزيرة ما عدا نفر قليل[2].

أما النصرانية فقد انتشرت بدورها في اليمن وشمال غربي وشرقي الجزيرة العربية وبدأ ظهورها في اليمن منذ ق٤م على يد بعثات تنصيرية يدعمها قياصرة بيزنطة، بغرض فرض نفوذهم على جزيرة العرب طمعاً في خيراتها التجارية، وتدريجياً انتشرت النصرانية في نجران ومنها إلى ما يجاورها، وصارت نجران أهم المراكز النصرانية باليمن، وعندما زالت دولة ذي نواس الحميري على أيدي أرياط وأبرهة الحبشيين، تدعم مركز النصرانية وزاد انتشارها، وبنيت لها الكنائس في أكثر من مكان باليمن ولعل من أشهرها كنيسة نجران، والقليس في صنعاء وهي تعريب لكلمة Ecclysia اليونانية بمعنى الكنيسة، والتي قام بتشييدها

---

[1] سالم :المرجع السابق، ص ١٢٥ وما بعدها.

[2] جواد علي :المرجع السابق، ج٩١/١ وما بعدها، ص ١٧٧ وما بعدها، راجع أيضاً: سالم: المرجع السابق ، ص ٣٣٩ وما بعدها.

أبرهة واهتم بزينتها وزخرفتها[1]، وقد حولها المسلمون بعد دخول الإسلام لليمن إلى مسجد.

أما عرب الشام فقد انتشرت النصرانية بين قبائلها مثل الغساسنة وجُذام وُقضاعة وكلب واعتنقوها على المذهب اليعقوبي القائل بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام [2] ، كذلك وفدت النصرانية للعراق وانتشرت بين عرب تغلب وبكر وتغلغلت في الحيرة، وانتشرت بين شعبها الذى كان على المذهب النسطوري الذي يرى أن للمسيح طبيعتين ناسوتية ولا هوتة.. أما الأسرة الحاكمة (المناذرة) فقد تأخر تنصرهم إلى عهد النعمان آخر المناذرة كما سبق القول[3].

وبالنسبة لمكة قبل الإسلام كان الرقيق الوارد إليها من الحبشة على النصرانية، كما سكن بينهم طائفة من الروم النصارى. كذلك كان في المدينة المنورة بعض النصارى[4] كما انتشرت النصرانية في طئ ودومة الجندل، وجدير بالذكر أنه ينبغي إلا نبالغ في تصور عدد من تنصروا من العرب، كذلك نرجح أنهم كانوا غير متعمقين في هذا الدين أي أنهم عرفوا ظاهراً من دينهم دون التعمق في جذوره، وإن كانوا قد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع[5] .

٦ـ ***الحنيفية:***

والحنفاء هم طائفة من عقلاء العرب وُجد عندهم الاستعداد لفكرة الإله الواحد، وظهروا قبيل الإسلام بقليل، وأظهروا تشككهم في الديانات الوثنية الموجودة حولهم وسمت نفوسهم عن عبادتها، وباتوا يلتمسون ديناً جديداً يهديهم في تلك الحياة، ولعل من أشهرهم قس بن ساعدة الأيادي، وأمية بن أبي الصلت، وسويد بن عامر

---

(١) ياقوت :معجم البلدان، مادة (القليس)، راجع سالم: المرجع السابق، ص ١٣٩ وما بعدها .

(٢) ويعرفون بأصحاب الطبيعة الواحدة وصاحب هذا المذهب هو يعقوب البرادعي.

(٣) عندما اعتنقت هند بنت النعمان المسيحية وإليها ينسب دير هند الكبري بالحيرة. راجع :سالم: المرجع السابق، ص ٤٢٩-٤٣١.

(٤) أشار إليهم حسان في رثائه للرسول ﷺ بقوله:

فرحت نصارى يثرب ويهودُها   لما توارى في الضريح الملحد

راجع عن نصارى مكة والمدينة.

ابن الأثير : : أسد الغابة ، ج١/٣٨٧، ج٤/٢٣٢، ج٥/١٩٤-٤٦٢/٣٧٥ ابن هشام، ج١/ص٣٤٩، سالم :نفسه ، ص ٤٢٩ ـ٤٣٢، انظر أيضاً: تاريخ اليعقوبي ج١/ ص٢٩٨.

(٥) سالم : المرجع السابق، ص٤٣٢-٤٣٣، ولعل من مشاهير العرب الذين اعتنقوا المسيحية أرباب بن رئاب من عبد القيس، وعدي بن زيد العبادي وله شعر يتضح منه أن من تنصروا من عرب الحجاز قد خلطوا النصرانية بشيء من وثنيتهم حيث نظم قائلاً ما يؤيد ذلك حيث جمع في قسمه بين رب مكة الوثنية والصليب فيقول:

سعي الأعداء لا يألون شراً   عليَّ ورب مكة والصليب

كذلك كان من متنصرة العرب بحيرى الراهب، وورقة بن نوفل، وأبو قيس صُرمة بن إبي دانس من بني النجار وغيرهم. راجع سالم : نفسه، ص ٤٣٢-٤٣٣.

المصطلقي وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي القرشي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وعثمان بن الحويرث (الحارث)، وعبيد الله بن جحش، وهؤلاء الأربعة الأخيرين بوجه خاص أنكروا على قريش وسائر العرب عبادتهم للأوثان وابتعادهم عن دين إبراهيم عليه السلام ورفضوا الطواف حول أحجار لا تسمع ولا تبصر ولا تنصر ولا تنفع، وانطلقوا يلتمسون لأنفسهم ديناً، فتفرقوا يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، ويرى الإخباريون أن ورقة بن نوفل استحكم للنصرانية، وكذلك عثمان بن الحويرث أسد بيزنطة فتنصر، وعبيد الله بن جحش ظل الأمر ملتبساً عليه حتى أسلم، أما زيد بن عمرو بن نفيل فلم يدخل يهودية أو نصرانية منذ أن فارق الوثنية، واعتزل الأوثان والميتة والدم وقال ما أعبد إلا رب إبراهيم [1].

وكلمة حنيف معناها المائل عن دين آبائه، و جمعها أحناف أو حنفاء وحنيف صفة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، ووردت في قوله تعالى (قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [2]).وكانت الحنيفية على هذا النحو حركة دينية يقوم أتباعها على اتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وقد تواجد الحنفاء في مكة وغيرها من المناطق المحيطة بها، وقد أوردت المصادر الأدبية والتاريخية أخبار بعضهم غير الذين ذكرناهم سابقاً مثل زهير بن أبي سلمى، وكعب بن لؤي بن غالب، ومعظم هؤلاء وغيرهم كانوا نساكاً زاهدين تشككوا في عبادة الأوثان، وتفرقوا في البلدان بحثاً عن الدين الصحيح أي دين إبراهيم عليه السلام، وبعضهم اعتزل الناس وتفرغ للتأمل والعبادة واعتقدوا بوحدانية الله، وكان لهذه الأفكار أثرها في تداعي الأفكار والديانات الوثنية في شبه الجزيرة العربية، حيث ظهرت قبل الإسلام موجة من عدم التقدير للآلهة، والتعدي عليهم بالسب من ذلك ما رواه ابن الكلبي، وابن هشام [3] عن الشاعر امرؤ القيس عندما قتل أبوه، وأراد الثأر له،

---

[1] سالم : المرجع السابق ، ص ٤٣٥، السيد أحمد أبو الفضل: مكة في عصر ما قبل الإسلام، الرياض ١٩٨١، ص ٩٥.

[2] سورة البقرة:آية ١٣٥، ووردت الكلمة أيضاً في سورة آل عمران في قوله تعالى (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًا وَلاَ نَصْرَانِيًا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) آية ٦٧، وفي قوله أيضاً (وَمَنْ أَحْسَنَ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ الله إِبرَاهِيمَ خَلِيلاً) سورة النساء، آية ١٢٥.. وفي قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام (إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وما أنا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) سورة الأنعام آية ٩

[3] الاصنام، ص٣٥، السيرة ج٨٨/١، راجع أيضاً ابن الكلبي. نفسه، ص ٦١ حيث يورد رواية أخرى لعدي بن حاتم وسبب تنصره أن سادن أحد الأصنام أوقف ناقة لامرأة من كلب في فناء الصنم، فأرسلت المرأة جارها ويدعى مالك بن كلثوم لإطلاقها، فأطلق سبيلها برمحه فغضب السادن ورفع يده بالدعاء محرضاً الصنم على مالك بقوله :

يارب إن مالك بن كلثوم .. اخفرك اليوم بنات علكوم

وكنت قبل اليوم غير مغشوم

فاستقسم عند ذي الخلصة بالأزلام فخرج السهم ينهاه عن ذلك ، فسب الصنم، وكسر القداح، وألقي بها في وجه الصنم.

وأنشد قائلاً:

لو كانت يا ذا الخلص الموتورا   مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا[1]

وهكذا أنف الحنفاء من عبادة الأصنام، ودعوا إلى التوحيد، ويتضح ذلك من أشعار زيد بن عمرو بن نفيل حيث يقول:

أربـاً واحـداً أم ألف رب   أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً   كذلك يفعل الجلد الصبور[2]

وقد آمن الحنفاء بالله وبيوم الحساب ويتضح ذلك من أقوال بعض شعرائهم ومنهم ابن ثعلبة بن دبرة بن قضاعة حيث نظم قائلاً:

أدعوك يارب بما أنت أهله دعاء   غريـق قـد تشبث بالعصـم
لأنك أهل الحمد والخير كلـه   وذو الطول لم تعجل بسخط ولم تلم

وآخر يقول:

وعلمت أن الله جاز عبده   يوم الحساب بأحسن الأعمال[4]

وكان كعب بن لؤي بن غالب أحد أجداد الرسولﷺ من أشهر حنفاء العرب وكان يأمر قريش بالتفكير في خلق السموات والأرض، ويحثهم على صلة الأرحام والوفاء بالعهد ويذكرهم بالموت، ويبشرهم بمبعث رسول جديد[4] .

وهكذا كان هؤلاء الأحناف يمثلون حركة دينية هيأت المناخ والأذهان لتقبل الدين الجديد، ويمكن القول بأنها كانت إيذاناً بقرب البعثة النبوية الشريفة، وهذا يعني أن جزيرة العرب في بدايات ق٧م قد باتت مهيئة لأكبر نقلة في تاريخها، الأمر الذى ترتب عليه تغيير عظيم في أحوالها السياسية والاجتماعية والدينية،

وكان عدي يومئذ عثر عند الصنم،وجلس ومعه نفر يتحدثون بما صنع مالك، فاعتقد عدي أن مالك سوف يصيبه أذى من دعاء السادن عليه، ولكن مرت أيام دون أن يجري له شيئا، فرفض عدي عندئذ عبادته وعبادة غيره من الأصنام، وتنصر وظل على النصرانية حتى جاء الإسلام فأسلم، راجع أيضاً: سالم: نفسه، ص ٤٣٦.

[1] وتذكر الرواية أنه لم يستقسم عنده أحد بعده حتى جاء الإسلام فكان امرؤ القيس هو اول من أخفره، راجع سالم: نفسه، ص ٤٣٥-٤٣٦.

[2] الألوسي:ج٢٤٩/٢؛ ابن الكلبي: نفسه، ص٢٢؛ سالم: نفسه، ص ٤٣٧ حيث ذكرت الروايات أنه كان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل كما سبقت الإشارة الميتة والدم وذلك قبل بعث المصطفي عليه الصلاة والسلام؛ ومن المعروف أن الخطاب قد أذى زيداً حتى أخرجه إلى أعلى مكة، منزل بغار حراء ، راجع : الألوسي: نفسه، ج٢٥١/٢.

[4] الألوسي: نفسه،ج٢٧٦/٢. سالم: نفسه، ص ٤٣٨.

[4] الألوسي: نفسه ، ج٢٨٢/٢. سالم: نفسه، ص ٤٣٨.

حيث واكب ظهور النبي تداعي المعتقدات الدينية السائدة والضيق بتلك الديانات الوثنية، بل وَنَبْذ العرب لبعض العادات القبيحة التي انتشرت فيما بينهم مثل شرب الخمر، ووأد النبات، وارتكاب الفواحش وغير ذلك من القبائح التي نهى الإسلام عنها، هذا التداعي لتلك المعتقدات يرجع الفضل في تنبيه أذهان العرب إليه إلى هؤلاء الحنفاء من أمثال ورقة، وزيد بن عمرو، وغيرهم ممن دعوا أقوامهم إلى الدين الصحيح وترك عبادة الأوثان، وعندما كانوا يلاقون إعراضاً منهم، يذكرونهم بقرب ظهور نبي بين العرب يهدي الناس إلى الدين الصحيح[1].

في هذه البيئة، وفي هذه الظروف المواتية، ومن بين قبيلة قريش التي تعظمها العرب، ظهر ذلك النبي... في مكة المكرمة ظهر محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يدعو الناس إلى هذا الدين الجديد وقوامه الإقرار بالوحدانية وأن الألوهية لله الواحد الأحد، وبدأ يدعو الناس لهذا الدين الجديد، وترك ما عداه من ديانات ومعتقدات أخرى[2].

---

(1) المسعودي: مروج الذهب، ج١/٦٧-٧٥.

(2) السيد أحمد أبو الفضل، المرجع السابق، ص٩٩-١٠٠.

(٣)

الحياة الاقتصادية

في بلاد العرب قبل الإسلام

مع بدايات القرن السادس الميلادي بدأت أهمية بلاد العرب الاقتصادية وبخاصة حواضر الحجاز ومن بينها مكة تزداد بعد أن أمسك أهلها بزمام التجارة في بلاد العرب، وساعد على ذلك موقع حواضر الحجاز وسط الطريق التجاري البري الواصل بين اليمن والشام، والأمن الذي ساد هذا الطريق آنذاك، وأيضاً وجود البيت الحرام هناك وتعظيم العرب على إجماعهم له والحج إليه، علاوة على بُعد الحجاز عن منطقة الصراع الدولي الدائر بين الفرس والروم، وبالتالي أدى كل ذلك إلى احتفاظ الحجاز باستقلالها وطابعها العربي الأصيل.. وقد أتاح لها (لحواضر الحجاز) كل ذلك الفرصة الذهبية لتقوم بدور الوسيط التجاري بين الطرفين المتنازعين، مما أدى لتمتع الحجاز بظروف اقتصادية طيبة من جراء مزاولة التجارة الداخلية والخارجية، فأصاب تجارها ثراءً كبيراً من وراء ذلك، الأمر الذي عوضهم عن فقر البيئة المحيطة بهم، فاحتلوا نتيجة هذا الثراء مركز الزعامة في بلاد العرب مع بدايات القرن السابع الميلادى.

وقد تاجرت حواضر الحجاز في كل ما تنتجه الجزيرة العربية، وفيما يرد إليها من حاصلات الشرق والغرب ومنتجاتهما. وقبل ق٦م، كانت حواضر الحجاز تقتصر على التجارة الداخلية في شبه الجزيرة العربية، حيث كان النشاط التجاري الخارجي في يد حواضر اليمن، ولكن مع بداية ق٦م، كانت أوضاع اليمن قد تدهورت نتيجة الصراعات الداخلية المترتبة على الخلاف الديني الناتج عن انتشار اليهودية والمسيحية بهما والتنافس بينهما، علاوة على وقوعها في منطقة الصراع الدولية بين فارس وبيزنطة وحليفتها الحبشة التي تكررت حملاتها العسكرية على اليمن حتى سقطت في يدها في النصف الأول من ق٦م، ثم تحررت من نفوذ الأحباش لتقع تحت سيطرة الفرس عام ٥٧٥م، لتتدهور أوضاعها وتفقد مكانتها التجارية، لتتبوأها حواضر الحجاز الأكثر تنظيماً واستقراراً في ذلك الوقت، وبخاصة مكة تحت زعامة قبيلة قريش التي ورثت مكانة اليمن التجارية، وقد ساعدها على ذلك عدة عوامل منها: النزاع الفارسي البيزنطي وانشغال الدولتين بهذا الصراع، وتدهور أوضاع الممالك العربية في أطراف الشام والعراق نتيجة اشتراكهم في هذا الصراع مثل الحيرة إلى جانب الفرس، والغساسنة إلى جانب الروم، مما أدى إلى إغلاق طريق التجارة المارة بالعراق إلى مدن الشام، وعدم قدرة المناذرة في الحيرة على حماية التجارة الفارسية المارة في بلاد العرب، أمام

غارات القبائل العربية التي تجرأت أمام تدهور أمور فارس والحيرة ودخلت معهما في موقعة ذي قار وهزمتهما. كذلك اضطربت العلاقات بين الروم والغساسنة الذين انقلبوا مهاجمين للدولة البيزنطية مع قبائل بادية الشام[1].

وقد استفادت مكة من هذه الأوضاع، لتقوم بدور الوسيط التجاري الأول بين الشمال والجنوب، لتخرج حواضر الحجاز بعامة - ومكة بخاصة - من عزلتها إلى المجال الخارجي، ويتردد تجارها على البلاد المجاورة، وبرز منهم أبناء عبد مناف : هاشم وأخوته، وعملوا على ترتيب القوافل التجارية، فأصبح لمكة رحلتين في السنة، في الصيف للشام، وفي الشتاء لليمن، كما عمل هاشم على عقد المحالفات مع القبائل الساكنة على طريق التجارة لتأمين تجارات الحجاز، فكان يحمل تجارتهم دون أجر مما ربط مصالحهم بمصالح الحجاز مكوناً شبكة تجارية تربط مكة بما حولها، لتبدأ السيطرة القريشية على تجارة الشمال والجنوب، وكانت القوافل الحجازية تحمل حاصلات الجنوب، وحاصلات الهند الواردة لموانئ الجنوب ومنها الذهب والأحجار الكريمة والأخشاب والتوابل والبهارات بالإضافة إلى المنسوجات بأنواعها وآنية الحديد والفضة والصفر "النحاس"، كما حملت حاصلات إفريقيا الشرقية ومنها العطور وخشب الأبنوس والجلود والذهب والرقيق[2] ، علاوة على حاصلات اليمن من البخور والمر واللبان والعطور والأحجار الكريمة كالعقيق، وحاصلات جزر سوقطري من العود والند، ولؤلؤ البحرين. أما من الشمال فتحمل القمح والدقيق والزيوت والخمور ومصنوعات الساحل الفينيقي، ومعها حاصلات بلاد العرب من البلح والصوف والشعر والسمن والجلود وغيرها[3].

وكانت التجارات التي تُحمَل من الجنوب أو من الشمال وغيرها تفرغ في مكة، ومنها ما تستهلكه البيئة المحلية، ثم يُحمل الباقي للأماكن المحتاجة إليه، وكانت صلات مكة بالطائف وطيدة حيث كانت تحمل [illegible] الطائف الكميات من الزبيب والنبيذ والجلود المدبوغة، كذلك كان لها صلاتها التجارية بيثرب فيأخذ تجار مكة الكثير من ثمارها وكذلك الحلي والسلاح والتي كان اليهود يقومون على صناعتها، وكانت مكة بالنسبة لحواضر الحجاز هي السوق الدائمة والكبرى للتبادل

---

(1) فيليب حتى : المرجع السابق، ص٩٤-١٠٠، راجع أيـ... بن ... ج١/٢٩١.

(2) حتى، نفسه ص ٩٤؛ جواد علي:نفسه، ج٤/ ١٣٩ ... ١٤ ... ابن هشام: السيرة ، ج١/١٤٧، ١٨٠، الطبري، نفسه، ج٢/١٢-١٣، ١٨١؛ ابن الأثير: الكامل ... ١/ ١٠؛ اليعقوبي، نفسه، ج١/٢٠١-٢٠٢. جورج فاضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة السيد يعقوب بكر، الأنجلو، ص ٧٦. سالم: نفسه، ص٣٠٩.

(3) الطبري: نفسه، ج٢/٥٧/١٢٥. الواقدي، المغازي، ص... ابن هشام السيرة: ج /١٤٧. جورجي زيدان : العرب قبل الإسلام: ص١٥١، ١٧٨، ١٧٩.

التجاري، حيث تشتري مكة منتجات الجزيرة وتبيعها للقبائل المحيطة بها، وكذلك تبيع لهم ما تجلبه من بضائع خارجية وفي مقدمتها الملابس والأطعمة.

وجدير بالذكر أن تجارة حواضر الحجاز، لم تكن فقط تجارة أفراد، وأنما يمكن القول بأنه قد قامت بها تجارة مدينة فمكة مثلاً كانت قريش كلها تقريباً تشارك في تجارتها، فكبار تجارها يقومون على هذه القوافل التي تضم أموالاً لأفراد متعددين وأحياناً تحمل القوافل أموالاً لأهل مكة كلها[1] .

ولم تكن التجارة خاصة بالرجال دون النساء فقد وجد منهن الثريات اللائى اشتغلن بالأعمال التجارية ولعل أبرز مثال لذلك السيدة خديجة بنت خويلد(رضي الله عنها) التي كانت تتجر بمكة وتستأجر الرجال للسفر بتجارتها للشام، ومن هنا نقول بأن النشاط التجارى الخارجي لحواضر الحجاز لم يكن مجرد تجارة أفراد وإنما كان تجارة جماعية، وقد أصاب هذا النشاط الكثير من الأسر الحجازية بثروات طائلة، فهناك أبو أحيحة بن سعد بن العاص بن أمية الذي أسهم بـ٣٠ ألف دينار في قافلة واحدة وهي قافلة أبو سفيان التي كانت سبباً في موقعة بدر، كذلك كان هناك عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي الذي لقب بعدل قريش وكان شديد الثراء ومتاجره تفد إلى اليمن، وهناك عبد الله بن جدعان التيمي الذي شهر بحاسي الذهب لشربه في كأس من الذهب وغيرهم[2] .

وإلى جانب ما سبق عرفت الحواضر الحجازية مصادر أخرى للثروة الاقتصادية منها صناعة الأسلحة، وصناعة الفخار، كما عرفوا صناعة الأسرة والأرائك[3]، وعُرفت الطائف بصفة خاصة بالمزارع والحدائق، وتروي المصادر أن بعضاً من أثرياء مكة كانوا يمتلكون البساتين بالطائف، كما تتحدث الروايات عن رجل من العراق من أهل نينوى وكان نصرانياً يدعى عَدَّاس يعمل بستانياً في بستان يمتلكه عتبة وشيبة ابني ربيعة بالطائف[4] .

كذلك كان الصيد سواء من البر أو البحر من مصادر الثروة الاقتصادية لحواضر الحجاز، وكان العرب يستعينون بالطيور الجارحة والحيوانات المدربة كالكلاب في الصيد، كذلك استخدموا في الصيد النبال والشراك. وكان العرب قبل الإسلام يحرمون الصيد بأنواعه في الأشهر الحرم، فرفع الله عنهم هذا الحرج بالنسبة لصيد البحر، مما ينهض دليلاً على أن صيد البحر كان حرفة امتهنها الكثير

---

(١) ياقوت : نفسه، ج١/٢٣٩. ابن الأثير: الكامل،ج١/٣٤٤، ج٢/١٠، ابن كثير: البداية،ج٣/٤٥، ٢٢١.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، ج١/١٦، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، ٢/٢٩٤-٢٩٥، الواقدي، المغازي/١٨. سالم : نفسه، ص ٣١٠- ٣١١، ٣١٣.

(٣) سالم: نفسه، ص ٣١٣.

(٤) ابن هشام : السيرة، ج٢/٣٠، الواقدي: المغازي، ص ٢٣-٢٤، سالم: نفسه، ص ٣٢٨-٣٢٩.

من العرب وبخاصة القاطنين بحذاء السواحل المتاخمة لحدود شبه الجزيرة العربية، ويدل أيضاً على أنه كان ضرورة معيشية أوسع نطاقاً من صيد البر، ولذا أباحه الله تعالى في الأشهر الحرم. وجدير بالذكر أن الصيد إلى جانب كونه ضرورة معيشية سواء البري منه لسكان البادية، والبحري لسكان السواحل، إلا أن هناك الكثير من أهل الحجاز لاسيما ساداتهم كانوا يمارسونه كنوع من الرياضات [1] . ونختتم حديثنا عن الحياة الاقتصادية للعرب قبل الإسلام بأن هذا النشاط التجاري والاتصال مع الأقطار المجاورة أدى إلى مزيد من التمدين لحواضر الحجاز، فاتصالهم بالأنباط وأهل الحيرة أدي لمعرفتهم بالكتابة والخطوط المختلفة، كما عرفوا عن الأحباش بعض المعلومات الدوائية، واقتبسوا من الروم والفرس الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافات المتنوعة[2] .

---

(1) ابن هشام: السيرة، ج١/٣١٢.

(2) البلاذري: أنساب الأشراف، ص ٥٤٦.

(٤)
الحياة الاجتماعية للعرب
قبل الإسلام

كان التشكيل الاجتماعي للسكان في شبه الجزيرة العربية هو التشكيل القبلي .. أي أن القبيلة هي الأساس بها، ومن ثم، فإن المجتمع العربي في شبه الجزيرة كان يتكون من عدة طبقات هي:

١- *طبقة الصرحاء* : وهم أبناء القبيلة الأصليون...أي العرب الصرحاء الأحرار، أبناء القبيلة الواحدة الذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم، وهم الدعامة الأساسية للقبيلة وعليهم يقوم أمر حمايتها والتضامن معها، ونظراً لذلك تُسبغ عليهم القبيلة الحماية وتمنحهم كل الحقوق، ولا تبيح لهم الخروج على العادات والأعراف. ففي حالة ارتكاب فرد سلوكاً يسيء لسمعة القبيلة تقوم بنبذه، وإخراجه منها، فيعتبر خليع قبيلته، فيلجأ لقبيلة أخرى حيث يعتبر جاراً لها أو مولي من مواليها، أو يلجأ للصحراء ويعيش على قائم سيفه فيصبح بذلك صعلوكاً من صعاليك العرب، أو مغامراً ليتخلص من ذل الفقر[١].

٢- *طبقة الموالي*: ويدخل في هذه الطبقة الحلفاء وهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم، وتبرأت منهم لمخالفات شائنة ارتكبوها ثم دخلوا في قبيلة أخرى على أساس الموالاة بالجوار، كما يدخل في نفس الطبقة أيضاً العتقاء وكانوا في الأصل عبيداً ثم اعتقوا[٢].

وكان لهؤلاء الموالي سواء كانوا خلعاء أو عتقاء نفس حقوق أفراد القبيلة التي يوالونها وعليهم نفس الواجبات، وجدير بالذكر أن رابطة الجوار كانت مؤقتة، فهي قائمة ببقاء الجار في حمى مجيره، وتحل بخروجه، وفي هذه الحالة يعلن المجير أنه في حل من حمايته، ولكن رابطة الحلف تبقى، فهي رابطة قوية غير مؤقتة، وكانت الأحلاف إما فردية وإما جماعية كأن تتحالف قبيلة مع أخرى، وهذا الأمر أشبه بمعاهدة، وقد انتشر نظام الأحلاف بين القبائل العربية في العصر الجاهلي انتشاراً واسعاً، ويتم الحلف عن طريق المواثيق والعهود، ومن أشهر الأحلاف العربية حلف المطيبين وحلف الفضول، وحلف قريش والأحابيش، هذا ويُعد العتقاء موالي أيضاً حيث يرتبط المعتق بسيده العاتق برابطة الولاء[٣] .

---

(١) أحمد محمد الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي، القاهرة ١٩٥٦، ص٢٣٠، أحمد الشريف، المرجع السابق، ص ٣٤.

(٢) شوقي ضيف : العصر الجاهلي، ص٢٦٧.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ص٧٦، أحمد الشريف: المرجع السابق، ص ٣٤-٤٧ ،سالم: نفسه، ص ٣٨٤.

وقد نعم بعض الموالي بمكانة كبرى في المجتمع العربي قبل الإسلام. حتى أصبح مسموع الكلمة بين مواليه مثل الأخنس بن شريق الثقفي الذي يروي ابن هشام أنه استطاع بقوة حجته إقناع حلفائه بني زهرة بالرجوع عن المشاركة في غزوة بدر فرجعوا ولم يشاركوا فيها[1]، وكانت دار بديل بن ورقاء الخزاعي في مكة ملاذاً للخزاعيين عندما هاجمتهم بنو بكر بمعاونة قبيلة قريش [2]. وبديل هذا كان واحداً من الثلاثة الذين اتصلوا بالرسول ﷺ عند قدومه لفتح مكة، وأخذوا منه عهد الأمان لأهل مكة [3].

ومن هذا العرض الموجز نستفيد بأن طبقة الموالي في جزيرة العرب كانت طبقة ذات شأن وفاعلية في أوساط القبائل العربية، وقد أخلص هؤلاء الموالي إخلاصاً شديداً لقبائلها وقاتلوا في صفوفها، بل وهناك بعض القبائل التي اعتمدت عليهم اعتماداً كبيراً في صراعاتها القبلية مثال ذلك اعتماد قريش في صراعها مع المسلمين يوم بدر على الموالي بصفة رئيسة، وهذا نستنتجه من قائمة القتلى والأسرى من قريش، حيث نلاحظ أن من بينهم الكثير من الموالي[4]. وإذا راجعنا أسماء المهاجرين من مكة إلى يثرب مع النبي يمكننا أن ندرك أن طبقة الموالي في المجتمع المكي كانت كبيرة، فقد بلغ عدد المهاجرين إلى يثرب بعد بيعة العقبة الكبرى ٨٦ مهاجراً منهم (٤١) من صرحاء قريش والباقي من الموالي وكان غالبيتهم من حلفاء قريش[5].

٣- ***طبقة الأرقاء (الرقيق)***: وكانت بدورها هي الأخرى تمثل طبقة كبيرة في المجتمع العربي القبلي في الجاهلية، والرقيق إما أبيض أو أسود، ومعظمهم يشترى من الأسواق، وبعضهم يجلب من أسرى وسبايا الحروب... ومعظم الأرقاء في شبه جزيرة العرب كانوا من السود ويطلق عليهم الأحابيش[6] ويستقدمون من الحبشة أو السودان، وبعضهم من أسرى الحروب من الروم والفرس [7]، وكان أبناء الإماء البيض من آباء عرب يعرفون بالهجناء، أما أبناء الإماء السود، فعرفوا باسم أغربة العرب [8].

---

[1] السيرة، ج٢/٢٥٨.
[2] ابن هشام: السيرة، ج٤/٥.
[3] الأثنان الآخران هما حكيم بن حزام، وأبو سفيان بن حرب، راجع السيرة لابن هشام، ج٤/١٨.
[4] ابن هشام: السيرة، ج٢/٣٥٠-٣٦٧.
[5] ابن حزم: جوامع السيرة، تحقيق إحسان عباس، وناصر الأسد، دار المعارف، ص ١١٤-١٢٣.
[6] راجع
Lammens; l'Arabia occidentale avent l'Hegire,pp.٢٤٤-٢٥٧
[7] البلاذري: أنساب الأشراف، ص ٤٦٧-٥٠٧؛ ابن قتيبة: المعارف، ص ٤٨-٤٩.
[8] سالم: المرجع السابق، ص ٣٨٤-٣٨٥.

وكانت طبقة الأرقاء هذه أو العبيد محرومة من الامتيازات ومثقلة بالواجبات والأعمال التي يأنف منها العرب مثل الحدادة والنجارة وغير ذلك من الحرف، وكان في إمكان العبد أن يُعتق إذا أدى خدمة جليلة لسيده تبرر اعتاق رقبته وتحريره، وقد بلغ عدد الرقيق في حواضر العرب قبل الإسلام حداً كبيراً، معظمهم من أصل إفريقي اشتراهم سادات العرب للقيام على خدمتهم، ومما ينهض دليلاً على ذلك أن الجاحظ يروي أن سعيد بن العاص اشترى مائة عبد وأعتقهم جميعاً. كذلك يروي أن هنداً بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد ٤٠ عبداً من عبيدها [١].

أما الأسرى البيض فهم طائفة أخرى من الرقيق عرفتها حواضر جزيرة العرب وهؤلاء يأتون من الشمال من الشام والعراق، فكانوا يقعون في أسر الفرس أو الروم أو القبائل المتحالفة معهما، فيقومون ببيعهم في أسواق النخاسة، ومنها ينقلون للجزيرة العربية فيقومون بالأعمال الأرقى لساداتهم العرب، مثل إدارة تجارتهم،والقيام بالحرف الدقيقة التي تحتاج إلى مهارة وفن، كالبناء والزخرفة[٢].

كذلك كان هناك عدد كبير من الإماء منهن السوداوات اللائي كن يخدمن في منازل أثرياء العرب، ومنهن البيضاوات من الفرس والروم وغيرهن من الأجناس وكن يقمن على المنادمة وإرضاء نوازع النفس [٣]، حيث شاع بين العرب عادة التسريّ بالإماء، كما كانت الإماء "مادة البغاء" وهي إحدى الحرف الفاسدة التي تفشت في المجتمع العربي قبل الإسلام.

هذا وقد ترك الرقيق على اختلاف مشاربهم أثراً واضحاً في المجتمع العربي يتمثل في قائمة بالمصطلحات الرومية والفارسية والحبشية التي عرفتها لغة العرب قبل الإسلام، وخاصة ما يتعلق منها بالصناعات والحرف التي امتهنوها وأنف العربي الاشتغال بها.

٤ـ *__الجاليات الأجنبية:__* تحفل المصادر بأسماء عدد من الأجانب الذين ساكنوا العرب في جزيرتهم وتحالفوا مع ساداتهم ومنهم من كان مملوكاً، ومنهم من كان تاجراً، وبعضهم أدرك الإسلام فدخله[٤]، كما كان منهم أصحاب حرف وصناعات يعملون إما لحسابهم أو لحساب أشراف مكة، ومنهم من كان متميزاً في ثقافته الدينية، حيث كان من هؤلاء الأجانب النصارى واليهود، ونستلهم ذلك من الآيات القرآنية، فعلى

---

[١] الجاحظ: المحاسن والأضداد، القاهرة ١٩٠٦، ص ٧٧، شوقي ضيف : العصر الجاهلي، ص٥١.

[٢] ابن هشام : السيرة، ج١/٢٠٤، وقد أشار ابن هشام في موضع آخر إلى عامل رومي شارك في تجديد الكعبة مع قريش قبل البعثة النبوية، حيث تشير الروايات إلى وجود صور وتماثيل خشبية دقيقة بجوف الكعبة ولعلها من عمل هذا العامل ومن شاركه على شاكلته، راجع السيرة، ج١/٢٠٩ ـ ٢٠١، ج٤/ ٣١-٣٢. الطبري،نفسه، ج٢/٣٩-٤٠.

[٣] ابن الأثير: أسد الغابة ٣٨٧/١، ج٣٣٢/٤.

[٤] مثل كيسان وتميم الداري راجع: الأزرقي: أخبار مكة، ج٣٨٥/١، ابن الأثير: أسد الغابة ٢٥٨/٤-٢٥٩، ١٤٥/٥.

سبيل المثال خبر انكسار الروم أمام الفرس والبشرى بفوزهم يدل على تواجد النصارى بمكة، خاصة وأننا نعلم صلات مكة القوية بالشمال حيث كانت النصرانية هي ديانة غالبية أهل الشام، ومنتشرة أيضاً بين القبائل الساكنة على تخوم الشام والطرف الشمالي للعراق، علاوة على الحبشة واليمن وبخاصة في نجران[١] .

ومن كل هذه الجهات ورد عدد كبير من هؤلاء الكتابيين إلى حواضر الحجاز وعملوا في عديد من الصناعات، فوجدوا ترحيباً وتشجيعاً من سادات العرب، كذلك كان من هؤلاء من عمل بالتنصير في أنحاء الجزيرة العربية مثال ذلك ما ورد في كتب السيرة من أن شماساً زار مكة في الجاهلية [٢] ، كذلك كان في مكة نساء نصرانيات تزوجن من عرب مكة[٣] .

ويفهم مما ورد في بعض الآيات القرآنية أن النبي اتصل بأهل الكتاب وخاصة هؤلاء النصارى ودعاهم للإسلام[٤] ، وكان منهم الأثرياء الذين ينفقون في الخيرات[٥] . ومنهم من كان يتسم بقوة الشخصية ونفاذ الكلمة مما يوحي بأنهم كانوا أحراراً وليسوا أرقاء، بل وتميزوا ثقافياً بحيث كان يتم الرجوع إليهم والاستشهاد بهم في أمر الرسالة السماوية المحمدية [٦] .

وإلى جانب النصارى وجدت طوائف من اليهود لا سيما في اليمن ويثرب، وكان هناك أفراد منهم بمكة ولكن تأثيرهم كان محدوداً لقلة عددهم مقارنة بعددهم في اليمن ويثرب، وتشير كتب السيرة إلى صلة اليهود بعرب الجزيرة، وتجاراتهم مع حواضر الحجاز، وكان أثرهم واضحاً كما ذكرنا في اليمن ويثرب، حيث ذكر القرآن على سبيل المثال الكثير من مظاهر احتكاكهم بالنبي في يثرب[٧] .

مركز المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام:

كان للمرأة مكانة في مجتمع ما قبل الإسلام باعتبارها زوجة، فكانت تشارك الرجل حياته، ولذا كانت موضع تقديره ورعايته، وكان الزوج كل شيء في حياة الزوجة ترعاه وتخشى عليه، وإذا قتل أو مات حزنت عليه حزناً شديداً، ودليل ذلك ما فعلته حمنة بنت جحش إثر هزيمة المسلمين في موقعة أحد، عندما أخبروها بنبأ استشهاد خالها حمزة بن عبد المطلب وأخيها عبد الله قالت (إنا لله وإنا

---

[١] سورة الروم.راجع أيضاً ابن هشام: نفسه، ج١/٤١٨-٤١٩ حيث يذكر قدوم من نجران وفد لمباحثة الرسول ﷺ.

[٢] ابن هشام: السيرة ٣٤٩/١، ابن الأثير : أسد الغابة، ٣٧٥/٣.

[٣] السيد أبو الفضل: مكة في عصر ما قبل الإسلام، ص١٦٠.

[٤] راجع سورة الأعراف آية ١٥٧، سورة الحج آية ٥٤، سورة يونس آية ٩٤.

[٥] سورة القصص الآيات ٥٢، ٥٤.

[٦] سورة النحل آية ٢٣ (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ).

[٧] ابن سعد : الطبقات ، ج١/١٤٤، البلاذري : أنساب الأشراف، ٧٢/١-٧٣.

إليه راجعون، غفر الله لهما ورحمهما، هنيئاً لهما الشهادة)، ولما أبلغها الرسول بمقتل زوجها مصعب بن عُمير قالت (واحزناه) وعلّق الرسول على ذلك بقوله(إن للزوج مكاناً من المرأة ما هو لأحد) [1]. وقد تزهد المرأة في الزواج ثانية بعد مقتل زوجها وتظل وفية لذكراه، وقد تترهب كما فعلت هند بنت النعمان بن المنذر لما قُتل زوجها عَدِّي بن زيد، فحبست نفسها في الدير المنسوب إليها في الحيرة ورفضت الزواج بعده[2] .

وهناك دلائل كثيرة على أن بنات السادة كانت لهن منزلة رفيعة، فكانت الواحدة منهن تسأل في اختيار زوجها، وكانت تتركه إذا أساء معاملتها، كما كان منهن من يحمي من يستجير بهن، كذلك كانت النساء تخرج وراء الرجال في الحروب لشد عزائمهم، وندب من يقتل منهم والحض على الأخذ بثأره مثال ذلك الخنساء ومراثيها في أخويها صخر ومعاوية.

وليس أدل على مكانة المرأة أيضاً في المجتمع العربي قبل الإسلام من أن بعض الملوك انتسب إلى أمهاتهم المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، فأمه مارية بن عوف الملقبة بماء السماء من فرط جمالها، وعمرو بن المنذر المعروف بعمرو بن هند نسبة لأمه هند بنت عمرو بن حجر [3] .

ومن هذا العرض الموجز نرى أن المرأة لم تكن مهملة تماماً قبل الإسلام، بل كان لها قدرها ومكانتها، وقدر ملائم من الحرية لاسيما في حواضر الحجاز، بدليل مكانة السيدة خديجة أم المؤمنين وإتجار الرسول في أموالها قبل البعثة بأمرها، كذلك كانت المرأة العربية في أوقات السلم تقضي حياتها في مساعدة زوجها في عمله، إلى جانب الطهي وإعداد الطعام، وغزل الصوف، كما احترفت بعض الأعمال الأخرى التي تدر عليها أموالاً تعتمد عليها في حياتها كالتجارة، والإرضاع، والغناء، والنسيج، وغيرها. أما في وقت الحرب فتصحب زوجها لشد أزره وإثارة نخوته، ومداواة الجرحى، وسقي المحاربين وأحياناً تشترك في القتال[4] .

الزواج:

كان العربي في الجاهلية لا يكتفي بزوجة واحدة بقصد الإكثار من الذرية، وإذا كان رئيساً في قومه، فيصاهر عدداً كبيراً من القبائل ويُعد هذا زواجاً سياسياً، وقد عَرّف المجتمع العربي في الجاهلية أنواعاً عدة من الزواج منها:

---

(1) الواقدي: المغازي، ص٢٢٦.

(2) سالم : المرجع السابق، ص ١٠٤.

(3) الطبري:نفسه، ج١/ ٦٠٠. الأصفهاني: الأغاني بيروت ١٩٥٦، ج٢/ ٣٨١. حمزة الأصفاني: تاريخ سن ملوك الأرض والأنبياء، برلين ١٣٤٠ هـ/ ٧٢. سالم: نفسه، ص ٤٠٠.

(4) أحمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلى، ص ٣٤٩. راجع أيضاً : سالم : نفسه، ص ٤٠١-٤٠٢.

١- ***زواج الصداق (البعولة):*** ويتم بأن يخطب الرجل من الرجل ابنته، فيصدقها بصداق يحدد قدره، ثم يعقد عليها، وهذا الزواج هو المفضل عند غالبية قبائل العرب وبخاصة قريش، وقد أقره الإسلام.
٢- ***زواج المتعة:*** وهو تزوج المرأة إلى أجل محدد، فإذا انتهى افترقت عنه، ويقدم فيه الزوج صداقاً معيناً، والأولاد ينتسبون إليه ولهم حق الإرث، وقد نهى الرسول عنه[١].
٣- ***زواج المقت***: وهو أن يتزوّج الرجل زوجة أبيه بعد وفاته كجزء من ميراثه.
٤- ***زواج الإماء***: وهو زواج الرجل من أمَتِه، فإذا أنجب منها لا يحق لهؤلاء الأولاد أن ينسبوا إليه، فيظلوا عبيداً له، وقد يعتقهم حسب رغبته.
٥- ***زواج السبي***: وهو زواج المحارب بإحدى سباياه، ولا يشترط صداقاً لهذا الزواج. كذلك عرف العرب في الجاهلية أنواعاً أخرى من الزواج ولكنها لم تكن شائعة مثل زواج الرهط، والاستبضاع والبدل وغيرها[٢].

وكان العرب في الجاهلية يُطلّقون نساءهم ثلاثاً على التفرقة، أو على الخلع بمال. وإذا طُلّقت المرأة أوماتت عنها زوجها، كانت تقضي العدة حولاً كاملاً لا تتزوج خلاله حتى يتضح إن كانت حاملاً أم لا، حفاظاً على النسب[٣].

وكان العرب يؤثرون البنين على البنات لأسباب عدة تتعلق بطبيعة المجتمع القبلي القائم على العصبية والنسب، والحاجة للذكور في الصيد والحرب والغزو بجانب المحافظة على النسب، ولكن ذلك لا يمنع أن هناك من دَلّل بناته وعطف عليهن حتى أن بعضهم كني بأسماء بناته دلالة على إعزازه لهن مثل ربيعة بن رياح والد الشاعر زهير فكُنّي بأبي سلمى، والنابغة الذبياني وكان يُكنى بأبي إمامة[٤]، ووجد الكثير على العكس من ذلك كرهوا بناتهن، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ) وفي قوله تعالى بسورة الزخرف (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ)[٥] ، حيث كان العربي يحزن ويسود وجهه من الحزن، ويفكر في الاحتفاظ بهذه المولودة واحتمال الهوان في ذلك، أم يؤدها حية في التراب، فكان وأد البنات إحدى الآفات الاجتماعية التي عرفها المجتمع العربي الجاهلي في

---

[١] جواد علي:المرجع السابق؛ نفسه، ج ٥/ ص ٢٤٥؛ سالم : نفسه، ص ٣٩٤.
[٢] جواد علي: نفسه، ج ٥/ ص ٢٥٤. الألوسي : نفسه، ج٢/٣-٦، ٥٣. أحمد الحوفي "المرأة" ص ٢١٠، سالم: نفسه، ص ٣٩٤.
[٣] قد أبطل الإسلام ذلك وجعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً، راجع: الحوفي: المرأة، ص ٢٢١، سالم: نفسه، ص٣٩٥.
[٤] الأصفهاني: الأغاني ج٩/٢٩٤، ٣٢٩، ج١٤/٢٢٨.
[٥] راجع : سورة النحل آية ٥٨/٥٩، سورة الزخرف آية ١٧.

بعض قبائله مثل تميم وقيس هذيل وكنده وبكر وقريش، وتعددت واختلفت أسباب الوأد عند العلماء والباحثين، ومن هذه الأسباب:

١- الغيرة والخوف من العار إذا تعرضن للسبي.
٢- الخوف من الإملاق والفقر.
٣- وجود صفات في البنت يتشاءم منها أهلها كأن تكون برشاء أو كسحاء أو شيماء (سوداء).
٤- وقد أرجع البعض الوأد لأسباب دينية كإظهار الشكر لله على نعمه.. فيكون الوأد تقرباً للآلهة، مثلما كان شائعاً عند اليونان والرومان وبعض الشعوب الأخرى[١]
٥- ويرجع البعض الوأد لعوامل اجتماعية بعضها يتعلق بصحة الطفل إذا ولد مشوهاً أو ضعيفاً أو مصاباً بمرض لا شفاء منه، فتركه يجعله عالة على أهله، ومنها ماله علاقة بكثرة عدد البنات في الأسرة الواحدة[٢].
٦- وأرجع البعض الوأد للعامل الاقتصادي ولعله من أقوى العوامل جميعاً إلى جانب الخوف من العار إذا تعرضت بنات العرب للسبي، وقد أشار القرآن الكريم إلى أثر الفقر في إقبال بعض العرب على وأد بناتهم، ونهي الله تعالى عن ذلك، لأن الرزق بيده هووحده سبحانه وتعالى فهو يرزق الأبناء كما يرزق الآباء[٣].

---

[١] الألوسي:نفسه، ج٣/ ص٤٢.
[٢] جواد علي: نفسه، ج٥/٢٠٢، أحمد الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، القاهرة ١٩٥٦، ص١٦١.
[٣] سالم: نفسه ، ص ٣٩٩-٤٠٠.

(٥)
الحياة الفكرية للعرب قبل الإسلام

الأدب:

مارس عرب الجاهلية ألواناً شتى من الأدب، فقد عُرفوا على وجه العموم بالبلاغة والفصاحة، وقد حفظت لنا المصادر الأدبية القديمة كطبقات ابن سعد، والعقد الفريد، والأغاني، طائفة كبيرة من ألوان الأدب التي مارسها العرب قبل الإسلام ومنها الخطابة والوصايا والأمثال والشعر، فعلي سبيل المثال، كان من أبرز شعراء قريش في العصر الجاهلي الزبير بن عبد المطلب، وعبد الله بن حذافة وهبيرة بن أبي وهب المخزومي وغيرهم[1] من شعراء القبائل التي سكنت حول مكة.

كذلك أمدتنا المصادر السابقة بعدد غير قليل من الأمثال التي شاعت بين عرب الجاهلية وهي تعطي لنا فكرة جيدة عن المستوى الأدبي الذي بلغته حواضر الحجاز في العصر الجاهلي، ومنها "عند جهينة الخبر اليقين"، "ما حيلة الرامي إذا انقطع الوتر"، "مُكره أخوك لا بطل"، "غدَرك من دَلّك على الإساءة"، كما كثرت الحكم والوصايا عندهم، واشتهر كثير من الحكماء، وتناقل العرب على ألسنتهم ما ذكروه من وصايا وتعاليم للإفادة منها في حياتهم، وقد ذكر لنا الجاحظ عدداً من القدماء تميزوا بالبيان والخطابة والحكمة مثل "لقمان بن عاد، لؤي بن غالب، وقصي بن كلاب، وأكثم بن صيفي، ولبيد بن ربيعة، وهرم بن قُطبة،... وآخرين" وتمتلئ كتب الأدب والشعر الجاهلي بما دار على لسان لقمان وغيره من حكماء الجاهلية من حكم ووصايا مثال ذلك قول أكثم بن صيفي " مقتل الرجل بين فكيه" وقول عامر بن الظرب " رب زارع لنفسه حاصد لسواه" [2].

وقوله طرفه في معلقته:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد

وفي معلقة زهير طائفة كبيرة من هذه الحكم منها قوله:

ومن لا يصانعْ في أمور كثيرة يضرَّس بأنياب ويوطأ بمنسِم
ومن لا يذدْ عن حَوضِه يُهدَّم ومن لا يَظلِم الناس يُظلَم
ومن هاب أسباب المنية يلقها ولو رام أسباب السماء بُسلَّم
ومهما تكُنْ عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلَمِ[3]

---

[1] أحمد السباعي: تاريخ مكة، ج١، ط٢، مكة ١٣٨٠هـ، ص٣٩-٤٠.
[2] البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام هارون، ج١/٣٦٥.
[3] الجاحظ : البيان والتبيين ،ج١/٣٠٩.

وهناك أيضاً من شعرائهم من وقف كثيراً عند الحياة والموت، وكان لهم فيها الكثير من الحِكم صاغوها شعراً، كما حدثت حكمهم أيضاً عن الكثير من حقائق مجتمعهم ومعايشهم مما يدل على تجربتهم الواقعية [١] .

أسواق العرب:

كان للعرب قبل الإسلام أسواق عامة شهيرة يجتمعون فيها للتجارة وتبادل المنافع على اختلافها، ومن أهم هذه الأسواق "سوق عكاظ" الواقع بين الطائف ومكة ، وكان ينعقد سنوياً في أول ذي العقدة ويستمر لمدة تزيد على أسبوعين [٢] ، وقد اتسع لجميع قبائل العرب، فكل قبيلة كان لها موقعاً معيناً ومكاناً خاصاً في السوق، وكان الإشراف على السوق لبني تميم، ويساعدهم أشخاص من قبائل أخرى كانت تقوم على جمع السلاح من الواردين على السوق وإبقائها عندهم لنهاية السوق إمعاناً في إشاعة الأمان والاطمئنان، ومن أبرز رؤساء سوق عكاظ " الثري القرشي المعروف" عبد الله بن جُدعان.

وجدير بالذكر أن عكاظ لم يكن سوقاً للتجارة فقط، وإنما كانت ساحة لاستعراض مواهب العرب في الخطابة والشعر، أي بمثابة منتدى أدبي، كما كان مكاناً للفصل في الخصومات، وفداء الأسرى ودفع الديات، بل وعقد الزيجات، كما كان المتنصرة يفدون بدورهم إلى السوق يدعون لديانتهم، فكان كما سبق القول منتدى عام يضم ويحوي كل مظاهر النشاط الإنساني لعرب الجزيرة فكرياً واقتصادياً واجتماعياً.

وكان النشاط الأبرز والأكثر شهرة هو ميدان الفكر والثقافة حيث وفد على السوق الكثير من الشعراء والخطباء العرب من أنحاء شبه الجزيرة للتباري في إلقاء القصائد والخطب.

ومن أسواق مكة أيضاً "ذو المجاز" وكان قريباً من عكاظ ويستمر انعقاد هذا السوق لنهاية موسم الحج، وبجانب هذين السوقين، وجدت أسواق أخرى أقل أهمية وشهرة، ومعظم نشاطها كان اقتصادياً منها سوق الحِجْر باليمامة، وسوق خيبر وسوق دومة الجندل، وسوق صنعاء، وسوق حضرموت، وسوق هَجَر وسوق عدن وسوق الحيرة، وسوق صحار ودُبَا في عُمان، وكل من هذه الأسواق كان لها وقتاً محدداً تقام فيه[٣] .

معارف العرب وعلومهم:

اتصل عرب شبه الجزيرة العربية لاسيما الشماليون منهم بالحضارات المجاورة في مصر وبلاد الشام وفارس وبلاد الروم، مما نتج عنه تأثيرات متعددة

---

[١] السيد أحمد أبو الفضل: مكة ، ص ١٨١-١٨٢.

[٢] ياقوت : معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧م، مادة عكاظ.

[٣] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١/٣١٣؛ جواد علي: المرجع السابق، ج٤/ ٢٢٣.

تأثروا بها، حيث دخلت النصرانية واليهودية بلاد العرب وخاصة الحجاز واليمن، كذلك تأثروا إلى حد ما بفنون الحرب الشائعة عند الروم والفرس، وعرفوا بعضاً من أخبارهم وتواريخهم [1]، إلى جانب ذلك سادت بعض المعارف والعلوم بين عرب شبه الجزيرة من بينها:

١- ***الأنساب:*** فكان عرب الجاهلية على علم تام بالأنساب والأيام يحفظونها عن ظهر قلب، حرصاً على عدم انتساب فرد لغير قبيلته وقومه، وهذا ينبع من اعتزازهم بالعصبية والعشيرة، وميلهم إلى الفخر بأنسابهم، ولعل من أشهر هؤلاء النسابين زيد بن الكيس النمري، ودَغْفَل بن حنظلة الشيباني، كما كان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ من أشهر نسابي العرب.

٢- ***النجامة (المعرفة بالفلك والنجوم):*** وجاء تمكنهم في ذلك الجانب من وراء مخالطتهم للشعوب والأمم المجاورة فحصلوا في علوم الفلك والنجوم على معلوماتهم الأولية التي تعتمد على التجربة والمخالطة، فعرفوا النجوم ومواقعها، والرياح والأنواء ومواقيتها، والكواكب ومطالعها، فتوصلوا لمعرفة أوقات الريح والمطر، وأوقات الخصب والجدب، ولعل اختلاطهم بالكلدانيين في الشمال جعلهم يستمدون معارفهم منهم في علوم النجوم، فعرفوا مواقع الأبراج ومنازل الشمس والقمر، وأسماء الكواكب والبروج، ولعل من أشهر عرب الجاهلية معرفة بعلم الفلك" بنو مرة بن هَمَّام الشيباني، وبنو حارثة بن كلب "[2]

٣- ***القيافة*** : وهي فرعان: قيافة الأثر، وقيافة البشر .. أما الأول فمعناه: الاهتداء بآثار الأقدام في الرمال على أصحابها ومرد فعالها، بهدف الاهتداء إلى من يفر من الأفراد، أو يضل الطريق من الحيوان.. وكان بعض العرب قد تفوقوا في هذا المضمار حتى كانوا يفرقون بين آثار الأقدام للرجل والمرأة، الشباب والشيوخ، الأعمى والبصير. أما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئة الإنسان وصفة أعضائه على نسبه. وكان من قائفي العرب بنو مُدلج من كنانة، وبنو لهب من الأزد كما كان عمر بن الخطاب ﷺ قائفاً فطناً في الجاهلية [3].

٤- ***الكهانة والعرافة:*** أي مطالعة الغيب، والإخبار بالمستقبل، وجرى العرب على التفرقة بين الكاهن والعَّراف، فالأول يختص باستطلاع المستقبل، أما

---

[1] من المعروف أن الرسولﷺ قد أخذ يوم الخندق بمشورة سلمان الفارسي بحفر الخندق حول المدينة كي لا تستطيع قريش اقتحامها، فكان أعلم من غيره ممن حول الرسول بفنون الحرب وأساليبها. راجع ابن هشام، السيرة، ج٣/ص٢٣٥. راجع أيضاً ج٣٢١/١ حيث يروي قيام النضر بن الحارث بالسفر إلى الحيرة حيث نال قسطاً من علوم الفرس وخبر تاريخهم وعندما عاد لمكة كان يسامر عرب مكة بحديثه عن ملوك فارس وأبطالهم.

[2] السيد أحمد أبو الفضل، مكة، ص ١٨٥- ١٨٦.

[3] السيد أحمد أبو الفضل : نفسه، ص ١٩٣-١٩٤.

العراف فيختص بالمدعي - الكشف عما كان به من أمور وأحوال، وكانوا يعتقدون بأن لكل منهما خادماً من الجن يأتيه بالأخبار، ولذا اشتد إيمانهم بهما فكانوا يلجأون إليهم في الشدائد والخطوب يستطلعون رأيهما، فهما لدى العرب أعلم الناس بالفلسفة والطب والدين، ولذا كان الملجأ إليهم في المشورات والفتيا خاصة الكهان الذين كانوا يصطنعون لغة خاصة بهم تتسم بالغموض، لإضفاء هالة من القدسية حول كلامهم، وحتى يحتمل الكلام تأويلات كثيرة، ولعل من أشهر قصص الكهانة والعرافة التي عرفها العرب، قصة عَرّافة خيبر التي لجأت إليها قريش لأخذ رأيها في مسألة عبد الله بن عبد المطلب وقصة فدائه، عندما همّ والده بذبحه، بعد الاقتراع بالسهام على أولاده عند "هُبَل" في جوف الكعبة - وفاءً بنذره الذي نذره للآلهة عندما عزم على حفر بئر زمزم، فعيّرته قريش بقلة الولد، فلما عُرِض الأمر على العَرّافة أشارت بأنْ يضربوا القداح على الإبل وعلى عبد الله، فإن خرج القَدَح على عبد الله يزيدوا الإبل (الدية) عشراً في كل مرة حتى يرضى (الرب)، ففعلت قريش ما أمرت به الكاهنة حتى بلغ فدا عبد الله مائة من الإبل فخرج القدح عليها، فنحر عبد المطلب الإبل وأطعم بها سائر مكة حتى طرح ما تبقى منها على الطير والوحش فأكلوا منها، لينجو عبد الله من الذبح بفضل مشورة تلك الكاهنة الحصيفة[1].

وقد عرف العرب مجموعة شهيرة من الكُهان والعرافين منهم شِقّ إنمار، وسطيح، والأبلق السعدي (عراف نجد)، ورياح بن عجلة (عَرّاف اليمامة)،وسواد بن قارب الدوسي، و طريفة الخير كاهنة اليمن التي أنذرت بسيل العرِم وخراب مأرب، .وهناك أيضا سلمى الهمدانية، وسليمي الحميرية، وعفيراء من حمير أيضاً، والزبراء كاهنة حضرموت وفاطمة الخثعمية كاهنة مكة وغيرين[2]

٥- ***العيافة:*** أي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور، واشتهر بها بنو أسد وبنو لهَب، وكانت محل تفاؤلهم وتشاؤمهم، فإذا طارت يميناً تفاءلوا، وإن جرت يساراً تشاءموا، كذلك كان عندهم الطرق بالحصى أي ضربها ببعضها للكشف عن الغيب، وإن كان هذا الأمر محل اعتراض بعض عقلاء العرب فلم يعبأوا به مثل لبيد بن العامري الذي قال:

لعُمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ[3]

٦- ***الفراسة:*** وهي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية، مثل الاستدلال بشكل الإنسان وهيئته وكلامه وصفاته الجسدية الظاهرة على مناقبه ورذائله،

---

(١) السيد أحمد أبو الفضل : نفسه، ص ١٩٤-١٩٦.

(٢) السيد أحمد أبو الفضل: مكة، ص ١٩٤-١٩٥.

(٣) الجاحظ: الحيوان، ج٣/٤٣٨ وما بعدها

فكانوا يستدلون بضيق العين على الشُح (البخل) وباتساع الجبهة على الذكاء، وبعرض القفا على الغباء .. وغير ذلك.

٧- *الريافة:* وهي استنباط الماء من جوف الأرض، والاستدلال على وجوده من رائحة النبات الموجود بالأرض،أو بشم ترابها.

٨- *التاريخ وقصص الحروب (أيام العرب)*: كان لأحبار اليهود وقساوسة ورهبان النصارى الذين عاشوا بين ظهراني العرب في شبه الجزيرة دوراً فعالاً في معرفة العرب بالتاريخ فقد حدثوهم ورووا لهم الكثير من القصص التاريخي الوارد في التوراة والإنجيل والكثير من الأخبار عن اليهود والنصارى من أبناء الشعوب والدول المجاورة، كذلك انتقلت إليهم أخبار دولتي الروم والفرس عن طريق اتصالهم التجاري ببلاد الشام حيث الغساسنة حلفاء الروم وببلاد فارس عن طريق الحيرة وملوك المناذرة.

وبالإضافة إلى ذلك كان العرب قصص خاصة بهم تروي وقائعهم وحروبهم؛ وكتب الأدب والمصادر التاريخية مليئة بهذه القصص أو ما يطلق عليها أيام العرب، وكانت هذه الأيام غالباً ما تسمى بأسماء المناطق والبقاع التي دارت فيها أو بجوارها مثل يوم شِعْب جبلة وكان بين عبس وحلفائها وذبيان وحلفائها، ويوم عَيْن أباغ بين المناذرة والغساسنة وغيرها، كما كانت هذه الأيام أحياناً تسمى بأسماء السبب في نشوبها واشتعالها كحرب داحس والغبراء، وحرب البسوس وهما من أشهر حروب العرب وأطولها زمناً[1]، ونوجزهما فيما يلي:

حرب داحس والغبراء: وكانت في بدايات العصر الجاهلي، وهي من أيام العدنانية المشهورة وسبب نشوبها كان سباقاً على رهان بين الفرسين (داحس ـ الغبراء) فعُرِف اليوم بهما، وكان قد أجرى السباق سيدا عبس وذبيان وهما: قيس بن زهير العبسي، وحذيفة بن بدر الفزاري، وأوشك داحس على الفوز، ولكن رجلاً من ذبيان اعترضه بناءً على أمر من حذيفة وَنفَّره، فابتعد عن طريق السباق، لتفوز به الغبراء، ورفض قيس الاعتراف بسبق الغبراء، وطلب الرهان المعروض وكان مائة بعير، ليصطدم الفريقان وتندلع الحرب وتظل لسنوات طويلة، حتى كاد الحيّان أن يهلكا، فتدخل اثنين من حكماء ذبيان لوقف الحرب وهما "هرم بن سنان والحارث بن عوف بن حارثة المري" وتحملا ديات القتلى لتضع الحرب أوزارها بين الحيين ومن انضم إليهما من الحلفاء مثل عامر التي حالفت عبس، وتميم وأسد اللتان حالفتا ذبيان [2].

---

(1) سالم: نفسه، ص ٣٧٥-٣٧٦.

(2) سالم :نفسه، ص ٣٨١-٣٨٢.

أما حرب البسوس: فقد اندلعت بين قبيلتي بكر وتغلب في أخريات القرن الخامس الميلادي، وكان السبب اعتداء "كليب" سيد تغلب على ناقة للبسوس خالة جَسَّاس بن مرة سيد بكر،حيث رماها بسهم أصاب ضرعها فاختلط لبنها بدمها، فلما علم جَسَّاس بما حدث غضب لكرامته، وثار، وتَحَيَّن الفرصة للنيل من كليب وبالفعل قتله، لتنشب رحى الحرب بين القبيلتين ولمدة أربعين سنة تقريباً، وتعددت أيامها مثل يوم عُنَيْزَة، ويوم واردات، ويوم "قِضَّة"، وغيرها حتى أنهكت هذه الحروب الفريقين، فلجأ إلى الحارس بن عمرو الكندي الذي أصلح بينهما، وجدير بالذكر أنه نمت في العصور الإسلامية الكثير من الأساطير الشعبية حول أبطال هذه الحروب ومنهم عنترة بطل حرب داحس والغبراء، والمهلهل أخو كليب بطل حرب البسوس[1].

الطب: استمد العرب معارفهم الطبية من التجربة الواقعية طبقاً لما أورده ابن خلدون[2] حيث يقول "وللبادية من أهل العمران طب" يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي، ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير".وكان (في العرب) أطباء معرفون كالحارث بن كَلَدَة وغيره، كذلك عرف العرب التداوي بالعسل، وخلاصات بعض النباتات، ونقيع بعض الأعشاب،علاوة على الرُقى والتمائم التي يتلونها لأصنامهم لتقيهم شرور الجان.

كذلك عرف العرب الطب الوقائي ويظهر ذلك في حِكَمِهم الطبية "المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء" وقولهم " آخر الدواء الكي"، والذي كان يستخدمونه في الطب الجراحي حيث كانت النار عندهم من عوامل التعقيم والتداوي ومقاومة مضادات الفساد للجراح، كما كانوا يمنعون الجريح من شرب الماء خشية هلاكه.. ولعل فيما سبق من تجارب العرب الطبية ما يتفق والطب الحديث مثل تعقيم الشفار (أدوات الجراحة) بالنار، ومنع الملدوغ من النوم حتى لا يسري السم في سائر بدنه.

ونلاحظ من الاطلاع على معاجم اللغة ورود أسماء الكثير من الأمراض والعقاقير وأسماء أعضاء الإنسان والحيوان وصفاتهما التشريحية، مما يشير إلى أنهم كانوا على معرفة طبية بتشريح الجسم وصفاته وأنواع بعض الأمراض وكيفية علاجها.

---

(١) السيد أحمد أبو الفضل: مكة ، ص ١٩١، سالم: المرجع السابق، ص ٣٧٩-٣٨١.

(٢) المقدمة : ج٣/١١٤٣-١١٤٤.

أما عن أشهر أطبائهم ففي العصور القديمة كان الكهنة والعرافين هم الذين يقومون بالتطبيب، ثم قام إلى جانبهم جماعة بعد ذلك تخصصوا في الطب وصار حرفتهم، ولعل ذلك يرجع إلى مخالطتهم الفرس والروم في القرن السادس الميلادي، ومن أشهر هؤلاء المتطببين ابن حِذيم التيمي وكان مضرب الأمثال في صنعته، ومنهم الحارث بن كَلَدَة الثقفي (ت عام ١٣هـ)، وهو من الطائف ورحل لفارس حيث حذق الطب من علماء الفرس، ورجع بعد ذلك إلى موطنه، وصارت له شهرة واسعة، حتى أن الرسول ﷺ كان ينصح أصحابه باستشارته عند مرضهم، كذلك من أطباء العرب النضر بن الحارث بن كَلَدَة، وحذق الطب وتعلم الفلسفة على أيدي علماء فارس هناك أيضاً ابن أبي رومية التميمي وكان جراحاً بارعاً، وهناك شق آخر من الطب ونعنى به "البيطرة أو الطب الحيواني، وكانت للعرب معرفة ظاهرة به خاصة ما اتصل منه بالخيل والإبل وما يتصل بهما من علل وأمراض وكيفية مداواتها وقد أشار الجاحظ في كتابة عن الحيوان بما يفيد بأن عرب الجاهلية قد عرفوا كثيراً عن حيواناتهم وخصائصها وعِللَهَا وكيفية علاجها مما أفاد الجاحظ ذاته الذي كان باحثاً في علوم الحيوان [1].

---

[1] الحيوان ، ج٦/٢٩، وللمزيد راجع: السيد أحمد أبو الفضل: المرجع السابق، ص ١٨٦-١٨٨.

الفصل الثاني

السيرة النبوية

"الفترة المكية"

السيرة النبوية*

ظهور الإسلام:

أ- الفترة المكية:

١- ميلاد النبي ﷺ وطفولته:

من المتعارف عليه أن النبيﷺ ولد في فجر يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول الموافق ٢٠ أغسطس سنة ٥٧١م وهو العام المعروف بعام الفيل عند العرب، وضعته أشرف عقيلة في قريش، وهي آمنة بن وهب، وضعته يتيماً، حيث توفي أبوه عبد الله بن عبد المطلب، وهو جنين في بطن أمه.

ذلك أن عبد الله خرج إلى الشام في إحدى الرحلات القرشية التجارية، وعندما فرغوا من تجارتهم، وهم في طريق العودة مرض عبد الله بن عبد المطلب، فقال: أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً، ومضى أصحابه، فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله، فقالوا: خلفناه عند أخواله بني النجار، وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب أكبر أولاده ويُدعي الحارث، فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة، فرجع إلى أبيه فأخبره، فحزن عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته حزناً شديداً، ورسول الله ﷺ يومئذ لايزال جنيناً في بطن أمه، ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفي خمس وعشرون سنة.

وكان ذلك أول ابتلاء يواجه الطفل الوليد.. وإن كان لا يدري شيئاً عن معاني اليتم إلا أن المقادير كانت تدري، وكانت تؤهله لأمر عظيم، وألهمهم الله عز وجل أن سموه محمداً[١]، وظلت آمنة ترضعه ثلاثة أيام، ثم أرضعته ثويبة جارية أبي لهب لمدة أربعة أشهر، ثم ظهرت حليمة السعدية فتعهدت بمهمة إرضاعه جرياً على المألوف من عادات أشراف العرب، وظل معها في البادية عامان، ثم حملته لأمه، وألحت عليها أن يعود معها للبادية فوافقت آمنة، ولكن بعد فترة أعادته لأمه خشية عليه [٢]، وبعد ست سنوات من عمره، ماتت أمه أيضاً[٣]، فنشأ بذلك

---

* إعداد د. أسامة حماد.

[١] ويروى في ذلك أن عبد المطلب احتضن حفيده وليداً وحمله إلى الكعبة ودعا له وأسماه محمداً وعندما تساءلت عشيرته عن السبب في إعراضه عن أسماء الأجداد أجابهم قائلاً "أردت له أن يكون محموداً في السماء والأرض"، وإن كان ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة يؤكدون أن أمه (آمنة) هي التى أطلقت عليه هذا الاسم بناءً على هاتف أتاها بذلك، راجع: على أكبر فياض: تاريخ الجزيرة العربية والإسلام، ص ٦٤.

[٢] حيث حدثت له حادثة مشهورة خافت على أثرها حليمة على الطفل فأعادته لأمه، وهي حادثة شق صدره والتى أخبرها بها ولدها فهرعت إليه فوجدته واقفاً يشع وجهه نوراً، فأعادته لأمه خوفاً أن يكون قد " مسه الجن" .

[٣] وذلك عندما أخذته لزيارة عشيرة أبيه من بني النجار، فماتت في طريق العودة من المدينة ودفنت في الأبواء، وعاد محمد إلى مكة صحبة أم أيمن جارية أبيه التي كانت مصاحبة لهما في الرحلة.

يتيم الوالدين، وقد كفله جده عبد المطلب إلى أن مات هو الآخر، وكان سن الرسول ﷺ وقتئذ ثمان سنين، ثم بعد ذلك كفله عمه أبو طالب بن عبد المطلب شقيق أبيه.

٢- شباب النبي ﷺ:

ويذكر المؤرخون أن النبي ﷺ شارك في الحياة العامة في مكة منذ طفولته مشاركة كان لها أثر كبير في حياته، فقد شارك في الحياة السياسية في المدينة المكية، فيروي كتاب السيرة مشاركته في حلف (الفضول) وكان هدف هذا الحلف هدفاً سامياً وهو نصرة المظلوم بصرف النظر عن قرابته وقبيلته، ومن قبل كان قد اشترك إلى جانب أعمامه في حرب الفجار، وهي حرب وقعت في الأشهر الحرم فسميت بالفجار، فاكتسب إلى جانب خبرته السياسية خبرة حربية، ثم أنه اشترك في تنظيم القوافل التي كانت تسيرها قريش إلى الشام، فسافر مع عمه إلى الشام وهو صبي، وسافر في تجارة لخديجة وهو شاب، كما مارس التجارة في مالها بعد أن تزوجها، فاكتسب خبرة بالمعاملات التجارية ومعرفة بطبيعة الإنسان تعينه على تقدير قيمة الرجل الأدبية من فوره، كما اكتسب خبرة بالبلاد وأحوال الناس، ثم أنه قد إشتغل بالرعي حين كان صبياً، فأكسبه ذلك صفة خلقية رائعة وهي التواضع والصبر وتمجيد العمل أياً كان نوعه، ثم إنه اشتهر بصفة أساسية وهي الأمانة حتى سمي بين الناس قبل البعث بالأمين، فكانت له إلى جانب تجاربه، أخلاقه المرتضاه التي كانت تحببه إلى الناس قبل أن يعارض آرائهم[١].

وثمة صفة أخرى اشتهر بها هي صفة القدرة على الحكم وسرعة البديهة في حسم الأمور، يشهد بذلك حكمة بين أهل مكة حين جددت قريش بناء الكعبة، واختلفت بطونها على من ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه من البناء، فتعطل البناء ووصل الأمر إلى درجة النزاع حيث تحزبت لذلك بنو عبد الدار وبنو عدي، وعقدوا بينهم حلفاً على ألا يدعوا أحداً يقوم بهذا غيرهم، وقدموا جفنة فيها دم غمسوا أيديهم فيه توكيداً لحلفهم فسموا منذ ذلك اليوم باسم "لعقة الدم"، لكن الخلاف ما لبث أن حسم باقتراح أبي أمية بأن يرضخوا لحكم أول من يدخل المسجد، فحدث أن كان أول الواردين محمداً فارتضت قريش حكمه، حيث أظهر من سرعة الخاطر وقوة البديهة ما حسم الموقف وأرضى المتنازعين، قائلاً "هَلُمَّ إليَّ ثوباً" فأحضروه، فأخذ الحجر الأسود ووضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم أرفعوه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده، ثم بنى عليه[٢].

وقد كشف هذا الموقف عن قيمة محمد ﷺ في الحياة الاجتماعية في مكة بحيث ارتضاه رجال الملأ حكماً ورضوا بحكمه.

---

[١] علي أكبر فياض: المرجع السابق، ص٦٥ – ٦٦.

[٢] جدير بالذكر أن في نفس عام بناء الكعبة ولدت فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم.

٣- من الزواج حتى البعثة:

كانت خديجة بنت خويلد من أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، وكانت تُلقب بالطاهرة، وكانت لها تجارة تستأجر لها الرجال وتجعل لهم من ربحها نصيباً، ولما كان محمد ﷺ قدعُرف بين العرب بالأمين لصدقه وحسن خلقه وكريم طباعه، فقد رغبت خديجة في أن تستأجره في تجارة لها بالشام وأرسلت معه غلامها ميسرة، واستطاع محمد ﷺ بأمانته ومقدرته أن يتجر بأموال خديجة وأن يجلب لها ربحاً عظيماً لم يجلبه لها غيره من قبل، وأكبرت خديجة عمله هذا وقدرته، وسرت به خاصة بعدما قص عليها غلامها ميسرة ما رآه فيه من صدق الحديث، وصفاء النفس ودماثة الخلق، وما شاهده من غمامة (سحابة) كانت تظلل على النبي ﷺ أينما سار، وما أخبره به الراهب حين نزل محمد ﷺ تحت الشجرة ليستريح وهو في طريقه إلى الشام، حيث سأل ميسرة عن محمد ﷺ، وهو لا يعرفه، فأجابه ميسرة، هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال الراهب: "مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي"، فرغبت أن تتخذه لنفسها زوجاً، وهي التي رفضت الزواج من أغنياء مكة وساداتها، ولكن كيف يتم لها ذلك فالحياء والتقاليد ومركزها الاجتماعي يمنعها من مكاشفة محمد ﷺ بما يجيش في صدرها وقد تمكن منها الشرف كل التمكن، وأخيراً اهتدت إلى أن ترسل إليه من تثق بها، وتأمنها على سرها، وكانت مولاتها وتسمى نفيسة كي تأتي لها بما عند محمد ﷺ من خبر، وفعلاً توجهت إليه وتحدثت معه فقبل محمد ﷺ أن يتزوجها بعد موافقة أعمامه وخطبها له عمه أبو طالب من عمها عمرو بن أسد لأن أباها مات قبل حرب (الفجار)، وكانت حينئذ في الأربعين من عمرها، بينما كان الرسول ﷺ في الخامسة والعشرين[١]، فانتقل للإقامة في دارها، وكان يكن لها كل محبة واحترام، فلم يتخذ زوجة أخرى معها طوال حياته، وأنجبت له كل أبنائه ما عدا إبراهيم من مارية القبطية.

وجد محمد في زواجه من السيدة خديجة راحة من عناء المجهودات التي كان يبذلها سعياً وراء الرزق، ويشير القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَئِلاً فَأَغْنَى﴾، كذلك كفل له هذا الزواج فسحة من الوقت فأخذ يفكر كثيراً، ويتأمل طويلاً في ملكوت السموات والأرض، ومال إلى الوحدة فكان يخلو بنفسه للتعبد في غار حراء[٢] مدة شهر من كل سنة (شهر رمضان في بعض الروايات)، وكان تعبده على دين إبراهيم عليه السلام، الذي دان به بعض العرب الذين نفروا من عبادة الأوثان[٣]، وقد عُرف عن

---

[١] تزوجت خديجة قبل زواجها من الرسول مرتين، ومات عنها زوجاها، وكان لها منهما ولد وبنتان، انظر: علي أكبر فياض: المرجع السابق، ص ٦٦ – ٦٧.

[٢] مغارة في أحد جبال مكة تبعد عنها مسافة ثلاثة أميال تقريباً.

[٣] كان هذا الاعتكاف من عادات قريش ويطلقون عليه اسم "التحنث".

محمد ﷺ أنه لم يعبد صنماً قط، وأنه تنزه في الجاهلية عن عاداتها ومذموماتها التي انغمس فيها شباب العرب حينذاك، وكان أكثر ما يكون تعبداً وملازمة لغار حراء في شهر رمضان، وكان أول ما يفعله عند عودته هو أن يطوف بالكعبة سبعاً قبل أن يدخل بيته، وكان اليهود في الجزيرة يتوقعون ظهور النبي ومبعثه من دراساتهم لكتبهم الدينية (التوراة) وكان يصرحون بذلك عندما ينال العرب منهم وينزلون بهم بعض ما يكرهون فكان اليهود يقولون "تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم".

٤- **نزول الوحي:**

ظل محمد ﷺ على تعبده في غار حراء وزوجته المحبة له تشجعه على مواصلة تعبده وتفكره، ولما بلغ الأربعين من عمره بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وكانت الرؤيا الصادقة أثناء نومه بداية مبعثه، فكان لا يرى رؤيا إلا كانت مثل فلق الصبح، وكان إذا خرج إلى شعاب مكة يطوف أوديتها يسمع من يناديه بكلمة (رسول الله) فيلتفت حوله من كل جانب فلا يرى إلا الشجر والحجارة فمكث على ذلك فترة، ثم نزل عليه الأمين جبريل عليه السلام، وهو يتعبد في غار حراء، فضمه إليه ثم تركه وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فضمه جبريل ثانية: حتى بلغ الجهد برسول الله ﷺ وظن أنه الموت وقال له اقرأ: ويقول النبي: ما أنا بقارئ، ثم ضمه الثالثة وتركه وقال له ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فقرأها النبي عليه الصلاة والسلام وانصرف جبريل عنه، فكانت أول ما أنزل على رسول الله ﷺ من القرآن الكريم، ثم انقطع الوحي فترة إلى أن عاد جبريل بسورة الضحى التي تشير إحدى آياتها ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ إلى هذا الانقطاع، ليتجدد الوحي ثانية.

ويعود محمداً ﷺ إلى بيته مسرعاً وقد ملكته رجفة من خوف ولم يدر في بادئ الأمر حقيقة ما شاهده وسمعه فلقيته خديجة فبادر بقوله: زملوني زملوني ثم قص عليها ما حدث فقالت له: أبشر وأثبت، فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها، وكان على دين النصرانية، وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها رسول الله ﷺ! فقال ورقة بن نوفل: والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس (الملك الذي جاءه بالوحي) الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت[١].

وفي رواية أخرى أن النبي أحس بالشوق يدفعه إلى جبال مكة عسى أن يشاهد هذا الملك العظيم، فذهب إلى غار حراء، وبينما كان عائداً منه سمع صوتاً يناديه، فنظر

---

[١] راجع: سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٤٣ – ٤٤.

إلى أعلى فشاهد جبريل عليه السلام بين السماء والأرض، فوقع المنظر في قلبه، ووجلت نفسه، ورجع إلى بيته وبجسمه رعشة، وقال لأهله: دثروني، فأنزل الله تعالى عليه قوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۞ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾
(المدثر ١ ـ ٨)، وبعد هذه السورة استمر نزول الوحي متصلاً[٢].

٥ـ الدعوة إلى الإسلام وفترتي الإسرار والإعلان :

كانت الدعوة تتسم بالسرية في أول الأمر وظلت كذلك ثلاث سنين، ثم أصبحت بعد ذلك علنية، وكانت في أول أمرها مقصورة على أهل بيت النبي ﷺ الأقربين، ومن المتفق عليه أن خديجة كانت أول من آمن بالدعوة وكان ثاني المؤمنين بدعوته علي بن أبي طالب ثم تلاه زيد بن حارثة، أما رابع من آمنوا بالإسلام فكان أبو بكر وبإيمانه خرجت الدعوة من بيت النبي إلى خارجه فعلى يد أبي بكر دخل الإسلام أربعة من كبار القوم وهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وهؤلاء أطلق عليهم السابقين[٢]، وبعدهم اتجهت أعداد المؤمنين إلى الازدياد ولكن في الخفاء، وبعد ثلاث سنوات انتقلت الدعوة من طور السرية إلى مرحلة العلنية استجابة لقول الحق تبارك وتعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ "سورة الحجر، آية ٩٤ ـ ٩٥" وقوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۞ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ "سورة الشعراء، الآيات ٢١٤ ـ ٢١٦"، والحقيقة أنه لايوجد فارق حقيقي بين الدعوة السرية والعلنية، فإن طبائع الأشياء لا تكاد تقبل هذا التصور، فإن رسالة النبي ﷺ انتشرت منذ البدء وبلغت أهله الأقربين ثم أصدقاءه المقربين، وظل الأصدقاء يكتسبون ويدعون أصدقاءهم، حتى اتسعت الدائرة شيئاً فشيئاً حتى أصبحت الدعوة علنية عامة.

وكانت مهمة النبي ﷺ في مكة إبلاغ القرآن الكريم وتعليمه وتحفيظه، وإمداد المؤمنين بالصبر والاحتفاظ باليقين والصمود للفتنة والسعي لنشر التعاليم الجديدة في المواسم عند اجتماع الناس والدعوة لها.

والقرآن الكريم الذي نزل على النبي ﷺ في هذه الفترة مليء بالدعوة لهذه المبادئ، متعدد النواحي في تباينها، داع العقول إلى التفكير فيها واستنباطها، ضارب الأمثلة لها فحذّر من عاقبة جحودها والوقوف في وجهها، في أسلوب رائع يأخذ بمجامع القلوب وينفذ إلى أقصى أغوار النفس.

---

[١] البلاذري: أنساب الأشراف، ص١٠٦، ١٠٨، ١٠٩.

[٢] ابن هشام: السيرة، ج١/ ٢٥٠ ـ ٢٦٢؛ سالم: المرجع السابق، ص٤٦.

وقد سايرت الرسالة في ظروف الدعوة إليها، ظروف التكوين العربي، فقد أمر النبي أن يدعو عشيرته الأقربين، لأنهم بحكم عصبية القرابة والرحم، سيقفون إلى جانبه ويؤازرونه ويكونون عوناً له وحماية في وجه العصبيات الأخرى، ثم بعد ذلك أن يدعو مكة ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى، الآية ٧)، وحين نقول مكة نعني بذلك قبيلة قريش، فإنها كانت هي الأصل في أهل مكة ومن معها من حلفاء وموالي وإتباع.

فالانتقال من عصبية العشيرة إلى عصبية القبيلة أمر جرى عليه التكوين الاجتماعي عند العرب، ثم أمر أن يدعو من حول مكة من قبائل، أي أن ينتقل إلى عصبية التحالف القبلي وعصبية الشعب، وكان من المنتظر أن تؤمن به العشيرة ثم القبيلة، لكن الذي حدث كان غير ذلك، فإن هذه العصبية القبلية قد وقفت في طريقها عصبية أخرى هى عصبية التقاليد والعادات القديمة وكان العرب في ذلك الوقت يتعصبون تعصباً شديداً لموروث عاداتهم وتقاليد آبائهم، ويرونها ديناً من أمر الله ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ (سورة الأعراف، الآية ٢٨).

فكانت هذه العصبية للعادات والتقاليد حائلاً بين الناس وبين متابعة النبي ﷺ وحتى بني هاشم بالرغم من وقوفهم إلى جانب النبي وحمايته بدافع عصبية العشيرة لم يؤمنوا به وغلبتهم عصبية التقاليد على أنفسهم.

وشي آخر غير العصبية منع قريشاً من متابعة النبي ﷺ وهو حرصها على منزلتها بين العرب، وكانت تخشى على أن تذهب الرسالة الجديدة بمكانتها التي وصلت إليها عن طريق رياستها للدين الوثني ورعايتها للتقاليد العربية. ثم كان زعماء مكة حريصين على مبدأ التناظر بينهم كزعماء، فقد كان يحكم مكة رؤساء العشائر والبطون، ويتكون منهم ما عُرف بالملأ وهو مجلس الرياسة في قريش، وكان رجال الملأ حريصين على ألا يسودهم أحدهم ويرون التكافؤ فيما بينهم، فالصفات العامة في أحدهم من الممكن أن ينالهم كلهم، أما أن يكون واحد نبياً فهذا أمر ليس بمدرك لعامتهم، وعند ذلك تكتب له الزعامة بلا منازع، ويرون أنفسهم مضطرين للخضوع له ومتابعته، ومن أجل ذلك عارضوا محمداً، وكانت معارضة قريش مركزة في رجال الملأ وتابعهم عامة الناس.

لكن زعامة الملأ ونفوذه مهما بلغت قوته لم تكن تستطيع أن تحجر على عقول الناس ولا على قلوبهم، فالمبدأ الذي جرى عليه العرب هو مبدأ حرية الرأي، ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تمنع العربي من الإفصاح عن رأيه أو التعبير عن إرادته، ولذلك عجز رجال الملأ على أن يحولوا بين الرسالة المحمدية وبين الوصول إلى قلوب الناس، فآمن بمحمد بعض أهل مكة ممن سمت نفوسهم

ونضجت عندهم العاطفة الدينية، كذلك آمن بمحمد عدد من الرقيق والموالي رجالاً ونساءً، وجدوا في مبادئ الرسالة الجديدة حلاً لمشكلتهم وضماناً لحريتهم.

ولم يحفل زعماء مكة في بادئ الأمر بالرسالة المحمدية كثيراً، واعتبروا النبي ﷺ واحداً من أولئك الباحثين عن دين إبراهيم، أو المتمردين على الوثنية من أمثال "ورقة بن نوفل" و"زيد بن عمروبن نفيل" و"عثمان بن الحويرث" وغيرهم من متحنفي العرب، لا يلبث أن يخفت صوته في خضم الحياة القائمة في مكة وفيما حولها، والتي تموج بحركة المال وحركة الأدب والشعر في موسم الحج وفي أسواقه.

لكن الرسالة مضت تشق طريقها - وإن كان ذلك في بطء- ووجدت قريش نفسها أمام رجل آخر، ودعوة أخرى، وأمام جماعة أخذت تتكون في داخل مكة، وأن محمد ﷺ بات يكتسب كل يوم أتباعاً يؤمنون بأنه رسول الله وأن كلامه ليس من قول البشر، وهو يدعو إلى مبادئ جديدة أخذت في الوضوح والظهور، ثم أنه صلى الله عليه وسلم أخذ يهاجم الدين الوثني هجوماً شديداً، ويسب الأصنام ويُحقّرها، ويتهم قريش بكُفر آبائهم وبخلدهم في النار، وقد رأت قريش أنه يهدد مكانتها بين العرب، ولذلك فقد قررت تصعيد أساليب المقاومة لدعوته ومقابلة هذه الدعوة بكل عنف[1].

٦- معارضة قريش وأساليبها في مقاومة الدعوة الإسلامية:

لقد اتخذت قريش أساليب مختلفة في مقاومة الدعوة الجديدة حيث بدأت المقاومة سلبية في أول أمرها - كما سبق وأن ذكرنا - فقد أظهر رجال الملأ عدم الأكتراث بالدعوة الجديدة، ونظروا إليها نظرة استخفاف، فلم تعنهم كثيراً، وظنوا صاحبها من أمثال ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، وغيرهم من الساخطين على الأصنام والباحثين عن الحنيفية أو غيرها من الديانات الأخرى، وإن كان يختلف عنهم في أنه يخبر أنه يتلقى الوحي من السماء، وكان يحلو لهم أن يشيروا إليه بسخرية كلما رأوه "هذا ابن عبد المطلب يكلم من السماء".

لكنهم ما لبثوا أن أدركوا أن هذا الأمر أخطر مما تصوروا، عندما وجدوا محمداً يكتسب كل يوم أصحاباً من رجالهم ومواليهم يتابعونه ويؤمنون به نبياً ورسولاً، وأن هؤلاء الأصحاب ينشطون معه للدعوة لدينه الجديد، ثم يرونه يجمع عشيرته من بني هاشم، ويدعوهم إلى الإيمان بما يقول، ويحاول أن يجعل منهم كتلة واحدة حوله ويرون عمه أبا طالب - زعيم البيت الهاشمي - وإن كان لم يتابعه على ما يدعو إليه، فهو يشجعه ويقف إلى جانبه ويرون محمداً ﷺ يُكثر الاجتماع

---

[1] على أكبر فياض: المرجع السابق، ص٧٢؛ راجع أيضاً: سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٤٧.

بأصحابه الذين آمنوا به وهم رجال من كل البطون القرشية، وهو يتعرض للأصنام يسبها ولقريش يسفه أحلامها ويُكَفّر آباءهم.

فأدركوا أن هذا أمر يراد بقريش لا يصح السكوت عليه، ولما كان رجال الملأ يدركون قيمة العصبية ويخشون خطرها لو تعرضوا لمحمد بالسوء، فقد لجأوا إلى أبي طالب يطالبون إليه أن يتدخل لمنع ابن أخيه من التعرض بالمهانة لمقدسات القبيلة وحرماتها، فهم إن صبروا على ما يقول به ويحول أبناءهم إليه، فهم لا يطيقون صبراً على سَبّ الآلهة وتسفيه الأحلام، ويلاين أبو طالب قومه ويردهم بالحسنى، ولكنه لايمنع محمداً، ولا يتوقف محمد ﷺ عما أخذ فيه، ويعاود رجال الملأ الطلب ويشفعون طلبهم بالعروض، فهم يعرضون أن يتركوا محمداً وما يدعو إليه على أن لا يتعرض لسب الآلهة وشتم الآباء، ثم يعرضون أن يقدموا رجلاً من خيرة أبنائهم بديلاً عن محمد ﷺ يتبناه أبو طالب على أن يسلم إليهم محمداً ليقتلوه إن كان قد عجز عن رده، فإنه يدمر وحدة القبيلة ويهدد مكانتها، ويستنكر أبو طالب هذا العرض المنكر، فما كان ليسلمهم ابنه ليقتلوه، ولكنه يدعو إليه محمداً يعرض عليه ما طلبت قريش، ويطلب منه أن يبقي عليه وعلى نفسه. ولا يحمله من الأمر ما لا يطيق من عداوة القوم، وظن محمداً أن عمه خاذله ومُسلِمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال في إصرار وإباء "يا عم: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ما تركته". وهزت كلمة الابن نفس الشيخ الذي لم يسلم، ووصلت من نفسه إلى مركز الإعجاب، فلم يسعه إلا أن يقول "اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشئ أبداً"، ومن ساعتها وقف الشيخ حياته على حماية ابن أخيه، فلم يثنه شئ عن الذود عنه[1].

ولقد فكر رجال قريش بحسب ما يفهمون من مُثل الحياة عندهم، وظنوها من محمد عملاً للوصول إلى غرض من أغراض الدنيا وحسبوا من وقوف بني هاشم إلى جانب محمد نزعة إلى الزعامة وغاية للرياسة، فاستجابوا لاقتراح تقدم به "عتبة بن ربيعة - أحد سادات قريش - حيث قال:

ألا أقوم إلى محمد ﷺ فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت: من السلطة في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني

---

[1] ابن هشام: السيرة، ج١/٢٦٥ ـ ٢٦٦؛ راجع أيضاً: أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، ص٤٠؛ سالم: المرجع السابق: ص٤٨.

أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها، فقال له رسول الله ﷺ: "قل يا أبا الوليد أسمع" قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتينك رَئِيًا تراه، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي منه.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله يسمع منه قال ﷺ: أقد فرغت يا أبا الوليد"؟ قال نعم، قال: "فاستمع مني" قال: أفعل:

قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم۝ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه[1]. فلما سمعها منه عُتبة أنصت إليها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليه يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المسجد منها فسجد[2]، ثم قال "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذلك".

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض، نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال:"ورائي إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولابالسحر، ولابالكهانة، فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

يئست قريش من إغراء محمد، فاتخذت طريق الجدال والإنكار والاستهزاء والتعجيز بالأسئلة، والإلحاح في طلب المستحيل من الأعمال مع التصميم على الإنكار، لكن إيمان محمد برسالته وبما يُوحي إليه كان أعظم من أن ينال منه إنكار المنكرين واستهزاء المستهزئين.

عند ذلك لجأت قريش إلى طريقة الاضطهاد والتعذيب للمسلمين حتى تخيفهم، فتردهم عن دينهم وتمنع غيرهم من متابعة محمد ﷺ خوفاً من المشقة والعذاب، فتواصلت البطون القرشية بتعذيب من أسلم منها، وألحت على المستضعفين من الموالي والعبيد بالعذاب، كما ألحت على من أسلم من رجالها

---

[1] القرآن الكريم: سورة فصلت: الآيات من ١ - ٤.

[2] تقول السورة في آية السجدة منها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

ونسائها بالأذى، وهي مع كل ذلك تقيم دعاية قوية ضد دعوة محمد ﷺ وتتهمه مرة بالسحر ومرة بالجنون ومرة بالافتراء[1].

وتقف لكل وارد على مكة تحذره من ذلك الرجل الذي يملك من سحر البيان ما يفرق به بين المرء وزوجه، والأخ وأخيه، وتتخذ مما يحدث في بيوتها مثلاً تضربه على ما تقول، ثم هي لا تكف عن سؤال أهل الكتاب من اليهود والنصارى عما يدعيه محمداً، تريد بذلك أن تقيم حجة على ما تقول، في حين يقوم بعض رجالها بعقد مجالس يتحدثون فيها إلى الناس بغريب القصص وأساطير الأمم، يعارضون بها مجالس محمد ﷺ، يريدون بذلك أن يصرفوا الناس عنه، وأن يفهموهم أنه إنما يأتي بمثل هذه الأساطير. وقد تُسرف في تصرفاتها مع الوافدين على مكة من رجال القبائل، فتتعدى التحذير إلى الإهانات، وقد تبطش بمن لا تؤثر فيه دعايتها ويُصر على إعلان إيمانه من الوافدين، ولم يكن يردها عن الفتك بهم إلا حرصها على علاقتها الطيبة مع القبائل وخوفها على مصالحها التجارية، كما فعلت بأبي ذر الغفاري حين أسلم.

٧- **<u>الهجرة في سبيل الدعوة إلى الحبشة[2]:</u>**

ولما رأى النبي الأذى يشتد بأصحابه أمرهم بالهجرة إلى الحبشة: "فإن بها ملكاً لا يُظلم لديه أحد، وهي أرض صدق، فأمضوا إليها حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه"، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

وفي هجرة المسلمين إلى الحبشة لابد وأن يعرض سؤال، لماذا فكر النبي ﷺ في الحبشة ولم يفكر في غيرها من أقاليم الجزيرة العربية؟، الواقع أن تفكير النبي ﷺ في الحبشة ينطوي على معرفة كبيرة بظروف وأحوال الجزيرة العربية، كما أن فيه لفته كموطن مؤقت لاتباعه سياسية من جانب النبي موجهة إلى قريش.

لم يلجأ المهاجرون إلى قوم من العرب في الجزيرة العربية، لأن القبائل العربية كانت مرتبطة بقريش ارتباطاً تجارياً ودينياً قوياً، وكان لبعضها محالفات وعقود مع قريش، وهي لذلك حريصة على حسن العلاقة حرصاً على مصالحها المادية، فلم تكن لذلك تستطيع إيواء الخارجين عليها، ثم هي تؤمن بزعامة قريش، وتخضع لتشريعها الديني، وقد تجلى موقف القبائل واضحاً بعد هجرة النبي ﷺ إلى

---

[1] ابن كثير: السيرة النبوية، ص٢٥٢؛ وراجع ايضاً: ابن هشام، ج٣١٧/١؛سالم: المرجع السابق، ص٤٨ ـ ٤٩.

[2] عن تفاصيل الهجرة إلى الحبشة في العام الخامس من البعثة: انظر: ابن هشام: السيرة، ج٣٢٢/١؛ الطبري: نفسه، ص٣٢٨؛ أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية، ص٤٢ ـ ٤٥؛ سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٤٩ـ٥٤.

يثرب، فقد اتخذت جانب قريش في صراعها ضد يثرب وتحرشت بالمسلمين وحاربتهم في صفوف قريش.

أما اليمن فكانت الأحوال فيها غير مستقرة، والخلافات الداخلية تمزقها الى جانب خضوعها للنفوذ الفارسي، ووقوعها في مجال التصارع الدولي الذي تعدى السياسة إلى الدين فكان التنافس شديداً بين المسيحية واليهودية فيها، وهي بذلك غير صالحة لأن يجد فيها المهاجرون المأوى الأمين، وكذلك كانت الحال في مملكة الحيرة (المناذرة)، ومملكة غسان (الغساسنة).

كما لم تكن مدن الحجاز الأخرى مهيأة في ذلك الوقت لقبول هجرة المسلمين إليها، فيثرب كانت تمزقها الخلافات الداخلية (الأوس والخزرج)، حيث يقوم الصراع على أشده بين قبائلها، هذا إلى جانب علاقات قريش التجارية المتينة مع بطونها سواء من اليهود أو من الأوس والخزرج، أما خيبر فكانت مدينة يهودية، ذات صلات طيبة مع قريش، فضلاً عن أن اليهود كانوا منصرفين إلى مصالحهم راغبين في عدم الدخول في عداء مع القبائل العربية، إلى جانب حرصهم الشديد على القضاء على دعوة محمد ﷺ رغم تأكدهم من صدق دعوته، ولكن مصالحهم الذاتية وخروجهم الدائم على الدين، جعل ذلك يبدو أمراً عادياً بالنسبة لهم.

إذن فقد كانت بلاد الحبشة هي أقرب إقليم هادئ إلى مكة يُمكن أن يجد فيه المهاجرون الأمن على حياتهم، كما يمكن أن يحصلوا على معاشهم، فقد كانت الحبشة متجراً لقريش ووجهاً وكان القريشيون يغشونها للتجارة فهم على معرفة بها، وعلى خبرة بمزاولة العمل فيها.

كما كانت تكمن وراء الهجرة إليها حكمة سياسية، فالحبشة تطمع منذ أجيال في فتح الأقاليم العربية، وكان ملوكها يراقبون من أجل ذلك أحوال الجزيرة مراقبة شديدة، وقد سبق للحبشة أن أرسلت حملة لفتح مكة، ومع أن الحملة باءت بالفشل، وخرجت الحبشة من الجزيرة كلها، إلا أن الصراع الدولي على امتلاك طرق التجارة لم ينته بعد، فالهجرة إلى الحبشة تؤدى إلى غرضين: الغرض الأول: أن المهاجرين يلقون ترحيباً من ملك الحبشة، أملاً في أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل في شئون مكة الداخلية، وفعلاً لقي المهاجرون احتفاء وحسن معاملة من النجاشي ملك الحبشة.

والغرض الثاني: هو لفت نظر قريش إلى أن عداوتها للمسلمين قد تضطرهم إلى الالتجاء إلى قوة خارجية ربما تتدخل لحمايتهم، فتتعرض مكة لغزو أجنبي، أو تتعرض للإضرار بمصالحها الاقتصادية، لذلك فإن من مصلحتها أن تهادن المسلمين وتوقف عدوانها عليهم.

وقد أوجست قريش خيفة من هذه الهجرة وحسبت لها حساباً كبيراً، فسارعت إلى إرسال بعثة إلى النجاشي، تحمل الهدايا له ولرجاله وتطلب إليه رد

هؤلاء المهاجرين، وربما لتحاول معرفة موقف الحبشة من الوضع في مكة، مخافة أن تؤدي هذه الصلة الجديدة إلى أن تعاود الحبشة الكرّة على مكة مرة أخرى، لكن البعثة فشلت في مهمتها، وظل المسلمون يتمتعون بالحرية والرعاية، فقد لفتت البعثة أنظار النجاشي نحو هؤلاء الفارين بدينهم إلى بلاده، فقدّر تضحياتهم وعطف على موقفهم، فبذل لهم العون والرعاية[1].

وفي هذه الأثناء (في العام السادس من البعثة النبوية) دخل في الإسلام عناصر قوية من القريشيين، فقد أسلم رجلان من صفوة قريش اشتهرا بالبأس والقوة، هما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، وكان كلاهما رجلاً قوياً، مرهوب الجانب جريئاً في إظهار رأيه والوقوف في وجه مخالفيه، وكان من اليسير أن يشتبكا مع مناوئي الإسلام، فتسيل الدماء وتقع الحروب الأهلية، التي كان "الملأ" حريصاً على عدم وقوعها، ولم يتردد الرجلان عن تحدي قريش، فاشتد بهما ساعد المسلمين وقويت قلوبهم نسبياً واضطرت قريش إلى أن تهادن بعض الوقت حتى تدبر موقفاً إزاء هذا الوضع الجديد.

وقد وصلت أخبار هذه المهادنة مسامع المسلمين في الحبشة مبالغاً فيها، حتى لقد قيل إن قريشاً تابعت النبي ﷺ وتحولت إلى الإسلام، فعاد بعضهم إلى مكة، لكنهم ما كادوا يصلون إليها حتى كانت قريش قد اتخذت لنفسها خطة أشد تجاه المسلمين ومن ينصرهم، فلم يستطع أي من العائدين دخول مكة إلا في جوار وحمى ذوي النفوذ أو سراً وكانت هذه العودة بعد شهرين تقريباً من الهجرة إلى الحبشة، وعادت الضغوط للازدياد من جديد على النبي وأتباعه، فيرسل النبي ﷺ المستضعفين من الصحابة مرة أخرى إلى الحبشة، وكانت هذه ***الهجرة الثانية***، وقد عاد فيها من لم يستطع دخول مكة من المهاجرين الأول ومعهم عدد أكبر من العدد الأول إلى الحبشة[2].

أدركت قريش أن ما تقوم به من الأذى للمسلمين لن يحول دون إقبال الناس على الدين الجديد، كما رأت بني هاشم يقومون دون النبي فلا تستطيع أن تبلغ منه ما تريد، لذلك قررت أن توقع على هذا البطن القرشي عقوبة قاسية، لعلها تجبره على التخلي عن موقفه في حماية النبي ﷺ وتضطره إلى تسليمه أو الكف عن نصرته، ورأت أن يكون عملها جماعياً ترتبط به كل البطون المكية وحلفاؤها، بعد مشاورة عامة، فعقدوا فيما بينهم في أواخر العام السادس من البعثة النبوية حلفاً على بني هاشم وبني عبد المطلب: يقضي بأن لا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، ودونوا هذا الحلف في صحيفة، وتعاهدوا على تنفيذه، ثم

---

[1] الطبري: المصدر السابق، ج٢/٣٤٣ ــ ٣٤٤.

[2] علي أكبر فياض: المرجع السابق، ص٧٣.

علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وعلى الجانب الآخر انحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب باستثناء أبي لهب وعبد العزي عما الرسول إلى أبي طالب واستقروا جميعاً بصحبة النبي وخديجة في شِعب أبي طالب للحفاظ على أرواحهم، وكان ذلك في الشهر الأول من العام السابع من البعثة النبوية، ولم يدخل الشعب أحد ولا كان أحد يغادره إلا في موسم الحج.

وهكذا حصروا بني هاشم والمسلمين في شِعب خارج مكة يُسمى "شِعب أبي طالب" وقامت قريش على هذا الحصار الاقتصادى والاجتماعى ثلاث سنوات، حتى أجهد المحاصرون أيما إجهاد وكان يسمع صياح أطفالهم من شدة الجوع، ولكن أحداً لم يضعف، وظل النبي يدعو إلى دينه بين العرب، كما حفل القرآن الكريم بالآيات التي تشدد النكير على قريش، وتجدر الإشارة هُنا إلى أن حلف الفضول الذي عقدته بعض بطون قريش على منع الظلم في مكة، قد تعطل، فلم يتناد أصحابه بنصرة المظلومين ممن كان يقع عليهم العذاب، ويبدو أن الملأ من قريش كان يخشى أن يطالب بنو هاشم حلفاؤهم من أصحاب (الفضول) بالوقوف إلى جانبهم، ومن أجل ذلك كان حرصهم على الإجماع والتواثق على ذلك في صحيفة مكتوبة، لأنهم اعتبروا الدعوة الإسلامية ذات خطر كبير على مكة، يُهدد الجميع بالخراب، لذلك اجتمعوا وتضامنوا على إيقاف هذا التيار[1].

وكان هذا العمل العدواني فرصة لأن يتسامع العرب في كافة أنحاء الجزيرة العربية بأنباء هذا الدين الجديد، حتى أحست قريش بفشل هذا الحصار، وبأنه يوشك أن يؤدي إلى أزمة داخلية في مكة، فقد تحركت عاطفة الرحم في بعض القرشيين وأخذوا يتحدثون عن محنة بني هاشم علناً على الملأ في المسجد الحرام، وبدأوا في إمداد المحاصرين ببعض الطعام، ولما حاول زعماء قريش إيقاف هذا المدد حدثت مشاحنات واشتباكات كادت تؤدي إلى فتنة.

ثم تحزب بعض الرجال ضد الصحيفة وقاموا على نقضها، ورأى (الملأ) أن الحصار قد فشل فى إجبار المحصورين على التسليم، وأن الفتنة أوشكت أن تحدث فى مكة، فاضطروا إلى تمزيق الصحيفة، وعاد بنو هاشم والمسلمين إلى دورهم وإلى مزاولة حياتهم العادية في مكة، وإن كانت قريش قد استمرت في سياسة العدوان[2].

لكن النبي ﷺ لم يلبث كثيراً بعد نقض الصحيفة أن أصيب بصدمتين شديدتين كان لهما وقع شديد الأثر في نفسه، كما كان لهما أثر كبير في تغيير اتجاهه في سياسة الدعوة الإسلامية، فبعد شهر تقريباً من الخروج من الحصار القرشي

---

[1] ابن كثير: السيرة النبوية، ص١٩ - ٢١؛ سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٥٤ - ٥٦.

[2] سالم: المرجع السابق، ص٥٦.

أصيب بفقد زوجته خديجة تلك الزوجة الصالحة التي كانت ملاذه في شدته وكانت بإيمانها ومواساتها ملجأه فيجد في جوارها راحة نفسية، كما أصيب بموت عمه أبي طالب الذي كان بمثابة حائط الصد الذي يحول بين محمد وبين مواجهة خصومه له وجهاً لوجه، وبفقد زوجته فقد التأييد المعنوي النفسي القريب كما فقد بموت عمه التأييد الأدبي والمادي، وكان فقدهما عظيم الوقع في نفسه حتى سُمي عام موتهما بعام الحزن[1].

. وقد أعتكف الرسول في داره إثر وفاة عمه أبو طالب وكان نادراً ما يغادرها، ويروي ابن سعد أنه حدث أمر غير متوقع، فقد عرض أبو لهب الذي كان حتى ذلك الوقت من ألد أعداء محمد ﷺ الصلح معه، وأتى إليه يعرض عليه حمايته، وبعد ذلك لم يتعرض أحد بالإيذاء للنبي ﷺ خشية بطش أبي لهب، إلا أن قريشاً نجحت في الوقيعة بينهما، فعاد أبو لهب لعداوته السابقة[2]. وعادت قريش لسابق عداوتها وبطشها المعهود بالنبي وأصحابه.

وبدت بيئة مكة ـ المتمسكة أشد التمسك بتقاليدها، الحريصة على مصالحها المادية ـ غير صالحة لنشر مبادئ الدعوة الجديدة، لذلك اضطر النبي ﷺ إلى تخفيف نشاطه في الدعوة بين أهل مكة، وفكر تفكيراً جدياًفي مكان آخر يكون أصلح للدعوة، وأخذ ينتهز بعد هذا العام كل فرصة من الفرص التي يجتمع فيها الناس في المواسم العامة التجارية والدينية، ليعرض غلى رؤساء القبائل دعوته الجديدة، ويدعوهم لقبولها، وليعرض عليهم الانتقال إلى أرضهم.

ولم يستفد محمد ﷺ من عرض نفسه على القبائل شيئاً، إذ كانت هذه القبائل تحترم قريشاً وتحرص على حسن العلاقة معها، حرصاً على مصالحها المادية المرتبطة بتجارة قريش، على أن قريشاً لم تأل جهداً هى الأخري في الدعاية ضد دعوة محمد ﷺ وكان رجالها يتبعونه في كل مكان، يعارضون دعوته ويحذرون القبائل من متابعته، ومنهم من كان شديد القرابة من محمد ﷺ مثل عمه أبى لهب بن عبد المطلب، وكان لهذا أثره الشديد في منع القبائل من قبوله، إذ أنها ظنت أنه لو كان فيه خير لصَدَقّه أهله، ونال محمد ﷺ من وراء ذلك أذى في نفسه وأصحابه، وقد تحرج مركزه في مكة حتى إنه حين رفضت قبيلة ثقيف بالطائف الإيمان

---

[1] يروى عن النبي أنه قال "ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب"؟ وجدير بالذكر أن الرسول بعد وفاة خديجة تزوج السيدة سودة وكان زوجها قد توفي ويدعى سكران بن عمرو وكان من مهاجري الحبشة، وبعد فترة عقد على عائشة بنت أبي بكر، راجع: علي أكبر فياض: المرجع السابق، ص٧٤.

[2] تشير بعض الروايات أن أبا طالب عندما حضرته الوفاة استدعى آل بيته وأوصاهم بالنبي، ولعل اهتمام أبو لهب بالنبي قد حدث انطلاقاً من هذه الوصية، راجع: على اكبر فياض: المرجع السابق، ص٧٤. ـ ٧٥.

بدعوته - وقد ذهب إليها يعرض عليهم دعوته والانتقال إليهم - لم يستطع حين عاد أن يدخل مكة إلا بجوار "المطعم بن عدي زعيم بني نوفل من قريش" لأن القبيلة أصبحت تنظر إليه نظرتها إلى رجل ثار عليها وخلع نفسه منها[1].

٨- بيعتا العقبة الأولى والثانية والهجرة إلى يثرب:

وبينما كان النبي ﷺ مشغولاً بالدعوة في مكة، كان العداء قد بلغ ذروته بين الأوس والخزرج في يثرب، ووصل إلى مكة رجال من أهل يثرب بقيادة أنس بن رافع يلتمسون حلف قريش ومعاونتهم لهم على قومهم من الخزرج.

فالتقى بهم النبي وعرض عليهم دين الإسلام، فأعجب أحدهم ويدعى إياس بن معاذ بحديثه، ولكن قائد الجماعة المهتم بأمر قريش والتحالف معها وبّخه، فلم يسلم منهم أحد، ولم يظفروا أيضاً بمدد قريش وحلفهم[2]، ولكنهم حين عادوا إلى بلادهم ذكروا أمر هذا الداعي الجديد، وكان لذكرهم النبي في مجالسهم وقعاً ما لبث أن ظهر أثره في العام التالي.

حيث قدم في العام التالي إلى مكة نفر من (الخزرج) عددهم ستة رجال، لقيهم النبي ﷺ في الموضع المسمى بالعقبة فعرض عليهم الإسلام فاستجابوا، وكان لإسلامهم السريع دوافعه، فقد كان عرب يثرب يساكنون اليهود، واليهود أهل كتاب، وكان العرب وثنيين، فكان اليهود يعيرون العرب بوثنيتهم كما كان العرب ينازعون اليهود في يثرب ويصارعونهم، وقد عز أمرهم في النهاية، فصار اليهود يهددونهم بقرب ظهور نبي قد أظل زمانه يتبعونه فيقتلونهم معه قتل عاد وإرم.

كما أن (الخزرج) كانوا حديثي عهد بهزيمة حلت بهم أمام الأوس وحلفائهم من قبائل اليهود في يوم (بُعاث) - كما سبق القول - فلما ذكر رجال الأوس ظهور النبي ومحادثته لهم في مكة، خشي الخزرج أن يسبقهم اليهود أو يسبقهم الأوس إليه. فيتحقق تهديد اليهود، فلما دعا النبي هؤلاء النفر من الخزرج حين لقيهم في مكة قال بعضهم لبعض: ياقوم، تعلّموا والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه[3].

---

[1] من المعروف أن الله سبحانه وتعالى عوض رسوله في هذا العام (العام العاشر من البعثة) إثر فقده زوجته وعمه برحلة روحانية هي حادثة الإسراء والمعراج حيث رأى الكثير من آيات الله عز وجل (راجع عن الإسراء والمعراج)؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ج٤٣/١ وما بعدها، راجع أيضاً: سالم: المرجع السابق، ص٥٨.

[2] هذا الفشل في استمداد قريش أعقبه الحرب بين الفريقين وهي المعروفة بيوم بعاث وانتصر فيها الأوس، وأعقب ذلك أيام أخرى بين الفريقين سُفكت فيها الكثير من الدماء، حتى دعا داعي الصلح بينهما وكان رجلاً من أشراف الخزرج يدعى عبد الله بن سلول والذي قبلت القبيلتان زعامته لهما وبدأت الاستعدادات لتوليته إمارة وزعامة يثرب، راجع: على أكبر فياض: المرجع السابق، ص٧٧ - ٧٨.

[3] سالم: المرجع السابق، ص٥٩.

ولقد أوقف هؤلاء الخزرجيون النبي ﷺ على الحالة في بلدهم ووعدوه بالدعوة للإسلام في يثرب، كما بشروه بالفوز لو قدر له أن تجتمع قبائل يثرب عليه .. وقد كانت الاستجابة في يثرب سريعة، حتى أنه لم تبق دار من دورها إلا وفيها من أسلم وصار من أتباع الدعوة الجديدة، ولم يكد العام الحادي عشر من البعثة والذي حدثت فيه هذه البيعة ينصرم حتى وافى الموسم التالي (العام الثاني عشر من البعثة) اثنا عشر نفراً لم يكونوا كلهم من الخزرج بل كان منهم اثنان أو ثلاثة من الأوس، فقد كان التنافس قائماً بين القبيلتين، وما كانت الأوس لتترك الخزرج تنفرد بالأمر دونها، وكان ذلك بطبيعة الحال في صالح دعوة النبي ﷺ.

ولقي النبي ﷺ هؤلاء النفر عند العقبة - وهي مكان بين منى ومكة، ويبعد عن مكة بنحو ميلين - وبايعوه بيعة عرفت **ببيعة العقبة الأولى**، وكان نص هذه البيعة كما يلي: "نبايعك على ألا نشرك بالله أحداً وألا نسرق، ولا نقتل أولادنا، ولا نكذب ولا نعصاه في خير يأمرنا به"، أي يابعوه على ألا يشركوا بالله شيئاً ولايسرقوا ولا يزنوا، ولايقتلوا أولادهم، ولايأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف، فإن وفوا فلهم الجنة وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله إن شاء غفر وإن شاء عذب، ولم يشترط عليهم الرسول عداء أحد ولا منابذته بحرب وإنما كانت كلها شروطاً دينية خلقية، وقد سميت هذه البيعة فيما بعد "بيعة النساء" لأن النبي ﷺ بايع على نفس هذه الشروط نساء قريش حين أسلمن بعد فتح مكة[1].

وبعد البيعة عاد هؤلاء الرجال إلى يثرب بعزم أكبر على نشر دين الإسلام وأرسل النبي ﷺ معهم واحداً من أصحابه السابقين في الإسلام هو "مصعب بن عمير" وهو فتى من بني عبد الدار اشتهر بشدة الإخلاص للإسلام ولقي من خلاف أهله أذى كبيراً، وأمره صلى الله عليه وسلم أن يقرئهم القرآن الكريم، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يُسمى بالمدينة (أى مصعب) بـ "المقرئ"، وكان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض منهم، وهذا يعطينا فكرة عن مقدار الخلاف بين أهل يثرب، وأنهم كانوا في حاجة إلى عنصر خارجي يجتمعون عليه. وهذا ما يسر للنبي الكريم ﷺ مهمته في المدينة.

وفي المدينة أثبت مصعب بن عُمَيْر أنه جدير باختيار النبي له للقيام بهذه المهمة الخطيرة فعلى نجاحها أو فشلها يتوقف مصير الإسلام في يثرب، التي تموج بالخلافات وتضطرم فيها نار العصبية، فكان الداعي اللبق الفطن يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويأخذ الأمر بالصبر والرفق، واستطاع (مصعب) بذلك أن ينشر الإسلام في يثرب، وأن يكتسب إلى جانبه أكبر زعيمين عربيين فى يثرب،

---

[1] على أكبر فياض: المرجع السابق، ص٧٩.

وهما سعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حُضَيْر، اللذان كان لإسلامهما أثر كبير في دخول بطون برمتها إلى الإسلام، كما كانا بعد ذلك من أشد أنصار النبي ﷺ وأكثرهم إخلاصاً وتفانياً في نصرة الدولة الإسلامية في يثرب، وبذلك مَهَّد "مصعب" السبيل في يثرب لدار يهاجر إليها المسلمون من مكة، ولتكون بذلك داراً يطمئن فيها الإسلام ويعتز فيها المسلمون، ثم تكون بعد ذلك قاعدة للدولة العربية الموحدة في عهد النبي.

وبعد عام عاد "مصعب" إلى مكة ووفد معه في موسم الحج جماعة من المسلمين كان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، التقوا بالنبي ﷺ في إحدى الليالي سراً بالعقبة حيث بايعوه بيعة العقبة الثانية، وقد حضرها مع النبي عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له، وهذا يدلنا على شدة الرابطة بين بني هاشم والنبي بالرغم من عدم دخولهم آنذاك في الإسلام[1].

وتسمى هذه البيعة "بيعة العقبة الثانية" أو "بيعة العقبة الكبرى" أو "بيعة الحرب" وهذه البيعة حددت الوضع القانوني للنبي بين أهل يثرب، حيث اعتبرت النبي واحداً من أهل يثرب دمه كدمهم، وحكمه كحكمهم، وقضت ضمناً بخروجه من عداد أهل مكة، فانتقلت بذلك تبعية النبي ﷺ من مكة إلى يثرب - وهذا نوع من تغيير الجنسية في تعبيرنا الحديث - ولهذا السبب أخفى المسلمون أمر هذه البيعة وأمر هذا الشرط بخاصة عن قريش، لأن الفترة الواقعة بين هذه البيعة وبين وصول النبي إلى يثرب فترة لا يستطيع فيها اليثربيون أن يحموا النبي ﷺ لأنه بعيد عنهم، وقد اشترطوا فعلاً أن تبدأ حمايتهم له بعد وصوله إلى يثرب لاقبل ذلك، وكان في استطاعة أهل مكة بعد أن نبذهم النبي وخرج من عدادهم أن ينالوه بأي أذى لكونه خرج عليهم، ولأنه أصبح بذلك محروماً من كل حماية قبلية.

وكان لقريش عيون أخبروها خبر البيعة، ولكن أهل يثرب ممن كانوا في موسم الحج ولم يعرفوا خبر البيعة، أكدوا لقريش عدم حدوث مثل هذا الأمر حين جاءت تستوثق مما بلغها، وبذلك استطاع المسلمون من أهل يثرب أن يعودوا إلى بلدهم آمنين، إلا أن أحد المسلمين وهو "سعد بن عبادة الخزرجي" لحقته قريش، فقبضت عليه وكادت تبطش به لولا أن أجاره بعض أهل مكة ممن كان يجير لهم تجاراتهم في بلده.

ثم تسلل المسلمون من مكة أفراداً وجماعات مهاجرين إلى يثرب، يستخفي بهجرته من يخشى على نفسه، ويستعلن بها من يجد في نفسه القدرة على التحدي، وحاولت قريش أن ترد من استطاعت رده إلى مكة لتفتنه عن دينه أو لتعذبه وتُنَكِّل

---

[1] سالم: المرجع السابق، ص ٦٠ - ٦٢.

به، وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه إن كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه، لكنها لم تقدر على أكثر من ذلك حتى لا تكون حرب أهلية بين مختلف بطونها إن هي همّت بقتل واحد من هذه البطون، وإن كان بعض الموالي والرقيق قد لقي حتفه في هذا السبيل لكن الهجرة تمت وهاجر معظم المسلمين إلا من قدرت عليه قريش[1].

وبقى النبي ﷺ لا يدري أحد أيبقى هو، كما حدث في الهجرة إلى الحبشة، أم يهاجر في هذه المرة مع من بقي من أصحابه كأبي بكر.

٩- <u>الهجرة إلى يثرب:</u>

خافت قريش من احتمال أن يلحق الرسول بأصحابه إلى يثرب حيث أدركت أنه يستطيع من مقره الجديد أن ينظم جماعته، أو ينظم يثرب التي "فشا" فيها الإسلام بصورة تنبئ عن أنها ستكون مدينة إسلامية بعد وقت وجيز، ولو تم ذلك لهددت مكانة قريش الأدبية والدينية، لقيام هذا الدين الجديد الذي يسعى لتحطيم الوثنية في بلاد العرب ويقضي بذلك على زعامة قريش الروحية، ولهددت تجارة مكة تهديداً خطيراً لو وقف منها محمد ﷺ موقف العداء والمخاصمة، وهو لابد واقف هذا الموقف إن عاجلاً أو آجلاً لما ألحقته به وبأصحابه من أذى، ولأنه يسعى إلى إقرار مبادئ جديدة لابد لإقرارها من تشكيل اجتماعى وسياسى جديد، ولابد أنه نمى إليهم أنه يستعد للخروج، إذ كيف يخفي على أهل مكة ذلك مع أن أهل يثرب كانوا يتوقعونه وكانوا يخرجون إلى ظاهر المدينة ينتظرونه كل يوم حتى تغلبهم الشمس.

لذلك سعى رجال قريش إلى بعضهم، وعقدوا اجتماعاً عاماً في دار الندوة تداولوا فيه الأمر واستعرضوا كافة الاحتمالات، ثم انتهى الرأى على ضرورة التخلص من محمد ﷺ شخصياً بالقتل، على أن يكون قتلاً جماعياً يشترك فيه كل بطن من بطون القبيلة بفتى يضربه مع الآخرين، حتى يتفرق دمه وتعجز عشيرته عن حرب كل البطون فترضى بالدية، وتتخلص قريش من محمد ﷺ وتنجو مكة من الحرب الأهلية، ويعود إليها كل أبنائها المهاجرين وتعود لها وحدتها كما كانت، ثم تسير في تأكيد سيادتها وتحقيق مصالحها[2].

لكن النبي ﷺ خرج من مكة قبل أن تستطيع القبيلة أن تحكم استعدادها وأن تناله بما تريد واستطاع بمهارة أن يفلت من مطاردة القوم، وكان موفقاً في خروجه توفيقاً كبيراً، بعناية الله عز وجل من غير شك، فإن قريشاً لم تترك وجهاً ولا مكان

---

[1] سالم: المرجع السابق، ص ٦٤ ـ ٦٥.

[2] يشير القرآن الكريم إلى مؤامرة قريش للتخلص من الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول الله تعالى في سورة الأنفال ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وراجع أيضاً: سالم: نفسه، ص ٦٧ ـ ٦٨.

ظنت فيه الاختباء إلا بحثت فيه، ولكنه نجا وهو قريب منها، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (سورة التوبة/ الآية ٤٠)

ووصل النبي ﷺ ورفاقه (أبو بكر والدليل عبد الله بن أريقط الليثي، وعامر بن فهيرة مولى أبو بكر) إلى المدينة، وانتشر خبر الوصول سريعاً إلى المهاجرين والأنصار، فخرجوا للقائه، ونزل الرسول في حي بنى عمرو بن عوف فأقام هناك عدة ليالٍ أسس خلالها المسجد الذي أسس على التقوى (مسجد قباء)، ثم ركب الرسول راحلته، حتى بركت في مربد للتمر لغلامين يتيمين من بني النجار يقال لهما سهلاً وسهيل، فكان هذا الموضع هو المنزل، فابتاع الرسول الموضع من الغلامين ليتخذه مسجداً، ثم نزل الرسول بدار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري عدة أشهر حتى بنى مسجده ومساكنه[1].

وكان من نتيجة هجرة النبي أن تكونت الدولة الإسلامية الأولى في يثرب التى بات إسمها المدينة، وقد جعل النبي ﷺ الهجرة أساساً لنيل حق الدعوة لدولته في المدينة، واستمر هذا الشرط إلى فتح مكة سنة ٨ هـ، حتى انتهى شرط الهجرة وبقيت اختيارية، وهذا الشرط مذكور في القرآن الكريم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾، وبالهجرة بدأ دور جديد في تاريخ الدعوة الإسلامية عُرف بالدور المدني، اختلف في ظروفه وآثاره عن الدور المكي.

وجدير بنا أن نتعرف على هذا الدور المدني بشيء من التفصيل في الصفحات التالية.

---

[1] للمزيد راجع: سالم: نفسه، ص ٦٧ ـ ٦٨.

الفصل الثالث

ب- الفترة المدنية

«دولة الرسول ﷺ فى المدينة المنورة»

الفترة المدنية *

دولة الرسول ﷺ في المدينة المنورة

الأسباب التي مهدت لنجاح المسلمين في المدينة:

فئة قليلة هاجرت إلى يثرب مع النبي تاركة ديارها، فأقفلت بهجرتها دور كثيرة من دور مكة، وتألم كثير من المكيين لإغلاق هذه الدور وتحسروا عليها، ورموا النبي ﷺ بأنه فرّق بين الناس، كان المسلمون فئة قليلة مشردة مطرودة أخرجت من ديارها وأموالها، وفي نفسها حنين إلى من تركوا من الأهل، ولم تستقبلهم حياتهم الجديدة بالترحاب، فقد كان مناخ المدينة رطباً، فأصيب كثيرمن المهاجرين بالحمى، ثم إنهم كانوا محتاجين في هذا العهد الجديد إلى أن يدبروا أمر معاشهم بطريقة ما، بعد أن تخلوا عن أموالهم في مكة وهاجروا فارين بدينهم وأنفسهم، هذه الفئة القليلة التي يعمل فيها الحنين و(الحمى)، والتي تدبر أمر معاشها على نحو ضئيل، استطاعت أن تبلغ في يثرب ما لم تبلغه في مكة، ونالت توفيقاً لم تنل مثله من قبل، فلابد أن توجد أسباب تُعَلّل هذا التوفيق:

<u>وأول هذه الأسباب من وجهة نظرنا:</u>

هو أن اليهود كانوا قد هيأوا الناس لفكرة الديانة السماوية الجديدة فقد كانوا أهل كتاب، وكان الأوس والخزرج وثنيين، لكن الاتصال المستمربين الفريقين جعلهما يعرفان أديان بعضهما، فكان اليهود يفاخرون الأوس والخزرج بدينهم وكتابهم ويعيرونهم بوثنيتهم ويهددونهم بقرب ظهور نبي جديد يُحطم الأصنام، فينضمون إليه ويقتلونهم "قتل عاد وإرم"، فالأوس والخزرج الوثنيون حين دُعوا إلى الإسلام كانوا أكثر استعداداً لتقبله وفهم معناه من وثني مكة، وكانوا أسرع إلى هذا النبي الذى كثيراً ما كانت تهددهم به اليهود وأحرص على ألا يسبقوا إليه.

<u>السبب الثاني:</u>

إن الأوس والخزرج كانوا في هذا الوقت أصحابَ الكلمة العليا في يثرب حيث أصبحوا سادة الموقف بها، وأصبح اليهود بمثابة موالي لهم، فإذا تحالف النبي مع الأوس والخزرج ودخلوا في دينه كان له ألا يخشي اليهود، كما كان في مقدور الأوس والخزرج أن يُدخلوا في المدينة من شاءوا دون أن يخشوا اعتراض اليهود عليهم، وقد استطاع النبي ﷺ فيما بعد أن يُرغم اليهود على تقبل وجود الجماعة الجديدة، وأن يرغمهم بعد ذلك على أن يخرجوا من المدينة حين تبين منهم الخيانة وأصبحوا يمثلون خطراً على دولته الناشئة.

---

* إعداد د.أسامة حماد.

السبب الثالث:

الذى مهد النبي ﷺ هو أن كثيراً من زعماء الأوس والخزرج، الذين كان الناس يرشحونهم للرياسة والذين كانوا موضع التبجيل والاحترام، وكانوا أصحاب الكلمة النافذة في يثرب ومن الممكن أن تقف مطامعهم الشخصية في وجه النظام الجديد مات أكثرهم في موقعة (بُعاث) بين الأوس والخزرج قبيل الهجرة، فلم يجد النبي ﷺ إلا الرؤساء الثانويين وكان هؤلاء أميل إلى الطاعة، أو كانوا على أي حال أسهل قياداً.

هذه هي أهم الأسباب من وجهة نظرنا التى ساعدت الفئة القليلة الطريدة على النجاح في المدينة، وما كاد النبي ﷺ يستقر بها حتى بدأ تنظيم أمر الدعوة الإسلامية تنظيماً يختلف عن التنظيم المكي ونعني بذلك:

الأسس التي قامت عليها دولته الجديدة في المدينة المنورة:

١ - *إقرار مبدأ الشورى وحرية العقيدة:*

بدأ النبي ﷺ يكون أمة إسلامية تضم الجميع بصرف النظر عن قبائلهم وأجناسهم، وبهذا بدأ الدور السياسي من الدعوة، واتخذ النبي ﷺ فيه شخصية سياسية إلى جانب شخصيته الدينية، وكان نظام الدولة التي أقامها النبي في المدينة من نوع أصيل جديد إذ كان يجمع بين الشورى والحكم المطلق، قال تعالى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾، (الشورى: ٣٦) ، وقال ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وهذه الآيات على قصرها تجمع بين الشورى والاستقلال بالرأي في الحكم في آن واحد.

لقد كان ذلك النظام في إطاره دينياً مطلقاً يرتكز على الأوامر والأحكام العامة المُنَزَّلة، ولكنه في تفاصيله وتطبيق أحكامه مدني يقوم على الشورى، وهذه الدولة ذات مكانة متميزة في تاريخ البشرية لأنها – بالرغم من قيامها في الأصل على أسس دينية – أقرت مبدأين لا وجود لهما إلا في دولة غير دينية (مدنية)، وأول *هذين المبدأين*: هو حرية الأديان، وهي حرية لا تقرها الدولة الإسلامية وتسمح بها فحسب بل إنها تتعهد برعايتها، *والمبدأ الثاني* : هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة في أوسع معانيها تسامحاً وإنسانية، وهو مبدأ يكفل المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعقائدهم.

٢ - *بناء المسجد الجامع بالمدينة (مقر الحكم الجديد):*

ثم رأى النبي ﷺ من بداية تواجده في المدينة أن يتخذ مكاناً يكون بمنزلة منتدى عام للجماعة الإسلامية، تقيم فيه شعائرها الدينية، وفي الوقت نفسه تبحث فيه شؤونها العامة، فقام ببناء المسجد بعد أن استقر في المدينة بقليل، فكان هذا المسجد هو المقر الذي اتخذته الرياسة الجديدة، وفيه كانت تُبْرَم كل الأمور، وفيه كان

الاتصال بين المسلمين للتشاور في شؤونهم العامة من سلم وحرب واستقبال وفود وما إلى ذلك.

وبجوار المسجد اتخذ النبي ﷺ مساكنه، وقد جُعِلت متصلة بالمسجد بحيث يخرج من بيته إلى المسجد رأساً، وأصبح هذا التخطيط من أساسيات عمران المدن الإسلامية، حيث يبنى أولاً المسجد الجامع في وسط المدينة وتكون بيوت الولاة ودواوينهم مجاورة للمسجد، فالغرض من تأسيس المسجد كان دينياً لأداء الصلاة، وسياسياً لإيجاد رابطة للجماعة الإسلامية[1].

٣- ***الصلح بين الأوس والخزرج:***

بعد ذلك عمل النبي ﷺ على ترسيخ الاستقرار بين الجماعة الإسلامية في المدينة، وإذا كانت رابطة الدم قد فشلت – في المدينة – في أن تكون رباطاً يؤلف بين الناس، فقد أحلَ النبي محلها رابطة العقيدة، فأصلح أولاً بين الأوس والخزرج وحرص على إزالة كل ما من شأنه أن يُذَكِر بالعداء القديم بينهما، فجمعهما تحت اسم واحد هو "الأنصار".

وإنما لنلمس هذا الغرض واضحاً في تسمية المسلمين من أهل المدينة بالأنصار، فقد عرفوا جميعاً بهذا الأسم، وصار علماً عليهم جميعاً، وفي هذا إبعاد لروح العصبية، وإدماج القبيلتين الرئيستين تحت هذا الاسم الواحد يذكرهما دائماً بالتآلف لغرض أسمى وهو نصرة الدين والمبدأ الإسلامي والاندماج في غرض أكبر من الأغراض القبلية[2].

٤- ***المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:***

عمد النبي ﷺ بعد ذلك إلى التأليف بين هؤلاء الأنصار من الأوس والخزرج وبين المهاجرين من أهل مكة، وفي هذا التجأ إلى المؤاخاة، والمؤاخاة تسمية إسلامية للنظام العربي القديم وهو نظام الحلف، فقد جعل كل رجل من المهاجرين يؤاخي رجلاً من الأنصار، فيصير الرجلان أخوين بينهما من الروابط ما بين الأخوين من قرابة الدم، وقد أنزل النبي هذه القرابة منزلة الأخوة الطبيعية، بأن جعل المتآخيين يرث أحدهما الآخر، فإذا مات المهاجر ورثة أخوه الأنصاري، وإذا مات الأنصاري ورثه أخوه المهاجر، وقد ظل المهاجرين والأنصار يتوارثون بهذا النظام إلى أن استقرت الدولة الإسلامية في يثرب ووضع نظام التوارث الإسلامي على أساس القرابة الطبيعية.

---

(1) راجع بالتفصيل عن بناء مسجد الرسول وصفته المعمارية الأولى: السمهودي: وفاء الوفا، ج ٢٣٢/١ وما بعدها؛ أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، ص١٧٠؛ سالم: نفسه، ص٧١ – ٧٣.

(2) سالم: نفسه، ص٧٧.

فهذا كان نظاماً مؤ ـا في حقيقته والغرض منه سياسي، وهو الربط والتآلف بين المهاجرين إلى المدينة وبين أهلها الأصليين، وقد نزلت آية الوراثة بإلغاء هذا النظام ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ (سورة الأحـ اب، الآية ٦ وراجع سورة الأنفال، الآية ٧٥)، فصارت هذه الأخوة أدبية لا ينطبق عليها التوارث، ولكن آثارها الأدبية ظلت حتى الآن بين المسلمين.

<u>تنظيم أحوال المهاجرين المعيشية:</u>

كذلك قام النبي بعد استقراره في يثرب بضمان معيشة المهاجرين وغالبيتهم كانوا من التجار الذين تركوا أموالهم ودورهم في مكة إلى جانب متاعهم، ولم يكن هناك أمل لهم في استردادها، وقد اعتمد النبي ﷺ على حسن نية المسلمين من أهل يثرب الذين عرفوا بالأنصار، وقد أظهر هؤلاء روحاً عالية من المروءة والكرم، فأعطوا المهاجرين شيئاً من المال، وسمحوا لهم بالتجارة، كما عمل بعض المهاجرين في مزارع الأنصار، واستطاعوا بذلك أن ينظموا أمر معاشهم، وكان مبدأ الإخاء بين المهاجرين والأنصار استكمالاً لسياسة النبي ﷺ الحكيمة في تخفيف معاناة المهاجرين من خلال ربط حياتهم في كافة النواحي بالأنصار، حتى يشعر المهاجرون بالمساواة والأمن وحتى تستقر أحوالهم المعيشية.

<u>٥- إعلان قيام الدولة الإسلامية عن طريق ((كتابة صحيفة))</u>

بعد ذلك وضع النبي ﷺ دستوراً لتنظيم الحياة العامة في المدينة، وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها، ويَدُل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم لظروفهم، وقد عُرف هذا الدستور **بالصحيفة.**

ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ أول أمرها على أساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الإسلامية، فإنما تقوم الدول أولاً ثم يتطور أمرها إلى وضع دستور، ولكن النبي ﷺ ما كاد يستقر في المدينة وما كاد العام الأول من هجرته إليها ينتهي، حتى كتب هذه الصحيفة التي جعل طرفها الأول المهاجرين، والطرف الثاني الأنصار وهم الأوس والخزرج جميعاً، والطرف الثالث اليهود من أهل يثرب، وهذه الصحيفة مهمة جداً لأنها حددت شكل الدولة الإسلامية وكذلك هي مهمة لفهم الحوادث التي نشأت بعدها.

وقد بينت هذه الصحيفة الأسس الكبرى في القانون الذي ينظم الحياة العامة والسياسية لدولة الإسلام في المدينة وأول هذه الأسس: أن الصحيفة أعطت صفة للجماعة الإسلامية، فقد قررت أن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس (مبدأ المواطنة في العصر الحديث) وبهذا التقرير ألغى النبي ﷺ الحدود القبلية، أو على الأقل لم يجعل لها

وجوداً رسمياً بالنسبة للدولة، وارتفع بذلك عن المستوى القبلي المحدود، وبهذا أصبح الإسلام ملكاً لمن دخل فيه، فدخل بناء على هذه القاعدة شعوب كثيرة في الإسلام دون أن يضع الرسول ﷺ أمامها أي عقبات تحول بينها وبين الاشتراك في حياة العالم الإسلامي. وهذا المبدأ مرن جداً ومرونته هي التي كفت المسلمين في العصور الوسطى كثيراً من الشرور، وكفلت للإسلام دائماً حيوية جديدة وسيوفاً تدافع عنه.

وللأمة في هذه الصحيفة صبغة دينية أيضاً، فهي جماعة الله التي ترعى مبادئ الإسلام والسلام ومبادئ حماية الجار ونصرة المظلوم، والله هو الشهيد الذي يشرف عليها، فالإيمان هو رباط الاتحاد، والمؤمنون هم ممثلو معناه، وهم لذلك أول من يجب عليهم الوفاء لهذا الاتحاد، وهم في الوقت نفسه أول من يتمتع بالحقوق التي يخولها لهم.

والأمة لها منطقة من الأرض إجمالية، وهي منطقة المدينة، وكل هذه المنطقة ينبغي أن تكون حرماً وأرض سلام لا يتعدي فيها أحد على أحد، والأمة لذلك لا تشتمل على المؤمنين وحدهم، بل هي تتألف من كل من يتبعهم ويحارب معهم أي من كل أهل المدينة، وكان من بين عرب المدينة من يخالفون النبي ولا يؤمنون بالإسلام ولكنهم لم يستبعدوا من الأمة بل أدمجوا فيها بنص صريح، وكذلك اليهود شملتهم وإن كانوا لا ينتمون إليها انتماءً وثيقاً كالمهاجرين والأنصار، ولذلك لم تكن عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق.

والأمة برغم أنها ضمت طوائف المدينة فإنها لم تكن تتكون من أفراد وإنما كانت تتكون من جماعات، فالفرد لا ينتمي إلى الأمة إلا عن طريق العشيرة والقبيلة، فقد جاء في الصحيفة أن تبقى القبائل كما هي وأن تدخل في الأمة كما هي، وبذلك بقي التشكيل الاجتماعي القبلي كما هو، ومع أن الإسلام أنكر نظرياً فكرة امتيازات المجتمع الوثني في العصر الجاهلي إلا أن نظام القبيلة بقوته الداخلية وأسلوبه في معاملة الغرباء كان أمراً مفيداً بحيث لم يكن بالإمكان نبذه أو الاستغناء عنه، وكذلك ترك رؤساء القبائل كما هم ولم يحل محلهم موظفون دينيون.

أما فيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد سلطة كل منهما وواجباتهما، فقد بقيت على القبائل النفقات التي ليست ذات صبغة خاصة محضة وخصوصاً دفع الدية وفداء الأسرى ذلك أنه لم تكن قد وجدت بعد خزينة للدولة، وكذلك بقي للعشيرة والقبيلة مسألة الولاء فلا يجوز لأحد أن يخالف مولى دون مولاه، وكذلك بقي حق الإجارة لم يقيد، فلكل فرد الحق في أن يجير شخصاً غريباً وهو بذلك يلزم الجماعة كلها، ولكن استثنى من هذا إجارة قريش ومن نصرها، فإن ذلك كان محرماً على كل المشتركين في هذه الصحيفة.

وبمقتضى كل ذلك أصبح على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالثأر فيما بينها، لأن أول غاية للأمة هو منع نشوب حروب أهلية داخلية، فإذا قام نزاع وجب أن يُعرض على القضاء، وقد جاء بالصحيفة "وأنكم مهما اختلفتم فيه من شئ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ" وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده، فإن يرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ، فإذا تعكر السلام في الداخل بسبب القتل أو الفساد وجب لا على المجنى عليه أو على قبيلته أو على الجماعة كلها فحسب، بل على أقرباء الجانى نفسه أن يهبوا متكاتفين عليه، وأن يسلموه لصاحب الثأر لكي يقتاد منه بالعدل، وعلى هذا لم يصبح الثأر أمراً يتحول إلى ثأر يجر ثأراً، كما كانت الحال في القبيلة من قبل حيث لم تكن هناك سلطة لها قوة القهر، أما في المدينة فقد نفذ مبدأ العقاب بالمثل تنفيذاً صارماً، لأن الله في المدينة فوق رابطة الدم.

لكن العقاب بالمثل لم يصير عقاباً بالمعنى الحقيقي لأن تنفيذه كان متروكاً للمجني عليه أو وليه، وكان له أن يثأر لنفسه أو يتنازل عن الثأر ويأخذ الدية أو يعفو، ولكن مع هذا فإن مبدأ العقاب بالمثل صار نقطة انتقال من مبدأ الأخذ بالثأر إلى مبدأ الأخذ بالعقاب، وذلك أنه بانتقال حق التأديب من الفرد إلى الجماعة حدثت خطوة هامة في سبيل جعل الأخذ بالثأر شأناً من شئون الدولة، وبذلك أصبح هناك سلام واحد شامل هو سلام الأمة.

أيضاً أوضحت الصحيفة ضرورة اتحاد القبائل لرد كل عدوان من الخارج يهدد سلامة دولة الرسول في المدينة، وعلى المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضاً، وليس واجب الثأر من الأعداء واقعاً على أقرباء المقتول بحكم رابطة الدم، وإنما هو واقع على كاهل المؤمن ليثأر للمؤمن، وبذلك خرجت الحرب من أن تكون داخلة ضمن الثأر للدم كما كانت من قبل هي والثأر للدم شيئاً واحداً، وإنما صارت الحرب حرباً فحسب، وكذلك صار السلام مع قوم أجانب أمراً يعم المؤمنين جميعاً، شأنه شأن الحرب بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يعقد سلاماً منفرداً لا يكون سلاماً للجميع.

كذلك أوضحت الصحيفة موقف المسلمين من يهود المدينة فقد تركت لهم حرية العقيدة، وفي مقابل ذلك ألزمتهم بموالاة المسلمين وعدم التآمر عليهم، وفتحت الباب أمام الراغبين منهم في الانتماء للأمة الإسلامية، وفي مقابل تبعية اليهود للمسلمين يباح لهم الحصول على نفقة اشتراكهم مع المسلمين في الحرب[1].

---

[1] راجع نص الصحيفة في ابن هشام: السيرة، ج١/ ٥٠١ - ٥٠٤، وتفسيرات هذه النصوص عن سالم، نفسه، ص ٨٢- ٨٤.

وهكذا رسمت الصحيفة التخطيط العام لحياة الأمة، وأخذ نظام الأمة يكتمل شيئاً فشيئاً، وكلما أخذ الدين في التوسع والانتشار كلما قويت أركان الأمة الوليدة وتوطدت.

٦ ـ *تشريع الجهاد وتخطيط الحدود وإرسال السرايا:*

كانت مهمة النبي ﷺ السياسية بعد هذا تنحصر في الدفاع عن حدود دولته وضمان الأمن لها ولم تخرج تصرفاته عن هذا الهدف طوال العصر المدني، فقد حرص على أن يوجد في داخل المدينة أداة للحكم، وأن ينظم شئونها الداخلية، كذلك حرص عن طريق السرايا على أن يضم إلى المدينة ما يجاورها من ريف وما حولها من قبائل، وأن يخطط لها مجالها ويقرر حدودها، ويعقد لها أحلافاً مع القبائل النازلة فيما حولها. ذلك لأن الحاضرة لا تستطيع أن تعيش بنفسها ولا تستغني عن ريف يمدها بالمؤن ويكون مجالاً لنشاطها.

لهذا الغرض قام النبي بعدة سرايا، ابتدأت من المدينة واتجهت إلى جميع الجهات المحيطة بها، وعقدت في أثناء هذه السرايا أحلافاً مع القبائل المجاورة، إذ أنه لابد لسكان المدن التي تقوم في وسط بيئة بدوية أن تعمل حساباً كبيراً لغارات البدو، ولا يكون ذلك إلا عن طريق محالفة البدو ومهادنتهم، وأحياناً بدفع الإتاوات لهم، ثم كسر شوكتهم بالضرب على أيديهم عند اللزوم، وإشعارهم دائماً بقوة المدينة وقدرتها على الضرب.

والسرايا[١] التي عرفت في السنتين الأوليين كانت عبارة عن حملات حربية صغيرة، لا يُقصد بها الحرب، بل يُقصد بها ما يقصد من أعمال التوريات الحربية، وهي المحافظة على الحدود أو الاستكشاف وأحياناً إيقاع الضرر بأي عدو والانسحاب بسرعة، وقد بلغ عدد السرايا التى أرسلها النبي قبل موقعة بدر ثماني سرايا اتجهت إلى كل الجهات، قاد بعضها بنفسه وعقد لبعض أصحابه على بعضها، وكان الغرض منها الضغط على قريش من خلال مهاجمة قوافلها، وإخضاع القبائل غير المسلمة في البقاع المجاورة وإدخالها في الإسلام[٢].

كانت أولى هذه السرايا بقيادة حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ ـ بعد سبعة أشهر أو ثمانية أشهر من مقام الرسول والمهاجرين بالمدينة ـ في ثلاثين راكباً من المهاجرين دون الأنصار، حيث لقي أبا جهل عمرو بن هشام في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، وكان حمزة على أهبة مقاتلة قريش إلا أن الفريقين انصرفا دون قتال.

---

[١] السرية: طائفة صغيرة مختارة من الجيش.

[٢] على أكبر فياض: المرجع السابق، ص٨٨.

وبعث الرسول ﷺ عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في ستين راكباً من المهاجرين أيضاً دون الأنصار، فساروا إلى ماء بالحجاز يقال له أحياء بوادي "رابغ" فلقيهم به جمع من قريش يزيد عن المائتين على رأسهم أبو سفيان، فانسحبوا من غير قتال، إلا ما روي من أن سعد بن أبي وقاص رمى يومئذ بسهم "فكان أول سهم رُمي به في الإسلام"[1]. وبعث الرسول أيضاً السرية الثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص في ثمانية من المهاجرين على رواية، وفي عشرين منهم على رواية أخرى، فخرجوا إلى أرض الحجاز لمنطقة تعرف باسم الخرار قريبة من خم لقطع الطريق على عير قريش ثم عادوا ولم يصيبوا ما أرسلوا فيه حيث مرت عير قريش قبل وصولهم[2].

خروج النبي بنفسه: خرج ﷺ على رأس مجموعة من المسلمين إلى **منطقة ودان** قاصداً قوافل قريش، ثم تلتها **غزوة بواط** وفي كلتا الغزوتين عاد النبي دون قتال، وبعد شهر خرج على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار يريد قافلة يقودها أمية بن خلف عدتها ألفان وخمسمائة بعير يحميها مائة محارب فلم يدركها، لكونها اتخذت طريقاً غير طريق القوافل المعهود، ثم خرج بعد شهرين أو ثلاثة في أكثر من مائتين من المسلمين في السنة الثانية من الهجرة وراء قافلة من قريش علي رأسها أبي سفيان فبلغوا عشيرة، ولكنهم لم يلحقوا بها، فعقد حلفاً في هذه المنطقة مع قبيلتي بني مدلج وبني ضمرة، وما كاد يرجع إلى المدينة ليقيم بها عشر ليالٍ حتى أغار كُرز بن جابر الفهري من المتصلين بمكة وقريش على إبل المدينة وأغنامها، فخرج النبي في طلبه، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة وتابع مسيره حتى بلغ وادياً يقال له (سَفَوان) من ناحية بدر، فلم يلحق به،وقد سميت هذه الغزوة **ببدر الأولى**.

وفي نفس العام الثاني بعد الهجرة أرسل النبي ﷺ عبد الله بن جحش وبرفقته جماعة من المهاجرين بلغ عددهم ثمانية أفراد في رواية واثني عشر فرداً في رواية أخرى إلى نخلة بالقرب من مكة لتقصي أحوال قريش، فنصب عبد الله كميناً في نخلة، ومرت إحدى القوافل فقام المسلمون بقتل أحد رجالها ويدعى عمرو بن الحضرمي بسهم، وعادوا إلى المدينة بما كانت تحمله القافلة من بضائع ومعها أسيران، وكان هذا أول نصر يتم إحرازه، ولكن وقعت هذه السرية في أرجح الأقوال في شهر رجب وهو من الأشهر الحرم، فاحتجت قريش واليهود على ذلك، وغضب المسلمون أنفسهم ووجهوا اللوم إلى عبد الله بن جحش ورفاقه، وامتنع النبي ﷺ عن الحصول على نصيبه من الغنائم، إلى أن نزلت آية تبرئ هذا الصنيع

---

[1] سالم: نفسه، ص ١٠٠ - ١٠١.

[2] سالم: نفسه، ص ١٠٢.

وهي ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢١٧).

ويذكر بعض المؤرخين هذه السرايا على أنها عمليات حربية مقصودة بذاتها، وعلى أنها متصلة بالصراع بين النبي ﷺ ومكة، ولكننا نخالف ذلك ونرى أن هذه السرايا كانت عمليات حربية داخلية، يقصد بها تقوية أركان الجبهة الداخلية للدولة الوليدة وضمان الأمن لها ودفع الأذى الذي قد يأتي إليها من الخارج. كما كان من مهمة هذه السرايا منع تجارة قريش من المرور في أراضي الدولة الجديدة، طبقاً لنص "الصحيفة"، وهذا داخل في أعمال السيادة لدولة الرسول الجديدة، وكان لابد من إشعار قريش، وإشعار القبائل المجاورة أن حدود الدولة الجديدة محروسة، وأن سيادتها على أراضيها يجب أن تُحترم، وأنه من الخير الاتفاق معها والاعتراف بها.

وكان رسول الله ﷺ يريد أن يُشْعِر قريش في الوقت نفسه بقوة الدولة الجديدة وتصميمها على المحافظة على كيانها وسيادتها، وانه لا يسمح مطلقاً بأن تُوطأ أراضيها من عدو لا غازياً ولا تاجراً.

كما حملت هذه السرايا تهديداً لقريش بأن تجارتها مرهونة برضاء الدولة الإسلامية الجديدة، وعليها إذا كانت تريد أن تستمر في تسيير قوافلها إلى الشام أو إلى العراق أن تحسب حساب الوضع الجديد ويجب أن تغير من سياستها المنطوية على العدوان بالنسبة للنبي والمسلمين في المدينة، وأن تترك الحرية للمسلمين الذين حبستهم في مكة، وتترك الدعوة الجديدة تأخذ مجالها الحر دون معارضة أو حرب، وإلا فإنها تعرض نفسها لقطع تجارتها والقضاء على مواردها الاقتصادية، بإغلاق طريق التجارة المار في أراضي الدولة الإسلامية بالمدينة في وجه تجارتها.

ولم تحمل هذه السرايا أكثر من هذا التهديد، فلم تشتبك في حرب مع قوافل قريش، ولم تستول على شئ منها، إلا ما كان من سرية عبد الله بن جحش التي أرسلها النبي ﷺ - كما سبق القول – إلى بطن نخلة بين مكة والطائف للتعرف على أخبار قريش، ولم تكن هذه السرية من القوة بحيث تشتبك في حرب أو تصادر قافلة، ولكن أفرادها تصرفوا على مسئوليتهم الخاصة، فاستولوا على قافلة صغيرة لقريش وقتلوا أحد رجالها وأسروا رجلين، وقد لام النبي ﷺ رجال هذه السرية على تصرفهم الشخصي هذا، ومن هنا يتبين لنا أن مهمة السرايا لم تكن هجومية ولم يكن القصد منها الحرب.

الصدام المُسلح بين المسلمين وخصومهم (الغزوات):

قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الصدام المسلح يحسن أن نلقي الضوء على الحالة الداخلية في دولة الرسول بالمدينة، حيث أن الظروف الداخلية لعبت دوراً خطيراً في هذا الصراع والصدام، ولم تكن الجبهة الداخلية في (المدينة) سليمة كل السلامة،

بل كان هناك نقاط ضعف خطيرة، وكان نجاح النبي ﷺ في معالجتها يعني النجاح في الصدام العسكري المسلح الذي سوف نتعرض بالحديث له.

الأوضاع الداخلية في "المدينة المنورة"

كان في المدينة عنصران من عناصر الضعف، لهما من الخطورة ما كان من شأنه القضاء على هذه الدولة الناشئة، لولا اليقظة الشديدة والسياسة المرنة التي عالج بها النبي ﷺ أمر هذين العنصرين.

فأما العنصر الأول من عناصر الضعف: فهو وجود اليهود في المدينة وقد كانوا عنصراً كبيراً وقوة خطيرة لا يُستهان بها، وقد أجبرتهم الظروف على تقبل الوضع الجديد الذي نشأ بالهجرة النبوية، فحاولوا في أول الأمر التقرب إلى هذا الوافد الجديد لعلهم يستطيعوا استمالته إلى جانبهم، فربما استطاعوا أن يحولوا الموقف الداخلي بمعاونته لصالحهم، وقابل الرسول تقربهم هذا بتقرب مماثل فاعترف بهم عنصراً في الدولة الجديدة، وأقرها على وضعهم وديانتهم، ووضع بنوداً في دستور المدينة (الصحيفة) حددت وضعهم كعنصر عامل مشارك في الحقوق والواجبات، وعقد مع قبائلهم الكبرى عقوداً ألحقتها بالدولة.

لكن موقف اليهود – كعادتهم – كان تربصاً وانتظاراً لما يتبلور عنه الوضع الجديد، فما لبثو أن رأوا الأمور تسير إلى وجهه غير التي قدروها، حيث رأوا النبي ﷺ يدعو إلى التوحيد ولكنه ليس التوحيدالذي يريده اليهود، فلقد اتخذ اليهود من رسالة التوحيد التي جاء بها موسى (عليه السلام) ديناً، ولكنهم ربطوها بجنسهم، فالله الواحد هو إله إسرائيل الذي اختارهم لنفسه من دون الناس واختاروه لأنفسهم من دون الآلهة، وبذلك كانوا يرون لأنفسهم ميزة على الناس.

لذلك فقد كفروا بكل مبادئ التوحيد نكاية في محمد ﷺ فأعلنوا لقريش – حين سألتهم أدينها خير أم ما يدعو إليه هذا الرجل – أن دينهم خير مما يدعوهم إليه وأن الحق في جانبهم، وهكذا فضلوا الأوثان والأصنام على التوحيد، فلعنهم الله في كتابه الكريم وعَيّرهم ونَدّد بهم (النساء: ٥١ - ٥٢)[1].

وأمر آخر أثار أحقاد اليهود، ذلك أن محمداً استطاع أن يؤلف بين الأوس والخزرج، وأن يجعل منهم كتلة قوية متماسكة تضاءل إلى جانبها وضع اليهود، بالإضافة لمن يدخل إلى المدينة يومياً من المهاجرين ممن جاءوا معه من مكة ومن يلحق بهم، ومن يدخل في الإسلام من الأعراب ويهاجر ليقيم بالمدينة الأمر الذي يزيد العرب بها قوة ويزيد اليهود بها ضعفا، ويقضي على كل حلم يراود أنفسهم في استعادة مركزهم أو حتى الاحتفاظ بهذا المركز.

---

[1] يقول الله تعالى في ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.

ثم أن المهاجرين المكيين ما لبثوا أن اقتحموا الميدان الاقتصادي والتجاري منه بنوع خاص ولهم من الخبرة بشئون التجارة ما تضاءلت معها خبرة اليهود، وليس أبرع من تاجر قرشي في ذلك الوقت، فما لبثوا أن نظموا السوق في المدينة، وأجروا فيها التعامل على أسس جديدة جاء بها الإسلام، فلا ربا ولا طرقا ملتوية تذهب بأموال الناس، وبذلك نجحوا في السيطرة تقريباً على اقتصاديات المدينة، ونحن نعرف أن المال وجمعه عنصر حساس عند اليهود يبيحون لأنفسهم في سبيله ما لا يباح من دين أو شرف، لذلك ما لبثوا أن تنكروا لعهودهم وأخلفوا مواثيقهم وسعوا إلى تحطيم هذا الوضع الجديد في الداخل وفى الخارج.

فأما في الداخل: فقد عملوا على إثارة الفتن والأحقاد القديمة بين الأوس والخزرج، ثم قاموا يجادلون ويشككون في الدين الجديد، ويصدون عنه من يريد الدخول فيه، بل تطرقوا إلى المساس بالأشخاص والأعراض - فأخذوا ينشرون قول السوء والزور، وانبرى شعراؤهم ينظمون الشعر في هجاء (محمد ﷺ) والمسلمين والتحريض على حربهم، بل ائتمروا بالنبي نفسه يريدون قتله، **وأما في الخارج:** فقد اتصلوا بأعداء الدولة وكانوا عيوناً لهم على المسلمين، ثم تآمروا مع العدو وخانوا الدولة، وأوشكت مؤامرتهم وخيانتهم أن تقضي على المدينة قضاء تاماً في غزوة الأحزاب.

ولقد عالج النبي ﷺ موقف اليهود في براعة فائقة، وتغلب على حساسية الموقف الناتج عن محالفة اليهود لبعض بطون الأوس والخزرج، وكانت هذه المحالفات لا يزال لها أثر في نفوس هذه البطون، فكان لابد أن يعمل لها النبي حساباً، فترى النبي ﷺ يصانع اليهود مرة ويجادلهم أخرى أو يصبر عليهم حتى تحين فرصة فيقلم أظافرهم، ثم يرى نفسه مضطراً آخر الأمر إلى التخلص منهم نهائياً.

أما العنصر الثاني: من عناصر الضعف فقد كان ممثلاً في طائفة من عرب المدينة من الأوس والخزرج، ومن بعض المتهودة، ومن رجال بعض البطون اليهودية الصغيرة الذين دخلوا في الإسلام ظاهرياً فعرفوا بالمنافقين، وكان على رأس هذه الطائفة رجل من زعماء الخزرج هو "عبد الله بن أبيّ بن سلول" وقد رأى هذا الرجل أن هجرة الرسول ﷺ قد فوتت عليه مصلحة عاجلة كادت أن تصل إليه، ذلك أن الأوس والخزرج قد تصالحوا بعد يوم "بُعاث" واتفقوا على أن يُمَلّكوا عليهم منهم، وكان عبد الله هو الزعيم الذي وقع عليه الاختيار، حيث أنه كان قد لزم الحياد في مراحل الصراع الأخيرة بين القبيلتين، وفعلاً استعد قومه لتوليته مقاليد الرياسة، فلما كانت الهجرة، تغير الوضع، وفات عبد الله ما كان يريد وينتظر، ومن أجل هذا ضغن على النبي وعلى الوضع الجديد كله والتف حوله طائفة ممن شايعه، كما التف حوله اليهود لاتفاق مصلحة الطرفين.

وقد عملت طائفة المنافقين على خلق المتاعب في المدينة، غير أن خصومة هؤلاء المنافقين تختلف عن خصـرمة اليهود، وإن اتحدت مصلحة الطرفين في مناوأة النبي، فالمنافقين من عرب يثرب يرتبطون بعشائرهم برابطة الدم والقرابة، وليس من السهل التخلص منهم بإخراجهم من يثرب كما فعل النبي باليهود، كما أنه من الصعب التخلص منهم بالقتل وإلا تعرضت المدينة لحرب العصبية. وتعرض النبي لأن يقال أنه يقتل أصحابه، وفي هذا إضعاف لمركز الدعوة الإسلامية بين القبائل لو شن العدو دعاية من هذا النوع، فقد كان المنافقون يظهرون الإسلام، فهم في الظاهر مسلمون من أصحاب محمد ﷺ.

وقد استشعر النبي ﷺ هذا الحرج حين أشار عمر بن الخطاب بقتل عبد الله بن أبيّ بعد أن سعى بالفتنة بين المهاجرين والأنصار في غزوة "بني المصطلق"، وقال النبي لعمر فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه". وقد استعان النبي ﷺ على هذه الطائفة بعشائرها التي كانت تدرك موقف هؤلاء المنافقين وتقدر حلم النبي بهم رعاية لخاطر عشائرهم، وقد جعلت هذه العشائر من نفسها وازعاً يرد فتن هؤلاء المنافقين ويكبح جماحهم، وقد نجحت سياسة النبي هذه إلى حد كبير وخير شاهد على ذلك، استعداد عبد الله بن عبد الله بن أبيّ لقتل والده لو أمره النبي بذلك، وأن قومه كانوا هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه.

وهكذا كان موقف المنافقين شديد الخطورة على كيان الأمة الداخلي، لكنه لم يصل إلى الحد الذي وصل إليه موقف اليهود، فقد كان المنافقون حقاً يخذلون الدولة في المواقف الحرجة، ولا يتعاونون تعاوناً صادقاً عند الخطر، كما حدث من عبد الله بن أبيّ بن سلول حين خذل جيش المدينة ورجع بالمنافقين من غزوة أحد[1]، وكما تخاذل المنافقون في غزوة الأحزاب، لكن هذه المواقف لم تكن في خطورة الاتصال بالعدو وتمهيد الطريق له لدخول المدينة والقضاء على أهلها كما فعل اليهود، فقد كان المنافقون يعتبرون أنفسهم أهل البلد، وهم إن لم يدافعوا عنها حمية للدين قاتلوا من أجل أحسابهم وأعراضهم. ولذلك كان النبي ﷺ يستشيرهم حين يدهم المدينة خطر داهم، فقد استشار عبد الله بن أبيّ في غزوة أحد، كما قاتل بعض المنافقين قتالاً بطولياً في هذه الغزوة، .. وخير مثل لهم في هذا الموقف رجل يسمى "قزمان" أبلى بلاء شديداً وقتل سبعة أو ثمانية من الأعداء منهم من كان يحمل لواء قريش، ولما جرح وأشرف على الموت، وجعل بعض المسلمين يبشره بالجنة قال "بماذا أبشر؟ فوالله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت".

---

(1) الطبرى: المصدر السابق، ج٢/٥٠٧، وكان عدد من انسحب معه حوالي ٣٠٠ مقاتل وبرر انسحابه بأن النبي لم يأخذ برأيه هو وغيره من كبار السن.

وقد ظل خطر المنافقين على الدولة كبيراً ما ظل اليهود في يثرب، إذ أنهم كانوا على صلة دائمة بهم، بل إن اليهود هم الذين أذكوا النفاق في يثرب، فلما تم تطهير المدينة من اليهود ضعف أمر النفاق، وأصبح النبي ﷺ لا يخشى خطر هذه الطائفة.

هذه هى المتاعب التي واجهت النبي في جبهته الداخلية، وقد تغلب عليها بمنتهى اليقظة والحزم، وزاوج في التغلب عليها بين اللين والشدة حتى استقام له الأمر.

الغـــــزوات
غزوة بدر ٢ هـ

مقدمات الغزوة:

صممت قريش على تحديها لدولة الرسول في المدينة وذلك بتمرير تجارتها في أراضيها منتهكة بذلك حق السيادة للدولة الناشئة، فكان لزاماً على النبي ﷺ أن يقف موقفاً حازماً يحفظ على دولته حدودها ويصون كرامتها، وإلا تعرضت للمهانة في الخارج والداخل، فقد كان في خارجها وعلى حدودها قبائل لم تدخل في الإسلام ولم تحالف النبي ﷺ ولا تزال على علاقات طيبة مع قريش ترتبط بها وترى من مصلحتها تفوقها، إذ أنها تستفيد من رحلاتها التجارية، كما أن الوضع في المدينة كان لايزال مضطرباً بوجود اليهود الذين رأوا أمر محمد ﷺ يستقر ولواء الإسلام يرتفع، فكان لابد من إشعار الجميع بما فيهم اليهود أن المسلمين أصبح لديهم من القوة ما يمكنهم من إخماد أية فتنة والقضاء عليها.

وكان أبو سفيان قد خرج في أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة في تجارة كبيرة لقريش يقصد الشام، وخرج النبي ﷺ إلى موضع يسمى "العشيرة" لمصادرتها تعويضاً عما نهبه المشركون من أموال المهاجرين بمكة، لكن أبا سفيان تمكن من الإفلات، فعزم النبي على انتظار القافلة حين عودتها من الشام، وبالفعل تحين الرسول ﷺ فرصة عودتها، فندب المسلمين للخروج وخرج على رأسهم من المدينة في شهر رمضان سنة٢ هـ/٦٢٤ م، وكان عدة من خرج مع النبي إلى هذه الغزوة نحو سبعة عشر وثلاثمائة رجل، وانطلقوا مسرعين خشية أن يفلت منهم أبو سفيان.

أما أبو سفيان، فكان قد اتصل به خروج النبي ﷺ لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام فخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته، فلما ترامى إليه خبر خروجهم، استأجر رجلاً من قبيلة "غِفار" بعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً لنجدة أموالها، ولم تكن قريش في حاجة إلى من يستنفرها، فقد كان لكل منها تصيب من هذه القافلة حتى قُدِّرت أرباحها بنحو خمسين ألف دينار وهو مبلغ عظيم في ذلك الوقت، ثم إنها كانت جادة في محاولتها إيقاف نشاط المسلمين والقضاء عليهم[1].

أما المسلمون فقد انطلقوا إلى قرب بدر وهناك جاءهم الخبر بأن قريشاً قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم (تجارتهم)، وهنا أصبح الموقف بالنسبة للنبي ﷺ في غاية الحرج والدقة، فلقد خرج ليواجه تجارة وحامية قليلة فلم يأخذ للحرب أهبتها،

---

[1] أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ١١٠ – ١١١، سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ١٠٧ – ١٠٨، وراجع ايضاً: ابن هشام: السيرة، ص ٦١٥ – ٦١٨، ابن كثير: البداية والنهاية، ص ١٩٣ - ١٩٤.

ولم يتزود بما يكفي من عَتاد وسلاح، وكذلك تخلف عنه كثير من أصحابه فلم يخرجوا ظناً منهم أنه لا يلقي حرباً، وكذلك لم يكن متثبتاً من موقف "الأنصار" بإزاء هذا الوضع الجديد، أيقاتلون أم يتمسكون بموقفهم السابق من عدم المجازفة بالاشتباك مع قريش.

عند ذلك استشار النبي ﷺ أصحابه وأوضح لهم الموقف، فأدلى كبار المهاجرين برأيهم وأظهروا طاعتهم واستعدادهم للتضحية مهما عظمت، لكن النبي ﷺ كان يريد رأي الأنصار، ولذلك ظل يكرر "أشيروا عليّ أيها الناس" فأدرك سعد بن معاذ زعيم الأوس وحامل لواء الأنصار في هذه الغزوة أن النبي يريدهم فقام يجيب عن الأنصار مؤكداً على السمع والطاعة لرسول الله ﷺ" فامضي يا رسول الله لما أردت فنحن معك، والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد .." [1] فسر الرسول الكريم ﷺ بقول سعد واطمأن إلى موقف رجاله من المهاجرين والأنصار، وتقدم بالمسلمين إلى وادي بدر، وهو واد به آبار ومياه ويعتبر محطة تجارية تنزلها القوافل في ذهابها وعودتها إلى الشام، وكان أبو سفيان قد نجح مرة أخرى في الإفلات بالقافلة في طريق عودته متخذاً طريقاً آخر بعيداً عن بدر من ساحل البحر الأحمر [2]، في حين جاءت قريش بعُدَتِها وَعَتادِها في ثلاثة أضعاف المسلمين من الرجال وما يفوقهم خمسين ضعفاً من الخيل.

واستطاع النبي ﷺ – كم سبق القول – أن يسبق عدوه إلى ميدان القتال، وبذلك اختار لرجاله أفضل المواقع، ثم عَدَّل صفوفهم وبث فيهم الحمية وبشرهم بالنصر وبأن الملائكة ستشد أزرهم وقد أظهر المسلمون منتهى الطاعة والنظام والتفاني في محبة قائدهم، وبذلك عوضوا النقص في عددهم وعدتهم، أما قريش فلم تحسن اتخاذ مواقعها، كما كانت التفرقة تسود قوادها، ولم يستطيعوا جمع أمرهم على رجل واحد يلزمهم طاعته، فلما لبثوا حين اصطدموا بالمسلمين، أن بطش بهم هؤلاء بطشة شديدة، فارتبكت صفوف قريش وولوا منهزمين بعد أن تركوا في ميدان القتال سبعين قتيلاً كان منهم معظم زعماء مكة، كما تركوا في أيدي المسلمين سبعين أسيراً علاوة على الكثير من أمتعتهم وأموالهم ودوابهم والتى وقعت غنيمة في أيدي المسلمين، وهكذا كانت غزوة بدر هزيمة تامة ساحقة لقريش [3].

---

[1] ابن هشام: السيرة، ص ٦١٨ – ٦١٩، الطبري: نفسه، ج٢، ص ٤٣٧ – ٤٣٨.

[2] ابن هشام: نفس المصدر، ص ٦١٥ – ٦١٨، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٠٨.

[3] عن تفاصيل المعركة راجع: الطبري: المصدر السابق، ج٢/٤٤٠ – ٤٤١، ٤٤٧ – ٤٤٩، ابن كثير: المصدر السابق، ج٢/٢٠٤ – ٢١٠.

نتائج معركة بدر:

تُعد معركة بدر على صغرها وعلى قلة الجيوش المشاركة فيها، من المعارك الحاسمة في التاريخ، فقد استقر بها أمر المسلمين في جزيرة العرب، وقد ثبتت دعائم الدولة الإسلامية الجديدة التي كانت مقدمة لوحدة شبه الجزيرة العربية، كما كانت مقدمة لإمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف، هي من أعظم ما عرف التاريخ من إمبراطوريات، وأقرت حضارة في العالم لا تزال ذات أثر عميق في حياة الإنسانية.

كما تركت هذه الموقعة أيضاً آثاراً ونتائج عميقة بمكة والمدينة على السواء، فأما في مكة فقد عادت قريش مهزومة مخذولة، وقد قتل ساداتها وأسر كثير من رجالها وفيهم من ذوي المكانة، وقد تركت الهزيمة في نفوس القريشيين حرصاً شديداً على الثأر من المسلمين ونبيهم ﷺ يوم تتهيأ لهم الفرصة لهذا الثأر، وقد حرصوا على أن تكون فرصة الثأر قريبة، وأن تُعد لها قريش العُدة قبل أن تُخمَد نارها في الصدور، فما كادت ترجع حتى اجتمع رجالها في دار الندوة فاتفقوا على التنازل عن أرباح قافلة أبي سفيان السابق ذكرها، ووقفها على إعداد جيش قوي لغزو محمد ﷺ والثأر منه، وقد قدر هذا الربح بخمسين ألف دينار، ثم إنها أخذت تتصل بحلفائها، كما اتصلت باليهود في المدينة، ممن امتلأت نفوسهم حقداً على محمد ﷺ وامتلأت قلوبهم خوفاً من علو شأنه وأمره.

أما نتائج غزوة بدر في المدينة: فقد كانت أوضح وأكثر اتصالاً بحياة محمد ﷺ والمسلمين معه فقد شعر اليهود والمشركون والمنافقون، بعد بدر بمزيد من قوة المسلمين، ورأوا هذا الرجل الذي جاءهم فاراً من مكة منذ عامين يزداد سلطانه ويكاد يكون صاحب الكلمة في أهل المدينة جميعاً، وكان اليهود قد بدأ تذمرهم من قبل بدر وبدأت مناوشتهم للمسلمين، وبعد "بدر" لم تَعُد هنا دعوة محمد ﷺ هي وحدها التي تُحارب، وإنما هو سلطانه ونفوذ كلمته وعلو أمره الذي أصبح موضع الخوف وسبب التفكير في اغتياله، وما كان محمد ﷺ لتخفى عليه خافية من هذا كله، وجعلت النفوس من جانب المسلمين ومن جانب اليهود تمتلئ بالغل والضغينة شيئاً فشيئاً وجعل كل فريق يتربص بالآخر.

وكان المسلمون إلى يوم بدر يخشون مواطنيهم من أهل المدينة (المنافقين واليهود) فلا يستطيعون رد الاعتداء بالشدة على من يعتدي عليهم منهم، فلما عادوا منتصرين امتلأت نفوسهم بالجرأة، ووجدوا أن مصلحتهم تقتضيهم رد العدوان وتأديب المعتدين، وإلقاء الرعب في قلوب من تحدثهم أنفسهم بإفساد أمور الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة، فقتلوا بعض رجال اليهود ممن كانوا يحرضون على الدولة ويتصلون بالعدو (قريش) وكذلك استطاعوا أن يخرجوا إحدى قبائل اليهود من المدينة وهم بنو **"قينقاع"** عندما تحدت المسلمين وأظهرت العداء السافر،

وكانت هذه القبيلة اليهودية تساكن المسلمين بداخل المدينة وفي حيّهم يقام سوقها، وكان وجودها يشكل حضراً على كيان المدينة لو هددت بهجوم خارجي، وحدثتهم نفوسهم بالخيانة ونقض العهد، وتحدوا الرسول ﷺ بقولهم: "يا محمد.. انك لقيت قوماً (يقصدون قريش في موقعة بدر) لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. اما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس".

وكانوا بذلك التحدي السافر أول من نقض العهد من اليهود مع المسلمين، فعزم الرسول على إخراجهم من المدينة تخلصاً من شرورهم وحقدهم الدفين على الجماعة الإسلامية، ولعل السبب المباشر لقيام الرسول ﷺ بغزوة بني قينقاع (منتصف شوال سنة ٢هـ) يرجع إلى أن امرأة من الأنصار ذهبت لبيع بعض الحليّ إلى صائغ يهودي بسوق بني قينقاع، فأراد بعض اليهود إجبارها على كشف وجهها فرفضت، فاستخفوا بها، فاستغاثت بالمسلمين فهجم أحدهم على الصائغ اليهودي وقتله، فتكتل اليهود على المسلم وقتلوه، فغضب المسلمون وأعلن النبي ﷺ الحرب على بني قينقاع، وحاصرهم في ديارهم مدة خمسة عشر يوماً، وعندما اشتد عليهم الحصار، توسط لهم حليفهم (ابن سلول) عند رسول الله على أن يُخَلّي سبيلهم ويرحلوا عن المدينة، فوافق النبي ﷺ وأعطاهم الأمان، ليغادروا المدينة تاركين أملاكهم وأسلحتهم غنيمة للمسلمين، ليستقر بعضهم في خيبر والبعض الآخر في وادي القرى شمالي المدينة[1]، وحين خلت المدينة في داخلها من هؤلاء اليهود زال عنها وجود هذا العنصر الحاقد عليها لتصبح أكثر قدرة على مواجهة احتمال الهجوم الذي كانت قريش تستعد له، لتثأر ليوم بدر.

---

(١) سالم: نفسه، ص ٩٠ ــ ٩١.

موقعة أحد سنة ٣هـ

مقدمات تلك الموقعة

بدت الحالة الداخلية هادئة في المدينة بعد النصر الذي أحرزه المسلمون في بدر، وبعد إجلائهم يهود بنى قينقاع وانكمشت الطوائف الأخرى من غير المسلمين، وخفتت أصوات المعارضة، بعد مقتل المحرضين على المسلمين من اليهود، وفزع اليهود بعد أن أهدر النبي ﷺ دماء كل من تحدثه نفسه بالفتنة بينهم.

وكان من الممكن أن يستمر هذا الهدوء فترة طويلة لولا أن أبا سفيان بمكة لم يطق صبراً على عار بدر، ولم يطق أن يظل قابعاً في مكة دون أن يعيد إلى أذهان العرب أن قريشاً لا تزال لها قدرتها على الضرب والغزو، ولذلك ما لبث بعد فترة وجيزة (أواخر ذي الحجة) أن جمع مائتين من رجال مكة وخرج بهم مستخفين، حتى إذا ما وصلوا منطقة المدينة ليلاً نزل على بني النضير في حصن زعيمهم سلام بن مشكم، فأغاروا على ناحية العريض فحرقوا بها بيتين ونخلاً ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له يعملان في حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين، وندب على الفور النبي ﷺ أصحابه فخرجوا في أثر أبي سفيان، حتى بلغ بهم "قرقرة الكدر"[1] على نحو أربعة وعشرين ميلاً من المدينة، وأبو سفيان ومن معه جادون في الفرار يتزايد خوفهم فيلقون ما يحملون من زادهم من السويق[2]، فإذا مر به المسلمون أخذوه، ولذلك سميت هذه الغزوة **"غزوة السويق"** وقد انقلب فرار أبي سفيان عليه بعد أن كان يحسب أن الغزوة ترفع من شأن قريش بعد مصاب "بدر".

وقد كان على قريش أن تتخلص من الحصار التجاري الذي فرضه "النبي ﷺ" وأصحابه عليها وإلا تعرضت لشر ما تتعرض له مدينة مثل مكة تعيش على التجارة فقرروا أن يسلكوا طريق العراق، وبعثوا قافلة تبلغ قيمتها مائة ألف درهم، ولكن النبي ﷺ ما كاد يعلم بأمرها حتى أرسل إليها "سرية" بقيادة زيد بن حارثة أعترضتها عند عين ماء من مياه نجد يسمى "قِردة" ففر رحال القافلة واستولى المسلمون على الأموال[3]، وأسروا دليل القافلة الذي أسلم حين وصل إلى المدينة وأقام بها.

---

[1] مكان أوحى في نجد على الطريق التجارى بين مكة والخليج العربي كانت تسكنه قبيلتي بني سليم وغطفان وهما من حلفاء قريش.

[2] السويق: تعني الطحين.

[3] كانت سرية "قردة اول سرية وفيرة الغنم يغنمها المسلمون حتى أن خمس النبي صلى الله عليه وسلم منها بلغ ٢٠ ألف درهم ونصيب كل فرد حوالي ٨٠٠ درهم. راجع: علي أكبر فياض: تاريخ الجزيرة، ص٩١.

زاد هذا الحادث قريش حنقاً على محمد ﷺ وطلبا للثأر منه، فإنها إن لم تثأر لكرامتها من هزيمة بدر ... تفتح لنفسها طريق التجارة إلى الشام هوت مكانة مكة الاقتصادية ومكانتها الأدبية إلى حيث لا تقوم لها بعد ذلك قائمة، لذلك أخذت تعد نفسها وتتصل بالقبائل لتشاركها في الهجوم على المدينة، وأصرت بعض ... قريش على المسير مع الغزاة لشد أزرهم، وليذكرنهم بقتلى بدر[1]، وعلى ... هند زوج أبي سفيان قائد الحملة، وهي أشدهن على الثأر حرقة بعد أن قتل ابوها وأخوها وعمها يوم بدر، وكانت عدة الجيش القرشي ثلاثة آلاف مقاتل مزودون بأفضل ما قدروا عليه من عدة وسلاح، وقصدوا المدينة في عدة ألوية عقدت في دار الندوة واقتربت قريش من المدينة وأطلقت خيولها وإبلها ترعي في زروع المدينة المنورة المحيطة بها، ثم قدمت فنزلت بجوار جبل (أحد).

أحداث الموقعة:

عقد على الفور النبي الكريم ﷺ مجلساً عاماً دعا إليه أهل الرأي من المسلمين ومن المتظاهرين بالإسلام، وجعلوا يتشاورون كيف يلقون عدوهم، وكان رأي كبار الرجال من أهل التجربة أن يتحصنوا في المدينة ويقاتلوا فيها، ولكن الشباب من المسلمين أخذتهم الحماسة ورأوا في بقائهم بالمدينة أمراً قد تعده قريش وتفهمه قبائل العرب نوعاً من الجبن عن لقاء العدو، فيكون ذلك مجرئاً عليهم غيرهم، واشتد الجدال والخلاف بين أصحاب الرأيين، وكان الرسول ﷺ مع أصحاب الرأي القائل بالتحصن بالمدينة حيث قال لمن يريدون الخروج: "إنني أخاف عليكم الهزيمة". ولما كانت الكثرة الواضحة في جانب الذين يقولون بالخروج إلى العدو وملاقاته، ونظراً لأن الرسول ﷺ يعمل على إقرار مبدأ الشورى وحرية الرأي فقد انحاز في النهاية لرأي الأغلبية وقرر الخروج بالمسلمين لملاقاة الكفار.

وتقدم النبي ﷺ بالمسلمين متجهاً إلى أحد حيث عسكرت قريش، ورفض أن تنضم إليه كتيبة من اليهود كانوا حلفاء لعبد الله بن أبي بن سلول، خشية أن توقع الاضطراب في صفوف الجيش، كما رفض أن يدعوا الأنصار حلفاءهم من يهود، وموقف اليهود مشكوك فيه بعد الذي ظهر من خيانتهم، وبعدما امتلأت به نفوسهم من حقد، وفي الطريق تخاذل عنه عبد الله بن أبيّ بن سلول بثلث الناس، وعاد إلى المدينة محتجاً بأنه خالف رأيه (يقصد النبي) واتبع رأي الغلمان ممن لم يحسنوا استخدام الرأي، وكذلك همت طائفتان أخريان من الأنصار (بنو سلمة وبنو حارثة) أن تتراجعا متأثرين بتراجع عبد الله بن أبي لولا أن ذكرتا إيمانهما فصبرتا[2]، وبقي

---

[1] سالم: المرجع السابق، ص ١١٥ – ١١٦.

[2] فقد ثبت الله أقدامهما ووردت في القرآن الكريم إشارة إليهما في قوله تعالى ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، سورة آل عمران الآية ١٢٢.

الرسول ﷺ في سبعمائة من المسلمين المؤمنين ليقاتلوا ثلاثة آلاف من أهل مكة كلهم موتور وكلهم على ثأره حريص.

وفي ساحة أحد اختار النبي لرجاله موقعاً استراتيجياً قوياً، فاحتمى بظهره إلى أحد، وجعل العدو في مواجهته، ووضع خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير الأنصاري على مرتفع يقال له "جبل عينين" ليسدوا الطريق على خيالة قريش فلا تستطيع الالتفاف بجيش المسلمين، وَشدَّد عليهم الأمر ألا يفارقوا مكانهم إن كانت للمسلمين أو عليهم وإنما همهم أن ينضحوا الخيل بالنبل حتى لا يأتي الجيش من خلفه.

وهكذا وقفت في ميدان القتال قوتان غير متكافئتان لا في العدد ولا في العدة، يحرك القوة الكبرى ثأر لا يهدأ من يوم بدر في النفوس ثائره، ومركز أدبي ومادي أوشك على الانهيار، ويحرك الصغرى عامل الدفاع عن الوطن أن تنتهك حرمته، وعامل الدفاع عن العقيدة ودين الله أولاً.

وبدأت المعركة وحمل المسلمون في أول المعركة حملة شديدة على العدو، وتناولوا حملة لوائه بالقتل حتى قتلوا منهم تسعة على التوالي، فتراجعت قوات قريش وانكشفت حتى دخل المسلمون معسكرهم، وكادوا يذيقونهم هزيمة أشد من يوم "بدر" لولا أن شُغِلوا بالغنيمة يجمعونها وخالف الرماة الأوامر المشددة، فتركوا مواقعهم ونزلوا يشاركون في جمع الغنائم ظناً منهم أن الهزيمة قد تمت على العدو.

وعند ذلك انتهز الفرصة خالد بن الوليد قائد خيل قريش، فنفذ من الثغرة التي كان يسدها الرماة، ودار خلف جيش المسلمين، وأوقع الخلل في صفوفهم، وعاد المنهزمون من قريش حين رأوا خيلهم تقاتل بين المسلمين، فألحقوا بهم هزيمة شديدة، وقتلوا منهم سبعين رجلاً من بينهم حمزة عم النبي بطل ذلك اليوم، ومصعب بن عمير حامل الراية وعبد الله بن جحش[1]، ووصل العدو إلى النبي ﷺ نفسه بعد أن تفرق عنه رجاله منهزمين، وأصابوا بجراحات شديدة، وتعرضت حياته للخطر لولا أن دافع عنه رجال من المهاجرين والأنصار فدوه بحياتهم، وفشلت كل محاولة من النبي لرد هزيمة المنهزمين، وإعادة تسوية الصفوف، فقد ابتلعت الكثرة من قريش هذا العدد القليل من المسلمين بعد أن فقدوا النظام واختلت صفوفهم[2].

وطارت قريش فرحاً بنصرها، وحسبت نفسها انتقمت أشد الانتقام ليوم بدر، حتى صاح أبو سفيان يخاطب المسلمين "يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل" فقال النبي ﷺ لرجل من أصحابه "قل نعم.هو بيننا وبينك موعد"[3]. ولقد أسرفت

---

[1] وفي رواية أخرى ٧٤ شهيداً أربعة من المهاجرين والباقي من الانصار، أما قتلى قريش فقد بلغ عددهم ٢٠ قتيلاً، راجع على أكبر فياض: المرجع السابق، ص٩٣.

[2] سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١١٦.

[3] ابن كثير: المصدر السابق، ج٣، ص٣٨.

قريش في نكايتها بالمسلمين وفي إظهار حقدها وتشفيها، فمثلت بالقتلى، فجدعت الأنوف وصلمت الآذان وبقرت البطون، وبلغ الحقد بهند زوج أبي سفيان أن لاكت كبد حمزة عم النبي بعدأن بقرت بطنه وجدعت أنفه وصلمت أذنه، واتخذت هي وغيرها من نساء المشركين من أشلاء شهداء المسلمين قلائداً وأقراطاً وأساور. وانصرفت قريش بعد أن دفنت قتلاها، ولم تشأ أن تهاجم المدينة فتحتلها وتقضي عليها، مكتفية بأن تنال من ثمار النصر أقربها وأيسرها على ما جرت عليه العادة عند القبائل العربية في حروبها.

وانصرف المسلمون إلى المدينة وعلى رأسهم النبي ﷺ بعد أن دفنوا قتلاهم[1] والحزن يثقل نفوسهم، لما أصابهم من هزيمة بعد نصر ومن مذلة وهوان بعد ظفر عزيزكان في متناول اليد،وذلك لاختلافهم ومخالفتهم أوامر النبي، وانبعاثهم وراء عَرَض الدنيا في الوقت الذي يقاتلون فيه لإعلاء الحق وإقرار المثل العليا[2].

نتائج موقعة أحد:

كان على الرسول ﷺ بعد الهزيمة أن يعالج الموقف من نواح متعددة، عليه أولاً أن يعالج الناحية النفسية المعنويةعند المسلمين وقد أوشكت الهزيمة أن تقتل الروح المعنوية فيهم، وأوشك الشعور بالإثم أن يذل نفوسهم ويصغرأقدارهم في نظر أنفسهم، فلقد خالفوا رأي النبي وكبار المسلمين، وكان عليه أن يعالج الموقف الداخلي في المدينة نفسها، فقد أخذت الطوائف الأخرى من أهل المدينة من اليهود والمنافقين والمشركين يظهرون السرور لما كان من هزيمته وأصحابه، وأظهر اليهود القول السيء في النبي ﷺ وراحوا يشككون في نبوته، كما أخذ المنافقون يخذلون عنه أصحابه ويأمرونهم بالتفرق عنه.

كان على النبي ﷺ أن يعالج الموقف من جميع هذه النواحي: فأما من الناحية النفسية عند المسلمين، فإنه عفا عن كل مسيء في المعركة ولم يُحَمِّل أحداً بعينه ممن حضرها نتائجها، بل جعل المسئولية عامة، ثم إن القرآن نزل مواسياً للمسلمين معالجاً لجرح نفوسهم مذكياً الروح المعنوية فيهم، مذكراً إياهم بأن الحرب سجال والأيام دول، وأنهم لكي ينتصروا لابد أن تكون لديهم القدرة على مواجهة الهزيمة، فإن القدرة على تقبل الهزيمة أقوى أنواع الانتصار، ثم يثير فيهم العظمة المستفادة من هذه المعركة حتى يستعدوا لما بعدها من أيام وجاء القرآن الكريم مؤكداً على دور النبي في مواساة الجماعة الإسلامية فنزلت آيات عديدة في ذلك من بينها تعالى

---

[1] روي عن الرسول أنه قال وهو يدفن شهداء أحد "أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة" وقال صلى الله عليه وسلم أيضاعنهم: "فإن كل جرح أو كل دم يفوح مسكاً يوم القيامة" راجع: ابن كثير: نفسه، ج٣/٤١.

[2] راجع حول غزوة أحد: الطبري: المصدر السابق، ج٢/٤٩٩، ابن كثير: نفسه، ج٣/٩-١٩، أحمد ابراهيم الشريف: نفسه، ص١٣٢ وما بعدها، سالم: نفسه، ص١١٥ - ١١٧.

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران، ١٣٩ – ١٤٠)، ومنها ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران، ١٦٩) ومنها آية ﴿غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ﴾ (آل عمران، ١٥٣).

غزوة حمراء الأسد:

وحتى يتحوط النبي ﷺ من عدم رجوع قريش لضرب المدينة واحتلالها، أمر النبي ﷺ مؤذنه فأذن بين المسلمين بطلب العدو في الغد من يوم أحد على ألا يخرج إلا من حضر القتال، وتحامل المسلمون على جراحاتهم، وقد استردوا روحهم المعنوية فلم يتخلف منهم أحد، وحتى من أثقلته جراحه أصر على الحضور، وأظهر من الصبر والجلد والشجاعة ما يعتبر مثلاً فذاً في تاريخ الحروب[1].

بلغ النبي حمراء الأسد – على ثمانية أميال من المدينة – وكان أبو سفيان ورجاله قد وصلوا الروحاء – على سبعة وسبعين ميلاً – وقد صدق تقدير النبي ﷺ، فإن قريشاً قد شعرت بالخطأ ولامت نفسها على ترك فرصة مهاجمة المدينة والقضاء على من فيها من المسلمين، وفكروا في العودة من جديد وأراد النبي أن يوهن نفوس المكيين ويضعف عزيمتهم فأمر المسلمين بإيقاد النيران على التلال المحيطة وفي أماكن متفرقة لإيهام العدو بكثرة عددهم، كما أوحى إلى رجل من خزاعة أن ينقل لمعسكر أبي سفيان أن النبي ﷺ والمسلمين قد خرجوا لمطاردة وقتال قريش وقد رجع إليهم من تخلف عن القتال واستعدوا استعداداً كبيراً، وفعل الخزاعي ما كلف به، فخارت عزيمة أبي سفيان، وأجمع على سرعة الرجوع إلى مكة، ثم عاد على أثر ذلك النبي الكريم ﷺ إلى المدينة وفي الطريق سقط اثنان من جند قريش ضلا الطريق في يد المسلمين وهما أبو حمزة الشاعر، ومعاوية بن المغيرة، وتم قتلهما بأمر من النبي، الذي عاد إلى المدينة، وقد استرد كثيراً من مكانة المسلمين وأعاد إلى نفوسهم بعضاً من شجاعتها واطمئنانها[2].

سرية بني أسد

بعد بضعة أشهر من غزوة أحد (أول المحرم سنة ٤ هـ) علم النبي ﷺ بأن طليحة وأخوه سلمة ابنا خويلد – من زعماء بني أسد – يحرضان قومهما على

---

[1] على أكبر فياض: المرجع السابق، ص٩٣.

[2] انظر حول تلك السرية (ابن كثير: نفسه، ج٣، ص ٦١ – ٦٢).

مهاجمة المدينة ونهب زروعها المحيطة بها، وشجعهم على ذلك اعتقادهم أن رسول الله والمسلمين لا يزالون متأثرين من هزيمتهم في أحد.

ولم يكد النبي يعلم بذلك حتى بعث (في أوائل سنة ٤ هـ) بسرية من المسلمين عدتها ١٥٠ من المقاتلين بقيادة أبي سلمة المخزومي وكان معه بعض كبار الصحابة مثل سعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح، وقد أوصاهم رسول الله بالاختباء نهاراً والزحف ليلاً لمباغتة بني أسد. وبالفعل نفذ أفراد السرية وصية رسول الله إلى أن بلغوا قَطَنْ وهو جبل في منطقة فيد وقاموا بهجوم مفاجئ على بني أسد فأوقعوا بهم الهزيمة، وأسروا منهم ثلاثة، وغنم المسلمون الكثير من الإبل وعادت السرية ظافرة إلى المدينة محملة بالغنائم، مما ساعد على إعادة الثقة إلى نفوس المسلمين.

حادثة ماء الرجيع[1]

تتلخص تلك الحادثة في أن أحد زعماء بني هُذيل قُتل على يد أحد المسلمين لأنه كان يدبر مؤامرة لمهاجمة المسلمين في المدينة في أعقاب غزوة أحد. وهنا صممت قبيلة بني هذيل على الثأر له، فاتفقت مع قبيلة مجاورة لهم من أعراب عضل والقارة – بأن يذهب وفد منهم إلى رسول الله في المدينة ويخبروه بأن فيهم إسلاماً، ويطلبوا منه أن يبعث إليهم جماعة من الصحابة لتعليمهمْ مبادئ الإسلام ويتلون عليهم القرآن الكريم، فأرسل معهم النبي ﷺ ستة من الصحابة على رأسهم عاصم بن ثابت. وعندما وصل المسلمون إلى ماء لبني هذيل تسمى الرجيع بين مكة والطائف انتهز بنو هذيل الفرصة وغدروا بالمسلمين الستة، فقاموا بمهاجمتهم، وقتلوا أربعة وأسروا اثنين بيعا كرقيق لقريش، فقتلهما المشركين ثأراً لقتلاهم في غزوة بدر[2].

حادثة بئر معونة:

ووقعت فى نفس الشهر (صفر سنة ٤هـ) الذي وقعت به حادثة أو سرية الرجيع فتذكر كتب السيرة أن رسول الله ﷺ بعث إلى أهل نجد بأربعين رجلاً من الصحابة معظمهم من الأنصار – وكانوا يسمّون بالقراء – لنشر الإسلام في أرض نجد، وكانوا في جوار أبي البراء – من زعماء بني عامر بنجد، وعندما وصل المسلمون إلى بئر معونة بأرض بني عامر، غدر بهم عامر بن الطفيل – من زعماء عامر – الذي حرض قبيلته على مهاجمة المسلمين، ولكنهم رفضوا، لأنهم في جوار أبي البراء، فحرض قبيلة بني سُليم المجاورة، فاستجابت له، وانتهى الأمر باستشهاد جميع المسلمين عدا اثنين أحدهما فر إلى المدينة رغم جراحه، والآخر أسر ثم أعتقه

---

(١) كان أبو سلمة من جرحى أحد، وفي الطريق انفتح جرحه وتوفى متأثرا به بعد فترة.

(٢) الطبري، نفسه، ج٢، ص٥٣٩.

ابن الطفيل لقرابة بينهما، وقد حزن الرسول ﷺ على قتلى بئر معونة أشد الحزن، وتألم كثيراً لغدر المشركين بالمسلمين في نجد[1]، حتى أنه استنزل اللعنة على هؤلاء الأعراب بأسمائهم في صلاة الصبح لمدة شهر[2].

طرد يهود بني النضير من المدينة (سنة ٤ هـ):

استغل بنو النضير هزيمة المسلمين في أحد، وأخذوا يستخفون بهم، ويدبرون المؤامرات للقضاء على رسول الله، حيث دبروا خطة لقتله عندما ذهب إليهم ليطلب منهم المشاركة في دفع بعض الديات[3]، وذلك بإلقاء صخرة عظيمة عليه أثناء جلوسه بينهم، ولكن الله عز وجل حفظه وأعلمه بمؤامرتهم، فابتعد على الفور عن ديارهم، وأرسل إليهم رسالة يأمرهم فيها بالرحيل عن المدينة فأذعنوا في بداية الأمر إلا أنه عادوا ورفضوا الرحيل بتحريض من المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، وأمام شدة الحصار وعدم مساعدة أحد لهم اضطروا إلى طلب الأمان وحقن دمائهم على أن يجلوا عن المدينة، فوافق النبي ﷺ على ذلك، وسمح لكل ثلاثة منهم ببعير يحملون عليه ما شاءوا من مال وطعام وشراب، وأصبحت أرضهم وأملاكهم غنيمة للمسلمين، وذهب بعضهم إلى خيبر، والبعض الآخر رحل إلى أطراف الشام.

غزوة الأحزاب (الخندق) شوال سنة ٥هـ:

امتلأت قلوب اليهود حقداً على المسلمين عقب طردهم من المدينة، فبدأوا يفكرون في وسيلة للقضاء عليهم، وتزعم ذلك يهود بني النضير الذين استقروا بخيبر وأرادوا أن يقوموا بمحاولة نهائية للقضاء تماماً على رسول الله والمسلمين في المدينة، ولتحقيق هذا الهدف سخروا كل إمكانياتهم المادية والبشرية علاوة على استخدام الحيلة وإثارة القبائل العربية وتأليبها ضد دولة الرسول في المدينة، حتى تكون الجولة الفاصلة، وعلى هذا عقدوا العزم، وأخذوا على عاتقهم تدبير هذا الأمر وإعداده ليكون يوم الأحزاب.

وهكذا اختمرت فكرة تأليب العرب على دولة الرسول في المدينة، في نفوس اليهود من بني النضير الذين لجأوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة، وأرادوا لها أن تكون محاولة نهائية ومعركة حاسمة يخوضونها ضد محمد ﷺ، وفي سبيل ذلك لم يدخروا جهدا من حيلة أو مكر أو مال وحتى تعاليم التوراة داسوها في سبيل هذا الغرض.

---

[1] انظر: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٧٦ – ٧٧. الطبري، نفسه، ج٢، ص ٥٤٥ – ٥٥٠.

[2] علي اكبر فياض: المرجع السابق، ص٩٥.

[3] هذه الديات كانت نتيجة قتل عمرو بن أمية الضمري أحد الناجين من بئر معونة لاثنين من بني عامر والتي كانت على عهد مع يهود بني النضير.

وتنفيذا لهذه الفكرة خرج وفد من زعماء بني النضير على رأسه حُيَيُّ بن أخطب النضرى وسلام بن أبي الحُقَيق النضري وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، ومعهم جماعة من يهود خيبر، حتى قدموا على قريش بمكة يحرضونها على قتال محمد ﷺ، لكن قريشاً كانت قد بدأت تمل الحرب لذلك بدت مترددة غير واثقة من إحراز النصر على محمد ﷺ، وظهر ذلك واضحاً جلياً من أسئلتها التي وجهتها لليهود، فقد سألتهم أدينها خير أم دين محمد ﷺ، وقد أجابها اليهود على ذلك بأن دينها خير من دينه وأنها أولى بالحق منه، وبهذه الإجابة تنكر اليهود لمبادئ التوراة وكفروا بالوحدانية جرياً وراء حقدهم ومصالحهم وقد فضح القرآن الكريم هذا الموقف من جانب اليهود ودفعهم بالكفر وأوجب عليهم اللعنة (النساء:٥١). ومازالوا بقريش يسهلوا لها الأمر ويرغبونها وتعهدوا لها بالمساعدة التامة حتى أخذوا وإياها موعداً بعد عدة أشهر يكونون قد جمعوا لها الأحزاب من كل قبائل العرب، ثم خرج أولئك النفر من يهود من عند قريش ليتموا جولتهم لتأليب قبائل العرب، فخرجوا إلى غطفان، فأنضمت إليهم الكثير من بطونها مثل فزارة وبني مرة وأشجع، وسُليم، وبني سعد، وكل من له عند المسلمين ثأر[1].

أحداث المعركة:

ولما جاء الموعد المضروب خرجت الأحزاب التي جمعها اليهود لحرب المسلمين، وقد بلغ جيشهم عشرة آلاف مقاتل مسلحين أفضل تسليح تملكه القبائل العربية في ذلك الوقت ولديهم قوة كبيرة من الخيالة، وكانت القيادة العليا لأبي سفيان بن حرب.

وبلغت أنباء هذ المسير محمداً ﷺ والمسلمين في المدينة ففزعوا له، إذ لم تكن المدينة تملك من القوة ما تستطيع به مواجهة هذا الحشد الكبير وبخاصة وأن بطونا منها لا تزال على شركها، ثم إن النبي لم يكن يطمئن تماماً إلى بني قريظة وهم القبيلة الباقية من اليهود، ولم يكن يكفي التحصن بالمدينة وحدها، ولا بد من اتخاذ خطة أحكم لمواجهة الموقف، وقد جاء الحل من اقتراح تقدم به سلمان الفارسي، فقد أشار بحفر الخندق حول المدينة، حيث قال: يا رسول الله "إن كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا"[2].

ووافق الرسول الكريم ﷺ على هذا الاقتراح، فأمر أتباعه بالبدء في حفر الخندق في شمال المدينة وهي الجهة التي يمكن للعدو اقتحام المدينة منها، أما باقي الجهات فهي محصنة طبيعياً فهي محاطة بحرات أي جبال مرتفعة شديدة الوعورة يصعب منها الهجوم ولا يمكن دخول المدينة عن طريقها، وعمل المسلمون بجد

---

[1] الطبري: المصدر السابق، ج٢/٥٦٥ ـ ٥٦٦.

[2] الطبري: نفسه، ج٢/٥٦٦، ابن كثير: نفسه، ج٢/٥٩.

حتى أتموا الحفر في ستة أيام، وبعد إتمام حفر الخندق، قام النبي ﷺ بتحصين الدور المواجهة له، لأنها ستتعرض للهجوم، كما حشد مقاتلي المسلمين خلفه لصد محاولات الأحزاب لعبوره، كما أمر بإنزال النساء والذراري (الأطفال) في الحصون.

وحين أقبلت جموع العدو فوجئت بالخندق، فاستنكرت هذه الوسيلة، واتهمت النبي والمسلمين بالجُبن، وقد وقف النبي الكريم ﷺ بقواته من وراء الخندق، وكانت عدة من معه ثلاثة آلاف على قول بعض المصادر وتسعمائة على قول بعضها الآخر[1].

ونجح المسلمون في صد محاولات الأحزاب لعبور الخندق واقتحام المدينة وطال حصارهم للمدينة، وبدأ اليأس يتسرب إلى نفوسهم ويفكرون في الانسحاب والعودة إلى مكة، فانزعج لذلك المحرضون من يهود بني النضير، وعلى رأسهم زعيمهم حُيَّي بن أخطب، ولذا بذل هذا الأخير غاية جهده لاستمالة يهود بني قريظة الذين يساكنون المسلمين داخل المدينة.

واستطاع ابن أخطب أن يؤثر على بني قريظة، فأعلن هؤلاء قطع حلفهم مع النبي، واستعدوا لمعاونة الأحزاب بفتح الطريق أمام جيوشهم كي تدخل المدينة من ناحية بني قريظة، وهي جهة لم يشملها الخندق، وتأكد رسول الله من خيانة بني قريظة عندما لاحظ اشتداد حصار الأحزاب، وقيام البعض من يهود بني قريظة بالتجسس على ديار المسلمين، وإزاء هذا الموقف العصيب الذي أضحى عليه المسلمون، شاور الرسول الكريم زعماء الأنصار في أن يُعطي غطفان ثلث محصول المدينة مقابل انسحابهم، ولكن زعماء الأنصار رفضوا قائلين للنبي "إننا لم نكن نعطيهم في الجاهلية فكيف نعطيهم في الإسلام[2]" عندئذ رأي النبي ﷺ استخدام الحيلة واستطاع بمهارة أن يبث الشك بين طوائف الأحزاب، ثم بذر الشك بين اليهود والأحزاب[3]، وبذلك تفككت جبهة العدو، في حين أعانت الطبيعة على انهزامهم وتراجعهم، فقد كان الجو شتاء والبرد قارساً، فسلّط الله عليهم رياحاً عاتية نزعت خيامهم وأنزلت الرعب في قلوبهم، فرفعوا الحصار، وولوا الأدبار إلى بلادهم، وما كان هذا النصر إلا بفضل الله ونعمته على المسلمين.

---

(1) الطبرى: نفسه، ج٣/٥٧٠.

(2) ابن كثير: المصدر السابق، ج٣/١٠٤ ــ ١٠٥.

(3) فقد استدعى نُعيم بن مسعود من قبيلة غطفان وكان قد اسلم سراً وتميز بالدهاء والفطنة. وطلب منه ان يرفع عن المسلمين اذي قريش واليهود والاحزاب عن طريق الحيلة، وبالفعل استطاع نُعيم أن يوقع بين بني قريظة وبين مشركي قريش، وأن يُفسد خطة الأحزاب.

وبذلك نجت المدينة من خطر شديد كان يتهددها، ولم يعد في الإمكان بعد هذا اليوم أن يتجمع خصوم المدينة على هذه الصورة، وقد أدرك النبي ﷺ ذلك تمام الإدراك حين قال "الآن نغزوهم ولا يغزوننا ونحن نسير إليهم"[1].

نتائج المعركة:

- أدى هذا الصراع المسلح بين النبي وقريش إلى نتائج هامة، فلقد ضعفت جبهة مكة ضعفاً ظاهراً بعد أن استنفدت كل إمكانياتها الحربية والسياسية، وأصبحت تجارتها في حكم المتوقفة، فلحقتها لذلك أضراراً مادية جسيمة.

- بدأت القبائل العربية فى مراجعة موقفها بالنسبة لاستمرار تحالفها مع قريش أو التقرب للقوة الجديدة التي ظهرت في "يثرب" والتى استطاعت حتى الآن أن تصمد لخصومها، وأن توقع بهم الهزائم وتحول الموقف إلى صالحها.

- أما جبهة المدينة: فقد ازدادت قوة وخصوصا بعد أن أجلى النبي ﷺ قبائل اليهود أو قضي عليها، كما أن النفاق قد ضعف، ولم يعد يسبب للنبى ﷺ قلقاً.

- كذلك تحسنت الحالة الاقتصادية بعد أن وضعوا أيديهم على أرضٍ لليهود في يثرب وبعد ما غنموه من غنائم.

- أيضاً لم يعد خطر العدو مباشر بالنسبة للمدينة، فقد انحسرت القوة عن خصومها وقبعوا في معسكرين: أحدهما في الجنوب وهو معسكر قريش في مكة، والآخر في الشمال وهو معسكر اليهود في خيبر، ولم يعد من اليسير قيام الاتصال بين هذين المعسكرين والتعاون بينهما مرة أخرى بعد تراجع الأحزاب عن يثرب.

- أصبح في إمكان النبي ﷺ أن يأخذ في يده موقف المبادأة، فسعى إلى تهيئة جو السلم وتسويد مبدأ السلام، فمد يده إلى خصومه وأظهر منتهى المرونة والتسامح حتى تم بينه وبين قريش صلح الحديبية.

---

[1] الطبري: المصدر السابق، ج٣/٥٧٨ – ٥٨١، سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١١٧ – ١١٩.

غزوة بني قريظة:

بعد انسحاب الأحزاب إلى مضاربها، صمم النبي ﷺ على ضرورة القضاء على يهود بني قريظة لنقضهم العهد وخيانتهم للمسلمين أثناء غزوة الأحزاب، فيذكر الطبري أن رسول الله أمر مناديا فأذن في المسلمين **"إن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة"**.

وعلى هذا خرج المسلمون بقيادة رسول الله إلى ديار بني قريظة، وأعطى الرسول ﷺ الراية لعلي بن أبي طالب، وحاصرهم المسلمون في حصونهم خمسة وعشرين ليلة وقيل شهراً، وعندما اشتد بهم الحصار، عرض عليهم زعيمهم كعب بن أسد إما أن يدخلوا في الإسلام أو يخرجوا لقتال المسلمين، ولكنهم رفضوا، وظلوا محتمين بحصونهم، غير أن ازدياد شدة الحصار اضطرهم إلى أن يستسلموا من رسول الله على أن يسمح لهم بالجلاء عن المدينة ويعطيهم الأمان مثلما فعل مع سابقيهم من اليهود، ولكن النبي ﷺ رفض مطلبهم هذا، وأمرهم بأن يستسلموا دون قيد أو شرط على أن يختاروا حكماً ليحكم بينه وبينهم، فاختاروا سعد بن معاذ الأنصاري – وكان حليفاً لهم في الجاهلية – لعله يرفق بهم ويتوسط لهم مثلما فعل عبد الله بن أبي مع بني قينقاع، وقد حكم سعد بقتل الرجال المحاربين وسبي النساء والذراري، وأن تكون أموالهم غنيمة للمسلمين وقد ارتضى الرسول ﷺ بحكم سعد وامتدحه بقوله: **"لقد حكمت فيهم بحكم الله"**[1] وقتل من اليهود في تلك الغزوة ما بين ستمائة وسبعمائة، وبذلك تم تطهير المدينة من اليهود جزاءً لنقضهم العهد وخيانتهم للمسلمين.

غزوة بني المصطلق:

وبعد غزوة بني قريظة قام النبي ﷺ بغزوة بني المصطلق، ويُطلق عليها أيضا غزوة المُرَيْسِيع، (والمريسيع اسم ماء لخزاعة بموضع يسمى قديد قرب الساحل).

وتذكر المصادر أن رسول الله قام بتلك الغزوة في شعبان سنة ٦هـ وذلك لتجريد مشركي قريش من حلفائهم في المنطقة الواقعة قرب المدينة، وكان من أسباب تلك الغزوة أيضا أن رسول الله علم أن بني المصطلق (وهم قبيل من خزاعة) يعدون للمسلمين ويتجهزون لمهاجمتهم بقيادة الحارث بن أبي ضرار، فخرج إليهم النبي ﷺ على رأس جيش المسلمين والتقى بهم عند ماء تسمى المُرَيسيع، فأنزل بهمّ الهزيمة، وقتل الكثيرَ منهم وتم سبيّ الكثير من النساء والذراري ومنهم جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق التى أكرمها النبي ﷺ

---

[1] ابن كثير، نفسه، ص١٢١ – ١٢٢، السمهودي، نفسه، ج١، ص٣٠٦ – ٣٠٨.

وأعتقها وتزوجها كما أعتق من سُبّي من قومها وضمن بذلك انطوائهم إلى المسلمين[1].

صلح أو عهد الحديبية سنة ٦هـ:

بعد فشل مشركى قريش في غزوة الأحزاب – كما أوضحنا – وظهر عدم استطاعتهم اقتحام المدينة، بدأ الموقف يتحول لصالح المسلمين، حيث أن قريشاً في تلك الغزوة سَخَّرَت كل إمكانياتها المادية والبشرية، مما أدى إلى استنفاد طاقتها، وأدركت أن المسلمين أصبحوا قوة كبيرة في بلاد العرب، يصعب القضاء عليها.

وعلى هذا أراد النبي ﷺ أن يُظهر نواياه السلمية، ويكسب الرأي العام فى بلاد العرب إلى جانبه، ويوضح للقبائل العربية ميل القريشيين إلى العدوان ورفضهم السلام، واستغلالهم بيت الله الحرام في خصوماتهم بصدهم الناس عن زيارته خاصة وأن من أركان الدين الجديد (الإسلام) حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، ومن أجل ذلك أعلن النبي ﷺ في الناس أنه قد نوى زيارة البيت الحرام وأداء مناسك العمرة، وفي الوقت نفسه بعث برسله إلى القبائل المجاورة للمدينة من غير المسلمين يدعوهم لمشاركته والمسلمين في الخروج لزيارة البيت الحرام بمكة، حتى تعلم العرب أنه خرج في الشهر الحرام معتمراً لا مقاتلاً بدليل أنه يوجد في صفوفه من العرب من ليس على دينه، وليظهر للكافة أن المسلمين يعظمون البيت الحرام كما تعظمه العرب بل هم أشد تعظيماً له وأكبر عندهم حرمة، وليؤكد لهم كذلك أن مكة سوف لا تفقد مكانتها التى تنالها من مقام البيت فيها والتى تحرص قريش على بقائها.

وإلى جانب ذلك يكسب العرب إلى صفه، فهو يعظم الحرمات ويحرص على المقدسات وعلى الوحدة بين العرب ويعمل لها، وإن التفتت وجو الحرب ليس من صنعه بل هو من صنع خصومه الذين أرغموه عليه إرغاماً، بمحاربته وصده عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعله مثابة للناس جميعاً وأمناً، وليكشف موقف قريش العدائي ويظهر خروجها عن المهمة التي وكلت إليها.

وفي أول ذي القعدة – أول الأشهر الحرم – من سنة ٦ هجرية، خرج النبي ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه متجهاً إلى مكة وكانوا يرتدون ملابس الإحرام ولا يحملون معهم إلا ما يحمله المسافر من سيف في غمده لكي يؤكد لقريش مقصده السلمي[2].

وعلمت قريش بمسيرة النبي والمسلمين إلى مكة، وعلى الرغم من مظهر السلم الذي سار به النبي ﷺ فإن زعماء قريش أوجسوا خيفة من هذه الزيارة، فلربما

---

[1] الطبري: نفسه، ج٢/٦٠٤، ابن كثير: نفسه، ص١٥٦ – ١٥٩، السمهودي: نفسه، ج١/٣١٤، سالم: نفسه، ص١١٩، راجع أيضا: حسن ابراهيم حسن: نفسه، ١٢٣ – ١٢٤.

[2] الطبري: المصدر السابق، ج٢/٦٢٠.

تكون مكيدة أراد بها محمد ﷺ أن يدخل مكة وتعدد مخاوف قريش من دخول المسلمين مكة. وعلى ذلك صمم زعماء قريش على منع دخول النبي ﷺ وأتباعه مكة وزيارة البيت الحرام، ومن أجل ذلك أعدوا جيشاً قوياً بلغ عدد فرسانه مائتين، وقدموه للقاء محمد ﷺ ومنعه من دخول مكة.

وتقدمت فرسان قريش وعلى رأسها خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، وعلم النبي الكريم ﷺ بمسيرة جيش قريش لمنعه، فأخذه الأسى لموقف قريش، وكان فرسانها على مرأى النظر يدل منظرهم على أنه لا سبيل للمسلمين إلى دخول مكة إلا أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحاماً، ولكن محمد ﷺ ما جاء محارباً وإنما لتقرير مبدأ السلم، ولذلك مال بأصحابه وسلك طريقا آخر تجنب به قوات قريش وأوصله إلى الحديبية وهي أقرب حدود الحرم إلى مكة، وهناك نزل بأصحابه ينتظر ما يكون من قريش.

وفكرت قريش أن ترسل إلى المسلمين من يستطلع حالهم من ناحية ومن يحاول صدهم عن دخول مكة بدون حرب من ناحية أخرى، وقدرت أن محمدا ﷺ قد يسيء إلى الرسل الذين ترسلهم إليه من رجالها ومن رجال القبائل الأخرى، فيتحمسون لنصرة قريش. لكن محمداً أحسن مقابلة الرسل الذين أرسلتهم قريش من خزاعة ومن ثقيف ومن الأحابيش، واستطاع أن يقنعهم بالحجة مرة وبالمظهر العملي مرة أخرى، وبذلك كسب محمد ﷺ هذه الجولة من قريش وألزمها بأن تدخل معه في مفاوضات سلمية، وإلا ظهرت بمظهر المتعنت أمام حلفائها، وأمام العرب، وبالفعل أرسل عثمان بن عفان لمفاوضة سادات قريش في الأمر، وتأكيد نوايا المسلمين السلمية، ولكي يطلب منهم السماح للمسلمين بزيارة البيت الحرام، وتذكر المصادر أن عثمان بن عفان قد تأخر بعض الوقت في مكة حيث احتبسته قريش عندها، وأشيع أن المشركين قتلوه، فساد الغضب بين المسلمين، وبايعوا الرسول تحت الشجرة <u>بيعة الرضوان</u> استعدادا للقتال والثأر لعثمان، ولكن سرعان ما وصلت الأخبار لرسول الله بعدم حدوث ذلك.

وعندما جاء رسول قريش وهو سهيل بن عمرو مفوضاً لعقد الصلح أظهر النبي ﷺ كثيراً من المرونة والتساهل، ولم يحفل بالشكليات بل كان همه في المسألة جوهرها، حتى لقد أغضب موقفه اللين كثيراً من رجاله وأثار اعتراضهم، لاسيما سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وانتهت المفاوضات بين الطرفين بعقد صلح أو عهد الحديبية.

وكانت أهم شروطه:

١. أن يرجع محمد ﷺ والمسلمون عن دخول مكة هذا العام، على أن يعودوا في العام التالي فتخلي لهم قريش مكة ثلاثة أيام يؤدون فيها العمرة، ولا يحملون معهم سوى السيوف في أغمادها.

٢. أن تُعقد بين الطرفين هدنة مدتها عشر سنوات – في قول، وسنتين في قول آخر وهو ما نرجحه – يأمن خلالها كل من الطرفين صاحبه، ويكف بعضهم عن بعض.

٣. أنه من أراد من القبائل الدخول في حلف محمد ﷺ دخل، ومن أراد الدخول فى حلف قريش دخل على أن يسري على المتحالفين ما يسري على المتعاقدين.

٤. إنه من جاء محمداً من أهل مكة بدون إذن وليه رده إليهم ومن جاء إلى قريش من أصحاب محمد ﷺ لم يردوه.

والشرط الأخير هو الذي أثار اعتراض المسلمين وأغضبهم، ولكن ثبت بالتجربة العملية فيما بعد، بُعد النظر وسلامة الرؤية لرسولنا العظيم ﷺ.

النتائج المترتبة على صلح الحديبية:

- انفتح بصلح الحديبية المجال امام النبي ﷺ ليتابع إبلاغ رسالته للناس جميعاً من داخل وخارج شبه الجزيرة العربية.

- أتاح هذا الصلح أن يدخل المسلمون مكة في العام القادم (٧هـ) آمنين مطمئنين وأخلت لهم قريش البلد الحرام، وقد كان لهذا أثره الخطير في مكة نفسها، فإن أهلها رأوا من تضامن المسلمين وترابطهم وتعاونهم وحسن نظامهم واقتدائهم بنبيهم الكريم، ما جعلهم يدركون أن مثل هذه الجماعة لا يمكن الوقوف في وجهها، وليس من أمل في التغلب عليها. حتى أدرك عقلاؤها أنه من الخير الانضمام إلى محمد ﷺ، ويتمثل ذلك في إسلام خالد بن الوليد، وهكذا كانت عُمرة القضاء التى هي شرط من شروط صلح الحديبية فتحاً لقلوب أهل مكة وأبصارهم، وكما أسلم خالد أسلم رجلان آخران لهما أهمية كبيرة، وهما: عمرو بن العاص داهية قريش الذي لا يقل بصراً بالأمور عن خالد، والثاني: عثمان بن طلحة حارس الكعبة، وبإسلام هؤلاء الثلاثة أسلم عدد كبير من أهل مكة وأصبحت مكة في حكم البلد الذي فتح أبوابه للدعوة الإسلامية، ولم يبق إلا أن تسلم القيادة للمسلمين.

- كما أن هذا الصلح: قد أتاح لبعض القبائل فرصة الدخول في عهد محمد ﷺ والانضمام إلى صفوفه صراحة، وبخاصة قبيلة خُزاعة التي كان جزء كبير من الأحابيش الذين كانت تعتمد عليهم قريش من بطونها، وبذلك ضم محمد ﷺ جزءاً كبيراً من هذه القوة إلى جانبه وأضعف بذلك مركز قريش الحربي إلى حد كبير.

- ثم أن هذا الصلح قد أتاح لـ محمد ﷺ فرصة العمل بحرية وهو آمن، بعد أن أمن جناحه الجنوبي من ناحية قريش، فانصرف في اطمئنان ليقضي على القوة الأخرى المعادية التي كانت تقوم في جناحه الشمالي، وهي قوة اليهود الذين تركزوا في خيبر، والذين يعدون العدة ويعملون على تكوين حلف يهودي يضم يهود خيبر ووادي القرى وتيماء، لتكوين قوة كبيرة من اليهود لمهاجمة المدينة، دون اعتماد على القبائل العربية التي فشلت في مهاجمة المدينة في موقعة الأحزاب.

- استطاع النبي الكريم ﷺ أن يهاجم خيبر وينتصر عليها وعلى حصونها القوية، على الرغم مما بذله اليهود من مقاومة عنيفة، وبالقضاء على قوة اليهود في خيبر آمن النبي ﷺ جناحه الشمالي.

- بدأت القبائل التي كانت تناوئ المدينة تراجع موقفها وتسعى للانضمام إلى النبي ﷺ حتى أنه لم يمض عامان إلا والإسلام قد انتشر انتشاراً سريعاً في هذه القبائل، وانضمت إليه انضماماً كاملاً لدرجة أنه عند فتح مكة في عام (٨هـ) كان رجال هذه القبائل يؤلفون القوة الكبرى في الجيش الذي تقدم لفتح مكة.

- ثم إن الشرط الأخير الذي أرضت به قريش غرورها، والذي غضب من أجله المسلمون وعارضوه، ما لبث أن ظهر أنه في غير مصلحة قريش وأنه كان وبالاً عليها، والرسول ﷺ حين قبله كان سياسياً بعيد النظر، وكان حكيماً عالماً بما يصلح الدولة في داخلها، فإنه ليس من مصلحة الدولة أن يكون بين صفوفها من لا يؤمن بمبادئها، ومن كان هواه مع أعدائها، على أنه لم يخرج من صفوف المسلمين أحد إلى مكة، وخرج من صفوف قريش بعض المسلمين فارين إلى النبي ﷺ، فلما ردهم النبي ﷺ إلى مكة كانوا وبالاً عليها. وأصدق شاهد على ذلك قصة أبي بصير حليف بني زهرة، حيث فر من سجن قريش بعد الصلح إلى المدينة فكتب أولياؤه إلى النبي ﷺ يطلبون رده بمقتضى المعاهدة، وأرسلوا إلى النبي ﷺ رجلين يعودان به، فسلمه النبي ﷺ للرجلين وفاءً بشروط الصلح، وفي الطريق أبو بصير احتال على الرجلين حتى أخذ من أحدهما سيفه فقتله به، وفر الآخر إلى المدينة ولحق به أبو بصير، فقال للنبي ﷺ: "يا رسول الله وفيت ذمتك... وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعبث بي". فخرج بعد ذلك أبو بصير حتى نزل بمكان يقال له العيص على ساحل البحر الأحمر، وكان طريق قريش إلى الشام، فسمع به من كان بمكة من المسلمين فلحقوا به، حتى كان في عصبة من المسلمين قريب من ستين أو سبعين رجلا، وكانوا لا يظفرون برجل من قريش إلا قتلوه، ولا تمر بهم قافلة تتبع قريش إلا

هاجموها، حتى كتبت فيهم قريش إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم إلا آواهم، وأن يستدعي أبا بصير وجماعته إليه فلا حاجة لهم بهم، ففعل رسول الله ﷺ فقدموا عليه المدينة.

- وهكذا جر هذا الشرط وبالاً على قريش فقد تكونت ضدها عصابة خطيرة خرجت عن التبعية لها، وكذلك لم تدخل في تبعية المدينة فلم تكن تُسأل عنها ولا عن أعمالها، فألحقت بقريش ضرراً فادحاً مما جعلهم يتصلون بالنبي ﷺ ويرجونه إيواء هذه الجماعة وأن يقبل إلغاء هذا الشرط فتم إلغاء شرط استرداد الفارين.

- وهكذا أثبتت الحديبية بُعد نظر النبي ﷺ وسلامة تقديره، وكانت آية من آيات السياسة الحكيمة والدبلوماسية النافذة الفذة، ولم يدرك المسلمون الأهمية الحقيقية لهذا الصلح الذى كان بحق فتحاً جليلاً إلا عندما نزلت الآية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ (الفتح آية ١) فكان صلح الحديبية في كل نتائجه أعظم الفتوح الحربية، بل يُعد من أكبر فتوح الإسلام فإنه لم يفتح البلاد وحدها وإنما فتح العقول والقلوب للدين الجديد، ومهد للفتح الأعظم بعد ذلك بسنتين، وهو فتح مكة فتحاً سلمياً وانضمامها إلى الدولة الإسلامية[١].

<u>توجيه الدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها (سنة ٧هـ)</u> [٢]

انتهز الرسول فرصة السلام والهدوء والأمن التي أتاحها عهد الحديبية في محاولة إبلاغ الأمم خارج شبه الجزيرة العربية بالإسلام ودعوتهم إليه، وبلغه أن هناك تقليداً متبعاً بين الملوك في مراسلاتهم وهو أنهم لا يقبلون أية رسالة غير ممهورة. فأمر النبي بأن يصنع له خاتماً من فضة نقش عليه عبارة **"محمد رسول الله"** وتم ختم رسائله به.

وكانت الرسالة الأولى لقيصر الروم وحملها دحية الكلبي إلى والي بصري الذي أرسلها بدوره للإمبراطور وكان في ذلك الوقت في زيارة لبيت المقدس بالشام، ويذكر بعض المؤرخون أنه تلقى الرسالة باحترام واستفسر عن ماهية النبي وفحوى دعوته حتى أنهم قالوا بأن الإمبراطور كان يُبطن الإسلام، إلا أنه لم يجرؤ على إظهاره خوفا من قومه.

---

[١] يقول الزهري عن الحديبية ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أنه أعظم الفتوحات حيث يذكر أن الناس قد ازدادوا تقارباً على أثر هذا الصلح وتلقوا دعوة الإسلام دون حائل يمنعهم عنه، فمالت إليه قلوب أعداد توازي من دخلوه في الأعوام السابقة بل وزيادة: راجع: علي أكبر فياض: المرجع السابق، ص١٠٦.

[٢] يرجع بعض المورخون ومنهم الطبري هذه المراسلات للعام السادس الهجري، ويجمع آخرون بين الرايين فيقولون بانها كانت في اواخر العام السادس وأن الرد عليها تم في بدايات العام السابع.

وحمل رسالة النبي إلى ملك الفرس الصحابي عبد الله بن حذافة السهمي، وكما هو معروف قام ملك فارس ويدعى كسرى **"خسرو برويز"** بتمزيق الرسالة وأفحش القول للنبي. أما **المقوقس** حاكم مصر، فقد تلقى رسالة النبي بكل احترام، ولكنه لم يسلم، وأرسل صحبة مبعوث النبي الهدايا ومنها جاريتين قبطيتين إحداهما ماريا التي تزوجها النبي، والأخرى سيرين أو "شيرين"ووهبها الرسول لحسان بن ثابت رضى الله عنه.

أما **نجاشي الحبشة** فقد نقل إليه رسالة النبي عمرو بن أمية الضمري، وتروي المصادر أن ملك الحبشة أعلن إسلامه وأوفد ولده مع عدد آخر من قومه إعلاناً للولاء إلى المدينة، إلا أن الوفد لم يبلغ مقصده، وغرق أفراده في البحر، وتورد المصادر ذكراً لرسالة ثانية أرسلها الرسول ﷺ إلى النجاشي يطلب فيها إرسال جعفر بن أبي طالب وبقية المسلمين لديه إلى النبي، وأن يزوجه أم حبيبة ابنة أبي سفيان التي كانت بالحبشة ومات عنها زوجها، ولبى النجاشي الطلبين وعاد المهاجرون بعد فترة وجيزة إلى المدينة.

كما أرسل النبي رسالة إلى الأمير الغساني الحارث بن أبي شَمَّر، الذي أرسل بدوره تقريراً بالموضوع إلى سيده قيصر الروم، وطلب منه الإذن بالخروج لمحاربة النبي، إلا أن إمبراطور الروم أمره بالتزام الصمت، فأنعم الحارث على مبعوث النبي وأعاده سالما.

وكانت الرسالة السادسة خطابا إلى هوذة بن علي الحنفي أمير اليمامة الذي أكرم مبعوث النبي، ولكنه كتب في رده أنه قد يعلن إسلامه، إذا أشركه النبي ﷺ في إدارة الدولة، فدعى عليه الرسول بأن يباد ويباد ملكه فمات هوذة في العام التالي[1] وتعد هذه الرسائل وغيرها والتى أرسلها النبي صحبة رسله ورجاله لأنحاء شتى داخل الجزيرة العربية وخارجها، بمثابة نقطة تحول هامة في سياسة دولة الرسول الخارجية، حيث مهدت لتوحيد سائر بلاد العرب تحت لواء النبي ﷺ في عام الوفود[2].

---

[1] سالم: المرجع السابق، ص١٢١ ـ ١٢٤.

[2] سالم: نفسه، ص١٢٤ وجدير بالذكر أن هناك سفير واحد فقط قتل للنبي هو الحارث بن عُمير الأزدى على يد أحد أمراء الغساسنة (شرحبيل بن عمرو) وكان قتله سبباً في البعث الذي سيّره الرسول ﷺ الى مؤتة.

فتح خيبر والقضاء على قوة اليهود في جزيرة العرب:

استطاع النبي الكريم ﷺ ببعد نظره، وحسن سياسته، وما أظهر من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية، فأمن به قريشاً والجنوب كله، لكنه لم يأمن من ناحية الشمال، حيث تجمعت فلول اليهود في خيبر، وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم، ومن يهود وادي القرى وتيماء لغزو المدينة المنورة.

وإذا كان اليهود قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل في موقعة الخندق، فليس ببعيد عليهم أن يستعينوا بقبائل الشام، أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية.

واليهود أشد من قريش عداوة لمحمد ﷺ لأنهم أحرص على دينهم من قريش، ولأنهم أكثرَ منها مكراً ودسيسة، وليس من اليسير أن يواعدهم محمد ﷺ بصلح كصلح الحديبية، ولا أن يطمئن إليهم، وقد سبقت بينهم خصومات لم ينتصروا في إحداها، فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا وجدوا فرصة مناسبة أو استطاعوا أن يستعينوا بقوة خارجية.

إذن فلابد من القضاء على قوة اليهود قضاءً نهائياً حتى لاتقوم لهم من بعد قائمة ببلاد العرب خاصة بعد أن علم بوجود اتفاق بينهم وبين قبيلة غطفان ضد المسلمين في المدينة، ولذلك لابد أن يسرع محمد ﷺ إلى ذلك حتى لا يتاح لهم الوقت للاستعانة بغطفان أو بغيرها من القبائل المعادية للمسلمين والموالية لهم.

وكذلك فعل النبي، فإنه لم يقم بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلا قليلاً حتى أمر الناس بالتجهز لغزو خيبر، حتى يباغت اليهود في ديارهم، وفي نفس الوقت يتمكن بفعل المفاجأة من منع غطفان من نجدة يهود خيبر، واشترط ألا يغزو معه إلا من شهد "الحديبية" أو يكون غازياً متطوعاً ليس له من الغنيمة شئ[1].

وانطلق المسلمون في بداية السنة السابعة للهجرة في ألف وأربعمائة ومعهم مائتا فارس وعلى رأسهم النبي ﷺ، مسرعين نحو خيبر[2]، ولكنه أظهر الزحف نحو منازل غطفان[3] لإثارة الخوف في نفوسهم، ولكي يشغلهم عن تقديم العون لحلفائهم في خيبر، فعادوا إلى ديارهم خوفاً بعد أن كانوا قد قطعوا شوطاً من الطريق باتجاه خيبر، ولم يلبث الرسول ﷺ بعد أن أمِن غطفان أن غيّر طريقه

---

[1] كان الله قد وعد المسلمين هذا الفتح من الحديبية في قوله تعالى ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ (سورة الفتح، آية ٢٠)، ونحن نعلم أن خيبر منطقة ثرية تضم قلاعاً عديدة وحدائق ونخيل وقطعان ومالاً وفيراً. راجع: على أكبر فياض: المرجع السابق، ص١٠٨.

[2] قطع المسلمون الطريق إلى خيبر في ثلاثة ايام تقريباً.

[3] تقع منازلهم بين وادي الرجيع وخيبر وهناك نزل الرسول بجيشه مما أجبر غطفان على اللجوء والرجوع لديارهم حماية لها من جيش المدينة.

لتحقيق عنصر المفاجأة في هجومه على خيبر، فاقتحم أراضيّهم، فأسرع اليهود في الفرار واللجوء إلى حصونهم المنيعة.

وكانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف الإسرائيلية بأساً وأوفرها مالاً وأكثرها سلاحاً، وأعظمها دراية بفنون القتال، وكانت خيبر مكونة من ثلاث مناطق حربية: منطقة الوطيح والسُلالم وفيها أدخل اليهود أموالهم وعيالهم، ومنطقة الكتيبة وأدخلوا فيها ذخائرهم ومنطقة النطاة، وفيها دخل المقاتلة ورجال الحرب وحولها دار القتال الأول[1].

واستبسل اليهود في القتال، ولم يرتدوا عن شبر من الأرض إلا بعد قتال شديد عنيف، واستمر القتال أياماً عديدة حتى قلت المؤونة عند المسلمين وأجهدوا إجهاداً شديداً، مما جعل النبي ﷺ يتجه إلى الحصون التي بها الأموال والمؤن، وفي هجمات قوية حمل فيها راية النبي علي بن أبي طالب استطاع أن يوفر لرجاله ما هم في حاجة شديدة إليه من التموين بفتح بعض الحصون مثل حصن قموص الذي نجحوا في أسر صاحبيه ووجد المسلمون فيه كثيراً من التموينات والدقائق، أغنت المسلمين ومكنتهم من مواصلة القتال.

وبعد قتال عنيف سقطت حصون خيبر وسلمت منطقة الكتيبة دون قتال، ووقع كثير من السبي والغنائم في أيدي المسلمين، ومن بينهم صفية بنت حييّ بن أخطب سيد بني النضير، والتي خيّرها النبي بين الزواج به ﷺ وبين الرق، فاختارت الزواج برسول الله وصارت من أمهات المؤمنين[2].

ولم يُجل النبي ﷺ أهل خيبر عنها بل أبقاهم للقيام على زراعة أرضها مناصفة[3]، لأنه لم يكن لديه من العمال الزراعيين من يقوم على زراعة أرضها، وكانت منطقة غنية خصبة ثم أن النبي ﷺ كان في حاجة إلى رجاله، لأن الدولة ما زالت تحوطها المخاطر وهي في أشد الحاجة إلى كل قادر على حمل السلاح، كما لا يصح أن تترك مثل هذه الأرض الخصبة بدون استغلال، بينما الدولة في حاجة إلى المؤونة والمال.

ونتج عن هزيمة يهود خيبر أن دب الخوف في نفوس بقية اليهود الساكنين شمال المدينة ومنهم يهود فدك الذين أرسلوا رسولاً وتصالحوا مع النبي على غرار ما تم مع خيبر، كذلك فعل يهود وادي القرى وتيماء حيث أعلنوا الخضوع

---

[1] حول تفاصيل فتح خيبر: راجع: الطبري: المصدر السابق، ج٣، ص٩ ومابعدها، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج١، ص١٣٦ – ١٣٧.

[2] انظر الطبري: نفسه، ج٣/ص١٦ – ٢١، سالم: نفسه، ص١٢١، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج١٣٤/١ – أحمد إبراهيم الشريف: نفسه، ص٢٢٢ – ٢٢٣.

[3] كان يأتي عاملاً من المسلمين كل سنة إلى خيبر وقت الحصاد ويحصل نصف المحصول، وظل الأمر على هذا الحال حتى زمان عمر بن الخطاب حيث تم إخراج اليهود كلية من الجزيرة العربية.

والاستسلام للمسلمين دون قتال وطلبوا الصلح على نفس شروط يهود خيبر، وبذلك تم إخضاع اليهود في شبه الجزيرة العربية للدولة الإسلامية الناشئة، وتلاشى نفوذهم تماماً[1] وبانتهاء سلطان اليهود تغيرالموقف تغيراً نهائياً في جزيرة العرب لصالح المسلمين، وأتم النبي ﷺ خطته لإحكام الحصار حول مكة، والحقيقة أن مكة بعد غزوة خيبر أصبحت "كالثمرة الناضجة تستعد للسقوط".

بدء الاحتكاك مع الغساسنة والروم (موقعة مؤتة ـ غزوة تبوك)

موقعة مؤتة:

عاد الرسول الكريم ﷺ من عُمرة القضاء[2] إلى المدينة وقد تغيرت نظرة العرب إليه عما كان من قبل، فهو في نظرهم الآن زعيم وقائد لقوة يُحسب حسابها، وأخذ النبي ﷺ في مواصلة الجهاد لنشر الدعوة في أطراف شبه الجزيرة العربية، حتى إذا كانت السنة الثامنة من الهجرة، وجه حملة إلى مشارف بلاد الشام من ثلاثة آلاف مقاتل على رأسهم زيد بن حارثة، وأوصى أن تؤول قيادة الحملة إلى جعفر بن أبي طالب إن قُتل زيد فإذا قُتل جعفر فليخلفه عبد الله بن رواحه.

وقبل أن نسرد تفاصيل هذه الحملة العسكرية، نتعرض للأهداف التي سعى رسولنا الكريم ﷺ لتحقيقها لصالح الإسلام على هذه الجبهة الشمالية، فنرى: أن ناحية الشام وغيرها من الجهات الشمالية كانت محط اهتمام النبيّ ﷺ بعد أن أمن الجنوب بعهده مع قريش، وبإسلام باذان عامل الفرس على اليمن، وقد استطاع النبي ﷺ بعد غزوة خيبر وإخضاع يهود وادي القرى وتيماء أن يمد نفوذه نحو الشمال، وكان يرى أن هذه الجبهة المتاخمة لحدود دولته هي المنفذ الطبيعي لانتشار الدعوة إلى الإسلام إذا أُريد خروجها عن حدود الجزيرة العربية.

فالارتباط بين هذه الجهة والجزيرة العربية ارتباط طبيعي وقديم، وبها من القبائل العربية ما يقتضي توحيد العرب جميعاً وضمهم إلى الدولة العربية وإدخالهم في نطاقها، والغساسنة أمراء العرب في تلك الجبهة وإن كانوا قد خضعوا للروم، فإن هذا الخضوع ليس لمصلحة العرب، وإنما هو لمصلحة الروم في المقام الأول، ولقد بدا ذلك واضحاً حين غير الروم سياستهم نحو هذه الإمارة العربية بعدما أصبحوا في غير حاجة شديدة إلى خدماتهم.

---

[1] الطبري: نفسه، ج٣/ص١٦ ـ ٢١، سالم: نفسه، ص١٢١، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج١/١٣٤، أحمد إبراهيم الشريف: نفسه، ص٢٢٢ ـ ٢٢٣.

[2] عُرفت هذه العُمرة بهذا الاسم، حيث كانت قضاءً عن عُمرة العام السابق (٦هـ) وفي هذه العُمرة نزل قوله تعالى مبشراً إياهم بالفتح القريب لمكة ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾.

وإذا كان أمراء الغساسنة يصانعون الروم لمصلحتهم كأمراء، فإنه يجب التفرقة بين مصلحة الأمراء ومصالح الشعوب إذا فضل الأمراء مصالحهم، ولقد أظهر الحارث الغساني من الحماس ضد الإسلام ما لم يظهره هرقل نفسه حين أرسل النبي ﷺ كتابه إليه، كما أن الروم قتلوا الأمير الغساني الذي أسلم، وقتل شرحبيل بن عمرو الغساني حاكم البلقاء بجنوب الشام مبعوث النبي ﷺ ويُدعى الحارث بن عُمير الأزدي وكان النبي قد أرسله إلى بُصرى عاصمة الغساسنة يدعوهم إلى الإسلام.

لذلك رأى النبي ﷺ أن يؤدب من غدر بدعاته، وفي الوقت نفسه يُشْعِر العرب في هذه الجبهات بقوة المسلمين بحيث تحفزهم على الانضمام إليهم بدافع العروبة، فجهز حملة من ثلاثة آلاف مقاتل وخرج في الجيش خالد بن الوليد متطوعاً[1]، وسارت الحملة إلى غايتها على حدود الشام، وقد خرج الناس يودعون الجيش ومشى النبي ﷺ نفسه معه حتى ظاهر المدينة، يوصي قواده بتقوى الله وأن يقاتلوا من كفر بالله ولا يغدروا وألا يقتلوا النساء ولا الشيوخ ولا الصبيان وألا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار واستمر جيش المسلمين في الزحف حتى نزل بموضع مُعان بجنوب الشام.

علمت الروم بخبر قدوم الحملة فسارعت بالإعداد لملاقاتها وجمعت جيشاً كبيراً بلغ تعداده - في بعض الروايات التاريخية - مائتي ألف مقاتل نصفهم من الروم ونصفهم من العرب المتنصرة من قضاعة وجذام وبلى ولخم وغيرها من قبائل العرب الشمالية وتقابل الفريقان بالقرب من قرية يقال لها مشارف، وخشي المسلمون كثرة عدد الأعداء فانحازوا إلى قرية يقال مؤته[2]، وعندها التقى الجمعان وبدأ القتال، وكان من الطبيعي أن يحوز جيش عرب بيزنطة النصر لتفوقه في العدد والعدة.

وقد أبلى المسلمون بلاءً حسناً وحاربوا بشجاعة منقطعة النظير حتى استشهد الثلاثة الذين تولوا رئاسة الجيش الإسلامي في جموع من الجيش، وعندئذ سارع ثابت بن أقرم إلى اللواء فحمله ثم أعطاه إلى خالد بن الوليد، وتمنع خالد في أول الأمر لحداثة عهده بالإسلام ولكن القوم ارتضوه، قائداً عليهم، فحمل راية الجيش واستعمل دهاءه الحربي وذكاءه الفطري فيما يعرف في الحروب الحديثة باسم الساتر الدخاني (الترابي) لتعمية جيش العدو وتضليله، فقد لجأ إلى إثارة غبار كثيف خلف جيش المسلمين حتى يوهم العدو بأن إمدادات جديدة قد وصلت إليه،

---

[1] وكان قد أسلم في بداية شهر صفر من العام الثامن للهجرة ومعه عمرو بن العاص.

[2] تروي المصادر أن عبد الله بن رواحه حث جنده عندما رأوا كثرة عدد العدو قائلاً: "ما لنا وكثرة العدد، إن حربنا لقوة هذا الدين، فإما الفتح أو الشهادة" فقال الجند "والله صدق ابن رواحه" فتحرك الجيش ونشبت الحرب.

ولكي يضرب أيضاً بهذا الغبار ستاراً على جنده حتى يتمكن من الانسحاب، وبهذه الحيلة تمكن من جمع شتات المسلمين والانسحاب بما تبقى منه إلى المدينة بعد أن أحاطت جيوش بيزنطة (الكثيرة بهذا الجيش تريد حصاده وفناءه).

استنكر المسلمون في المدينة على الجيش أن يعود من غير أن ينتصر، وَعَيّروا رجاله حتى أحرجوا بعضهم وقالوا لهم: يا فُرار، فررتم في سبيل الله؟ ولكن النبي القائد البصير الذي يدرك معنى النصر الحقيقي، واسى الجيش ورد تعبير المسلمين وقال "بل هم الكرار إن شاء الله" ومع ذلك فقد وجد على أصحابه أشد الوجد، وكان عليه أن يعيد للمسلمين كرامتهم في هذه البلاد فبعث عمراً بن العاص إلى قبائل الشمال ومعه ثلاثمائة رجل عندما انتشرت الأنباء بأن حشداً من بني قضاعة قد عزمَ على الهجوم على المسلمين، وتوقف عمرو في الطريق وطلب إمدادات من النبي، فأتبعه النبي بالمدد فيه كبار المهاجرين عليهم أبو عبيدة وأبو بكر وعمر بن الخطاب، فحمل عمرو على قبيلتي بلي وعذرة فتفرق شملهم وغيرهم من قبائل تخوم الشام واستطاع بذلك أن يرد للمسلمين هيبتهم في تلك الناحية.

أحدثت كل هذه الأعمال أثرها، فبدأت القبائل المجاورة للمدينة والتي في شمالها في بعث وفودها للنبي ﷺ تعلن طاعتها وإذعانها لتستقر بذلك قوة الإسلام على تخوم الشام على الرغم من هزيمة مؤتة[1].

فتح مكة (غزوة الفتح) سنة ٨هـ:

اعتبرت قريش معركة مؤتة هزيمة قضت على سلطان المسلمين ولذلك يجب أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل عهد الحديبية، وتشن حرباً على المسلمين ومن في عهدهم دون أن تخشى قصاص محمد ﷺ. وكانت خزاعة قد دخلت في عهد النبي ﷺ ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وكان بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة سكنت وهدأت بعد صلح الحديبية، فلما كانت مؤتة، وَخُيّل لقريش وحلفائها أن المسلمين قد قضي عليهم، وظن بنو بكر أن الفرصة سانحة ليصيبوا ثأرهم من خزاعة، وحرضهم على ذلك رجال من شباب قريش لم يقدروا الموقف تقديراً صحيحاً، منهم عكرمة بن أبي جهل وبعض سادات قريش، وأمدوهم بالسلاح والرجال سراً حتى لا يعلم النبي ﷺ بذلك. وبيتت بنو بكر لخزاعة ذات ليلة وهم

---

[1] انظر عن تفاصيل غزوة مؤتة: الطبري نفسه، ج٣/٢٤ - ٣٦، ابن كثير: البداية، ج٣/٢٤١، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج١/١٣٧ - ١٣٨، أحمد إبراهيم الشريف، نفسه، ص٢٢٢ - ٢٢٣، سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١٢٥ - ١٢٧، ولعل من ابرز القبائل التي خضعت لسلطان المسلمين قبائل عبس ومرة وذبيان، وفزارة التى كان زعيمها يناصب المسلمين عداءً شديداً، وكذلك قبيلة سُليم التي وقفت في وجه الإسلام ردحاً من الزمن.

على ماء لهم يسمى الوتير، فقتلوا منهم، وهزموهم حتى ألجأوهم إلى الحرم، وإلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعي بمكة.

فخرج عمرو بن سالم الخزاعي على رأس وفدٍ من قبيلته إلى المدينة حتى وقف على النبي ﷺ وهو بالمسجد، فقص عليه نقض بني بكر وقريش العهد، وشكا إليه ما أصاب قومه، واستنصره بالعهد، فقال النبي ﷺ "قد نصرت يا عمرو بن سالم"، ثم خرج بُديل بن ورقاء في جماعة من خزاعة حتى قدموا المدينة فأخبروا النبي ﷺ بما أصابهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم[1].

وعند ذلك رأى النبي ﷺ أن ما قامت به قريش من نقض العهد، لا مقابل له إلا فتح مكة، وأنها فرصة لا يجب أن تفوت، فقد كان فتح مكة هدفاً يعمل النبي ﷺ لتحقيقه منذ أمد بعيد، ويهيئ له في أناة وصبر، ولذلك أرسل إلى المسلمين في أنحاء الجزيرة ليكونوا على أهبة الاستعداد لإجابة ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء.

أما رجال الملأ من قريش فقد أدركوا ما عَرَضَّهم له عكرمة ومن معه من الشباب من خطر، فهذا صلح الحديبية قد نقض،وهذا سلطان محمد ﷺ في شبه الجزيرة يزداد قوة وبأساً وقد انضمت إليه القبائل التي كانت تقاتل في صفوف قريش من قبل، وإنه وإن فكر في الانتصار "لخزاعة" من أهل مكة تعرضت المدنية (أى مكة) لأشد الخطر، لذلك أوفدوا أبا سفيان بن حرب قائدهم وحكيمهم إلى المدينة ليثبت العقد وليزيد في المدة، ولعل المدة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشراً.

ولما لقى النبي ﷺ وكلمه في العقد وإطالة مدته لم يرد النبي ﷺ ورفض كبار الصحابة من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعلي أن يساعدوه، بل لقد أغلظ له عمر في الجواب، فانصرف مخفقاً يفيض أسى مما لقي من هوان، وعاد إلى مكة يحمل لقومه نتيجة سفارته الفاشلة، وقد أدرك أن الموقف تحول نهائياً إلى غير صالح مكة، وأخذ ورجال مكة يتناقشون في موقف أصبح ميئوساً منه[2].

أما النبي الكريم ﷺ فلم يرد أن يترك لهم الفرصة حتى يتجهزوا للقائه، لذلك أمر فنادى بالتجهز، فاحتشد له جيش قوي لم تشهد الجزيرة مثله في العدة والنظام، فقد بلغت عدته أكثر من عشرة آلاف، وبلغت قوة الفرسان فيه أكثر من ألفين.

وقد اتخذ النبي ﷺ لدخول مكة أهبته وأعد للنصر كل عدته فقسم قواته إلى أربع فرق على رأسها خير القادة وهم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وخالد بن الوليد، والزبير بن العوام، وسعد بن عبادة الأنصاري وأمرها أن تدخل مكة من كل

---

[1] ابن كثير: البداية ج٢٨٧/٣، أحمد إبراهيم الشريف، نفسه، ص٢٣٤.

[2] لعل أبلغ دليل على ذلك أن سارع بعض كبار قريش إيماناً بعدم مقدرتهم على صد المسلمين إلى اعتناق الإسلام وفي مقدمة هؤلاء كان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله وابو سفيان ذاته.

مداخلها، وأمر رجاله بعدم القتال إلا إذا أكرهوا، وحين بدا من بعض القادة ميل إلى العنف من أمثال سعد بن عبادة الأنصاري عزله عن القيادة وأحل ابنه محله، ودخلت قوات المسلمين مكة دون حرب، إلا ما كان من فرقة خالد بن الوليد التي واجهت فرقة من المشركين بقيادة عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، ولكنهم ما لبثوا أن تفرقوا بعد مناوشات بسيطة انتصر فيها خالد، واستشهد اثنان من المسلمين، بينما قتل ثلاثة عشر من مشركي قريش[1]، وبدخول جيش النبي ﷺ مكة سقط معقل المقاومة الأكبر وعفا النبي ﷺ عن قريش عفواً تاماً، وحتى الذين منع عنهم الأمان لشدة خصومتهم ولؤم نكايتهم ما لبث أن منحهم إياه حين أعلنوا الطاعة.

وهكذا استطاع النبي ﷺ أن يكسب أكبر معركة في تاريخ الدعوة الإسلامية بغير حرب وبغير إراقة دماء. وكان لفتح مكة[2] صدى بعيد الأثر في الجزيرة العربية وآثار بعيدة المدى من الناحيتين الدينية والسياسية على السواء.

فأما من الناحية الدينية: فإن النبي ﷺ حين تم له دخول البلد الحرام بدأ بالكعبة فطاف بها سبعاً، ثم أمر فحطمت الأصنام المقامة جميعاً، ثم دخل الكعبة فأزال ما بها من صور وتماثيل وبهذا قضى على الوثنية في معقلها الأكبر قضاءً رسمياً. ثم إنه تتبع بيوت الأصنام في الحجاز وفي الجزيرة العربية كلها يرسل إليها من يحطمها، ويعلن للقبائل جميعاً انتهاء عهد الوثنية، ولم تقاوم القبائل هذا العمل وكان سكوتها يعني إقراراً منها بزوال عهد الوثنية، بل إن كثيراً من القبائل تولت تحطيم أصنامها بنفسها[3]، وقريش التي كانت في موضع الزعامة الدينية في الجزيرة العربية، لم تلبث أن اعتنقت الإسلام بعد دخول النبي ﷺ مكة، واستمسكت به ونصرته حين بدأت كثير من القبائل العربية ترتد عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ.

---

[1] انظر: ابن هشام: السيرة، ج٢/٤٠٥ ـ ٤١٣، الطبري: نفسه، ج٣/٤٢ وما بعدها، أحمد إبراهيم الشريف: نفسه، ص٢٣٢ ـ ٢٤٠.

[2] قام النبي إثر دخوله مكة بقيادة جموع المسلمين نحو المسجد الحرام، فطافوا بالكعبة، وبعد أداء الطواف والصلاة بدأ النبي بتحطيم الأصنام والأوثان التي حولها وبداخلها، وكان يتلو خلال ذلك قول الله تعالى ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (سورة الإسراء، الآية ٨١) وتذكر المصادر أنه بعد أن انتهى من ذلك وقف على باب البيت (الكعبة) وقال "لا إله إلا الله، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء، الناس لآدم، وآدم خلق من تراب، يامعشر قريش ويا أهل مكة ما ترون إني فاعل بكم؟" قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، ثم قال "اذهبوا فأنتم الطلقاء" (معلناً بذلك الأمان العام)، ثم جلس على تل الصفا وتوافد الناس رجالاً ونساءً وبايعوه على التوحيد وطاعة الله ورسوله، راجع ابن كثير: البداية، ج٣/٣٠١.

[3] أحمد إبراهيم الشريف: نفسه، ص٢٤١، سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١٣١.

أما الآثار السياسة: فمنها القريب ومنها البعيد، فأما الآثار القريبة فقد حدثت بسرعة كبيرة لا تزيد عن الأسبوعين عداً، وذلك أن قبائل ثقيف وهوازن وهي القبائل التى تقيم قريباً من مكة وتملك مدينة الطائف، قد رأت في فتح مكة ضربة موجهة لها واعتقدت أن دورها قريب، فقد كانت الطائف مرتبطة بمكة ارتباطاً شديداً في الجاهلية ومن أجل ذلك تجمعت قبائل الطائف (ثقيف) وقبائل هوازن واستعدت لضرب المسلمين، ولم يستطع رجال ثقيف وهوازن أن يدركوا أن مكة حين ألقت لواء المعارضة إنما ألقته بعد أن آمنت بأن معارضاتها قد استنفدت كل إمكانياتها[1]، وأن أهل مكة قد فتحت صدورهم للإسلام قبل أن تفتح مدينتهم أبوابها لجيوش المسلمين، وأن الفتح لم يكن حربياً إلا في ظاهره، ومن أجل ذلك خرجت قوات مكة إلى جانب قوات النبي ﷺ للوقوف في وجه ثقيف وهوازن في معركة حُنَين، ثم في حصار الطائف بعد هزيمتها فى حنين، والتي سنعرضها بإيجاز فيما يلى:

غزوة حُنَيْن وحصار الطائف[2] (شوال سنة ٨هـ)

بعد أن أقام رسول الله ﷺ في مكة خمسة عشر يوماً بعد الفتح لتنظيم شئونها، علم بأنباء حشود ثقيف وهوازن - سكان الطائف - لملاقاة المسلمين، حيث أدركت أنه بعد فتح المسلمين مكة لابد أن يتجهوا صوب الطائف. وعلى هذا حشدوا جندهم بقيادة مالك بن عوف - سيد هوازن - واصطحبوا معهم النساء والأطفال والأموال لكي يستبسلوا في القتال، وكمنوا للمسلمين بقمم جبل حُنين.

وعقب ذلك وصل المسلمون وادي حُنين (بين مكة والطائف) عند الفجر، وكان لايزال الظلام يخيم على المكان، واغتر بعض المسلمين بكثرة الجيش[3] ووثقوا في النصر، وفي تلك الأثناء انتهز جيش ثقيف وهوازن الفرصة وقام بهجوم مباغت على جيش المسلمين، مما أدى إلى فرار الكثير منهم نتيجة المفاجأة، غير أن رسول الله وجماعة من الصحابة ثبتوا في ميدان القتال، ثم أمر عمه العباس - وكان جهوري الصوت - بأن ينادي في المسلمين بالعودة والثبات، فعادوا إلى مواقعهم وصمدوا في ميدان المعركة واشتد القتال بين الطرفين وتحول الموقف بعون الله لصالح المسلمين، وأنزلوا الهزيمة بجند الطائف الذين ولوا الأدبار في الصباح تاركين أعداداً كبيرة من النساء والأطفال ومعظم أموالهم غنيمة في أيدي المسلمين، ثم اتجه المسلمون بقيادة رسول الله إلى الطائف وحاصروها خمسة عشر يوماً

---

[1] أحمد إبراهيم الشريف: نفسه، ص٢٤٢.

[2] راجع عن غزوة حنين، ابن هشام: نفسه، ج٢، ص٤٧٨ - ٤٨٢، الطبري: نفسه، ج٣، ص٧٠ - ٨٧، سالم: نفسه، ص١٣٢ - ١٣٤.

[3] وورد ذلك فى القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾(سورة التوبة، الآية ٢٥).

(وقيل عشرين) فاحتمى أهل الطائف بقيادة مالك بن عوف في حصونهم المنيعة، واضطر الرسول إلى فك الحصار لاقتراب شهر ذي القعدة (وهو من الأشهر الحُرم) وعاد إلى مكة، ووافاه هناك وفود هوازن معلنين إسلامهم، فأكرمهم النبي ﷺ ورَدّ إليهم ما سُبي من نسائهم وأبنائهم[1]، ولم تلبث ثقيف أن أرسلت في العام التالي وفداً معلنة الدخول في الإسلام وذلك في ٩هـ، فصالحهم رسول الله وأقرهم على ما بيدهم من أموال وأراض.

غزوة تبوك (٩هـ/ ٦٣٠م):

أسبابها: أراد النبي ﷺ أن يوطد نفوذه ويمد نشر الدعوة إلى الإسلام في المناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية تدعيماً للدولة الإسلامية الناشئة حيث سكان تلك المنطقة من القبائل العربية الموالية للروم، ومعظمهم من الذين اعتنقوا المسيحية مثل قبائل كلب، وقضاعة ولخم، وجذام، وعذرة وغيرهم، وإلى جانب هذه القبائل العربية المتنصرة وجدت جاليات يهودية أراد الرسول ﷺ تبليغ دعوة الإسلام إليها أيضاً.

ثم إن النبي ﷺ وصلت إليه معلومات بأن الروم والعرب المتنصرة يستعدون للهجوم على المسلمين، فبادر الرسول بتجهيز هذه الحملة لمواجهتهم وبذلك يكون الرسول اتخذ من الهجوم وسيلة للدفاع.

أخذ الرسول ﷺ يدعو المسلمين إلى التجمع في الجيش وكان من عادته ألا يفصح عن الجهة التي يقصدها بجيشه، ولكنه في هذه المرة أفصح للمسلمين عن وجهة مسيرهم، ولبت جموع عظيمة من الصحابة هذا النداء، باستثناء نفر قليل تخلفوا كان على رأسهم كعب بن مالك وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع؛ كما تراخى البعض بسبب شدة الحر والجدب التي كانت الأرض عليها، وربما كانوا يرغبون جني ما جادت به الزروع عليهم من ثمار قليلة، ولكن ما لبث أن كثر عدد المنافقين الذين استأذنوا من رسول الله ﷺ خوفاً من الملاقاة، وكانوا يزعمون أنهم يخشون على أنفسهم الفتنة إن هم غزوا، وحلفوا بالله كذباً، وكان رسول الله ﷺ يأذن لهم وهم لا يدري خبيئة أنفسهم، فأنزل الله تعالى عليه سورة التوبة إرسالاً بالتبيان والتفصيل في شأن المؤمنين وفضح موقف المنافقين.

التجهيز للخروج: استمر الرسول ﷺ يحث المسلمين على الإنفاق والاستعداد للغزو، وتسابق المسلمون في إحضار الصدقات، وكان أول من حمل ماله وجاء به إلى الرسول ﷺ هو أبو بكر الصديق، فقد أحضر أربعة آلاف درهم هي كل ماله، فلما سأله النبي ﷺ هل أبقيت لأهلك شيئاً؟ قال: الله ورسوله أعلم، وجاء عمر بنصف ماله، وقَدّم عثمان ثلاثمائة بعير كاملة العدة، وألف دينار ليعين

---

[1] تاريخ خليفة بن خياط، ص٨٨ - ٨٩.

الغزاة، وهكذا تسابق كبار الصحابة في إحضار الأموال لتجهيز هذا الجيش الذي قام بهذه الغزوة والذي تسمى بجيش العُسرة.

خرج النبي ﷺ على رأس هذا الجيش الذي بلغ تعداده ٣٠,٠٠٠ ثلاثون ألف مقاتل من بينهم عشرة آلاف من الفرسان، وقد أعطي لواء القيادة لأبى بكر الصديق وأعطي أوامره بإعطاء رايات الفرق (الكتائب) لأصحاب القرآن، وكان النبي ﷺ قد استعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري كما استخلف على أهله ابن عمه علي بن أبي طالب.

كان عبد الله بن أبي - زعيم المنافقين - قد ضرب معسكراً منفرداً من جموع المنافقين إلى الجنوب من معسكر المسلمين، فلما تحرك جيش المسلمين متجهاً إلى تبوك تخلف عبد الله بن أبي ومن معه من أهل الريب[1].

---

[1] سالم: المرجع السابق، ص١٣٥.

أحداث الحملة:

واصل جيش المسلمين بقيادة النبى ﷺ مسيره حتى قارب تبوك فنزل بها فصالحه أهلها، وأقام بها بضعة عشر ليلة تمكن فيها من بسط نفوذه على المراكز المجاورة مثل دومة الجندل، وكان صاحبها أكيدر بن عبد الملك الكِندى نصرانياً من قبيلة كِندة، فأرسل النبى ﷺ إليه سرية بقيادة خالد بن الوليد الذى تمكن من هزيمته وأسره والمجئ به إلى رسول الله ﷺ فأعطى أكيدر الجزية، وصالح النبى ﷺ على هذا الأمر، وعاد إلى بلده، ويقال إنه دخل الإسلام حينما دعاه الرسول إلى ذلك.

ثم بعث النبي ﷺ علقمة بن مجزز إلى فلسطين، وقَدِم يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة على النبى ﷺ وأعطى الجزية كذلك، فصالحه النبى ﷺ على الجزية وكان معظم سكان أيلة من المسيحيين، ثم وفد أهل أذرُح (بلد بالشام) والجرباء وأعطوا الجزية وقدرها ١٠٠ دينار لكل بلد من هاتين البلدتين تؤدى فى شهر رجب من كل عام، وكتب لهم النبى ﷺ كتاب أمان، ثم وفد عليه أهل مقنا وكانوا من اليهود، وصالحوا الرسول ﷺ على ربع أشجارهم وربع ثمارهم، وربع ماصادت شباكهم، وربع ما غزلت نساؤهم، وكتب النبى ﷺ لهم كتاب أمان بذلك[١].

وفى خلال ذلك كان المنافقون يرجفون فى المدينة بأخبار السوء، فإذا بلغهم أن المسلمين أصابهم شئ من الجهد والبلاء فرحوا وقالوا: كنا نعلم ذلك، ونحذر منه، وإذا بلغهم أن المسلمين أصابو خيراً حزنوا، وعرف ذلك منهم وشاع فى المدينة.

وعاد الرسول ﷺ من تبوك إلى المدينة فوصلها فى شهر رمضان من السنة نفسها، وأخذ المنافقون يعتذرون إليه ويحلفون، فقبل منهم ما أعلنوه، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله عز وجل، وعندما جاء كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع سألهم النبى ﷺ عن سبب تخلفهم، فصدقوه الحديث واعترفوا بأنه لا عذر لهم، فأمرهم النبى ﷺ بالمضى حتى يقضى الله أمره فيهم، ونهى المسلمين عن محادثتهم وظلوا على ذلك خمسين ليلة، ثم أنزل الله تعالى فيهم قرآناً سورة التوبة (١١٧ - ١١٨) ليغفر لهم هذا السلوك المشين ويفتح لهم صفحة جديدة رحمة منه عز وجل[٢].

وتعتبر غزوة تبوك آخر غزوات الرسول ﷺ التى غزاها بنفسه.

---

(١) عن تفاصيل غزوة تبوك راجع: تاريخ خليفة بن خياط، ص٩٢ - ٩٣، الطبري: نفسه، ج ١٠٠/٣ - ١٠٩. سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ١٣٤ - ١٣٧.

(٢) يقول الله تعالى ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ﴾.

أما الآثار البعيدة والمترتبة على فتح مكة:

فإن قريشاً بعد أن ألقت لواء المعارضة لم يكن يوجد بين قبائل العرب من يستطيع حمله، فمكة كانت تمثل النظام القديم فى نظر الناس فى الجزيرة العربية كلها، وهذه الزعامة القرشية كانت زعامة حقيقية قبل الإسلام، حيث كانت الأمم فى هذه العصور القديمة كانت تركز جميع مشاعرها القومية فى الدين، وتجعله رمزاً لشخصيتها، ولهذا كان تسليم قريش وتحولها إلى الإسلام أمراً بالغ الأهمية، والنبى ﷺ كان يحس بهذا تمام الإحساس حين مال إلى السلم وتجنب أن يريق دماء المكيين، بل قبل القرشيين فى صفوفه دون شروط، وعفا عنهم وسماهم "الطلقاء" ومنحهم أعطيات من غنائم حُنَيْن وأراد بهذا أن يتألف قلوبهم فسموا "بالمؤلفة قلوبهم".

وهكذا حينما انضمت مكة فى العام الثامن للهجرة إلى معسكر النبى ﷺ، عرفت باقي القبائل العربية أن تغييراً سياسياً قد طرأ على النظام القديم، وتسامعت فى نفس الوقت بأن هذا النبى ﷺ الجديد قد حطم الآلهة ولم ينله أذى، فكان بقاؤه بعد تحطيم الأصنام يحمل فى حد ذاته نوعاً من الدليل على صدق النبوة فى نظر هؤلاء الوثنيين، ولهذا سارعت القبائل المختلفة إلى الاتصال السياسى بهذا النظام الجديد، وسعى بعضها إلى الاتصال السياسي والديني فى نفس الوقت بهذا الرجل الذى ظهر فى الحجاز، فتوافدت الرسل ممثلة للقبائل المختلفة على المدينة فى العام الثامن والتاسع وبعض العاشر، حتى لم يتبق قبيلة إلا أرسلت للنبى ﷺ وفداً يعقد معه عهداً، هذه الوفود هى الملموس لنهاية الصراع بين النبي ﷺ ومكة على هذا النحو الذى يمثل انتصاراً للدعوة الإسلامية ونجاحها فى توحيد العرب تحت لوائها.

ثم إن هذه الخطوة الجديدة التى تحققت بقدوم الوفود أتاحت للنبى ﷺ أن يتجه لتحقيق خطوة أخرى كبيرة، فقد بدأ النبى ﷺ يتجه إلى ما وراء الحجاز، إلى شبه الجزيرة العربية كلها، وكان هذا التحول مقروناً بالصدى الهائل الذى تجاوب فى جزيرة العرب بعد فتح مكه.

وبفتح مكةأيضاً خرجت الدولة الإسلامية من نطاق المدينة الدولة - إلى نظام الدولة الكبيرة الموحدة فقد أصبحت الدولة العربية الإسلامية تتكون من المدينة ومكة والطائف وما بينها وماحولها من قبائل وأصبح هدف النبى ﷺ فى توحيد العرب أمراً محققاً، وكان فتح مكة خطوة كبيرة نحو هذا الهدف، تلتها خطوة أخرى لإقرار هذا التوحيد وتثبيت دعائمه وهى أن النبى ﷺ أصدر في نهاية العام التاسع بياناً سمى (بيان براءة).

بيان براءة:

كان هدف النبى ﷺ فى صراعه مع مكة توحيد العرب فى دولة واحدة تحت راية الإسلام، وكان فتح مكة خطوة نحو تحقيق هذا الهدف، وقد كان هذا التحول بمثابة دعوة للقبائل العربية كلها للاتصال بدولة المدينة، فكان النبى ﷺ قد تحول من مجال ضيق إلى مجال أوسع، فتتالت وفود القبائل فى العام التاسع للهجرة، إلىأن رأى النبى فى آخر هذا العام الذى سمى بعام الوفود أن يقوم بعمل حاسم فيه استكمال لشئ ضرورى للوضع الجديد.

ذلك وإن أرسلت القبائل وفودها تعلن إسلامها وخضوعها، إلا أنه بقيت أقلية لم تتصل بالمدينة، وبقى من رجال القبائل أناساً لم يدخلوا فى الإسلام، وكان الوضع يقتضى أن تحدد هذه القبائل موقفها، فإما أن تدخل فى النظام الجديد وإما أن تعتبر منفصلة عنه.

ولتحقيق ضم هذه الفئة القلية وتحديد موقفها، أصدر النبى ﷺ فى نهاية العام التاسع للهجرة بياناً عرف ببيان براءة، وكان هذا البيان وحياً، ولم يكن من كلام النبى لأنه جاء فى آيات قرآنية فى سورة من القرآن الكريم هى سورة التوبة، وقد بدئت بكلمة براءة فسمى هذا البيان (بيان براءة)، وقد أذاعه النبي فى مناسبة عامة يحضرها العرب من كافة أنحاء الجزيرة العربية، وفي يوم مشهود هو يوم الحج الأكبر، حيث يجتمع الحجيج كلهم فى صعيد واحد عند جبل عرفات، وكان على الحج فى هذا العام أبو بكر الصديق، لكن النبى ﷺ أرسل مندوباً خاصاً هوعلى بن أبي طالب "وإرسال" "على" لهذا الغرض يعطى أهمية خاصة للموضوع إذ أنه يعتبرمندوباً خاصاً لإذاعة حالة خاصة، ولم يكلف بذلك أبو بكر الصديق حتى لا يعتبر البيان مندرجاً فى حالة عامة هى حالة الحج، ثم إن البيان كان نبذاً لعهود بين النبى ﷺ وبين بعض القبائل وكان العُرف يقتضى بأن يقوم بنبذ العهد صاحب العهد نفسه أو رجل من عصبته شديد القرابة به، ولذلك أرسل (علي) لتلاوة هذا البيان وإعلانه للناس.

أعلن البيان أن الله برئ من المشركين، وأنه لا عهود بينهم وبين الدولة الإسلامية، وأن الذين سبقت لهم عهود محدودة بأجل معلوم فلم ينقصوها شيئاً ولم يعينوا على المسلمين أحداً، تُوفى إليهم عهودهم إلى مدتهم لا تُجَدد، ثم أعطى المشركين فرصة أربعة أشهر ليفكروا فى وضعهم، فإما أن يعلنوا إسلامهم وينضموا للدولة الجديدة وإما يعتبروا خارجين عليهم متمردين على نظامها.

ثم أعلن البيان: أن مكة بيتها وحرمها مكاناً إسلامياً لا يجوز أن يدخله مشرك وأن الحج أصبح حجاً إسلامي٠ا، بعد أن برئت الكعبةوتطهرت من الأصنام، ولذلك لايجب أن يحج مشرك وألا يقرب المسجد الحرام.

وإذا كانت الدولة قد حرصت على إعلان وحدتها ببراءتها من المشركين، فهي كذلك لم تعد في حاجة إلى الذين دخلوا فيها من قبل بمظهرهم دون قلوبهم وهم الذين عرفوا بالمنافقين، وكان النبي ﷺ مضطراً إلى مداراتهم حرصاً على الترابط الداخلي في دولته الناشئة، لأن سلطان العصبية كان قوياً، فلو أنه قتلهم أو عاقبهم لربما جر ذلك إلى انتصار عشائرهم لهم، وبذلك يحدث تخلخل في صفوف الدولة، أما وقد رسخت أقدام الدولة واستقرت المبادئ في نفوس المسلمين وأصبحت بسلطانها أقوى من العصبية، فلم تعد هناك ضرورة للمدارة.

لذلك استمر البيان بعد ذلك يفضح المنافقين ويندد بهم تنديداً شديداً وينذرهم بالعقاب الشديد في الدنيا والآخرة، ويحذر المسلمين من مصانعتهم وودهم، ويعتبرهم عنصراً ضاراً في الدولة مفسداً فيها يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ولذلك أنذرهم بأنهم إن أرادوا أن يكونوا مع المسلمين في توادهم وتراحمهم فعليهم أن يطهروا أنفسهم من النفاق وهو الكفر الباطن، ولذلك استعدى البيان المسلمين المؤمنين على هذه الفئة المنافقة ليشعرها "بالعزل الاجتماعي" حتى تندرج بكليتها في النظام الجديد أو تحس بوحدتها وانعزالها.

وقد آتى هذا البيان ثمرته، بدليل أن النبي ﷺ قد حج في العام العاشر حجته الأولى والأخيرة، وحج معه فيها حوالي مائة ألف حاج من العرب لم يكن من بينهم مشرك واحد، ومعنى هذا أن البيان أحدث تأثيره المطلوب[1].

وفي الفترة التي تقع بين إعلان براءة ووفاة النبي ﷺ طبق الرسول قانون براءة في حذر شديد وكياسة سياسية بارعة، وتجنب الاصطدام بالقبائل وإلا جرح كبريائها وأثار عصبيتها ولذلك كان يكتفي من وفودها بإعلان إسلامهم وإعلان انضمامهم إلى حكومته، ويرسل معهم عند عودتهم معلمين يعلمونهم الإسلام في بلادهم، وهؤلاء المعلمين هم أول صنف من الدعاة وأول صنف من الولاة والعمال في الدولة الإسلامية، وعلى أيديهم دخلت القبائل في الإسلام وجمعت الصدقات من كافة القبائل ووزعت على الفقراء توزيعاً جلياً ولم يرسل إلى المدينة إلا الفائض.

وبدخول القبائل في الإسلام على هذا النحو أصبحت الجزيرة العربية كلها تحت سلطان دولة واحدة، ولأول مرة في تاريخ الجزيرة يتوحد العرب تحت سلطان دولة عربية واحدة، ولم يخرج على نفوذ الدولة من قبائل العرب إلا ما كان منها تحت نفوذ الدول الكبرى على حدود الجزيرة في بادية العراق والشام[2].

---

(١) للمزيد راجع: سالم: المرجع السابق، ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

(٢) نقصد بذلك مناذرة الحيرة، وغساسنة الشام، راجع: سالم: المرجع السابق، ص ١٤٢.

حجة الوداع وانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى:

في أواخر هذا العام (١٠هـ / ٦٣٢م) خرج النبي ﷺ في جموع كثيرة من المسلمين – حوالي مائة ألف – ممن جاءوا من كل فج إلى المسجد الحرام، وحج بالناس حجته الأخيرة المشهورة بحجة الوداع، وخجة البلاغ، والتى حرص فيها على تعليم الناس مناسكهم وما فرض الله عليهم من مناسك فى الحج كالوقوف بعرفة، ورمي الجِمَار، وطواف البيت، والسعي بين الصفا والمروة، وما أحل لهم من حجهم، وما حرم عليهم، ثم خطب الرسول ﷺ فى المسلمين يوم الوقوف بعرفة خطبة الوداع التى تعتبر أساساً من أسس الدستور الإسلامي لما فيها من أحكام ومنهاج أراد من أتباعه أن يسيروا عليه من بعده، موضحاً لهم كيفية الترابط الاجتماعى وحقوق كل الفئات الاجتماعية فى المجتمع المسلم وتوضيح بعض الأمور الاقتصادية والسياسية فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال "أيها الناس، اسمعوا قولى فإنى لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت." واختتم رسول الله خطبته بقوله "أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى "ثم قال لأتباعه "اللهم هل بلغت" فردوا بقولهم "اللهم نعم" فقال رسول الله "اللهم اشهد".

وبعد أن انتهي النبي ﷺ من خطبته الجامعة هذه نزل عليه الوحي بقوله تعالى﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [١] فكانت هذه الآيات بمثابة إتمام لمهمة النبى ﷺ. ولم تمض شهور ثلاث على حجة الوداع حتى أصيب الرسول ﷺ بالحمي يوم الخميس فاستأذن من زوجاته أن يُمَرض فىبيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فأَذِن له فى ذلك، فلزم فراش الموت حتى فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ / ٨ يونيه ٦٣٢م وهو فى الثالثة والستين من عمره وكان مرضه لمدة اثني عشر يوماً، وقيل أربعة عشر يوماً[٢].

أدرك المسلمين حقيقة وفاة الرسول ﷺ فاجتمعوا لتجهيزه ودفنه، وقد دفن النبي ﷺ في المكان الذي توفي فيه، لأن أبا بكر قال لهم سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

[١] القرآن الكريم: سورة المائدة، آية ٣.

[٢] سالم: نفسه، ص ١٤٣.

"ماقبض نبي قط إلا دفن جسده حيث قبضت روحه" وقام بغسله وتكفينه – حسب وصيته عليه الصلاة والسلام – على بن أبي طالب والفضل بن العباس وصلى خلالها عليه جميع المسلمين بالمدينة – وهكذا انتهت حياة الرسول ﷺ بعد جهاد ومشقة وصبر وتحمل من الصعاب ما يعجز البشر عن تحملها، ولكن بعد أن نجحت دعوته، وانتشر الدين الإسلامي بحمد الله وَعمَّ بنوره أنحاء الجزيرة العربية وأصبحت الأرض ممهدة لينتشر فى كافة أنحاء المعمورة.

الفصل الرابع

«عصر الخلفاء الراشدين»

أعداد: أ.د كمال أبومصطفى ، أسامة حماد

الفصل الرابع
عصر الخلفاء الراشدين
١. خلافة أبى بكر الصديق (١١ – ١٣ هـ):

أولاً: نسبه ونشأته[١]:

هو عبد الله بن عثمان، وعثمان هو أبو قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب القرشي، ويلتقى نسبه ونسب النبى ﷺ عند مرة بن كعب، وأمه ﷺ تدعى سلمى وكنيتها «أم الخير» وهى أيضاً من بنى تيم.

وقد أشتهر هذا الخليفة بعدة ألقاب أشهرها أبو بكر ويقال أنه سمى بذلك لتبكيره بالدخول فى الإسلام، ومن ألقابه أيضاً العتيق وقد روى المؤرخون عدة أقوال فى سبب هذا اللقب، منها أنه اشتهر بالعتيق «لعتاقة وجهه» أى لجماله، أو لقِدمه فى الخير، أو لعتاقة نسبه حيث لم يكن من شئ يُعاب عليه، وكذلك قيل أن أمه كانت لا يعيش لها ولد: فلما ولد استقبلت به البيت وقالت: اللهم هذا عتيق من الموت فهبه لى، ومن أبرز الأقوال الواردة عن سبب تلقبه بهذا اللقب أن النبي ﷺ بشره بأن الله اعتقه من النار، كما يُروى أنه من نزلت فيه الآية الكريمة ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۞ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾[٢].

كما لُقب في الإسلام باللقب الأشهر وهو الصديق لمسارعته إلى تصديق الرسول في مواقف كثيرة وخاصة حادثة الإسراء والمعراج، فيروى ابن سعد بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال ليلة أسرى به: قلت لجبريل: أن قومي لا يصدقوني، فقال جبريل: يصدقك أبو بكر وهو الصديق[٣].ويروى ابن هشام أن الرسول ﷺ حين وصف لأبى بكر ولمن حوله من أهل مكة بيت المقدس قال أبو بكر: صدقت أشهد أنك رسول الله، وكلما وصف منه شيئاً ... كرر ذلك حتى انتهى فقال رسول الله ﷺ وأنت يا أبا بكر: الصديق فلُقِبَ من ذلك الوقت الصديق[٤].

وقد ولد أبو بكر فى مكة بعد عام الفيل بعامين وعدة أشهر[٥]،واشتهر منذ شبابه بالصفات الحميدة ومنها العفة والامتناع عن الخمر الذى كان تناوله عادة شائعة بين عرب الجاهلية، وكان من أشراف وأثرياء قريش فأسندت قريش إلى

---

(١) عن ذلك راجع المسعودي: مروج الذهب، ج٢/٢٩٨، ابن عبد البر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، ج٢/٩٦٣، السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٢٩.

(٢) سورة الليل: آية ١٧ – ١٨.

(٣) الطبقات الكبرى: ج٢/١٦٩.

(٤) السيرة النبوية، ج٢/٣٤. كما يذكر السيوطى تأكيداً لهذا اللقب أن النبى ﷺ خاطب جبل أحد عندما اضطرب من تحته قائلاً أسكن فإن عليك نبي وصديق «يقصد أبو بكر» وشهيدان وهما عمربن الخطاب وعثمان بن عفان. راجع: تاريخ الخلفاء، ص٢٩.

(٥) السيوطي: نفس المصدر، ص٢٩.

قبيلته بنو «تيم» أمر «الديات» وهى وظيفة من وظائف عشرة استحدثها أهل مكة لإدارة شؤونهم وهى مختصة بالإشراف على دفع الغرامات لمن لا يستطيع من أبناء القبيلة، فقام هو عليها بحكم كونه رئيس بنى تيم، فكان وحده الأمين على جبايتها من العرب يدفعونها إليه راضين مطمئنين[1].

وقد عنى أبو بكر كثيراً بالتاريخ والأدب، ولذا عُرف «بنسابة العرب» لعلمه بالأنساب وأيام العرب وحروبهم ووقائعهم، ولبلاغته فى القول وتذوقه للشعر. وجدير بالذكر أن النبى ﷺ كان يحرص على تقديمه للقبائل عندما يعرض نفسه عليها فى بدايات الدعوة الإسلامية لعلمه «أى أبا بكر» بأنساب القبائل ومآثرها ومثالبها، ولهذا كان الكفار يقولون كلما سمعوا رد شعراء المسلمين على هجاء المشركين: «هذا تلقين ابن أبى قحافة دون سواه».

ثانياً: إسلامه ومنزلته من النبى ﷺ:

هناك آراء كثيرة تشير إلى انعقاد صداقة واضحة بين النبي وأبى بكر قبل البعثة النبوية بعدة سنوات، ولعل مما ينهض دليلاً على ذلك أن أبا بكر كان أول المستجيبين لدعوة محمد من خارج أهل بيته، ولا يستقيم حدوث ذلك بغير معرفة سابقة بينهما الأمر الذى جعل النبي ﷺ يبدأ به ويتوقع منه الاستجابة لدعوته[2].

كان أبو بكر إذن سباقاً لاعتناق الإسلام، ويؤثر عنه أنه لم يتردد مطلقاً فى قبول الدعوة، يؤكد ذلك قول الرسول ﷺ «ما كلمت فى الإسلام أحداً إلا أبَى عَلَى، وراجعنى الكلام إلا ابن أبى قحافة، فإنى لم أكلمه فى شئ إلا قبله واستقام عليه»[3].

وكان لصفاته الحميدة أثر كبير فى محبة الناس له، وتأثرهم به، لذلك أسلم على يديه عدد من كبار الصحابة ثقه واقتداء به منهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله. ومن الثابت أن هؤلاء الرجال كانوا من أخلص الصحابة للنبي ﷺ، وأعظمهم أثراً فى نصرة الدعوة والدولة الإسلامية، بل أن أبو بكر لم يهدأ باله حتى أدخل فى الدين الجديد أمه وأباه وأولاده، وطفق طوال وجوده بمكة يبذل طاقته وجهده فى نصرة الدين الجديد، فتارة يدعو وجوه الناس، وتارة يعرض أمر الدعوة على مختلف القبائل[4].

---

(1) ابن حجر: تهذيب، ج٥/٣١٥. أما عن ثرائه فقد جمع ثروة جيدة بمعايير ذلك الزمان من وراء التجارة فقد سافر للشام مرات عديدة وراء تجارته، ويقال أن ثروته بلغت ٤٠ ألف درهم، أنفقها كلها فى سبيل الدعوة الإسلامية حتى أن السيدة عائشة أم المؤمنين ﷺ قالت: مات أبو بكر وما ترك ديناراً ولا درهماً. راجع: النووي: تهذيب الأسماء، ج١/١٨٩.

(2) راجع عن ذلك: عباس محمود العقاد: عبقرية الصديق، ص٩٢.

(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٣.

(4) ابن هشام: المصدر السابق، ج١، ص٢٦٧ – ٢٦٩.

ويتجلى حماسه لهذه الدعوة فى حثه للنبي للظهور بالمسلمين فى نواحي الكعبة وهم آنذاك قلة قليلة، ومجاهرته خطيباً بينهم بأمر الدعوة إلى الله حتى ناله أذى كبير من المشركين، علاوة على إعانته للفقراء، وإعتاق الموالي الذين يُعذبون أشهرهم بلال بن رباح الذى ألقاه سيده على الرمل تحت حرارة الشمس، ووضع حجراً على صدره وتركه يموت عقاباًعلى إسلامه، ولم يزد بلال عن تكراره لقوله: أَحَدٌ أَحَدٌ ... فسارع إلى شرائه وعتقه، كما أنقذ عامر بن فهيرة من أيدي معذبيه، فاشتراه وجعله راعياً لغنمه، ويذكر المؤرخون أن عدد من اعتقهم أبو بكر بلغوا سبعة من الموالي رجالاً ونساءً فأنقذهم بذلك من تعذيب وويلات المشركين[1].

وقد اختاره الرسول ﷺ رفيقاً له فى رحلة الهجرة إلى المدينة المنورة فهو المقصود بكلمة «لصاحبه» فى قوله تعالى ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِن اللهَ مَعَنَا﴾[2]. وهكذا لم تقتصر تضحية أبى بكر فى سبيل نصرة الإسلام على بذل كل ماله كما أسلفنا، بل شملت التضحية بنفسه وأولاده، فهو يعلم أن هجرته مع النبي ستعرضه وأهل بيته لفتك المشركين الحريصين على عرقلة هذه الهجرة، حتى أنهم رصدوا جائزة لمن يُعيد النبي وصاحبه إلى مكة بأى وسيلة. ولذا نجد أبا بكر يأمر إبنه عبد الله بالتنصت على المشركين فيما يقولاه عن النبى ويبلغه بكل ما يسمع، كما أمر عامر بن فهيرة مولاه وراعى غنمه أن يريح الغنم قريباً من الغار ليلاً ليأخذا حاجتهما من لبنها وليعد بها إلى مكة فى أثر عبد الله بن أبى بكر ليخفى آثار أقدامه. كما كانت إبنته أسماء تأتى لهما بالطعام ليلاً[3]. وهذا بلا شك كان عُرضة لكشف المشركين لأمرهم فيقوموا بقتلهم. وفى طريق الهجرة إلى المدينة كان أبو بكر يضرب أروع مثل فى الفداء والتضحية. فقد انصب جُلُّ اهتمامه على إنقاذ رسول الله ﷺ فيذكر ابن هشام أن أبو بكر دخل الغار قبل رسول الله ﷺ ليتفقده ويُؤَمِنّه وقاية للرسول قبل أن يدخل، كذلك الحال بعد خروجهما من الغار فى طريقهما إلى المدينة كان يمشى بجواره تارة، ثم ينتقل عن يمينه تارة وعن يساره تارة أخرى ومن خلفه تارة ثالثة ليتلقى عن الرسول ما قد يصيبه من سهام ونحوه إذا لحقهما المشركين[4].

وأبو بكر من القلائل الذين ثبتوا يوم أُحد وحُنَيْن، وحضر جميع الغزوات مع الرسول ﷺ، وحمل راية المسلمين فى آخر غزوة للرسول وهي غزوة تبوك، فكان بذلك أقرب المقاتلين إلى رسول الله. كذلك اختاره الرسول ليكون أميراً للحج فى

---

[1] ابن هشام: المصدر السابق، ج١، ص٣٣٩ ـ ٣٤٠، ابن الأثير: الكامل، ج٢/٥٩، ٦٦ ـ ٧٠، السيوطي: المصدر السابق، ص٣٥.

[2] سورة التوبة: الآية ٤٠.

[3] ابن هشام: المصدر السابق، ج٢/١٣٠ ـ ١٣١.

[4] ابن هشام: نفسه. ١٣١.

آخر العام المذكور، ولعل لذلك مغزى واضح يدل على مكانة أبى بكر عند النبي، ويزيد هذا المغزى وضوحاً بإنابة الرسول له ليصلى بالمسلمين عندما ثقلت عليه وطأة المرض رغم أن السيدة عائشة حاولت أن تثنى الرسول عن ذلك متعللة برقة قلب أبيها وسرعة انهمار دموعه عندما يجد نفسه في موقع حبيبه إمامٌ للمسلمين[1].

لا غرابة إذن فيما خص الرسول به أبا بكر من المزايا التى لم يخص بها أحداً سواه، ويؤكد ذلك قول الرسول ﷺ فى معرض حديثه عن صاحبه ومدى قربه منه «لو كنت متخذاً من أحدٍ خليلاً، لا تخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده». ويقول ابن خلدون في نفس سياق المزايا التى خص بها الرسول صاحبه أنه ﷺ كان يشاور أصحابه فى العديد من أمور الدولة، ويخص أبو بكر بخصوصيات أخرى، حتى أن العرب الذين عرفوا أحوال الدولة المعاصرة لدولة الرسول ﷺ مثل الدولة الفارسية والرومية وغيرهما كانوا يطلقون على أبى بكر وزير النبي[2]. ونختتم حديثنا عن منزلة أبي بكر بما رواه الطبري فى تاريخه يؤكد هذه المكانة الرفيعة التي نالها صاحب النبي حيث روى أن الرسول ﷺ عندما قال «إن عبداً من عباد الله خَيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله» فلم يفقهها إلا أبو بكر، حيث فطن إلى أنه يقصد نفسه، فبكى. وقال: بل نفديك بأنفسنا وأبائنا. فعجب الحاضرون من مقولة أبى بكر، ولكن الرسول الذى علم ما فطن إليه أبو بكر - رد عليه بقوله: على رسلك يا أبا بكر، سدوا هذه الأبواب المُشْرَعة إلى المسجد إلا ما كان من بيت أبي بكر، فإنى لا أعلم إمرءاً أفضل يداً فى الصحابة من أبى بكر[3].

ثالثاً: مبايعته بالخلافة[4]:

أحدثت وفاة الرسول ﷺ اضطراباً بين المسلمين، حتى أن بعضهم - وأشهرهم عمر بن الخطاب ﷺ - لم يُصَدّق خبر وفاة النبي ﷺ إلى أن جاء أبو بكر ودخل بيت ابنته عائشة ﷺ حيث توفى الرسول الكريم فكشف عن وجهه وتأكد من انتقاله للرفيق الأعلى، ثم خرج إلى جموع المسلمين وخطب فيهم قائلاً «أيها الناس من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم ذكَّرهم بقول الله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ

---

[1] ابن سعد: المصدر السابق، ج٣/١٧٨.

[2] المقدمة، تحقيق د. على عبد الواحد وافى، ج٢/٦٦٦.

[3] تاريخ الطبرى: ج٢/١٩٤. ويؤيد تلك المكانة ما روى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «ما لأحد عندنا يد الا وقد كافأناه، إلا أبا بكر، فان له عندنا يداً يكافئه الله ﷺ بها يوم القيامة ...». راجع السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٣.

[4] انظر فى ذلك: الطبري، ج٢/٢١٨ - ٢٢٣.

قَبْلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

وبوفاة الرسول ﷺ تظهر للدولة الناشئة مشكلة اختيار خليفة لرسول الله يقود المسلمين دينياً ودنيوياً، والمطالع للعديد من المصادر الإسلامية يلاحظ تواتر الكثير من التفاصيل عن بيعة أبى بكر بالخلافة فيزعم البعض ان النبي ﷺ طلب من السيدة عائشة أثناء مرضه الأخير أن تدعو أخاها عبد الرحمن ليكتب لأبى بكر كتاباً لا يختلف الناس معه عليه، ثم عدل عن ذلك وقال: دعيه، معاذ الله أن يختلف المؤمنون فى أبى بكر، ويقول بعض أنصار على بن أبى طالب ﷺ: أن النبي أوصى له بالخلافة وساقوا العديد من الحجج التى يكثر فيها «التكلف والتزيد»، حتى أنهم حصروا الخلافة فى بيت علىّ إلى يوم القيامة[2].

على أن الحقيقة الثابتة أن النبي لم ينص على الخلافة عيناً لأحد من الناس، لا لأبى بكر كما تزعم طائفة من أهل السنة، ولا لعلى كما تدعى طائفة من الشيعة[3].

لأنه لو كان قد أوصى لأحد من بعده لرئاسة المسلمين، لسمع المسلمون بهذه الوصية ونفذوها عن رضى وطيب خاطر ودونما تردد، ولما بادروا أيضاً إلى عقد مؤتمر سقيفة بنى ساعدة للتشاور حول اختيار أحدهم لمنصب الخليفة، وخاصة أن جميع المشاركين فى هذا المؤتمر كانوا من المقربين للرسول ﷺ، كما أن النقاش الذى دار بين ثلاثة من كبار المهاجرين وهم: أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة بن الجراح من ناحية، وبين زعماءالأنصار من ناحية أخرى، لم ترد فيه أية إشارة إلى وصية من النبي لأحد بالحكم من بعده، كذلك من الأمور الأكيدة أن أبي بكر - بما نعرفه عنه من حسن إسلامه ونقاء سيرته وتمسكه بالسير على هدى الرسول - لو كان يعلم أن هناك وصية من النبي لعلى بن أبى طالب بالخلافة من بعده لسارع إلى بيعته دون تردد.

ويحتج الشيعة بأنه ليس من المعقول ألا يبت النبي فى أمر الخلافة قبل وفاته، فيترك دولة الإسلام عرضة للفتنة والفشل من بعده، وللرد على ذلك نقول: أن النبي أعطى لواءه لأبى بكر فى آخر غزواته بالعام التاسع من الهجرة، كما جعله أميراً للحج فى نفس العام، وأنابه لإمامة الناس فى الصلاة بدلاً منه أثناء مرضه الأخير، ولعل كل ذلك إشارة كافية لما يريده، ولعل أكبر حجة أقنعت المجتمعين بسقيفة بنى ساعدة ببيعة أبى بكر بالخلافة هي أن الرسول اختار أبا بكر لرئاسة الدين، فمن غير

---

[1] سورة آل عمران: الآية ١٤٤. راجع ايضاً: ابن كثير: البداية والنهاية مجلد ٣ ج٥، ص٢٠٩.

[2] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١٨/١، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٥٨.

[3] ابن كثير: البداية والنهاية، مجلد ٣ج٥، ص٢١٨.

المعقول ألا يرتضيه المسلمون لرئاسة الدنيا، ولعل ترديد هذه المقولة يوم السقيفة كانت من أهم الأسباب التي دفعت الناس لمبايعة أبي بكر[1].

كذلك يروى أحد الصحابة وهو عبد الله بن زمعة كما يقول السيوطي أنه (أي عبد الله) خرج من عند الرسول أثناء مرضه، فإذا عمر في المسجد وأبو بكر غائب. فقال: يا عمر قم فصلي بالناس. واعتقد عمر أن هذا أمر من النبي فقام وَكبَّر وكان جهوري الصوت فلما سمع رسول الله ﷺ صوته، وهو فى غرفة عائشة المشرعة على المسجد، فسأل فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمين وكررها ثانية[2].

ومما سبق يفهم أن الرسول ﷺ لم يوص صراحة بالخلافة لأحد من بعده، إلا أنه رشح لها أبو بكر، وترك أمر الاختيار النهائي للجماعة الإسلامية إقراراً بمبدأ الشورى الذى نص عليه القرآن الكريم قوله تعالى:﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[3].

وجدير بالذكر أنه لم ترد نصوصاً صريحة لنظام معين بذاته لحكم الدولة الإسلامية سواء فى القرآن الكريم، أو السنة النبوية المطهرة ... حتى يكون المسلمين أحراراً فى اختيار النظام الذى يروقهم ويمكنهم عن طريقه مسايرة البيئة والزمن، متقيدين فقط بالأسس التى تناولها القرآن الكريم بالذكر فى الآية السابقة المُعَبِّرة عن الشورى بالاضافة إلى آيات أخرى تأمر الحاكم المسلم بأن يراعى فى حكمه العدالة والأمانة وعلى المحكومين الطاعة له، وهى بذلك أمور أربعة يجب أن تكون نُصب عين الحاكم والمحكومين ويجب العمل بهم، ولعل أبو بكر قد أكد هذا المفهوم فى خطبته التي ألقاها عندما بويع بالخلافة حين قال «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[4].

رابعاً: سقيفة بنى ساعدة:

هى صُفّة مظللة كان الأنصار يجتمعون فيها لتبادل الرأي والمشورة، وكانت ملكاً لبنى ساعدة بن كعب بن الخزرج، وقد بادر الأنصار للاجتماع فيها عندما نمى إليهم خبر وفاة رسول الله ﷺ فتشاوروا فيمن يخلفه.

---

[1] تشير المصادرإلى أن النبي حين شعر بالتحسن في صحته ذات يوم أثناء مرضه الأخير خرج إلى المسجد وكان ساعتها أبو بكر يصلى بالناس، فلما رأى المصلون النبي فرحوا وتفرجوا (أي فسحوا مكاناً للنبي) فأشار إليهم النبي بالثبات فى الصلاة، وأحس أبو بكر فتأخر عن مكانه، ولكن النبي أومأ إليه بالثبات فى مكانه إماماً وجلس الرسول على يسار أبي بكر فصلى جالساً وفى هذا من وجهة نظرنا إقراراً لأبى بكر بإمامة المسلمين فى الدين والدنيا. راجع: ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ومابعدها.

[2] تاريخ الخلفاء، ص٥٨؛ راجع ايضاً: أبن كثير: المصدر السابق، ج٥ ص٢٩٥.

[3] سورة الشورى: الآية ٣٨.

[4] والآيات الدالة على تلك الأسس هى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ سورة النساء: الآية ٥٨ ﴿يأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمرمنكم﴾ " سورة النساء آية: ٥٩ وراجع ابن الأثير :الفاصل ج٢/٣٢٢.

لتظهر ثلاثة اتجاهات فى صفوف المسلمين حول مسألة الخلافة ... الاتجاه الأول وتزعمه الأنصار وكانت آرائهم تتجه إلى اختيار سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري خليفة للمسلمين في حكم الدولة. وكان سعد بن عبادة آنذاك مريضاً وحضر اجتماع السقيفة ولكنه أناب ولده قيس ليسمع منه ويُسمع الأنصار فقال ولده على لسانه بعد أن حمد الله تعالى «يامعشر الأنصار لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة فى العرب، إن محمداً ﷺ لبث بضعة عشر سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن ... فما آمن من قومه إلا رجال قليل، ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يَعُزّوا دينه، ولا أن يدافعوا عن أنفسهم ...، حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم، وأثقله على عدوه من غيركم حتي استقامت العرب لأمر الله ... وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير العين، فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس، فإنه لكم دون الناس»[١]. فوافقه المجتمعون واستحسنوا رأيه.

أما أصحاب الاتجاه الثاني فهم المهاجرون الذين يميلون إلى مبايعة أبى بكر الصديق، والذين ما إن علموا باجتماع زعماء الأنصار في السقيفة لترشيح سعد بن عبادة للخلافة حتى سارع ثلاثة منهم بالسير إلى هناك والانضمام للمجتمعين وهؤلاء هم: أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، ودارت المناقشات بين الطرفين، وخطب أبو بكر فى الحاضرين، فرد الحَبّاب بن المنذر عليه بقوله «نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا ﷺ ... واستطرد قائلا للأنصار، املكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم ... وأنتم أهل العز والثروة، وأولوا العدد والمنعة والتجربة ... فإن أبى هؤلاء (يقصد المهاجرين) ... فمنا أمير ومنهم أمير»[٢].

وما أن فرغ الحَبأب من حديثه، حتى نهض عمر بن الخطاب معترضٌ على قوله قائلاً: هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن (أى الحبل الذى يُقرن به البعير)، ثم نهض أبو بكر متحدثاً بكلام أثنى فيه على الأنصار، ثم أقام الحجج على أحقية المهاجرين بالأمر فكان مما قاله «نحن الأمراء وأنتم الوزراء، مذكراً الأنصار بقول الرسول ﷺ للمهاجرين أوصيكم بالأنصار خيراً أن تقبلوا من محسنهم وتتجاوزوا عن مسيئهم»[٣]. موضحاً لهم أمره ﷺ بأن يكونوا - أي الأنصار - مع المهاجرين حيثما يكونوا مؤكداً ذلك بأن الله قد وصف المهاجرين بالصادقين وسمى الأنصار

---

[١] ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥/٩٥، الطبري: المصدر السابق، ج٣/٢٠٨.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج٢/٣٢٩، ابن كثير: المصدر السابق، ج٥ ص٣١٢ ومابعدها.

[٣] صحيح البخاري، ج٧/١٢١.

بالمفلحين وأمرهم بأن يكونوا مع الصادقين[1]، ثم طلب بدوره من المجتمعين فى السقيفة أن يختاروا واحداً من اثنين: إما عمر بن الخطاب أو أبو عبيدة بن الجراح، ولكنهما رفضا التقدم على أبى بكر، وبادر عمر ببيعة أبى بكر قائلا له: لقد ارتضاك رسول الله إماماً لديننا، أفلا نرتضيك إماماً لدنيانا؟ وحينئذ سارع الحاضرون إلى بيعة أبى بكر فيما سُمى البيعة الخاصة[2].

ولعلنا نخرج من مؤتمر السقيفة بعدة ملاحظات أهمها:

١. تقرر في هذا المؤتمر اعتماد مبدأ الانتخاب في اختيار الحاكم، ولذا يُعد من وجهة نظرنا أهم اجتماع فى تاريخ صدر الإسلام لأنه أشبه بالجمعية التأسيسية التي تضع دستوراً ليكون أساساً لحياة الأمة فى المستقبل حيث على أساسه قام نظام الخلافة.

٢. تم اختيار أبو بكر للخلافة إثر مناقشات ومداولات مفتوحة بين الحزبين الكبيرين فى المدينة ونعنى بهما المهاجرين والأنصار، وأتيحت الفرصة كاملة لكلا الفريقين للإدلاء بالرأي فى حرية تامة وفي جو من الديمقراطية رائع بلغ أرقي درجات الحوار دون تلاسن[3]. بحيث قدموا لنا إنموذجاً مثالياً للسلوك السياسى، وانتهى الاجتماع بخضوع المعارضة بما تُمثّله من رأي مخالف لما تمليه المصلحة العامة وهى أن اجتماع أمر الأمة وعدم تصدعها لن يتم إلا إذا كان أمر الحكم لقريش حيث اعتاد العرب ردحاً طويلاً على زعامتها.

وهكذا انتهى الاجتماع ببيعة الأنصار لأبى بكر، وبالنسبة لسعد بن عبادة فهناك رواية تفيد بأنه أصر على عدم البيعة، بعدما ترك تخلى الناس وتراجعهم عن بيعته في نفسه أثراً سيئاً[4].

---

[1] وقد ورد ذلك في قوله تعالي في سورة الحشر: الآية ٨ - ٩: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَي أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
كذلك في قوله تعالىَ في سورة التوبة: الآية ١١٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

[2] ابن هشام: السيرة، ج٤/١٠٦، الطبري: المصدر السابق، ج٢/٢٠٠-٢٠١، راجع أيضاً: ابن كثير: البداية والنهاية، م٣ ج٥، ص٢١٣ ومابعدها.

[3] حيث ظهر فى الاجتماع اعتراف كل طرف بمكانة وفضل الطرف الآخر رغم الاختلاف فى الرأى مثال ذلك قول أبى بكر واصفاً الأنصار «انتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام»، وقول أبو عبيدة: «أنتم يامعشر الأنصار أول من نصر وآزر». راجع ابن كثير: البداية والنهاية، م٣ ج٥، ص ٢١٥، مصطفى حلمى: نظام الخلافة فى الفكر الإسلامى، ص ٣٩.

[4] ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج١/١٠.

وفي اليوم التالي للبيعة الخاصة، تمت مبايعة عامة الناس حيث وصل أبو بكر وعمر إلى مسجد الرسول، وقام عمر متحدثاً للناس معتذراً عما بدر منه بالأمس من إنكار لوفاة رسول الله، ثم قال «أن الله قد أبقي كتابه الذى هدى به رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم كما هداه به، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما فى الغار، فقوموا فبايعوه» فبايع الحاضرون جميعاً أبا بكر وهذه البيعة هي التي عُرفت بالبيعة العامة وبها أصبح أبو بكر خليفة للمسلمين دون منازع[1].

وعقب تولى أبو بكر الخلافة، اعتلى المنبر بمسجد رسول الله وخطب فى المسلمين خطبته التي أوضح فيها برنامجه السياسي وخطبه فى قيادة الدولة وجاء فيها: «أما بعد، أيها الناس فإني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة ...» كما قرر في خطبته قواعد التعامل بين الحاكم والمحكوم «الضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ الحق له إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله» وركز على أن طاعة ولى الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ...»، كذلك نص على لزومية الجهاد فى سبيل الله تعالى لأهميته فى إعزاز الأمة ورفع قدرها، وعلى اجتناب الفاحشة حماية للمجتمع من الانهيار وذلك فى قوله (لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء)[2].

أما الاتجاه الثالث والأخير فهو المتمثل – كما تقول بعض الروايات وخاصة الواردة عند مؤرخي الشيعة الرافضين لبيعة أبي بكر – فى بنى هاشم يُعضّدهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وكانوا يرغبون في بيعة على بن أبى طالب ليكون خليفة رسول الله على أساس أنه ابن عم رسول الله وزوج ابنته فاطمة، وأول من أسلم من الغلمان، وبذل الكثير فى سبيل نصرة الإسلام.

ولكن هناك الكثير من النصوص الواردة بالمصادر الإسلامية ما تخالف ذلك وتؤكد إجماعاً على اتفاق الصحابة جميعاً على مبايعة أبى بكر ﷺ، يدلنا على ذلك ما أورده البيهقى عن أبى سعيد الخدري من أن أبى بكر بعد بيعة الناس له في مسجد الرسول صعد المنبر، فدعا الزبير فجاء فقال له: ابن عمة رسول الله أردت أن تشق عصا المسلمين؟ قال الزبير: لاتثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه، ثم نظر أبو

---

[1] ابن كثير: البداية والنهاية، م٣ ج٥، ص٣١٦.

[2] ابن الأثير: الكامل، ج١٩٥/٢، ابن كثير: البداية والنهاية، م٣ج٦، ص٨٤٣.

بكر فلم ير علياً فدعا بعلى بن أبى طالب قال: قلت: ابن عم رسول الله وختنه على ابنته، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ قال: لاتثريب يا خليفة رسول الله، فبايعه[1].

ولعل فى ذلك دليل واضح على اجتماع كلمة المسلمين وعدم فرقتهم، ولعل مما ينهض دليلاً آخر على عدم امتناع على بن أبى طالب عن بيعة أبى بكر أنه كَرَّم الله وجهه لم يفارق الصديق ولم ينقطع عن الصلاة خلفه، وموقفه من توجه أبى بكر بنفسه إلى ذي القصة وعزمه على محاربة المرتدين، وقيادته للتحركات العسكرية ضدهم بنفسه، وما كان فى ذلك من مخاطر وخطر على الوجود الإسلامي[2].

السياسة الداخلية للخليفة أبى بكر الصديق:

اتضحت السياسة العامة التى سيتبعها الصديق ﷺ فى إدارة دولة الإسلام من خلال خطابه الذى ألقاه في أعقاب توليه الخلافة ... فقد وضح فيه وبجلاء شديد تواضعه الجم عندما ذكر أنه تم اختياره وهو ليس بخير أفراد الأمة، كما اشترط على نفسه الالتزام بقاعدة الحكم وفقاً للشريعة ممثلة فى القرآن الكريم وسُنّة النبى ﷺ، والاستماع إلى مشورة جمهور المسلمين، ولهم عليه حق تقويمه إذا حاد عن الجادة القويمة.

كذلك اشترط على نفسه أن تكون الأمانة فى الحكم والإدارة من لزوميات عمله، ورعايته للمسلمين ومواطنى الدولة، وما دام ملتزماً بالصدق وعدم الخيانة، فعلى الرعية نصرته ومعاونته فى أمور الدين والدنيا.

وتمدنا المصادر التاريخية بالعديد من الروايات التي تشير إلى التزام الخليفة الأول بكل ما شرطه على نفسه فى خطاب الخلافة، ولم تتأثر سلوكياته مطلقاً بالمنصب الرفيع الذى تولاه. فقد ظل يحيى حياة بسيطة مثلما كان حاله قبل توليه الخلافة، فيروى ابن سعد فى طبقاته أن جواري الحى[3]. كن يأتين له ﷺ بغنمهن

---

[1] ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣/٨٤٣. ويؤيد الذهبي فى تاريخه، ص٧. هذا المعنى قائلاً على لسان على والزبير إنّا نرى أبا بكر أحق الناس بها إنه لصاحب الغار وإنا لنعرف شرفه وخيره، ولقد امره رسول الله بالصلاة بالناس وهو حي.

[2] راجع فى ذلك: ابن كثير: البداية والنهاية، م٣ ج٦/٨٥٩ - ٨٦٠. حيث كان على بن أبى طالب هو الذى يقود راحلة الصديق، وكان فى مقدمة من تحاوروا مع الخليفة راغبين فى إثنائه عن عزمه الخروج على رأس الجيش لمحاربة المرتدين، حرصاً على عدم تعريض حياته للخطر من أجل صالح الدولة، واشار عليه بأن يعقد الأولوية للقادة الشجعان للتقدم لمحاربة المرتدين ... فوافق الصديق على ذلك.

[3] كان ابو بكر يسكن فى بداية عهده بالخلافة فى حي يطلق عليه السُنْحُ وهو موضع بشمال المدينة المنورة فيه منازل بنى الحارث بن الخزرج، وهم أهل زوجته حبيبة بنت خارجة بن زيد بن زهير بن الحارث الخزرجى. راجع: الطبقات، ج٣/٨٠ - ٨١.

فيحلبها لهن[1]. وهذا دليل واضح على قمة التواضع وأن الخلافة لم تغير من سلوكياته شيئاً.

كذلك يسوق لنا صاحب الطبقات رواية أخرى تؤيد تواضعه ورقى أخلاقه. وهى أنه ظل مقيماً فى السُنُح عند زوجته حبيبة فى حجرة من شعر، فما زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله بالمدينة بعد ستة أشهر من خلافته وكان أثناء هذه المدة يغدو ماشياً على رجليه إلى المدينة فيصلى بالناس، وينظر فى أمور الدولة، حتى إذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسُنُح، فلما عانى المشقة فى هذا، وعدم التفرغ التام لأمور الرعية والنظر في شأنهم، انتقل إلى المدينة وأقام بها على نفس الطريقة البسيطة التى اعتادها دوماً[2].

وهكذا عاش الخليفة الراشد الأول بسيطاً متواضعاً[3]. أما عن إدارته للدولة فكانت استكمالاً لإدارة النبي ﷺ فبالنسبة للإدارة الداخلية استعان أبو بكر بصحابة الرسول في إدارة شؤون الدولة وتحمل تبعات الحكم معه، فقام أبو عبيدة بن الجراح على بيت مال المسلمين، بينما تولى عمر بن الخطاب القضاء[4].

ويُعد أبو بكر هو أول من اتخذ بيتاً لمال المسلمين فقد أخرج ابن سعد عن سهل بن أبى خيثمة وغيره أن "أبا بكر" كان له بيت مال بالسُنُح ليس يحرسه أحد، فقيل له: ألا تجعل عليه من يحرسه؟ قال: عليه قفل، فكان يُعطى ما فيه حتى يفرغ، فلما انتقل إلى المدينة حَوّلَهُ فجعله فى داره، فقدم عليه المال، فكان يُقسِّمه على فقراء الناس فيسوى بين الناس فى القسْمْ، وكان يشترى الإبل والخيل والسلاح فيجعله فى سبيل الله، واشترى قطائف أتى بها من البادية ففرقها فى أرامل المدينة[5].

---

[1] الطبقات، ص٨١، راجع ايضاً: السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٨٠.

[2] ابن سعد: الطبقات، ج٣/٨٠-٨١، وقد ظل الفترة الأولى من خلافته يغدو كل يوم للسوق يبيع ويشترى، ويرعى غنمه بنفسه، حتى يقوم بأمر نفسه وعياله، إلى أن لقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح يوماً، فأشار عليه بأن عليه التفرغ لشؤون المسلمين مقابل فرض يفرضونه له من بيت المال يقوم على أمر بيته وكان هذا الفرض أو الراتب السنوي لا يزيد عن ستة آلاف درهم فى نهاية خلافته، راجع: المصدر السابق، ج٣/٧٨.

[3] يذكر السيوطى نقلاً عن ابن عساكر رواية أخرى تؤيد وتنهض دليلا على هذا التواضع مفادها «أن عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزاً قد كف بصرها تسكن فى ناحية من المدينة، فيأتى إليها ليلاً فيسقى لها ويقوم بأمرها، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أراده فترصد عمر ليعرف من هذا الذي يقوم ويسبقه للقيام بأمرها فإذا به الخليفة أبو بكر الصديق». راجع: السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٨٠.

[4] ابن سعد: الطبقات، ج٣/٧٨.

[5] السيوطي: المصدر السابق، ص٧٩، وعند وفاته وبعد دفنه دعا عمر الامناء ودخل بهم فى بيت مال أبى بكر وكان منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً ولا ديناراً ولا درهماً. راجع: ابن سعد: الطبقات، ج٣/١١٤.

أما عن وظيفة القضاء والتي اختار لها عمر بن الخطاب، فيذكر أنه كان يأتي عليه (أي على عمر) الشهر ما يختصم إليه فيه اثنان[١]. وهذا ينهض دليلاً جديداً على عدل أبى بكر وحسن إدارته لشؤون الرعية والالتزام في الحكم بناصية العدل القائمة على الالتزام بشريعة الله وسُنَّة رسوله، وتشير المصادر إلى أن أبى بكر كان يقضى بنفسه أحياناً إذا عُرض له قضاء، مما يدل على أن القضاء لم يفصل فى عهده عن الولاية العامة[٢].

أما عن الكُتَّاب الذين كتبوا لأبى بكر فهما زيد بن ثابت وعثمان بن عفان ﷺ وكانا يكتبان له الأخبار، وعلى بن أبى طالب وكان مختصاً بكتابة من حضر إليه، أما حاجبه فكان هو "سُدَيد" مولاه، ومؤذنه أحد موالى عمَّار بن ياسر ويدعى سعد القرظ[٣].

أما عن ولايات الإسلام والقائمون على أمرها من الولاة فى عهده فهي كالآتي:

١. مكة المكرمة: وواليها عَتَّاب بن أسيد الذى ولاه الرسول ﷺ فى أعقاب الفتح[٤].
٢. الطائف: وكان واليها عثمان بن أبى العاص[٥] منذ دخول ثقيف الإسلام عام ٩هـ.

٣. صنعاء: وولى عليها المهاجر بن أبى أمية وكان قد وليها بعد وفاة باذان.
٤. حضرموت: وأبقى عليها زياد بن لبيد الأنصارى والذى عينه الرسول الكريم[٦].
٥. زبيد ورُمع: وعليها أبو موسي الأشعري ﷺ.
٦. خولان: وتولاها يعلي بن يعلى بن أمية.
٧. نجران: وعليها جرير بن عبد الله البجلي.
٨. البحرين: وأقر عليها إبان بن سعيد منذ أن ولاه الرسول ﷺ.
٩. الجَنَد: وعليها معاذ بن جبل.
١٠. جُرَش باليمن: وواليها عبد الله بن ثور.
١١. دومة الجندل: وواليها عياض بن غنم[٧].

---

[١] ابن سعد: المصدر السابق، ج٣/٧٨،
[٢] يؤيد ذلك ما ذكره ابن سعد في أحداث عام ١٢هـ عندما خرج أبو بكر للعُمرة بمكة فيروى ابن سعد أن أبو بكر بعد أدائه لمناسك العمرة، جلس قريباً من دار الندوة فقال: هل من أحد يشتكي من ظلامه أو يطلب حقاً؟ فما أتاه أحد وأثنى الناس على واليهم عتَّاب بن أسَيد خيراً. راجع: الطبقات، ج٣/٨٢.
[٣] الذهبي: تاريخ الإسلام، ص٧٦.
[٤] وقد ظل قائماً على أمر مكة وتوفى فى يوم وفاة أبى بكر الصديق. راجع: الذهبي: المصدر السابق، ص٦١، وقيل في نفس اليوم الذي وصل فيه نعي أبو بكر إلى مكة. راجع: ابن سعد: الطبقات، ج٣/٨٢ حاشية ٤٤٩.
[٥] الذهبي: تاريخ الاسلام، ص٧٥.
[٦] الذهبي: المصدر السابق، ص٧٥.
[٧] راجع: الطبري: تاريخ الطبري، ص٤٣٧، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤/٨٧٦.

هؤلاء هم ولاة الخليفة الراشد الأول الذين اعتمد عليهم في إدارة الدولة فى أقاليمهم وكلفهم بعدة مهام منها إمامة المسلمين فى الصلاة، وجباية الخراج، ومدافعة الأعداء والجهاد فى سبيل الله، علاوة على تنظيم أمور الولايات إدارياً وقضائياً وفقاً لأحكام الشريعة والقيام على نشر الإسلام وتفقيه الناس فى أمور الدين[١].

سياسة أبى بكر مع ولاة الأقاليم:

كان أبو بكر الصديق يستعين بكبار الصحابة فى اختيار الولاة واتخاذ القرارات الهامة فى الدولة، ولعل ابرز مستشاريه كان عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وغيرهما حتى أن عمر عُرف بوزير أبى بكر، كذلك كان الخليفة الأول يشاور الوالي قبل إصدار قرار تعيينه أو نقله من ولاية إلى أخرى[٢]. كذلك نَهَج نَهْج الرسول فى تولية بعض الناس على قومهم إذا وجد فيهم صلحاء، مثما فعل بالطائف وبعض القبائل، وقد اعتاد أبو بكر إذا ما عَيَّن شخصاً ما على ولاية، يقوم بكتابة عهد له يحدد له فيه المنطقة التى ولاه عليها، ويُحَدِّد له طريقه إلى ولايته، والخطوط العامة للسياسة التي سيسير عليها مع الرعية.

وكانت مخاملته لهؤلاء الولاة على اختلافهم تقوم على الاحترام المتبادل والاتصال المستمر لمراجعة مصالح الولاية ومقتضيات الإدارة، فكان الولاة دائمي الكتابة للخليفة لإطلاعه على شؤون الولاية، واستشارته فى مهام الأمور، ويرد عليهم الخليفة موجهاً أوامره، راداً على استفساراتهم، وكانت الرُسل تختلف من عاصمة الدولة "المدينة المنورة" إلى الولايات الإسلامية وبالعكس حاملة الأخبار وبخاصة أخبار المرتدين. وظهر حرص أبى بكر على التعرف على أحوال الولايات وسيرة الولاة والعمال مع الرعية فيما أصدره من كتب عامة رسمية كان يكتبها ويرسلها من نفسه إلى مختلف الولاة والأمراء يحثهم فيها على الزهد وإقامة العدل، ومن مظاهر رقابته على ولاته ما فعله أثناء عُمرته بمكة فى العام الثانى عشر من الهجرة، فبعد الانتهاء من العمرة جلس قريباً من دار الندوة سائلاً الناس عن أحوالهم، وسيرة الوالي معهم، فلم يتقدم أحد إليه بشكوى أو ظلامه، بل أثنى الجميع على الوالي[٣].

---

[١] راجع: الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية.

[٢] فعل ذلك عندما أراد تعيين المهاجر بن أبى أمية فخَيَّره بين ولاية اليمن أو حضرموت فاختار الاولى فعينه عليها. كذلك أخذ موافقة عمرو بن العاص عند تعيينه على ولايه جُند فلسطين.

[٣] ابن سعد: المصدر السابق، ج٨٢/٣.

جمع القرآن الكريم:

من الأعمال الجليلة التى قام بها أبو بكر الصديق جمعه للقرآن الكريم، فمن المعروف أن رسول الله ﷺ كان يُملى الآيات والسور على كُتّاب الوحى الذين كانوا يكتبونها على ما يتوفر لديهم من رقاع وعظام وعُسُب النخيل، كما كان هناك بعض كبار الصحابة الذين يحفظون القرآن كله عن النبى ﷺ، وأثناء حياة رسول الله لم تكن هناك ضرورة مُلحة لجمع القرآن فى كتاب واحد، لأن الحافظ الأكبر والمنبع الأساسي للقرآن وهو النبى ﷺ كان لايزال حياً، ولذا لم يكن هناك خوف من ضياع شئ من القرآن[1].

ولكن بعد وفاة الرسول ﷺ تغير الحال، حيث نشبت حروب الردة، وبدأت حركةَ الفتوحات مما نتج عنه استشهاد عدد كبير من حفاظ القرآن ومن هنا كان قرار أبو بكر بجمعه خوفاً من ضياعه، وخاصة أن القرآن كان معظمه محفوظاً فى الصدور، فاستشار عمر بن الخطاب ﷺ فى هذا الموضوع فوافقه وشجعه عليه[2]. لذلك استدعى الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري وعهد إليه بهذه المهمة الشاقة، وأمره بجمعه من العُسُب، واللخاف، وصدور الرجال حتى جمعه زيد في صحف[3].

وقد اخرج البخاري عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليَّ أبو بكر وعنده عمر، فقال أبو بكر: أن عمر أتاني فقال: أن القتل قد أستَحَرَّ يوم اليمامة بالناس، وإني لأخشى أن يستمر القتل بالقُرَّاء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعوه، وإني لأرى أن يجمع القرآن، قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، فرأيت الذى رأى عمر، قال زيد: وعمر عنده جالس لايتكلم، فقال أبو بكر: إنك شاب عاقل، ولا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فأجمعه، ويتابع زيد قوله: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عَلَى مما أمرني به من جمع القرآن فقلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبى ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبى بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال.

---

(1) كمال أبو مصطفى: فى تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ص٢٥٢.

(2) وهناك رواية أخرى وهى الأصح تقول بأن عمر بن الخطاب هو الذي اقترح الأمر على الخليفة أبو بكر بعد أن استشهد الكثير من حفظة القرآن يوم اليمامة، وظل بالخليفة حتى شرح الله صدره لذلك الأمر فقام على جمعه. راجع: السيوطي: المصدر السابق، ص٧٧.

(3) الذهبي: المصدر السابق، ص٥٣.

حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخرها[1]. فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر ﷺ.

وأخرج أبو يعلى عن علّى قال: أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر أن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين[2].

وهكذا نرى أبا بكر قد حقق عهد الله على نفسه في قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3]. فحفظ القرآن وضمن تداوله محفوظاً من يد العبث والتحريف، وعمل أبو بكر هذا هو الأساس الذى سيكمل عليه فيما بعد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ﷺ.

ومن خلال هذا العمل الجليل نستخلص عدداً من النقاط التي تبرز عظم المهمة التي اضطلع بها الخليفة أبو بكر الصديق وكاتب الوحى زيد بن ثابت ومن أهمها:

١. استماع أبو بكر لأهل الحل والعقد أي أهل الرأي والمشورة والأخذ باجتهاداتهم إذا ما كان فيها خير للصالح العام ويظهر ذلك في الأخذ برأي عمر بن الخطاب في جمع القرآن.
٢. استشعار أبو بكر أهمية العمل وضرورته أمام تزايد أعداد الشهداء من حفظة القرآن فأقدم على العمل بعد أن شرح الله صدره لذلك مما يعنى رضاء الله على ذلك العمل.
٣. حسن اختيار الرجل المكلف بهذا العمل الجليل حيث اتسم هذا الصحابي (زيد بن ثابت) برجاحة العقل والصدق، والقرب من الرسول ﷺ والذى ائتمنه على كتابة الوحى فحظى بثقة أبى بكر وذلك سيراً على نهج الرسول الذى وثق به فعهد إليه بهذا الأمر.
٤. عظم المسؤولية التي اضطلع بها زيد بن ثابت، فقد صار بهذا العمل أميناً على كتاب الله.
٥. دقة ابن ثابت فى جمع القرآن من شتى مصادره سواء المكتوبة أو المحفوظة في الصدور فتتبع الرجال من الحفظة بدقة شديدة أوصلته كما سبق القول إلى استكمال آيات سورة التوبة.

---

[1] سورة التوبة: الآية ١٢٨ – ١٢٩.

[2] السيوطي: المصدر السابق، ص٧٧. ويزيد السيوطي بأن أبا بكر هو أول من سماه مصحفاً.

[3] سورة الحجر: الآية ٩.

السياسة العسكرية فى عهد أبى بكر الصديق:

١ . ***إنفاذ بعث أسامة بن زيد:***

كان رسول الله ﷺ قد جهز لتلك الحملة قبيل وفاته، وكان هدفها الزحف إلى تخوم البلقاء من الشام للثأر لشهداء موقعة مؤتة وعلى رأسهم زيد بن حارثة والد أسامة الذى عُهد إليه بقيادة تلك الحملة. وأمره أن يوطئ بالخيل تخوم البلقاء والدا روم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وخيموا في موضع يُعرف بالجُرف عند الخندق قرب المدينة المنورة، وكان بين الجيش الكثير من المهاجرين الأول وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، وكان هدف الحملة تأديب الروم وحلفائهم من القبائل العربية المتنصرة[١].

ولما اشتدت وطأة المرض على الرسول ﷺ، ثم وفاته عقب اجتماع الجيش، حال ذلك دون سير الجيش متوجهاً إلى البلقاء، وظل القوم مجتمعين فى معسكرهم فى انتظار الأمر لهم بالمسير أو غير ذلك.

ورغم أن المدينة المنورة وما حولها من أحياء العرب قد بدأ يعتريها فريق من مانعي الزكاة، كما بدأت حركات ردة تظهر في مناطق أخرى، إلا أن أبو بكر أصر وبشدة على إنفاذ بعث أسامة، رغم أن بعض الناس قد أشاروا على الصديق أن لا يرسل الجيش للاحتياج إليه فيما هو أهم، وكان من جملة هؤلاء المعارضين عمر بن الخطاب ﷺ حيث قالوا له: «إن هؤلاء جل المسلمين والعرب – على ما ترى – قد انتقضت بك، وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين، فقال أبو بكر: والذى نفس أبى بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة. كما أمر به رسول الله ﷺ ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته»[٢]. ويتضح من هذا الإصرار رغبته ﷺ فى تنفيذ أوامر الله تعالى، بكل عزم وقوة، كذلك كان هناك معارضة في قيادة أسامة للجيش نظراً لصغر سنه، والرغبة في إسناد القيادة لمن هو أكبر سناً من أسامة، وكان عمر بن الخطاب أيضاً ممن عرض ذلك على أبى بكر الصديق، فرفض تماماً بقوله متعجباً: أؤمّر غير أمير رسول الله ﷺ[٣]؟ ثم قام من فوره حيث اجتمع الجيش في الجُرف مستعرضاً إياه، وأمرهم بالمسير، وسار

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق، م٣ ج٦ ص٨٤٥ – ٨٤٦.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق، م٣ ج٨٤٦/٦. وهناك رواية أخرى أوردها ابن كثير أيضاً عن اصرار ابى بكر على إنفاذ الجيش معارضاً رأى عمر وجماعة معه بقوله: «والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو ان الطير تخطفنا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل امهات المؤمنين لاجهزن جيش أسامة. راجع: البداية والنهاية، م٣ ج٨٤٦/٦ – ٨٤٧، وايضاً: السيوطي: المصدر السابق ص٧٤.

(٣) يذكر الطبري وابن كثير ان أبى بكر عندما سمع راى ابن الخطاب، وثب وكان جالساً واخذ بلحية عمر قائلاً ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله وتأمرني أن انزعه. راجع: البداية والنهاية. ص٨٤٧، الطبري: المصدر السابق، ج٢٢٦/٣.

معهم ماشياً، وأسامة راكباً، وعبد الرحمن بن عوف يقود راحلة الصديق، فقال أسامة: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال: والله لست بنازل ولست براكب، ثم استطلق الصديق من أسامة عمر بن الخطاب فأطلقه له[1].

وهكذا خرج أسامة على رأس جيشه وودعه أبو بكر وقد أوصاه عدة وصايا تعتبر دستوراً للمسلمين في الحرب والجهاد وميثاقاً من أرقى المواثيق الدولية لما يجب أن تكون عليه سلوكيات الجيوش فأمرهم «بألا يخونوا ولا يغلوا ولا يغدروا ولا يمثلوا، ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا يقطعوا نخلاً أو شجراً مثمراً ولا يحرقوه، ولا يذبحوا شاه ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وأوضح لهم بأنهم سوف يمرون على أناس يتعبدون في صوامعهم، فلا يتعرضوا لهم ويتركونهم للعبادة، وسوف يُقَدِم إليكم أقواماً ألواناً من الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً فاذكروا اسم الله عليها[2].

ولم يلبث أسامة أن خرج بجيشه - لتنفيذ ما أمر به رسول الله ﷺ وَصَدَّق عليه أبو بكر - متجهاً إلى شمال شبه الجزيرة العربية «فلما دنوا من الشام أصابتهم ضبابة شديدة فسترتهم» حتى أغاروا على قبائل قضاعة وبلاد أيلة وغيرهم من حلفاء الروم، فأنزلوا بهم الهزيمة، وغنموا منهم غنائم كثيرة، ورجع أسامة بجيشه سالماً ظافراً إلى المدينة وقد انتقم بذلك لشهداء موقعة مؤتة، وتمكن من تأمين الحدود الشمالية لدولة المدينة، وأظهر للعرب جميعاً قوة المسلمين. محققاً بذلك الأهداف التي رغب الرسول ﷺ في تحقيقها من إنفاذ هذا البعث قبيل وفاته، وتذكر المصادر أنه كان بين مسيرة البعث وعودته للمدينة مدة أربعين يوماً[3].

---

(1) حيث كان عمر من ضمن جنود أسامة فرأى أبو بكر احتياجه إلى عمر لمعاونته في إدارة الدولة في تلك الظروف المضطربة فوافق أسامة على استثنائه من الذهاب معه، ولذلك كان عمر كلما لقى أسامة بعد عودته من الحملة يتلقاه بقوله السلام عليك أيها الأمير. راجع: ابن كثير: البداية، م٣ ج٨٤٧/٦. وانظر أيضاً: الذهبي: المصدر السابق، ص١٤ - ١٥. وكان هدف الخليفة من استئذان أسامة ان يترك له عمراً أن يوضح للكافة من أفراد الحملة أن أسامة له السلطة الكاملة والكلمة العليا على جميع أفراد الحملة حرصاً على وحدة الصف، وخاصة أن الجيش يضم الكثير من المهاجرين الأول والأكبر من أسامة سناً.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢/٢٠٠.

(3) ابن كثير: البداية، م٣ ج٨٤٦/٦ - ٨٤٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، ١٤ - ١٥، ابن الأثير: الكامل، ج٢٠٠/٢. ويؤكد تحقيق الأهداف التي رغب الرسول في تحقيقها من هذه الحملة. ماورد في المصادر من أن عرب هذه المناطق قالوا: ما بال هؤلاء يموت صاحبهم - أي الرسول - ثم يغيرون على ارضنا، فلو لم يكن بهم قوة ما أرسلوا هذا الجيش، ولذا كفت أيديهم عن كثير من الخطط التي كانوا قد أعدوها لمواجهة حدود المدينة. راجع: الذهبي: المصدر السابق، ص١٥، ابن الأثير: الكامل، ج٢٠٠/٢.

٢. **القضاء على حركة المرتدين والمتنبئين:**

ما كاد المسلمين ينتهون من توحيد كلمتهم بعد وفاة الرسول ﷺ ويجتمعون على مبايعة أبى بكر بالخلافة، حتى تعرضوا لمشكلة كبرى كادت أن تعصف بالدولة الوليدة وتمثلت تلك المشكلة فى تحرك بعض قبائل العرب حديثة العهد بالإسلام ضد دولة الرسول راغبة - حسب اعتقادها - فى استرداد ما كانوا يتمتعون به من استقلال ذاتي، ونفض الخضوع والتبعية للسيادة القرشية، كما تصوروا أن الإسلام جاء كعقيدة ودين، ولم يأت لكى يقيم دولة.

ومن خلال هذا التصور يُمْكِن لنا أن نحدد لحركة الردة عدة دوافع أهمها:

أ- **وفاة النبى ﷺ:**

من الثابت أن هناك الكثير من القبائل العربية كانت - كما أسفلنا القول - حديثة العهد بالإسلام، حيث أسلمت فقط فى العام التاسع من الهجرة (عام الوفود) أو بعده أي قبيل وفاة الرسول ﷺ، وكانت هذه القبائل تظن أنه لن يقوم مقامه أحد، ولا يستطيع أحد أن يملأ الفراغ الذي تركه الرسول، وأن النظام الجديد الذى وضع أسسه النبي ﷺ لايمكن أن يستمر بعد وفاته، وعلى هذا فقد سارعت الكثير من هذه القبائل لانتهاز فرصة وفاة الرسول ﷺ، وأعلنت عودتها إلى النظام القديم والانفصال عن التبعية لدولة المدينة وأقدمت على طرد عمال النبى، وقلدت أفراداً من قبلها، لينتشر الارتداد فى أنحاء كثيرة من بلاد العرب[١].

ب- **ضعف سلطان المدينة فيما وراء دائرة الحجاز:**

مما لاشك فيه أن معظم القبائل الضاربة بأطراف شبه الجزيرة العربية لم تكن قد خضعت خضوعاً كاملاً لسلطة الدولة الإسلامية فى المدينة، حيث أن هذه القبائل قد أظهرت الولاء للرسول ﷺ والخضوع له بحكم كونه المنتصر على قريش زعيمة العرب، واعتقدت أن هذا وضعاً مؤقتاً يرتبط بحياة النبى ويزول بوفاته ﷺ.

فلما توفى أصبحوا فى حلٍ من هذا الأمر، خاصة وأن الإسلام لم يكن قد تمكن من نفوس هؤلاء الأعراب، فلم يكن إيمانهم راسخ، ولم يتمكن منهم الفهم العميق لمبادئه، وإنما كان خضوعهم هيبة وخشية من الجيش الإسلامي، ولم يكن الرسول يشترط عليهم للإسلام سوى تطبيق قواعده وهى النطق بالشهادتين وأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والحج لمن استطاع إليه سبيلا، ولذا خُيِّل إليهم أن الزكاة التي يدفعونها لصاحب السلطة المركزية ماهي إلا إتاوة يدفعها المغلوب إلى الغالب أو المنتصر - أي الرسول - ولم يدركوا أنها أحد أركان الإسلام كالصلاة والصيام، ومن ثم لم يروا مبرراً لدفعها لأبى بكر لأنهم إنما قبلوا أداءها لرسول الله ﷺ على

---

[١] عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١٦٤ - ١٦٦.

إثر دخولهم في الإسلام على اعتبار أنه القائد المنتصر على زعيمة العرب السابقة (مكة)، أما بعد وفاته فليس لمن يخلفه من أهل المدينة الحق في المطالبة بها[1].

ج- عودة التعصب القبلي:

كان من الصعب على غالبية القبائل العربية حديثة العهد بالإسلام والتى أعلنت الخضوع لدولة الرسول في المدينة أن تنسى تعصبها القبلي في فترة قصيرة، ذلك التعصب الذى حاول النبي ﷺ أن يزيله من نفوسهم ويُكوِّن أمة عربية إسلامية تحت راية الإسلام. فهذه القبائل التي ارتدت رفضت تماماً استمرار فكرة تفوق وزعامة قريش بعد وفاة رسول الله، حيث أنهم توهموا أنها تشبه النظام الوراثي الذى لم يألفوه قط منذ الجاهلية، والواضح أن حركة الردة لم تكن في جوهرها حركة دينية بقدر ما كانت سياسية تستهدف الاستقلال عن سلطان المدينة، ظهر فيها بجلاء التعصب القبلي الذى ساد بين العرب منذ الجاهلية وترسخ في نفوسهم[2]. ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك ما أورده الطبري في تاريخه من أن طلحة النمري جاء إلى اليمامة، وأراد الاجتماع بمسيلمة الكذاب واختبار نبوته، فلما جاءه قال له «أنت مسيلمة»؟ قال «نعم» قال «من يأتيك»؟ قال «رحمن» قال «أفي نور أم في ظلمة»؟ قال «في ظلمة» فقال «أشهد أنك كاذب» وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر»[3].

وكانت ردة الأسود العنسي باليمن أول ردة في الإسلام، حيث أدعى النبوة في أواخر عهد رسول الله، واستفحل أمره هناك، وطرد عمال النبي باليمن، ولكن حركته أخمدت قبيل وفاة الرسول، وعاد أصحاب النبي الذين كان قد ردهم الأسود إلى أعمالهم[4].

كذلك تنبأ طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خزيمة في حياة النبي، واستفحل أمره، فوجه إليه الرسول ﷺ ضرار بن الأزور وأمره بالقيام على من ارتد، وتوفى رسول الله ولم يأت خبر طليحة، الذى ازداد نفوذه في بني أسد وكثر

---

(1) راجع: عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٦٦-١٦٧.

(2) سالم: المرجع السابق، ص١٦٨.

(3) الطبري: المصدر السابق، ج١٤٦/٣. وراجع: أيضاً: ابن الأثير: الكامل، ج٢٢٠/٢، وايضاً انظر: ابن كثير: المصدر السابق، م٣ ج٨٧٦/٦. وقد قتل طلحة هذا مع مسيلمة يوم عقرباء كافراً، كذلك من الأدلة القاطعة على أن حركة الردة حركة سياسية تقوم على العصبيات القبلية ما روته المصادر من أن عُيينة بن حصن قام في غطفان وتحالف مع بني أسد، واتبع طليحه الأسدي مع ثبوت كذبه، وقد برر موقفه هذا بقوله: «والله لئن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش، وقد مات محمد وبقي طليحة». راجع: الطبري: المصدر السابق، ج٢٣٠/٣.

(4) الطبري: المصدر السابق، ج٢١٧/٣، ابن الأثير: المصدر السابق، ج٢٠١/٢ - ٢٠٤، راجع أيضاً:ابن كثير: البداية، م٣ ج٨٥٤/٦، سالم: المرجع السابق، ص١٦٨.

أتباعه وانضم إليه الكثير من العرب تعصباً لاسيما من أسد وغطفان وطي[1]. كذلك ارتدت امرأة من بنى يربوع تدعى سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية، وأدَّعَتْ النبوة، وقادت رهطها من تغلب وربيعة، وكانت تسعى لغزو أبى بكر. واجتمعت بمسيلمة الحنفي الذى أدعى النبوة في اليمامة، كما ارتد الحطم بن ضبيعة من بنى بكر بن وائل في القطيف وهَجَر وغيرهما، وأرسل هؤلاء المرتدون إلى المدينة وفوداً يعرضون على أبى بكر «بذل الصلاة ومنع الزكاة»[2].

موقف الخليفة أبى بكر الصديق من المرتدين والمتنبنين:

واجه أبو بكر ﷺ حركة الردة بكل حزم وإصرار وتصميم على أن يَنْهَج نَهْج رسول الله ويترسم خطاه فى سبيل نشر الإسلام والحفاظ عليه وتوحيد أمة العرب، حيث آل على نفسه ألا يتساهل فيّ أمور الدين ولا ينحرف عن سواء السبيل مهما كلَّفه ذلك، وقد وضح هذا النَّهْج تماماً في خطبته فى اليوم الأول الذى تمت بيعته حيث قال «... فإذا رأيتموني قد استقمت فاتبعونى، وإن زغت فقوموني ...»[3].

وهكذا لم يكن أبو بكر على استعداد للتساهل بشأن هذه الحركة الأمر الذى يمكن أن يؤدى إلى انهيار الدولة الإسلامية الناشئة وتقويض الإسلام من جذوره، ولذا وكما صمم على إنفاذ بعث أسامة بن زيد إلى مقصده استجابة لأمر رسول الله قبيل وفاته، صمم على عدم مهادنة المرتدين وقتالهم، ولعل هذا الدافع وراء رفضه مشورة عمر بن الخطاب ﷺ فى عدم محاربة مانعي الزكاة على اعتبار أنهم يشهدون بأن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله بقوله رداً عليه: «رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك جباراً في الجاهلية جوازاً في الإسلام؟ ... هيهات هيهات»[4].

وهكذا ظهر تصميم أبو بكر على محاربتهم لأنهم أسقطوا ركناً من أركان الإسلام وهو إيتاء الزكاة، ولا يستقيم أمر الدين كلاملاً بدونها، وينهض دليلاً على ذلك قوله لعمر في نفس الشأن «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه، ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدى حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين». وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أمرت أن أقاتل الناس على ثلاثة: شهادة أن لا اله إلا الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فو الله الذى لا اله إلا

---

[1] ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٠٦.

[2] راجع: ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٠٦ وما بعدها، ابن كثير: البداية م٣ ج٦/٨٥٧.

[3] ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص١٩.

[4] السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٧٣.

هو لا أقصر دونهن»[1]. وعلى هذا النحو عزم أبو بكر عزماً أكيداً على محاربة المرتدين ومانعي الزكاة، إذ اعتبرهم متمردين على الدولة العربية الإسلامية[2].

ولذلك، وأمام تصميم أبو بكر، اضطرت الوفود القادمة إليه والراغبة في مفاوضته على منع الزكاة إلى العودة إلى ديارها، ولكنه قرأ الغدر في وجوههم فاحتاط للأمر خاصة وأنهم أخبروا عشائرهم بقلة أهل المدينة وطَمَّعُوهم فيها[3]، فجعل أبو بكر الحرس على أنقاب المدينة[4]. «وألزم أهل المدينة بحضور المسجد وقال: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وأنكم لا تدرون أليلاً يأتون أم نهاراً؟ وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبَيْنَا عليهم، فاستعدوا وأعدوا»[5].

وهكذا نظمَ أبو بكر مسألة الدفاع عن المدينة ورَتَّب الحُرَّاس على أبوابها، ولم يمضي ثلاثة أيام من رجوع وفود المرتدين حتى رجعوا طارقين المدينة ليلاً وخلفوا بعضهم بمنطقة ذي حِسيٍ ليكونوا رِدْءاً لهم، فانتبه الحرس وأرسلوا إلى أبى بكر يخبرونه بالغارة فأمرهم بأن يلزموا أماكنهم فاستجابوا، وأسرع أبو بكر على رأس أهل المسجد لملاقاتهم فانهزموا، وطاردهم المسلمون حتى بلغوا حِسيَ، فخرج عليهم الردء فالتقى الجمعان، وهُزم المرتدون وتراجعوا[6]. ولم ينتظر أبو بكر أن يعاود المرتدون الكَرَّة لمهاجمة المدينة فبادر باستكمال الزحف عليهم ليلاً، وعلى ميمنته النعمان بن مقرن، وعلى الميسرة أخزه عبد الله بن مقرن، وعلى الساق أخوه الثاني سويد بن مقرن، «فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين حساً ولا همساً، حتى وضعوا فيهم السيوف، فما طلعت الشمس حتى ولوهم الأدبار، وغلبوهم على عامة ظهورهم ... واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القَصَّة[7]، وكان أول الفتح»[8]. فانتقم بنو عبس وذبيان - وكانا على رأس المرتدين - من المسلمين بأن وثبوا على من بقى منهم بينهم على الإسلام فقتلوهم، وفعل من

---

[1] الذهبي: المصدر السابق، ص ٢٠ - ٢١، ابن قتيبة: المصدر السابق، ص ٢٠، ابن كثير: البداية، م٣ ج٨٥٤/٦ - ٨٥٥، ويُعَلِّق عمر بن الخطاب على موقف أبي بكر قائلاً فوجدته في ذلك أمضى مني وأحزم وأدب الناس على أمور هانت على كثير من مؤنتهم حين وليتهم. راجع: السيوطي: المصدر السابق، ص٧٣.

[2] عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص١٧٣. ويذكر ابن كثير أن عمراً قال عندما رأى هذا التصميم من أبي بكر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق. راجع: البداية والنهاية، م٣ ج٨٥٥/٦.

[3] ابن كثير: المصدر السابق، م٣ ج٨٥٧/٦.

[4] أنقاب المدينة: أي الطرق الجبلية.

[5] ابن كثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

[6] ابن كثير: نفسه، م٣ ج٨٥٧/٦.

[7] موضع قرب المدينة فيه ماء يُسمى القصة.

[8] ابن كثير: المصدر السابق، م٣ ج٨٥٧/٦ - ٨٥٨.

وراءهم كفعلهم، فأقسم أبو بكر ليقتلن من كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة[1].

وهكذا كانت هذه الموقعة من أكبر «العَون على نصر الإسلام وأهله»، ورجع أبو بكر إلى المدينة مؤيداً منصوراً[2]. في نفس الوقت الذى طرقت فيه أبواب المدينة ليلاً صدقات (أموال زكاة) عدة أحياء من العرب ومنهم: بنى عدى بن حاتم، وصفوان، والزِبْرقان، ثم قدم أسامة بن زيد ﷺ بجيشه ظافراً[3]. وقد نفذ كل ما أمره به رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق، فاستخلفه الصديق على المدينة، وزحف فى جمع من المسلمين فنزل بالأبرق[4]. فقاتل من به من المرتدين وهزمهم، ففرت عبس وذبيان إلى طُلَيحة الأسدي النازل بمنطقة بُزاخة[5].

أما أبو بكر فقد عاد إلى المدينة، وكان أسامة قد استراح هو ورجال جيشه، وتأهب للخروج ثانية لقتال المرتدين، ولكن أبو بكر سرعان ما ركب أيضاً «شاهراً سيفه مسلولاً» من المدينة إلى ذى القصة ومعه على بن أبى طالب ومجموعة من الصحابة فألحوا عليه أن يعود أدراجه إلى المدينة، وأن يبعث لقتال الأعراب غيره ممن يؤمره من الشجعان الأبطال، حرصاً على استقرار الدولة وخشية من استشهاده فيتفرق أمر الأمة فى هذه الظروف الحرجة، فأجابهم إلى ذلك، وعقد أحد عشر لواءً لأحد عشر قائداً لقمع المرتدين وهم كالتالي:

١. خالد بن الوليد: ووجهه إلى طُلَيحة بن خويلد الأسدي، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبُطاح.
٢. عكرمة بن أبى جهل: ووجهه إلى مسيلمة باليمامة.
٣. شرحبيل بن حسنة: سَيَّر في أثر عكرمة بن أبى جهل لمقاتلة مسيلمة، ثم أمره أن يمضى إلى قضاعة بعد اليمامة مدداً لعمرو بن العاص.
٤. المهاجر بن أبى أمية: وأمره بالتوجه لقتال جنود العنسي وقيس بن المكشوح ومن أيدهم من أهل اليمن، فإذا انتهى يمضى إلى كِندة بحضر موت ليجتمع مع زياد بن لبيد فيكونا يداً واحدة على المرتدين.

---

[1] ابن كثير: نفسه، م٣ ج٦/٨٥٨، وانظر أيضاً: ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٠٧.

[2] وقد خلد زياد بن حنظلة التميمي هذه الموقعة - ذي القصة - بشعر قائلاً

غَدَاة سعَى أبو بكر إليهم * كما يسعى لموتته جُلالُ [البعير العظيم].

اراح على نواهقها علياً * ومَجَّ لهن مهجته حِبالُ [ابن طليحة الأسدي وقد مات فى هذه الموقعة]

أقمنا لهم عُرض الشمال فكبكبوا* كبكبة الغُزّ أنافوا على الوفر

راجع: ابن كثير: نفسه، م٣ ج٦/٨٥٨.

[3] ابن كثير: نفسه، م٣ ج٦/٨٥٩، ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٠٧.

[4] موضع بمنطقة الربذة كانت فيه منازل ذبيان وعبس وطائفة من بنى كنانة.

[5] موضع لقبائل طئ بأرض نجد. راجع: ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٠٧.

٥. خالد بن سعيد بن العاص: ووجهه إلى مشارف الشام حيث «الحمقتين».
٦. عمرو بن العاص: وأمره بالمسير إلى قضاعة ووديعة والحارث في شمال الحجاز.
٧. حذيفة بن محصن الغطفاني (وقيل الغلفاني): وعهد إليه بمقاتله أهل دَبَا.
٨. عرفجة بن هرثمة: وأمره بمقاتلة أهل مهرة وأصدر أبو بكر أوامره إلى عرفجة وحذيفة (أن يجتمعا وكل واحد منهما على صاحبه في عمله).
٩. طريفة بن حاجز: وأمره ببنى سُلَيم ومن معهم من هوازن.
١٠. سويد بن مقرن: وأمره بتهامة اليمن.
١١. العلاء بن الحضرمي: وأمره بالبحرين لمحاربة من ارتد بها من ربيعة[١].

ففصل كل أمير بجنده من ذى القصة، ورجع أبو بكر إلى المدينة بعد أن كتب لكل أمير كتاب يعهد إليه بقتال المرتدين، وكتاب آخر للمرتدين يأمرهم فيه بالعودة إلى الدين وترك المروق والكفر، ويحذرهم من مَغَبة ارتدادهم[٢].

وهكذا تحرك القادة كل نحو الاتجاه المحدد له من قبل الخليفة، ويصحبته الجيش المرافق له، وقد نجحت تلك الجيوش في المهام التي أوكلت إليهم وأتمت القضاء على حركة المرتدين والمتنبئين، حيث تمكن خالد بن الوليد - أكثر هؤلاء الأمراء مقدرة وكفاءة حربية - من الانتصار على طُلَيحة بن خويلد الأسدي وحلفاؤه من أسد وغطفان وغيرها في بُزاخة، ففر طليحة مع امرأته إلى بلاد الشام، فنزل على بني كلب، ثم رجع إلى الإسلام بعد ذلك عندما بلغه أن حلفاءه من أسد وغطفان وعامر قد أسلموا، ثم خرج معتمراً إلى مكة في خلافة الصديق «واستحيا أن يواجهه مدة حياته»[٣].

كذلك تم القضاء على حركة مسيلمة الكذاب في بني حنيفة بأرض اليمامة الذى تحالف مع سجاح التميمية وتزوجها، فأنزل به خالد بن الوليد الهزيمة، وقتل في موقعة حديقة الموت[٤]. وفي البحرين تمكن العلاء بن الحضرمي من إيقاع

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٠٨، ابن كثير: المصدر السابق، م٣ ج٦/٨٦٠ - ٨٦١.
(٢) راجع نص كتاب أبي بكر للمرتدين، ونص عهده إلى أمراء جنده في الملاحق بآخر الكتاب، وانظر أيضاً: ابن كثير: المصدر السابق، م٣ ج٦/٨٦١ - ٨٦٢.
(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٠٩، ابن كثير، نفسه، م٣ ج٦/ ٨٦٤. راجع أيضاً: سالم: المرجع السابق، ص ١٧٦، وتشير المصادر الاسلامية إلى أن الصديق قد كتب إلى خالد بأن يستشير طليحة في أمور الحرب ولايؤمره، وبعد وفاة الصديق واستخلاف عمر قدم إلى عمر وبايعه وحسن إسلامه وشارك في الفتوحات الإسلامية بالعراق وأبلى فيها بلاءً حسناً. راجع: ابن كثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، سالم: نفسه، ص١٧٦.
(٤) رماه وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم - قاتل حمزة بن عبد المطلب - بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر، ثم تقدم اليه أبو دجانة سماك بن خرشه فضربه بالسيف فسقط. راجع: ابن كثير: المصدر السابق، م٣ ج٦/ ٨٧٠ - ٨٧٣. ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٢٢. وقد سميت الحديقة بذلك لكثرة

الهزيمة بربيعة وأنصارهم من المرتدين وقضى على حركة الردة بها وقتل زعيمها الحطم بن شريح بن ضبيعة[1].

كذلك نجح بقية القادة في القضاء علي جموع المرتدين في شتى أنحاء بلاد العرب، واستطاعوا أن يسترجعوا وفي أمد قصير نفوذ دولة المدينة علي سائر قبائل العرب، ويتولد من حركة الردة التي كانت تهدف إلى تدمير وحدة العرب والقضاء على الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة مبادئ وقيم أخلاقية سامية كالجهاد في سبيل الله، والشعور الجارف بضرورة توحيد العرب ورفع راية الإسلام فى كل مكان تحقيقاً لعالميته التي أشار إليها القرآن الكريم مخاطباً رسوله ﷺ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»». ولذلك فما يكاد المسلمين ينتهون من قمع حركة الردة حتى يندفعون إلى الشمال لتوحيد جزيرة العرب كلها تحت رايتهم فيقوموا على تأديب الغساسنة والمناذرة، ثم يندفعون نحو مناطق سيادة الفرس والروم لتحقيق الوحدة السياسية لشبه الجزيرة العربية.

ويمكننا أن نوجز في السطور القادمة العوامل التي ساعدت المسلمين على الانتصار فى حروب الردة، وأبرز النتائج المترتبة عليها كالتالي:

عوامل انتصار المسلمين في حروب الردة:

١. نجاح بعث أسامة بن زيد في مهمته بتخوم البلقاء بجنوب الشام الأمر الذى جعل الكثير من القبائل الراغبة فى التمرد تتراجع بعد أن ادخل فى روعها أن المسلمين قوة لا يستهان بها بدليل تسييرهم لهذا الجيش ولم يمض على وفاة قائدهم العظيم محمد ﷺ إلا فترة يسيرة، كما أن عودته ظافراً منصوراً أصاب كثير من المرتدين بالضعف وملأ قلوبهم بالخوف، فى حين رفع الروح المعنوية للمسلمين وزادهم ثقة فى النصر، كما أن الغنائم والأسلاب التي عادوا بها قد أعانتهم فى حروب الردة.
٢. نجاح أبو بكر في التصدي لمانعي الزكاة فى غياب جيش أسامة، ثم مطاردتهم وهزيمتهم فى موقعة ذي القصة رغم كثرتهم، وقلة عدد المسلمين.
٣. براعة أبى بكر وخطته القتالية المحكمة في إعداد الجيوش ونشرها في كل أنحاء جزيرة العرب لتحقيق عنصر المفاجأة بالهجوم على جموع المرتدين بمن أسلم منهم حتى شغل كل ناحية بنفسها فلا تنضم لغيرها ... الأمر الذى منع اتحاد جموع المرتدين ضد المسلمين.
٤. نجاح خالد بن الوليد في القضاء على أقوى زعماء المرتدين (طُلَيْحة – مُسَيْلمة) مما قوي المسلمين وثَبَّت أقدامهم، وأضعف من الروح المعنوية للمرتدين.

أعداد القتلى من أتباع مسيلمة حيث تذكر المصادر أن عدد القتلى يومئذ تراوح بين ٧ آلاف الى ١٠ آلاف قتيل من المرتدين بينما استشهد من المسلمين في ذلك اليوم حوالى ٦٠٠ شهيد.

[1] ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٢٧؛ ابن كثير: نفسه، م٣ ج٦/٨٧٧ - ٨٧٨.

٥. رسوخ العقيدة الإسلامية فى نفوس المحاربين المسلمين، ورغبتهم الصادقة في الاستشهاد دفاعاً عنها، بينما المرتدين كانوا يقاتلون لمتع دنيوية زائلة منها الزكاة والعصبية القبلية، علاوة على أن كثيراً منهم كانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم بكذب قادتهم ممن زعموا النبوة.

أما عن النتائج المترتبة على حروب الردة فيمكننا أن نوجزها فيما يلى:

١. ترسيخ العقيدة الإسلامية فى نفوس العرب، بعد أن اتضح لهم بجلاء أنه لا صادق إلا محمد عليه الصلاة والسلام، وان جميع من زعموا النبوة ما هم إلا كاذبون مُدَّعون.
٢. أثبت أبو بكر أنه الرجل الأول في الجماعة الإسلامية، وأقر الجميع بجدارته في أن يخلف الرسول على قيادة المسلمين، فالتف حوله العرب على اختلاف مشاربهم، بعد أن أعزهم الله بالإسلام والخلافة، وهذا الخليفة الذى حَسُن بلائه فى سبيل دينه وأمته مما كان له أثر بالغ فى تثبيت دعائم أركان الدولة الإسلامية الناشئة.
٣. الانتصار على المرتدين زاد المسلمين ثقة فى أنفسهم وشعروا بالقوة التي حصلوا عليها من وراء وحدة الصف، فأدركوا أن البقاء متحدين سيمكنهم من هزيمة كل من يتصدى لهم، فانطلقوا لتحقيق عالمية الإسلام.
٤. حُسن توقع أبو بكر فقد خشى أن يفقد المسلمون هذه الحماسة القتالية، ويركنوا إلى الراحة فتظهر الفتنة والفرقة بينهم فأراد أن يصرفهم عن ذلك فوجههم إلى الفتح فأبلوا بلاءً حسناً.
٥. جمع القرآن الكريم وهو من أهم النتائج المترتبة على حروب الردة التي استشهد فيها كثير من حفظة القرآن الكريم، فأشار عمر بن الخطاب على الخليفة الراشد الأول بضرورة جمع القرآن ففعل ليتحقق – كما أسلفنا القول – بذلك قول الله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ثالثاً: بدء الفتوحات الإسلامية للعراق والشام:

أظهر الله تعالى الإسلام على الدين كله داخل شبه جزيرة العرب زمن الرسولﷺ ، ثم ظهرت حركة الردة، التي مَثَّلت خطراً عظيماً على الدولة الناشئة. ولذلك كان من الطبيعي، وقد تمكن الخليفة أبو بكر الصديق من قمع هذه الحركة، والقضاء على المرتدين، وتثبيت دعائم الدولة داخلياً دينياً وسياسياً، وأعاد بسط نفوذها على سائر أنحاء شبه الجزيرة، أن يستعيد للدولة العربية الإسلامية قوتها التي تصدعت بعد وفاة الرسول، وأن يستكمل دور الرسول ﷺ فى تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة لتحقيق عالمية الإسلام، حتى يستشعر العرب المسلمون كيانهم وقوميتهم، ولا بد أن يبدأ ذلك بالمناطق المتاخمة لشبه الجزيرة العربية.

وقد تمت الفتوحات التي قام بها العرب المسلمين بسرعة لم يسبق لها مثيل في أحداث التاريخ، حتى أن المسلمين فتحوا فى حوالى ثمانين عاماً أكثر مما غزاه الرومان واحتلوه فى حوالى ثمانية قرون، بل أن الجيوش الإسلامية قد تمكنت في بضع سنين من فتح الجزء الأكبر من إمبراطوريتي الفرس والروم، بل تمكنت من القضاء على دولة الفرس، وقلمت أظافر دولة الروم، حيث أزالت سيادتها على بلاد الشام وفلسطين، وجزء كبير من شمال أفريقيا.

فكانت هذه السرعة التى تمت بها الفتوحات الإسلامية والنتائج التي ترتبت عليها سبباً كافياً جعل المؤرخون يحاولون تقصى دوافعها، والبحث فى عوامل نجاحها، ويقومون بتقديم علل جديدة ومختلفة في هذا الشأن وبعضهم أصاب فيما قدمه، وأخطأ البعض الآخر، فمنهم من يرجع أسباب ودوافع قيام العرب المسلمون بهذه الفتوحات إلى:

١. **الدافع الاقتصادي:**

يتبنى الكثير من المستشرقين هذا الدافع ويرون أنه كان له أثره الملحوظ في القيام بحركة الفتوحات، برغبتهم – أى المسلمين - فى الحصول على الغنائم، حيث أن طبيعة بلاد العرب الجغرافية يغلب عليها القحط والجفاف وقلة الأمطار، مما ترتب عليها منذ القدم حدوث هجرات قبلية عربية فى شبه الجزيرة إلى المناطق المجاورة في العراق والشام، وساعد ذلك على تكوين دول قديمة مثل بابل وآشور والدولة الفينيقية وغيرهم، ويستطرد المستشرقون للقول بأن هجرة القبائل العربية فى صدر الإسلام إلى هذه المناطق بمثابة استمرار للهجرات القديمة، وان اختلفت عنها من حيث الزمان والطابع الديني الذى تميزت به، ويستند أصحاب هذا الدافع الاقتصادي إلى ما رواه البلاذري من أن أبا بكر عندما بدأ في استنفار الناس وإعداد الجيوش للفتوحات «كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد، ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل صوب»[1].

وكذلك ما رواه نفس المؤرخ من أن القائد الفارسي «رستم» قال للمغيرة بن شعبة عندما بعثه سعد بن أبى وقاص على رأس سفارة لهذا القائد «قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ما تتشبعون به»[2].

كذلك يستدل القائلون بالدافع الاقتصادي وحده بخطبة خالد بن الوليد لجنده يُرَغِّبهم في بلاد الأعاجم قبل خوض إحدى المعارك ضد الفرس بالعراق وهى

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٥.
(٢) البلاذري: المصدر السابق، ص ٢٥٧.

معركة الولجة والتي قال فيها «ألا ترون ما ها هنا من الأطعمات؟ وبالله، لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل الله والدعاء إلى الإسلام ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقاتل على هذا الريف، حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال مَنْ تولاه ممن إثاقل عما أنتم عليه»[1].

على أن مضمون هذه النصوص التاريخية التي اعتمد عليها أصحاب هذا الرأي وحده لإثبات صحة رأيهم، تُعد من قبيل الحجج غير المقبولة، لأنه من الواضح أن الهدف الرئيسي من استنفار المسلمين كما يُفهم من قول كل من أبي بكر وخالد بن الوليد كان الجهاد في سبيل الله، ولا تعدوا عباراتهم السابقة سوى عبارات حماسية قالها هذين القائدين إلى جموع المجاهدين لترغيبهم في القتال بغية ثواب الجهاد وغنائم العدو، وتبيان أن الجهاد لا يخلو من فائدة دنيوية، لأنه لو كانت الغنائم هي الهدف الأساسي للفتوحات الإسلامية لقبل المسلمون ما عرضه عليهم العدو من أمثال القائد رستم الفارسي للكف عن القتال مقابل إعطائهم ما يتشبعون به.

كما يدحض الاعتماد على هذا الدافع وحده كدافع رئيسي أن المسلمين كانوا يُخيِّرون العدو بين أمور ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو القتال، وأن الجزية كانت تسقط عن الشخص الذى يدخل فى الإسلام، ويؤيد ذلك ما ساقه الطبري على لسان المغيرة بن شعبة للقائد رستم حين قابله قبل يوم القادسية «ثم أتيناكم بأمر ربنا نجاهد فى سبيله وننفذ أمره وندعوكم إلى الإسلام وحكمه، فان اجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلفنا فيكم كتاب الله، وإن أبيتم لم يحل لنا إلا أن نعاطيكم القتال أو تفتدوا بالجزى - الجزية -، فإن فعلتم وإلا فإن الله قد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم، فاقبلوا نصيحتنا فو الله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم، ولقتالكم بعد أحب إلينا من صلحكم»[2].

كذلك قول أصحاب هذا الرأي بأن العرب كانوا يعانون الجوع والجفاف والعسر، فالنصوص التاريخية لا تشير إلى قحط أصاب العرب أو مجاعة ألمت بهم فاضطرتهم إلى الحرب، بل أننا نجد على العكس من ذلك أن موارد العرب المالية قد تزايدت في تلك الفترة من عمل المسلمون بالتجارة، وكانت مواسم الحج من عوامل الازدهار الاقتصادى لدولة المدنية، علاوة على تنظيم الإسلام للمجتمع العربي بتطبيقه نظام التكافل الاجتماعي بين كافة طبقاته[3].

ومما سبق لا يمكننا أن نقبل الاعتماد على الدافع الاقتصادى وحده كتفسير لظاهرة الفتوحات الإسلامية.

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، م٣ ج٦/٨٩٩.

(2) الطبري: المصدر السابق، م٣ ج٦/٥٢٨.

(3) سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ١٨٥.

٢. الدافع السياسي:

كذلك هناك من المؤرخين من يُعلي الدافع السياسى على غيره من الدوافع كتفسير لظاهرة الفتح الإسلامى بقولهم أن من المحتمل أن أبو بكر وأصحابه رأوا أن يشغلوا العرب بمشروعات عظيمة تصرف أذهانهم عن المنازعات القبلية البغيضة، خاصة وأن وحدة العرب المسلمين واجتماعهم على دولة واحدة ودعوة واحدة قد اقترن فى نفس الوقت بظروف دولية حتمت على المسلمين أن يقوموا بالفتوحات لتبليغ دعوة الإسلام إلى العالم المعاصر لهم، حيث أثبتت التجربة أن الاعتماد على الرسل والوفود والمكاتبات فى تبليغ تلك الرسالة العالمية لا يؤتى بالثمار المطلوبة، كما أن من يقوم على اعتناق هذا الدين الجديد خارج نطاق دولة المدينة، كان لا يمكنه أن يأمن على نفسه بسبب الظروف التي يعيشها العالم آنذاك حيث كانت تتحكم فيه قوتان كبيرتان هما الدولتان البيرنطية والفارسية، ومن الثابت أنهما بدأتا في التعرض للضعف وتدهور الأوضاع الداخلية بهما منذ ٦م. بسبب الفتن الداخلية والحروب المتبادلة بينهما مما استنزف مواردهما وقواهما العسكرية فأطنبت فيهما الفوضى ومظاهر الاضطراب في جميع المجالات، علاوة على الانقسامات المذهبية والصراع والتنافس على العرش.

وبالإضافة إلى ما سبق كان هناك الاضطهاد لأصحاب الديانات والمذاهب الأخرى مما زاد أمورهما سوءا، ولعل أبلغ مثال للتعصب الديني في دولة الأكاسرة ما فعله كسرى أبرويز بتمزيقه كتاب الرسول ﷺ الذى دعاه فيه للدخول في الإسلام والإيمان بالواحد ﷻ. كذلك كانت الدولة البيزنطية تضطهد أبنائها المسيحيين المخالفين لمذهب الدولة الرسمي، فمن المعروف أن مذهب الحكومة البيزنطية كان يعرف بالمذهب المَلَكاني (نسبة للملك) وهو ينادى بأن للمسيح طبيعتان بشرية وألهية بينما أغلب مسيحيي الدولة لاسيما فى الشام ومصر يدينون بالمسيحية على المذهب المونوفيزيقى أي مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح وهى الطبيعة الإلهية. وكانت الدولة تُجبر الناس على اعتناق مذهبها بكافة الوسائل إلى الدرجة التي حدت بالبطريرك بنيامين رئيس الكنيسة المصرية إلى الفرار للصحراء مع كثير من القساوسة والرهبان تمسكاً بمذهبهم ونجاة من شدة التعذيب الواقع عليهم من حاكم مصر البيزنطي، هذا التعذيب الذى بلغ مداه على سبيل المثال مع الأب مينا «شقيق البطريرك بنيامين» حيث قبض عليه حاكم مصر البيزنطي «قَيرس» فأمر بنزع أسنانه وكيه بالنار لإجباره على التخلى عن مذهبه، فلم يزداد الرجل إلا إصرارا على مذهبه، فأمر بوضعه فى جوال ملئ بالأتربة وإلقائه في البحر ليموت مكتوم الأنفاس غريقا[١].

---

[١] ألفريد بتلر: فتح العرب لمصر، ص١٦٣.

وهكذا كان لهذه الأوضاع أثرها الكبير في إضعاف الدولتين، الأمر الذي ساعد المسلمين على القيام بحركة الفتوحات، خاصة وأن القبائل العربية التي كانت تقوم على حراسة منطقة الحدود الفاصلة بين الدولتين في أطراف العراق والشام قد تخلت عن تلك المهمة بسبب اضطهاد الفرس والروم لهما[1].

٣. الدافع الديني:

وهو يعتبر أهم الدوافع جميعاً، حيث يرى معظم الباحثين أن حركة الفتوحات الإسلامية إنما ترجع لدافع عسكري ديني وهو الجهاد، ذلك أن رسول الله ﷺ قد بعثه الله بهذا الدين لينشره بين الناس جميعاً دون إكراه، وحرص العرب الفاتحون على تخيير أهل البلاد المفتوحة بين الإسلام، أو دفع الجزية تأكيداً لحرية العقيدة والتي نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ عَلِيمٌ﴾[2].

ويستند القائلون بهذا الرأي على الكثير من الآيات القرآنية الأخرى التي تؤكد أن الله تعالى قد بعث النبي ﷺ إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً، منها قوله تعالى ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[3].وقوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۞ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[4]. وقوله ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]. وقوله تعالى ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۞ وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾[6].

ومما لا شك فيه أن هذه الأوامر الإلهية ووصايا الرسول ﷺ والصحابة قد ولدت في نفوس المسلمين حماسة دينية منقطعة النظير لتحقيق عالمية الإسلام فكانت هي الدافع الأساسي لحركة الفتح لأن المسلمين رأوا أنه في أعناقهم أمانة إلهية يجب الوفاء بها وهي تبليغ الدعوة الإسلامية وحماية من يرغب في اعتناقها.

دوافع القتال وأهدافه في الإسلام:

يمكننا أن نحصر بواعث القتال الذي خاض غماره الرسول ﷺ وأصحابه من الخلفاء الراشدين فيما يلي:

أ- الدفاع عن النفس ورد الظلم والعدوان.

---

(1) سالم: المرجع السابق، ص١٩٩-٢٠٠.
(2) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.
(3) سورة يس: الآية ٧٠.
(4) سورة الفتح: الآيات ٨ - ٩.
(5) سورة سبا: الآية ٢٨.
(6) سورة الأحزاب: الآيات ٤٥ - ٤٦.

ب- نصرة المظلوم.
ج- نقض العهد من جانب العدو.
د- الدفاع عن الدين الإسلامي ومنع من يحاول صد الداخلين فيه.

ولإيضاح هذه البواعث بشئ من التفصيل نذكر أن القول الراجح في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[1]، أن هؤلاء المشركين المقصود بهم الوثنيين العرب بدليل ما أورده أبو يوسف صاحب كتاب الخراج عن ذلك فيذكر أن جميع أهل الشرك من المجوس وعبدة الأوثان وعبدة النيران والحجارة والصابئين والسامرة تؤخذ منهم الجزية فيما عدا أهل الردة من أهل الإسلام وأهل الإيمان من العرب، "فإن الحكم فيهم أن يُعرض عليهم الإسلام، فإن أسلموا، وإلا قتل الرجال منهم وسُبي النساء والصبيان"[2].

ولعل ذلك يُعد من قبيل المحافظة على كيان الدولة العربية الإسلامية من أن تهدده بؤر وثنية معادية، وينهض دليلاً على ذلك أن المسلمين هادنوا المجوسية وغيرهم ممن أشرنا إليهم أعلاه في جزيرة العرب ولم يعمدوا إلى تصفيتهم والقضاء عليهم، لأنهم لم يشكلوا آنذاك خطراً على كيان الدولة. كما أنه فى الفترة ما بين العام التاسع للهجرة - والذى شهد بيان براءة - ووفاة النبي ﷺ، نجد أن الرسول الكريم حرص على تطبيق بنود البيان بحذر وحصافة سياسية بارعة، حيث تجنب الاصطدام بالقبائل حتى لا يثير عصبيتها، ولذلك نراه يكتفي من وفودها بإعلان إسلامهم والخضوع لسلطته، وكان ذلك متمثلا فى عماله الذين أرسلهم إلى أماكن استقرارهم ومضارب قبائلهم لجمع الصدقات؛ وتعليمهم القرآن والصلاة[3].

وبعد وفاة الرسول ﷺ شن الخلفاء الراشدون الحرب ضد الفرس والروم أصحاب السيادة على العالم آنذاك، وكانت هذه الحرب بمثابة حربٍ وقائية حفاظاً على الدولة والدعوة الإسلامية ورداً على موقف كلاً من الدولتين المعادى للإسلام ودولته، فكسرى أبرويز ملك فارس أقدم على تمزيق كتاب النبي الذي بعثة إليه داعياً إياه للإسلام[4]، ولم يكتف بهذا العداء السافر بل أرسل إلى باذان واليه على اليمن آمراً إياه بالمسير إلى المدينة والجد في طلب النبي ﷺ ليمثّل بين يديه[5]. ولكن مزق الله ملكه ورد كيده إلى نحْرِ استجابة لدعوة الرسول الكريم، حيث انقلب ولده

---

[1] سورة التوبة، آية (٥).
[2] راجع: كتاب الخراج، ص٢٧١ - ٢٧٢، ٢٨٢. يحيى بن آدم القرشي: كتاب الخراج، تحقيق د.حسين مؤنس ط ١، دار الشروق القاهرة ١٩٨٧، ص ١٠٨ ومابعدها.
[3] أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ص ٥٣٨.
[4] ابن الأثير: الكامل، ج٢/٩٧.
[5] ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة.

ويدعى (شيرويه) ثائراً عليه وقام بقتله، كما آثر "باذان" الدخول في فلك الدولة الإسلامية معلناً إسلامه بعد أن وصله كتاب النبي يدعوه لذلك[١].

وكان هذا الموقف العدائي من قبل كسرى دليلاً واضحاً على أن الفرس لن يسمحوا للمسلمين بحرية نشر الدين الجديد في أرجاء إمبراطوريتهم، وكذلك الأمر بالنسبة للروم وحلفائهم من متنصرة عرب الشام وعلى رأسهم الغساسنة، حيث تكررت اعتداءاتهم على الدولة الإسلامية أكثر من مرة قبل إقدام المسلمين على فتح بلادهم. ومن أشهر تلك الاعتداءات: قيام أمير الغساسنة (شرحبيل بن عمرو الغساني) بقتل سفير النبي ﷺ (الحارث بن عُمير الأزدى)، رغم أن الأعراف الدولية آنذاك كانت تقضي بعدم العدوان على السفراء والرسل[٢]. كذلك فتك هؤلاء العرب من عملاء الروم بالدعاة الذين أرسلهم الرسول إلى منطقة ذات الطلح على حدود الشام، وكان عددهم خمسة عشر داعياًقتلوا جميعاً فيما عدا أميرهم الذي نجا بصعوبة بالغة، ومن الأمثلة أيضاً الدالة على رفض الروم للدعوة الإسلامية والتعصب ضدها موقف "هرقل" قيصر الروم من المسلمين عندما أمر قواته بتقديم المساعدة العسكرية إلى الفرس ضد المسلمين في معركة "الفراض"[٣]، رغم العداء التاريخي المتأصل بين الروم والفرس، وقد حدث ذلك قبل أن يشرع المسلمين تماماً فى فتح أي منطقة من البلاد الواقعة تحت السيادة الرومية، وتفسير ذلك من وجهة نظرنا لا يخرج عن أن التعصب الديني كان هو الدافع الرئيسى لدى هرقل لاتخاذ تلك الخطوة المعادية لأصحاب الدين الجديد[٤].

كذلك دفعه التعصب الديني إلى إصدار أوامره إلى عماله ببلاد الشام بقتل كل من يعتنق الإسلام أو يهادن أصحابه، وينهض دليلاً على ذلك، موقفه من فروة بن عمرو الجذامي الذي كان على رأس ألوية جيش الروم في بلاد الشام، والذي أعلن اعتناقه للإسلام إثر معركة مؤتة عام ٨هـ، فوجه إليه هرقل تهمة الخيانة، ثم ساومه بالإفراج عنه وإعادته لمنصبه مقابل ارتداده عن الإسلام وعودته للنصرانية، فلما تمسك فروة بالدين الإسلامي، صدرت أوامر هرقل بقتله[٥].

كما لا يغيب عن الذهن موقفه أيضاً (أي هرقل) من "يوحنا بن رؤبة" أمير أيلة والذي هادن الرسول ﷺ وعقد معه صلحاً أثناء غزوة تبوك، فلما بلغ هرقل ذلك أمر بقتله وصلبه أمام أهل مدينته[٦]. كذلك أفعال "قيرس" نائب هرقل بمصر والذي

---

[١] ابن الأثير: المصدر السابق، ج٢/٩٧ - ٩٨.
[٢] سالم: تاريخ الدولة العربية، ص١٢٣.
[٣] منطقة بشمالي العراق قرب حدود بلاد الشام، راجع: ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٥٠.
[٤] ابن كثير: البداية، م٣ ج٦/٩٠٩. راجع أيضاً: ابن الأثير: المصدر السابق، ج٢/١٥١ - ١٥٢.
[٥] ابن الأثير: الكامل، ج٢/١٦٥ - ١٦٦.
[٦] ابن كثير: البداية م٣ ج٥/٢٢.

دأب على تعذيب المسيحيين المخالفين للمذهب المَلْكاني - كما سبق القول - ومحاولاته إكراههم على الدخول في مذهب الدولة، وهذا الموقف المتعصب يدل أيضاً على أن الروم مثلهم مثل الفرس لن يسمحوا بانتشار الدعوة الإسلامية داخل أراضيهم، ومن هنا كان أحد بواعث المسلمين على البدء في حركة الفتح محاولة دفع هذا الظلم والعدوان دفاعاً عن النفس وكيان الدولة علاوة على تخليص المصريين من هذا الاستبداد والتعصب الدينى، وتوفير الحرية لهم لاعتناق الدين الذي تهواه أفئدتهم ويرغبون في اعتناقه دونما إكراه.

(الفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه)

أ- بدء فتح العراق (الحروب ضد الفرس):

في العام الحادى عشر للهجرة، وبينما العلاء بن الحضرمي قائد لواء البحرين منشغلاً بالقضاء على المرتدين هناك، انضم إليه من ثبت على إسلامه من أهل تلك المناطق وغيرها من جنوب العراق، وعلى رأسهم المثنى بن حارثة الشيبانى والذي ينتمي لقبيلة بكر بن وائل، وكان تعاون المثنى وقومه مع العلاء أمراً فاعلاً في التعجيل بانتصار المسلمين على المرتدين[1]. وبعد القضاء على حركة الردة وفد المثنى على الخليفة أبى بكر بالمدينة وعرض عليه فكرة فتح بلاد العراق موضحاً له إمكانية تحقيق ذلك للضعف السياسي والعسكري للدولة الفارسية حيث قال له "أمرني على من قبلي من قومى، أقاتل من يليني من أهل فارس، وأكفيك ناحيتي"، فوافق الخليفة أبو بكر بعد مشاورة كبار الصحابة، فرجع المثنى وشرع فى الجهاد بالعراق محارباً القبائل الخاضعة لسلطان فارس والتي اعتادت الإغارة على أرض المسلمين المتاخمة لهم، فأخذ المثنى ورجاله في قتالهم وتعقبهم فى جنوبي العراق، ثم بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكر يستمده، فاستجاب أبو بكر وأرسل إليه مشجعاً إياه على التصدي لهؤلاء الأعداء قائلاً "أما بعد قد بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق، فاستقبله بمن معك من قومك، ثم ساعده وآزره وكاتفه، ولا تعصين له أمراً"[2].

وقد أمر الخليفة أبو بكر قائده خالد بالتقدم إلى العراق ومهاجمة الفرس وأعوانهم من ناحية الجنوب حيث ميناء الأُبُلّة، كما أمَّر أبو بكر قائداً عربياً آخر هو عياض بن غنم وأمَرَه بمهاجمة العراق من شماله الشرقي، ثم يدخل العراق من أعلاها حتى يلقى جيوش خالد بن الوليد، وكتب الصديق للقائدين بأن من يستطيع منهما الوصول إلى الحيرة أولاً، ويثبت أقدام المسلمين فيها، يكون هو قائد الجيشين

---

[1] ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٢٧.

[2] الطبري: المصدر السابق، ج٣/٣٤٣ - ٣٤٤.

معاً، وتجب طاعته على زميله[١]. كما أمرهما أيضا بأن يستنفروا من قاتل من أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ ولا يغزون معهما أحد ارتد"[٢].

وقصد الخليفة بهذه الخطة المحكمة عدة مقاصد يمكن تحقيقها في آن واحد، منها تشتيت جهود الفرس واستنزاف قوتهم في مواجهة جبهتين، وإشعال المنافسة بين القائدين، تيسير أمر المؤن من كلأ وماء في الطريق للجيشين معاً، لأن المياه بوجه خاص والمراعي قد تضيق بالجيشين إذا سارا فى طريق واحد.

وهكذا تجمع جُند خالد والمثنى، وتذكر المصادر أن عددهم كان ١٨ ألف مقاتل، وقبل توجههم إلى الأبُلّة رأوا أن يراسلوا حاكم الحيرة المعين من قبل كسرى فارس وكان يُدعى قبيصة بن إياس الطائي وقد تولى الحيرة بعد النعمان بن النتذر، فدعاه خالد هو وأشراف الحيرة إلى الإسلام، أو الجزية أو القتال فرد عليه قبيصه "ما لنا بحربك من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيكم الجزية"، فصالحهم خالداً على ٩٠ ألف درهم فكانت أول جزية أخذت من العراق وحُملت إلى المدينة[٣].

وبعد أن انتهى خالد من أمر الحيرة مؤقتاً، توجه على رأس الجيش قاصداً الأبُلّة، وقسَّم جيشه إلى ثلاث فرق، ولم يحملهم على السير في طريق واحد، فتقدم المثنى بن حارثة على رأس فرقة، وبعده عدى بن حاتم الطائي، والفرقة الثالثة على رأسها خالد، وواعدهم اللقاء عند موضع يُعرف بالحفير[٤].

وكتب خالد بن الوليد إلى هرمز قائد الفرس وواليها على الأبُلّة، يخيره تطبيقاً لدستور القتال عند المسلمين بين ثلاثة: الإسلام – الجزية – القتال،ولكن الأخير لم يستجب إلا للحرب، فمال خالد إلى موضع يسمى كاظمة[٥]، ليحتدم فيها القتال بين الطرفين، وكان الفرس قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا من المعركة، فنشبت معركة عنيفة انتهت بهزيمة الفرس وقتل قائدهم هرمز، "وانهزم أهل فارس، وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل " وعُرفت هذه المعركة بذات السلاسل وكان انتصارالمسلمين في صفر من سنة ١٢ هـ[٦].

---

[١] الطبري: المصدر السابق، ج٣/٣٤٧، وانظر أيضا: ابن كثير: البداية، م٣ ج٦/٨٩٥.

[٢] ابن الأثير الكامل، ج٢/٢٣٨. وجدير بالذكر أن هذين القائدين كتبا إلى الخليفة يسألانه المدد فأمدهما بالقعقاع بن عمرو التميمي، وعيد بن غوث الحميري وغيرهما من السرايا والبعوث ... راجع ابن كثير: البداية، م٣ ج٦/٨٩٥.

[٣] ابن كثير: البداية، م٣ ج٦/٨٩٦.

[٤] ابن الأثير: الكامل ج٢/٢٣٩، ابن كثير: البداية، م٣ ج٦/٨٩٧، والحفير موضع في الجنوب الغربي من البصرة. راجع: الطبري: المصدر السابق، ج٣/٣٤٨.

[٥] تقع على سيف الخليج العربي في طريق البحرين من البصرة، ابن الأثير: الكامل ج٢/٢٣٩ هـ٢.

[٦] ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٣١، ابن كثير: البداية، م٣ ج٦/ ٨٩٧ – ٨٩٨.

وقعة المذار أو الثني "صفر ١٢ هـ":

وفي أعقاب مقتل هرمز وتشتت جيش الفرس، طارده المثني بن حارثة لينال منه متفرقاً قبل أن تتجمع فلوله ثانية، ولكن أنباء الهزيمة سرعان ما وصلت إلى كسرى فارس الذي سارع يحشد جيشاً ثانياً لملاقاة المسلمين بقيادة قارن بن قريانس الذي أدرك فلول جيش هرمز وضمهم إليه وتقدم لملاقاة المثنى الذي كتب إلى خالد يطلب منه المدد، فأمده خالد بنفسه بعد أن أرسل إلى الصديق يخبره بتلك التطورات، وسار حتى نزل على المذار[1] وهو كامل التعبئة، ليشتبك الفريقان في قتال شديد بدأ كالعادة بأن طلب قارن من خالد المبارزة، فتقدم إليه خالد ولكن سبقه أحد فرسان المسلمين يُدعى معقل بن الأعشى بن النباشي إلى قارن فقتله، كما قتل غيره من قادة الفرس، مما أوهن عزيمة الجيش الفارسي، "وركبهم المسلمون في ظهورهم فقتلوا منهم يومئذ ثلاثين ألفاً، وغرق كثير منهم في الأنهار والمياه"[2]، ولولا النهر والتجاء الفرس إلى السفن لعظمت فيهم المقتلة أكثر من ذلك، وما فلت من الموت أحد، ثم قام خالد بتحصيل الجزية من الفلاحين، وصاروا من أهل الذمة، وقسّم الفيء وبعث بالخمس والبشارة بالفتح إلى الصديق في المدينة مع سعيد بن النعمان[3].

وقعة الولَجَة[4]:

وكانت في شهر صفر من نفس السنة (١٢ هـ)، حيث أعد كسرى إثر هزيمة جيشه في المذار جيشاً عظيماً وضع على قيادته واحداً من أكبر امرائه يُدعى الأندرزَغر[5]، وأمده بجيش ثان على رأسه أمير يقال له بهْمَن جاذويه، وسلك القائد الأول الطريق من المدائن إلى كسكر ومنها إلى الولَجَة، بينما سار جاذويه من طريق آخر مخالف عبر وسط السواد، وذلك حتى يطبق الجيشان على المسلمين، فسمع بهما خالد وكان منذ انتصار المذار قد ثبت عيونه للتجسس على الأعداء[6]، فقام بتقسيم جيشه إلى ثلاثة أقسام حتى يواجه كل قسم العدو من جهة معينة، ووصل الجيشان إلى الولَجَة وبدأ خالد القتال مع الفرس بينما كَمَن القسمين الآخرين من الجيش الإسلامي على مقربة من ميدان القتال، فلما طالت المدافعة والمراوغة بين فرقة خالد والجيش الفارسي، ظهر الكمين الأول، ثم أعقبه الثاني، "ففرت صفوف الأعاجم" بعد أن نزل بهم الإعياء واليأس فولوا الأدبار، فأذرع فيهم خالد السيف

---

(١) بلد على الفرات بين واسط والبصرة.

(٢) ابن كثير: البداية، م٣ ج٦/٨٩٨. وانظر أيضاً: ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤٠، ابن كثير: المصدر السابق، م٣ ج٦/٨٩٨ ـ ٨٩٩.

(٤) منطقة قرب واسط بالعراق.

(٥) تعني في الفارسية كلب الصيد، وكان أميراً على خراسان.

(٦) ابن كثير: نفسه، م٣ ج٦/٨٩٩.

حتى كثر القتلى والأسرى وهرب الأندرزغر من الموقعة فمات عطشاً، كما عظم نصيب المسلمين من الغنائم والاسلاب[1].

وقعة أليس[2] (صفر ١٢ هـ):

كان لانتصار خالد بن الوليد في الوَلَجة على الفرس وحلفائهم من القبائل العربية الموالية لهم وخاصة قبيلة بكر بن وائل الذي استثارها مهاجمة المسلمين لديارهم، وكثرة من قتلوه منهم، فاجتمعت عشائرهم بأليس وكاتبوا كسرى لإمدادهم، فاستجاب لهم، وأمر بَهْمَن بن جاذويه بالمسير إليهم والوصول إلى أليس، ولكنه أناب عنه قائداً آخر يدعى "جابان" ورحل هو إلى المدائن لمقابلة كسرى لبعض الأمور الهامة المتعلقة بمقتضيات المعركة القادمة مع المسلمين، وليأت بمددٍ آخر يُضاف إلى جيشه وإلى جموع القبائل العربية الموالية للفرس، وأوصى "جابان" قبل سفره بالتوقف عن المحاربة إلى أن يقدم عليه[3]، وبلغ جاذويه المدائن فإذا كسرى أردشير مريضاً في مرضه الأخير، الأمر الذي تأخر معه جاذويه بالمدائن بينما الجيش بقيادة جابان قد وصل إلى أليَس قبل وصول جيش خالد، فألقى الجيش أثقاله، وتهيأ الجند لتناول الطعام، فأقبل خالد، وهم على هذه الحالة، فلبثوا على طعامهم ولم يعجلوا القتال انتظاراً لمقدم جاذويه القائد العام من ناحية استجابة لوصيته، ومن ناحية أخرى اعتقادهم بأن خالداً لم يكن مستعداً للنزال حال وصوله، وهنا لم يمهل خالداً جموع الأعداء، فأثخن القتال في صفوف القبائل العربية الموالية للفرس، فسارع الفرس إلى السلاح، ليقتتل الفريقان قتالاً شديداً، وصبر المسلمون صبراً بليغاً حتى أن خالداً دعا الله قائلاً "اللهمّ لك عليّ إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقي منهم أحداً أقدر عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم[4]. فكشفهم الله ومنح المسلمين أكتافهم فنادى منادي خالد: الأسر، الأسر لا تقتلوا إلا من امتنع من الأسر، فأقبلت الخيول بهم أفواجاً يساقون سوقاً، وقد وكل رجالاً يضربون أعناقهم في النهر[5]، لتسفرحتى هذه المعركة في النهاية عن خسائر فادحة للعدو، وسال ماء النهر المجاور بدم قتلاه ثلاثة أيام صار لونه أحمر قانياً وبلغ عدد القتلى طبقاً لما ورد في المصادر ٧٠ ألفا، ثم توجه خالد بعد انتصار أليس إلى أمغيشيا وهي منطقة بالحيرة، وكان قد هرب أهلها قبل وصول خالد فهدمها وحصل منها على غنائم عظيمة، ثم بعث خالد بأنباء البشارة والفتح والخُمس إلى الصديق، فلما بلغت

---

(١) ابن كثير: نفسه، م٣ ج٦/٨٩٩، راجع أيضا: ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤٠ – ٢٤٢.

(٢) قرية من قرى الأنبار، والأنبار مدينة على الطريق غربي بغداد.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤١.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق م٣ ج٦/٩٠٠.

(٥) ابن كثير: المصدر السابق، م٣ ج٦/٩٠٠، ابن الأثير: نفسه، ج٢/٢٤٢.

راجع أيضاً: الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣/٥٣.

الرسالة الصديق أثنى على مبعوث خالد وأجازه، ثم زف الصديق أنباء نصر المسلمين إلى أهل المدينة قائلاً: "يامعشر قريش، إن أسدكم - يعني خالد بن الوليد - قد عدا على الأسد - يقصد الفرس - فغلبه على خراديله (قطع اللحم)، عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد"[١].

فتح الحيرة (ربيع الأول ١٢ هـ):

شعر أمير الحيرة الفارسي بالخطر بعد وصول أنباء أنتصارات المسلمين فى ألّيس، واقتراب خالد بن الوليد من بلاده، فتهيأ لحربه، وأمر إبنه بسد الفرات ليحول بين المسلمين وعبور النهر بالسفن، فسارع خالد على رأس مجموعة من المسلمين نحو هذا الإبن فقتله وفتح الماء، فسارت سفن المسلمين فى الفرات نحو الحيرة فلما سمع حاكم الحيرة بما حدث لإبنه، كما ترامى إليه أيضا موت كسرى أردشير فر هارباً تاركاً الحيرة ليواجه أهلها جيش خالد بن الوليد، وتحصن أهل الحيرة بحصونهم[٢]، فضرب المسلمون عليهم الحصار مدة وقاتلوهم، فاقتتحوا الدور وأكثروا القتل فيهم، فنادى القسيسون والرهبان: يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم، فنادى أهل القصور المسلمين قد قبلنا بدفع الجزية، فكف المسلمون عنهم وتصالحوا مع خالد على دفع مائتين وتسعين ألف درهم[٣]، وكتب لهم خالد عهد أمان، واشترط عليهم أن لا يبغوا المسلمين غائلة، وأن يكونوا عيوناً على أهل فارس، ليتم بذلك فتح الحيرة[٤].

ولما صالح خالد أهل الحيرة، سارع أهل المناطق المحيطة بها إلى طلب الصلح مقابل الجزية أيضاً، فقبل خالد، وعند ذلك كتب ابن الوليد إلى أهل فارس يدعوهم إلى واحدة من ثلاث "الإسلام أو الجزية أو القتال" إلا أنهم - رغم ظروفهم الداخلية المضطربة بعد وفاة كسرى أردشير - أجمعوا رأيهم على قتال المسلمين[٥].

فتح الأنبار وعين التمر:

واصل خالد بن الوليد بعد فتح الحيرة سيره شمالاً على رأس جيشه قاصداً مدينة الأنبار الواقعة على نهر الفرات، حيث تمكن من فتحها بعد قتال يسير، ثم صالح من حولها من القرى على الجزية[٦]، ولما فرغ خالد من الأنبار وما حولها،

---

[١] ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة، ابن كثير: المصدر السابق، م٣ ج٦/٩٠١.

[٢] كان في الحيرة أربعة حصون، وأمر خالد على كل حصن قائداً من قواده فجعل ضرار بن الأزور محاصراً للقصر الأبيض، وأمر ضرار بن الخطاب أن يحاصر قصر العديين، بينما جعل ضرار بن مقرن المزني محاصراً لقصر ابن مازن ووكل المثني بن حارثة بمحاصرة قصر ابن بقيلة.
راجع: ابن الأثير: المصدر السابق ج٢/٢٤٣.

[٣] وقيل مائة وتسعون ألفا. راجع ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤٤.

[٤] ابن الأثير: نفسه، ج٢/٢٤٤.

[٥] ابن الأثير: نفسه ج٢/٢٤٥، ابن كثير: المصدر السابق، م٣ج٦/٩٠٣.

[٦] ابن الأثير: نفسه، ج٢/٢٤٥-٢٤٦.

ولى عليها الزبرقان بن بدر، وتوجه هو بالجيش إلى عين التمر[1](غرب الفرات)، حيث عسكر الفرس بقيادة مهران بن بهرام، ومعهم بعض الموالين من العرب من تغلب وإياد وغيرهم وكان على قيادتهم "عقبة بن أبي عقة"، وطلب هذا القائد العربي من قائد الفرس أن يدعه يواجه قوات العرب المسلمين بدعوى "أن العرب أعلم بقتال العرب"، فصدَّق القائد الفارسي مقولته وقال له "دونكم وإن احتجتم إلينا أعنّاكم ..."[2].

وبالفعل توجه هذا القائد العربي الموالى للفرس لملاقاة خالد على الطريق إليها، وسارع خالد إلى مهاجمة جموع العرب وحمل على عقة بنفسه وهو يُنَظِّم صفوفه، فاحتضنه وأخذه أسيرا لينهزم جُند عقة دون قتال، فولوا مدبرين، لكن المسلمين أسروا أكثرهم، ووصلت أنباء هزيمة الجيش العربي إلى القائد الفارسي مهران، فسارع بالفرار بجنده، تاركاً حصن عين التمر، الذى حاول الفارون المنهزمون من جيش عقة التحصن به، فحاصرهم خالد حتى طلبوا الأمان فرفض، وأجبرهم على النزول من الحصن واقتادهم أسرى، وغنم المسلمون كل ما وجدوه بداخل الحصن[3].

وكان بداخل الحصن كنيسة وجد بها أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل فأخذهم خالد وقسمَّهم في أهل البلاء (الجهاد)، كان منهم "سيرين" أبو محمد بن سيرين، و"نصير" أبو موسى بن نصير[4] الذي اعتنق الإسلام، وصار صاحب الدور المعروف في استكمال الفتوحات الإسلامية ببلاد المغرب وفتح الأندلس.

فتح دومة الجندل (رمضان ١٢ هـ):

عندما وصل الوليد بن عقبة إلى أبي بكر بأخبار خالد فى عين التمر، قام الصديق بتوجيه مدداً إلى عياض بن غنم الذي كان محاصراً لدومة الجندل، فلما وصل إليه وجده وقد اجتمع عليه العرب حلفاء الفرس، حتى كثر جمعهم واستعصى أمرهم على عياض، الذي كتب إلى خالد بن الوليد طالباً منه المدد[5].

وكانت دومة الجندل آنذاك يحكمها ويقود جيوشها المتحالفة اثنين هما: أكيدر بن عبد الملك، والجودي بن ربيعة، وقد اختلف رأي القائدين فى تقييم الموقف العسكري، فقد رأى أكيدر المبادرة بالصلح مع خالد خوفاً منه حيث أنه لم

---

[1] وهى المكان الثاني لتجمع الفرس في أرض العراق بعد الأنبار. أما المكان الثالث لتجمع عسكرهم فكان فى الفراض.

[2] ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤٦.

[3] ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤٦، وتذكر المصادر أن خالدا أمر بإرسال الخمس وأخبار الفتح إلى أبى بكر مع الوليد بن عقبة، كما أمر بضرب عنق القائد عقة ومن معه راجع ابن كثير: البداية، م٣ج٦/٩٠٥، الذهبي: المصدر السابق، ج٣/٥٣.

[4] ابن كثير: البداية، م٣ج٦/٩٠٥، ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤٦.

[5] ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤٧، أبن كثير: المصدر السابق، م٣ج٦/٩٠٦.

يهزم مطلقاً، فخالفه الجودي وبقية الجيش الرأي، فترك أكيدر ساحة القتال وقفل راجعاً، فلما سمع خالد بهروبه، أرسل من قبض عليه، وأتى به، فأمر خالد بقتله لأنه خان العهد الذي ارتبط به مع الرسول ﷺ أثناء غزوة تبوك، حيث حقن النبي دمه وصالحه على الجزية وأخلى سبيله، ولكن أكيدر امتنع عن دفع الجزية بعد وفاة الرسول، وخرج على الدولة العربية وأظهر العداء لها[1].

وواصل خالد مسيره باتجاه دومة الجندل، فلما صار على مشارفها جعلها بينه وبين جيش عياض مما أضطرمعه الجودي بن ربيعة إلى تقسيم جيشه إلى فريقين خرج هو على رأس أحدهما لمقاتلة خالد، بينما وجه الآخر لقتال عياض بن غنم، فنجح خالد وعياض في هزيمة من تصدى لهما، وأخذ الجودي أسيراً، وفر المنهزمون إلى حصن المدينة للاحتماء به، فحاصرهم خالد حتى اقتحمه ومن معه، وقتل كل من كان فيه من المقاتلة، كما قتل الجودي، وسُبي من كان في الحصن من الذراري[2]، وبفتح دومة الجندل أصبح للمسلمين موقعاً استراتيجياً بحكم وقوعها على ملتقى الطرق الواصلة بين شبه الجزيرة العربية من الجنوب، والشام من الشمال الغربي، والعراق من الشمال الشرقي.

أما الفرس وعرب العراق الساخطون على المسلمين من جراء الهزائم المتكررة التي أوقعها المسلمون بهم وآخرها عين التمر، فقد قرروا تجهيز جيوشهم لمواجهة المسلمين ومحاولة الثأر لهزائمهم السابقة، انتهازاً لفرصة غياب خالد بدومة الجندل، وبالفعل أعدوا لذلك جيشين بقيادة زَرْمهر، ورُوزبه وسارا نحو الأنبار للاستيلاء عليها من واليها المسلم "الزبرقان" ، الذى كتب إلى القعقاع بن عمرو - نائب خالد على الحيرة - يطلب مساعدته لمواجهة هذا العدو[3].

وأحسن القعقاع التصرف حيث جَرَّد فرقتين وَجَّه إحداهما إلى منطقة *الحُصَيْد* والثانية إلى *الخنافس* لإعاقة تقدم الفرس، حتى يصل خالد الذي أسرع إلى العراق للمشاركة في التصدي للفرس، وبمجرد وصوله وجه القعقاع لتعضيد فرقة الحُصَيد، ولما علم الفرس بتحرك القعقاع جمعوا الجيشين حتى تتوحد قواهما ضد الجيش الإسلامي، وانتهى الصدام بينهما بهزيمة الفرس هزيمة ساحقة وقتل منهم الكثير وعلى رأسهم القائدين زَرْمهر وروزبه وغنم المسلمون منهم غنائم عظيمة[4].

أما من فر من الأعاجم فقد اتجه إلى منطقة *المَصيِّخ*، فلما وصلت أنباء انتصارات الحُصَيد إلى خالد سارع بجيشه إلى المَصيِّخ (على الطريق إلى حوران)، ونجح خالد وجموعه في مهاجمة الأعداء من ثلاث جهات وأوقعوا بهم

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٢٧.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤٧ ابن كثير: المصدر السابق، م٣ج٦/٩٠٧.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤٧ - ٢٤٨، ابن كثير:نفسه م٣ج٦/٩٠٧.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٤٨.

الهزيمة، وبعد الفراغ من وقعة المَصيَّخ، علم بتجمع بعض القبائل لمحاربته في الثني والزّميل بالجزيرة شرقي الرصافة، فباغتهم خالد مثلما فعل في المَصيَّخ حيث هاجم بقواته من ثلاث جهات، "وجردوا فيهم السيوف، فلم يفلت منهم مخبر، وغنم وسبى"[1].

موقعة الفراض "ذي القعدة ١٢ هـ":

تقع الفراض عند ملتقى تخوم الشام والعراق والجزيرة الفراتية، وقد توجه إليها خالد لتأمين قواته في حالة توجهه لأرض فارس، وعندما وصلت أخبار خالد إلى الروم وتواجده قرب حدودهم، قرروا الاتصال بالفرس للتعاون معا - رغم العداوة التاريخية بينهما - لتكوين جبهة مضادة للقوات الإسلامية باعتبارها عدواً مشتركاً لهما، كما اتصلوا بالقبائل العربية المتحالفة من تغلب وإياد، واجتمع هؤلاء جميعاً لملاقاة المسلمين، فلما وصلوا للفرات قالوا للمسلمين "إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم"، فقال خالد: أعبروا أنتم، فعبروا إليهم[2]، لتستعر الحرب بينهما وتنتهي بهزيمة الحلف الرومي الفارسي العربي، وأمر خالد جموعه بتعقبهم فأذرعوا فيهم السيف، حتى وصل عدد قتلى الأعداء حوالي مائة ألف كما تشير المصادر[3].

وأقام خالد بالفراض عشرة أيام لتأمين التواجد الإسلامي في تلك المناطق، ثم رجع إلى الحيرة، وخرج منها إلى مكة لأداء فريضة الحج[4] ليختتم بذلك هذا العام الذي شهد دخول العراق في الإسلام.

ولعل أهمية موقعة الفراض ترجع إلى أنها كشفت للمسلمين نوايا الدولة البيزنطية تجاههم، ولذلك لم يعد بإمكان الدولة العربية الإسلامية أن تَغُض الطرف عنها، فقرروا استكمال الجهاد ضدهم في بلاد الشام، ولذا صدرت أوامر الصديق إلى المثنى بن حارثة بخلافة خالد على العراق واستكمال دوره بها، بينما أمر خالد بن الوليد باستكمال المسير نحو بلاد الشام لمواجهة الروم مع القوى الإسلامية التي سيوجهها أي الصديقإلى هناك.

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٥٠، ابن كثير: نفسه، م٣ج٦/٩٠٨.

(٢) يشير ابن الأثير إلى أن بعض عقلاء الجيش الرومي الفارسي عندما رأوا أن خالدا جعلهم يعبرون له ولم يفسح لهم الطريق بقوله "اعبروا أسفل منا، أدركوا أن هذا الرجل يقاتل على دين وذوه مهارة حربية فائقة بل وتنبئوا بالهزيمة التي ستقع بهم بقولهم "والله لينصرن ولنخذلن" ورغم ذلك لم ينتفع الجيش برأيهم وأصروا على القتال فكانت الهزيمة.

راجع: ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٥٠.

(٣) ابن الأثير: نفسه، ج٢/٢٥٠؛ ابن كثير: المصدر السابق، م٣ج٦/٩٠٩.

(٤) ابن الأثير: نفسه، ج٢/٢٥٠-٢٥١، ابن كثير: نفسه، ج٢/٩٠٩.

وراجع ايضاً الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣/٥٣.

الفتوحات في بلاد الشام في عهد أبي بكر الصديق:

يختلف المؤرخون في تحديد موعد بدء الهجمات الإسلامية على بلاد الشام بغرض فتحها، فالبعض يذكر أن اتجاه المسلمين إلى الشام كان بمثابة امتداد لحروب الردة، وذلك حين وجه الخليفة الراشد أبو بكر الصديق بعد عودته من الحج عام ١٢هـ، وفي مستهل عام ١٣هـ خالد بن سعيد بن العاص على رأس جيش للقضاء على المرتدين فى الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية، ويذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين أن "أبو بكر" أرسل الجيوش إلى الشام في ذات الوقت الذي سيَّر فيه الجيوش إلى العراق، وأن الحرب بدأت فى الجبهتين في آن واحد[١].

ويبدو مما سبق أن القصد من وراء إرسال الجيوش إلى الشام لم يكن الدخول فى حرب حقيقية ضد الروم وحلفائهم من متنصرة عرب الشام، بحيث يفتح أبو بكر جبهتين على المسلمين فى وقت واحد، خاصة ونحن نعلم أن قوات الفرس والروم كانت تفوق المسلمين عدداً وعُدَّة بكثير، وهذا يتنافى مع ما عُرف عن الخليفة الراشد الأول من حكمة وأناة، ولعله أراد بعقد لواء خالد بن سعيد بن العاص وتسييره لجنوب بلاد الشام هو مجرد إجراء بعض المناوشات المحدودة عند الحدود، وإلقاء الرهبة فى نفوس العرب المتنصرة المحالفين للروم، حتى يشغلهم عن التفكير في مهاجمة المدينة المنورة استغلالاً لوجود معظم جيشها على الجبهة العراقية، ولعل ذلك يتضح فى مقولة أبي بكر لخالد بن سعيد عندما سيَّره إلى هناك "أقدم ولا تقتحمن (واستنصر الله)[٢]. وأن يكون ردءاً للمسلمين في تيماء لايفارقها إلا بأمره ولا يقاتل إلا من قاتله[٣].

ولكن أخبار بعث خالد بن سعيد وصلت إلى الروم الذين جهزوا جيشاً من متنصرة عرب الشام من قبائل بهراء وسليح وغسان وتنوخ وكلب ولخم وجذام فسار إليهم خالد بن سعيد، فتفرقوا عنه، فنزل منازلهم، ودخل في الإسلام الكثير منهم[٤]، وبعث خالد إلى الصديق يُعلمه بما وقع فأمره أبو بكر كما سبق القول بالتقدم وعدم الاقتحام حتى لا يفاجئه العدو من خلفه، فسار بالجيش من تيماء، فلقيته قوة من الروم بقيادة القائد البيزنطي باهان فقاتله خالد بن سعيد وهزمه وقتل من جنده، وأرسل ثانية إلى أبي بكر يستمده، فأرسل إليه الصديق جيشاً بقيادة عكرمة بن أبي جهل فيما عُرف بجيش البدال[٥] والذي وصل إلى تيماء، بينما كان خالد بن سعيد قد واصل زحفه من تيماء إلى جنوبي البحر الميت لقتال الروم، فاستدرجه

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٥٢، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣/٢٥٤، ابن كثير: المصدر السابق ج٤/٦.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٢/٢٥٢.

(٣) ابن الأثير: ج٢/٢٥٢؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج٤/٦.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق، ج٤/٧.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٢/٢٥٢-٢٥٣.

باهان، إلى أن وصل بقواته إلى مرج الصفر "إلى الشرق من بحيرة طبرية"[1] وعندئذ طوقته قوات باهان، وقطعت على المسلمين خط الرجعة فاشتبك معهم خالد، ولكنه انهزم وقتل في المعركة أحد أبنائه على يد باهان[2]، مما أجبره على التراجع إلى ذي المروة قرب المدينة، وتمكن عكرمة بن أبي جهل من تغطية انسحاب الجيش الإسلامي إلى حدود الحجاز، وظل مقيماً هناك درءاً "لمن نفر إليه" من المسلمين[3]، يمنع من يطاردهم من الوصول إليهم.

كان لهذه الأحداث أثر بالتأكيد في نفسية الخليفة الراشد الأول بعد أن أظهر الروم عداءهم الشديد للمسلمين منذ اشتباكهم معهم في موقعة الفراض، ولهذا كان قراره بضرورة الزحف لفتح الشام، أسوة بما تم من فتوحات في أراضي العراق وتحقيقا لعالمية الإسلام، فأقدم على عقد أربعة ألوية لهذا الهدف في مستهل عام ١٣هـ ووضع عليها أربعة من كبار القواد المسلمين هم: شرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو عبيدة بن الجراح[4]، وعيّن لكل أمير منهم إقليماً من بلاد الشام، فأمر عمرو بن العاص وأبو عبيدة بأن يسلكا طريق أيلة، فيتجه عمرو إلى فلسطين، بينما يتوجه أبو عبيدة إلى حمص، كذلك أمر يزيد وشرحبيل بالولوج إلى الشام عن طريق تبوك، على أن يتوجه شرحبيل إلى الأردن، ويتوجه يزيد إلى دمشق[5].

فسارت هذه الجيوش من الطرق التي عينها لهم أبو بكر يتبع بعضهم بعضاً، وجعل القيادة العليا لتلك الجيوش لأبي عبيدة بن الجراح[6]. ووصلت أنباء التحركات الإسلامية إلى مسامع هرقل قيصر الروم، الذي كان مقيما آنذاك بحمص متخذاً إياها قاعدة للعمليات العسكرية، وجهز خطته العسكرية على أساس أن يقاتل الجيوش الإسلامية الأربعة كل على حدة فيمكنه عندئذ هزيمتهم متفرقين اعتماداً على قدراته البشرية والعسكرية التي تتفوق على جيوش المسلمين[7].

---

(1) سالم: المرجع السابق، ص٢٠١.

(2) ابن الأثير: نفسه، ج٢/٢٥٤.

(3) ابن الأثير: نفسه، ج٢/٢٥٤، ابن كثير: نفسه ج٧/٤ - ٨.

(4) ابن كثير: نفسه، ج٧/٤ - ٨، الذهبي: المصدر السابق، ج٣/٥٤.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٥٥؛ ابن كثير: نفسه، ج٦/٧.

(6) ابن كثير: نفسه، ج٩/٤.

(7) ابن كثير: نفسه، ج٩/٤، وتذكر المصادر أن أول من اصطدم بالروم قبل اتحاد الجيوش الإسلامية الأربعة كان يزيد بن أبي سفيان الذي اشتبك مع سرجيوس حاكم قيصرية في قرية من قرى غزة يقال لها دابن، وانتهت بهزيمة الروم وانسحابهم إلى غزة، فقام يزيد بمطاردتهم، وسمع أن هناك تجمعًا لحشود بيزنطية أخرى في وادي عربة جنوبي البحر الميت فسير إليهم أحد قواده ويدعى أبو أمامة فتمكن من هزيمتهم وقتل أحد قوادهم. راجع: ابن كثير: نفسه، ج٧/٤، سالم: المرجع السابق، ص٢٠٢.

ووصلت إلى مسامع القادة المسلمين أنباء الاستعدادات البيزنطية الكثيفة التي أعدها لهم هرقل، فتراسلوا فيما بينهم، فنصحهم عمرو بن العاص بأن يوحدوا جيوشهم، فاستحسن القادة الرأي، وكتبوا إلى الخليفة يطلبون رأيه فيما اجتمعوا عليه، وسألوه المدد، فأجابهم بمثل جواب عمرو بن العاص قائلاً "إن مثلكم لايؤتى من قلة ولكن من تلقاء الذنوب، فاحترسوا منها، وليصل كل رجل منكم بأصحابه"[1]. كما سارع الصديق بالكتابة إلى خالد بن الوليد آمراً إياه بمغادرة العراق بنصف جيشه قاصداً الشام، ويترك باقي الجيش تحت قيادة المثنى بن حارثة. فنفذ خالد الأمر الخلافي، وقطع الطريق مسرعاً إلى بلاد الشام، وأخضع في طريقه الكثير من القبائل التي لم تكن قد دخلت في الإسلام بعد مثل تدمر[2]، وبعض فلول من عرب كِندة وتَغْلب وكلب وقُضاعة، ثم مرج راهط حيث أغار على الغساسنة هناك، ومنها توجه إلى بُصرى التي تجمع فيها القادة المسلمون بجيوشهم واستولوا عليها صلحاً[3]، ثم توجه جند المسلمين مجتمعين إلى أجنادين الواقعة بين الرملة وبيت جبرين بأرض فلسطين"[4]، حيث اشتبكوا مع جيش الروم بقيادة "تيودور" أخو الإمبراطور هرقل، وقد انتهى الاشتباك بهزيمة الروم وقتل الكثير منهم فى جمادى الأولى ١٣هـ/يوليو ٦٣٤م، وفر من بقى منهم على قيد الحياة وعلى رأسهم قائد الروم تيودور متجهين إلى حمص حيث الإمبراطور هرقل، الذي دب الرعب فى قلبه، فارتحل منها ناقلاً مقر قيادته إلى أنطاكية فى شمال الشام[5]. ونتج عن انتصار المسلمين فى أجنادين انتشارهم في جنوب فلسطين، وسقوط عدد من مدنها فى أيديهم[6].

وفاة الخليفة الراشد أبو بكر الصديق "جمادى الآخرة ١٣هـ":

وصل نبأ انتصار المسلمين في أجنادين إلى الخليفة أبي بكر وهو على فراش الموت، حيث أصيب بالحمى وظل خمسةَ عشر يوماً لا يخرج للصلاة الجامعة، وأناب عنه عمر بن الخطاب للصلاة بالناس، ويدخل الناس عليه يعودونه وهو يثقل كل يوم[7].

---

[1] ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٥٥، ابن كثير: نفسه، ج٧/٩.

[2] الذهبي: تاريخ الإسلام/ج٣/٥٤، ابن الأثير: نفسه، ج٢/٢٥٦.

[3] الذهبي: تاريخ الأسلام، ج٣/٥٤، ابن كثير: نفسه، ج٤/١٠، ابن الأثير نفسه، ج٢/٢٥٨.

[4] الذهبي: نفسه، ج٣/٥٤ - ٥٥.

[5] ابن كثير: نفسه، ج٤/٢٠ - ٢٢؛ وراجع أيضاً: ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٥٨ - ٢٦٠.

[6] منها دمشق وحمص وملطية وغيرها. راجع: ابن كثير: نفسه، ج٤/٢١، وانظر ايضاً سالم: المرجع السابق، ص ٢٠٤.

[7] ابن سعد: الطبقات، م٣/١٠٠ حيث يذكر رواية إبنة الصديق السيدة/ عائشة وأخيها عبد الرحمن أن سبب مرض الصديق أنه اغتسل يوم الأثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة – وكان يوماً بارداً. فاصيب بالحمى. راجع ايضا: ابن الأثير: الكامل ج٢/٢٦٧.

وهناك رواية أخرى ساقها صاحب الطبقات أيضا عن سبب موت أبو بكر حيث يرجع السبب إلى تسمم أبي بكر فيقول: أن أبا بكر والحارث بن كلدة كانا يأكلان خزيرة[1]، أهديت إلى أبي بكر، فقال الحارث لأبي بكر: ارفع يدك يا خليفة رسول الله، والله إن فيها لسُم سنة وأنا وأنت نموت في يوم واحد، قال: فرفع يده، فلم يزالا عليلين حتى ماتا في يوم واحد عند انقضاء السنة[2].

وتروي المصادر على اختلافها أن أبا بكر كان في خلال فترة مرضه هذه دائم الانشغال والتفكير بأمور المسلمين، دائم الحساب لنفسه، خاصة وأنه صار لديه شعور قوي بأن أجله قد حان، وأنه عن قريب ملاقي ربه، ولذا قرر أن يستخلف من يقوم بالأمر بعده، حتى يَجنِّب المسلمين شر الفتنة والاختلاف، فاستقر رأيه على استخلاف عمر بن الخطاب، وبدأ يستطلع رأي كبار الصحابة الذين كانوا يختلفون إليه لزيارته في مرضه، فلما تيقن من موافقتهم لرأيه أوصى بتوليه[3]، فاستدعى عثمان بن عفان رضي الله عنه وقال له: اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم".

هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها.. إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا..فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بَدَّل فلكل امرئ ما اكتسب من الإثم، والخير أردت ولا أعلم الغيب..."[4] ثم أمره فخرج بالكتاب مختوماً ومعه عمر بن الخطاب وأسيد بن سعيد القرظي، فقال عثمان للناس: أتبايعون لمن في هذا الكتاب، فقالوا: نعم، أي أقروا جميعاً بذلك، ورضوا به وبايعوا، وعقب أبو بكر على تلك الموافقة بقوله: اللهم إني لم أرد إلا صلاحهم...[5].

كذلك نراه يبرأ ذمته قبل وفاته، فيرد إلى بيت المال ما كان قد أخذه منذ قرر له كبار الصحابة راتباً يعيش منه مقابل تفرغه لأعباء الخلافة[6]. كذلك استرد ما سبق أن وهبه لابنته عائشة حتى يكون قسمة بين ورثته جميعاً[7]، حتى يلقى ربه

---

[1] الخزيرة: لحم يقطع صغاراً، ويُصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق، وقيل هي حساء من دقيق ودسم.
راجع: الطبقات، مجلد ٩٥/٣، هـ ٥٢.
[2] ابن سعد: الطبقات، م٣ ص٩٥.
[3] ابن سعد: نفسه، مجلد٣، ص٩٦.
[4] ابن سعد: الطبقات، مجلد ٩٧/٣، الذهبي: المصدر السابق، ج٧١/٣ – ٧٢.
[5] ابن سعد: نفسه، مجلد٩٨/٣.
[6] ابن سعد: نفسه، ج٨٨/٣. وقد علّق عمر على ذلك قائلاً: يرحم الله أبا بكر لقد أحب أن لا يدع لأحد بعده مقالاً. لقد أتعب من بعده، راجع مجلد ٨٩/٣ ويشير ابن سعد إلى أبا بكر قد أوصى أولاده بالنظر في ماله، فإذا وجدوا فيه زيادة عما كان عليه يوم تولى الخلافة، فيردوه إلى الخليفة عمر، راجع مجلد ٨٧/٣.
[7] ابن سعد: الطبقات، مجلد٩٠/٣ – ٩٢.

وقد ألقى عن نفسه ما كان يخشى أن يؤاخذه الله به، حيث تؤكد المصادر التاريخية أن الصديق لم يخلف درهماً ولا ديناراً، حتى أن عمر بن الخطاب دعا الأمناء ودخل بهم بيت مال أبي بكر ومعه عبد الرحمن بن عوف عثمان بن عفان وغيرهما ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه ديناراً ولا درهماً، ووجدوا خيشة للمال فنفضت فوجدوا منها درهماً، فترحموا على أبي بكر[1].

وكانت وفاته[2] يوم الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخر في السنة الثالثة عشرة للهجرة، وهو في الثالثة والستين من عمره، توفي مساءً بعد غروب الشمس، ودفن ليلاً، وتولت زوجته أسماء بنت عُمَيس غُسله وتكفينه وعاونها في ذلك ابنه عبد الرحمن تطبيقاً لوصيته، وصلى عليه عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله، وحُمل على السرير الذي حُمل عليه الرسول ودفن إلى جواره صلى الله عليه وسلم وجُعل رأسه عند كتفي رسول الله، وألصق اللحد بقبر رسول الله[3].

---

(1) ابن سعد: الطبقات، مجلد٣/١١٤.

(2) تشير المصادر إلى ان السيدة عائشة جاءت إلى أبي بكر وهو يجود بنفسه فقالت: يا أبتاه هذا كما قال حاتم (الطائي): لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ٠٠إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر فرد عليها أبو بكر قائلاً: يا بنية ليس كذلك ولكن ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وفي هذا دلالة واضحة على إيمان أبي بكر وتقواه، راجع: ابن سعد: الطبقات، م٣/٩٢ ـ ٩٣؛ الذهبي: المصدر السابق، ج٣/٧٣.

(3) ابن سعد: الطبقات، مجلد ٣/٩٩ ـ ١٠١ وما بعدها؛ ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٦٧.

خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
(١٣ - ٢٣هـ/٦٣٤ - ٦٤٤م)

نسبه ونشأته وإسلامه:

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العُزي بن رياح بن عبد الله وينتهي نسبه إلى عدي بن كعب بن لؤي وهكذا يجتمع عمر مع الرسول ﷺ في النسب القرشي في "كعب بن لؤي"، وقد ولد عمر بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، أو كما يذكر ابن الجوزي في رواية عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ولدت قبل الفجار الأعظم الآخِر بأربع سنين[١]، وأم عمر هي حنتمه بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم[٢]، وقد كناه النبي بعد أن اعتنق الإسلام بأبي حفص: "أي أبا الأسد"، ولقب بالفاروق لأنه فرّق بين الحق والباطل[٣].

وبنو عدي الذي ينتسب إليهم عمر، لم يكن لهم حظاً موفوراًمن الثراء والقوة مثل غيرهم من قريش، ولكنهم عرفوا بالبلاغة والحكمة، مما جعل القرشيون يعهدون إلى أشرافهم بمنصب السفارة والحكم في المنازعات[٤]، فكانوا يتحدثون نيابة عن قريش في أي خلاف ينشأ مع القبائل الأخرى ويمكن جبسمه بالتفاوض ولعل من أشهر حكماء بني عدي قبل الإسلام زيد بن عمرو بن نفيل الذي اعتزل عبادة الأوثان قبل أن ينزل الوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام، وَعَبَدَ الله متحنفاً على دين إبراهيم عليه السلام، ومما يؤثر عن زيد نهيه عن قتل الموءودة، فيذكر ابن سعد في طبقاته أنه كان يحيي الموءودة ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: مهلاً لاتقتلها أنا أكفيك مؤونتها، فيأخدها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها[٥]، ولذلك أشاد النبي به وأثنى عليه بقوله "يبعث يوم القيامة أمة وحده... غفر الله لزيد ورحمه، فإنه مات على دين إبراهيم"[٦]. أما الخطّاب والد عمر فكان ممن تولوا منصب السفارة لكونه من زعماء بني عدي، وعُرف عنه حسن القيادة والحكمة والدراية العميقة بأنساب العرب[٧]، وقد نشأ عمر في كنف أبيه الخطاب نشأة تتسم بالخشونة، لأن والده كان

---

(١) ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب، ص١٩، راجع أيضاً: محمد بن سعد: الطبقات، مجلد٣/١٨٣ - ١٩٠، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ١٠٨، الذهبي :تاريخ الإسلام، ج٣/١٤٣.

(٢) ابن الجوزي، نفسه، ص١٩.

(٣) ابن الجوزي: نفسه، ص٢٠، وقد أسلم ابن الخطاب وله من العمر ست وعشرون سنة راجع: ابن الجوزي، نفسه، ص١٩، الذهبي: نفسه، ج٣/١٤٣، ابن سعد: نفسه، ج٣/١٩١.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٠٩.

(٥) ابن سعد: الطبقات، مجلد٣، ص٢٣٦-٢٣٩.

(٦) ابن سعد: نفسه، مجلد٣، ص٢٣٩.

(٧) ابن الجوزي: نفسه، ص٢١، راجع ايضاً: ابن سعد: نفسه، مجلد ٣/١٨٥.

يكلفه بالأعمال الثقال[1]، وهكذا ورث عن أبيه الجَلَد والمثابرة وتحمل المسئولية، ومن ضمن ما ورث الاهتمام بالأنساب، علاوة على تذوق الشعر وروايته[2]. وكان ابن الخطاب فوق ذلك من القلائل الذين يعرفون القراءة والكتابة في قريش وقد مكنته هذه الثقافة كما يروي المسعودي من الإفادة من علوم عصره، وبخاصة أثناء رحلاته إلى الشام واليمن وغيرهما مشتغلاً بالتجارة، ولقي خلال هذه الأسفار الكثير من ملوك العرب والعجم، مما وَسَّع من دائرة معارفه، ونمى مواهبه، فكان مهيباً حازماً من ذوي الشدة والبأس قوي الحجة، صائب الرأي، ولذا اختارته قريش للسفارة محل أبيه، فإذا ما وقعت حرب بينهم وبين غيرهم بعثوه رسولاً للتفاوض، وإذا نافر منافر أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافراً أو مفاخراً[3].

أسلم عمر بن الخطاب في ذي الحجة من السنة السادسة للبعثة النبوية الشريفة وهو ابن ست وعشرين سنة بعد نيف وأربعين من الرجال وإحدى عشر من النساء الذين أسلموا قبله[4]. ولم يخف عمر إسلامه، بل عمد بوسائل شتى إلى إعلان قريش بدخوله في الإسلام[5]. وكان دخوله الإسلام فتحاً حيث أظهر الله بإسلامه الإسلام فيقول عبد الله بن مسعود: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا[6].

وقد تجلت شجاعة عمر ﷺ في رغبته الصادقة بنصرة الإسلام وإظهار أمره بمكة، حيث توجه للنبي ﷺ متسائلاً: يارسول الله ألسنا على الحق؟ قال: بلي، قلت: ففيم الإخفاء. فخرجنا "يتحدث عمر" صفين أنا في أحدهما وحمزة بن عبد المطلب وكان قد سبقني للإسلام بثلاثة أيام في الآخر حتى دخلنا المسجد، فنظرت قريش إليّ وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها وقالوا: قد انتصف القوم اليوم منا ويذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن الله خلّد هذا الصنيع في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[7].

---

(1) ابن سعد: نفسه، مجلد ١٨٥/٣ ـ ١٨٦ حيث يصف عمر والده بأنه كان يكلفه رعي الإبل ولا يقبل منه تقصيراً في أداء ما يكلفه به من مهام بدليل وصفه بأنه كان فظاً غليظاً، راجع أيضاً: ابن الجوزي: نفسه، ص٢١١.

(2) ابن الجوزي: نفسه، ص٢١٢.

(3) المسعودي: مروج الذهب، ج٣٠٥/٢، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٠٩.

(4) ابن الجوزي: نفسه، ص٢٨، ابن سعد: نفسه، مجلد ١٨٩/٣.

(5) راجع عن قصة إسلام عمر: ابن سعد: الطبقات، مجلد ١٨٦/٣ وما بعدها، ابن الجوزي: سيرة عمر بن الخطاب، ٢٣ وما بعدها.

(6) ابن سعد: نفسه، ج١٩٠/٣، ابن الجوزي: نفسه، ص٢٩ ـ ٣٠، السيوطي: المصدر السابق، ص١١٥.

(7) سورة الأنفال، الآية ٦٤.

وهو أيضاً من المهاجرين الأوائل، وقد روى عن هجرته أنه الوحيد من بين طلائع المهاجرين الذي لم يخرج متخفياً، حيث شاع بين بعض المؤرخين رواية تنسب لعلي بن أبى طالب عن الطريقة التي هاجر بها الفاروق من مكة إلى يثرب مفادها أن عمر لم يهاجر خفية، بل أنه "لما هَمّ بالهجرة تَقلّد سيفه، وانتقى في يده أسهماً، وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها، فطاف سبعاً، ثم صلى ركعتين عند المقام، ثم أتى حلقهم واحدة واحدة، فقال: شاهت "قبحت" الوجوه، من أراد أن تثكله أمه، وييتم ولده، وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه منهم أحد"[1].

بينما تواترت عدة روايات أخرى تناولت هجرة ابن الخطاب رضي الله عنه دون أن تذكر مطلقاً أنه جاهر بالهجرة على هذا النحو المستفز، بل ذكروا أن النبي عندما أذن لأتباعه بالهجرة إلى المدينة جعل المسلمون يخرجون أرسالاً (جماعة وراء الأخرى) مشاةً وركباناً، وأهل القوة منهم يركبون ويعتقبون، وأما من لم يجد ظهراً فيمشون وذلك دون أن يستثيروا قريشاً أو يتحرشوا بها[2]، ويؤكد ما ذهبنا إليه من أن عمر بن الخطاب لم يخرج مهاجراً وقد استفز قريش، الرواية التي أوردها ابن سعد على لسان عمر بن الخطاب نفسه حيث يقول عن هجرته: "فكنت قد اتعدت أنا وعَيّاش بن أبي ربيع وهشام بن العاص بن وائل ــ التناضيب من إضاءة بني غفار[3] وكنا إنما نخرج سراً فقلنا: أيكم ما تخلف عن الموعد فلينطلق مَنْ أصبح عند الإضاءة، قال عمر: فخرجت أنا وعياش بن أبي ربيعة، واحتبس هشام بن العاص ففُتن فيمن فُتن، وقدمت أنا وعياش، فلما كنا بالعقيق عدلنا إلى العُصبة حتى أتينا قباء[4].

وبدأ مع الهجرة إلى المدينة عهد جديد وسياسة جديدة للإسلام والمسلمين حيث صحب عمر بن الخطاب الرسول ﷺ، وقد حرص على بذل أقصى ما بوسعه لنصرة الدعوة والدولة الإسلامية، فتمتع بمكانة مميزة عند الرسول ﷺ، وقد زادت هذه المكانة كثيراً بزواج النبي من ابنة عمر السيدة حفصة ﵂، وقد ظهرت مكانة عمر ودوره في الذود عن الإسلام في أنه شهد جميع الغزوات مع رسول الله، وأبلى فيها أحسن البلاء، لاسيما يومي أحد وحنين[5]، لذلك كان عمر من أصحاب الرأي

---

[1] السيوطي: المصدر السابق، ص ١١٥ ــ ١١٦.

[2] ابن الجوزي: نفسه، ٣١ ــ ٣٢، ابن سعد: الطبقات، مجلد ١٩٢/٣.

[3] التناضب- بكسر الضاد، مكان فى طريق المدينة المنورة ملئ بالشجر وإضاءة بني غفار (أي غديرهم) على بعد عشرة أميال من مكة.

[4] ابن سعد: الطبقات، مجلد ١٩٢/٣ وهـ ٧١٥، أما عياش فقد لحقه أبو جهل والحارث ولدي هشام بن المغيرة ونزلا معنا بقباء وتحاورا مع عياش الذي عاد معهما الى مكة بعد أن ذكراه بأن أمه قد أقسمت الا يظلها ظل ولا يمس رأسها دهن حتى تراه فعاد معها بحجة أن له بمكة مال عله يعود به ويبر قسم أمه، ولكنهما في الطريق أو ثقاه ودخلا به مكة مقيداً فحبسوه.

[5] ابن سعد: نفسه، مجلد ١٩٣/٣.

الذين اعتمد رسول الله على مشورتهم في أمور الدعوة والدولة الإسلامية، كما أيده الوحي في كثير من المواقف، وأجاب على بعض تساؤلاته[1]، ومما يعزز أيضاً مكانة عمر قول الرسول ﷺ"لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب"[2].

كذلك كان لعمر بن الخطاب دوراً بارزاً في إنهاء الأزمة التي أعقبت وفاة الرسول ﷺ، حيث كان له أكبر الأثر في إقدام الناس على مبايعة أبي بكر البيعةالخاصة في سقيفة بني ساعدة، وكذلك في اليوم التالى بمسجد الرسول حيث أثنى على صاحبه أبي بكر وحدث الناس على القيام بمبايعته.فاستجابوا، وقد أدى أبو بكر لعمرحقه فتمتع بمكانة خاصة لديه، بل كان بمثابة وزيراً له، يستشيره في جلائل الأمور، فعهد إليه بالقضاء بين الناس في المدينة المنورة، دليلاً آخر على مكانة عمر في خلافة أبي بكر حرص الأخير على أن يظل عمر إلى جواره للأخذ برأيه في أمور الدولة، فتجده لذلك يستأذن أسامة بن زيد في أن يجعل عمر معه فى المدينة حيث كان من أفراد بعث أسامة عندما أمَّره الرسول على الجيش للخروج إلى الشام، فأذن أسامة للصديق بذلك وأبقى عمر إلى جواره، كذلك يرجع الفضل لعمر بن الخطاب في إشارته لأبي بكر بالإقدام على جمع القرآن كما أسلفنا القول.

<u>مبايعته وتوليه الخلافة:</u>

ظلت العلاقة بين الشيخين "أبو بكر وعمر" وطيدة، والثقة القوية بينهما قائمة إلى آخر عهد أبي بكر بالخلافة والدنيا، فعندما شعر الصديق يدنو أجله خشى أن يترك الناس بلا خليفة، حتى لا تستعر الفتن بالدولة، فأراد أن يعهد بالخلافة من بعده لواحد من كبار الصحابة، فجمع الناس إليه وطلب منهم أن ينتخبوا غيره ليقوم بأمر الخلافة قائلاً: "أنه قد نزل بي ما قد ترون ولا أظنني إلا ميت لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمِّروا عليكم من أحببتم فإنكم أن أمرتم فى حياة مني كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي فقاموا في ذلك وخلوا عليه فلم تستقم لهم، فرجعوا إليه فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فلعلكم تختلفون قالوا: لا، قال: فعليكم عهد الله على الرضى، قالوا: نعم، قال: فأمهلوني حتى انظر لله ولدينه ولعباده، فأرسل أبو بكر إلى عثمان بن عفان وأمره أن يكتب عهداً بالخلافة إلى عمر ما نصه "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو

---

[1] منها على سبيل المثال: أمنيته بتحريم الخمر بعد أن استنكف تعاطيها ودعوته إلى الله أن يبين أمر الخمر للناس، فنزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة المائدة، الآية ٩٠، وكذلك رأيه في أسرى بدر والتصرف معهم، وأيضاً طلبه من الرسول أن يأمر نساءه بالحجاب فنزلت أثر ذلك آية الحجاب فقال تعالى في سورة الأحزاب آية ٥٩ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾، راجع ابن الجوزي: نفسه، ص٣٢ ومابعدها.

[2] ابن الجوزي:نفسه ، ص٤٠ ، ٥٤ ومابعدها.

بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا، خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها.. إني استخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا.. فإن عدل فذلك ظني به..."[1].

فكان ذلك العهد بمثابة ترشيح لعمر، ونصحاً للمسلمين، ويقول طه حسين تأكيداً لهذا: أنه كان من حق المسلمين وأصحاب الرأي والعقد منهم أن يقبلوا هذا الترشيح أو يرفضوه، ولكنهم قبلوه جميعاً نظراً لمحبتهم لأبي بكر وشدة الثقة فيه والاطمئنان إلى نصحه وحسن اختياره، فلم يخالف عهده أحداً، حيث أقبلوا عقب وفاة أبي بكر إلى مبايعة عمر بن الخطاب بالخلافة في مسجد الرسول ﷺ[2]. وهكذا استن أبو بكر للجماعة الإسلامية سُنّة حميدة في طريقة اختيار الخليفة، بأن رشح واحداً من الأمة لا يرتبط به بصلة قرابة، وعلّق هذا الاختيار على رضا وموافقة جماعة المسلمين، وقد أصابت هذه الطريقة ارتياحاً لدى المسلمين بدليل أنهم طالبوا عمر بن الخطاب عندما طُعن وأدركوا أنه متوفي لامحالة، أن يعهد بالأمر من بعده إلى أحد الصحابة أسوة بأبي بكر.

على أية حال بغد مبايعة عمر.. اعتلى المنبر وخطب في الجماعة الإسلامية خطبة جامعة حرص فيها على إزالة مخاوف المسلمين من شدته، وأكد لهم أنها في سبيل الحق، كما أوضح التزامه بالعدل في حكمه، وتعهد بالاستماع إلى مشورة المسلمين، ومباشرة أمورهم بنفسه، ومراقبة عماله وولاته بشدة بقوله "إنما مَثَلُ العرب مثل جمل آنف اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق"[3].

ويتميز عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعدة مميزات أو أعمال مهمة منها مايلي:

أولاً: استكمال فتح بلاد العراق وفارس:

سبقت الإشارة إلى أن المثني بن حارثة الشيباني عندما احتاج إلى المدد لمحاربة الفرس، ذهب بنفسه إلى المدينة يُعجل به، ولكنه وجد الخليفة في مرض الموت ثم لم يلبث أبو بكر أن توفي بعد أن أوصى عمر بن الخطاب بالاهتمام بالمثني واستنفار المسلمين للخروج معه للجهاد في العراق.

وأسند الخليفة عمر القيادة لأبي عُبيد بن مسعود الثقفي الذي توجه على رأس الجيش الإسلامي لمحاربة الفرس، وتمكن أبو عُبيد والمثني من إحراز بعض الانتصارات على الجيش الفارسي، غير أن الفرس بقيادة بهمن (وقيل مردان شاه) حشدوا لهم جيشاً كبيراً علاوة على الفيلة، والتقوا بالمسلمين في معركة عنيفة

---

(1) ابن الجوزي: نفسه، ص٦٦ -٦٧، ٦٩.

(2) طه حسين: الشيخان، ص١١٨-١١٩.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج٢/٢٢٧.

بجنوب العراق على نهر الفرات تسمى ***معركة الجسر***، وفيها هُزم الجيش الإسلامي واستشهد فيها الكثير من الصحابة وعلى رأسهم القائد أبو عبيد الثقفي، بينما جُرح المثني بن حارثة وانسحب ببقية جيش المسلمين، وعسكر على حدود البادية غرب نهر الفرات، وطلب المدد من الخليفة عمر[1].

واستجاب الخليفة حيث أمده بجيش وضع قيادته جرير بن عبد الله الذي اجتمع بقوات المثني، والتقى المسلمون مع الفرس في موقعة أخرى ***تسمى البويب*** (بأرض السواد بجنوب العراق) وفيها استبسل المسلمون، وأبلى المثني بلاءً حسناً في تلك الموقعة، وتمكن من قتل "مهران" قائد جيش الفرس، وانتصر المسلمون في تلك المعركة، وطاردوا فلول الفرس حتى الجسر، فاضطروا للفرار إلى عاصمتهم المدائن[2].

ونتيجة لتلك الانتصارات الإسلامية أدرك الفرس مدى قوة المسلمين، فحشدوا قواهم لمواجهتهم كما نبذوا خلافاتهم الداخلية، وأسندوا الأمر للإمبراطور يزدجرد الثالث، الذي عهد بقيادة جيشه للقائد رستم وهو من كبار قادة الفرس الذي زحف بدوره إلى موضع يسمى ***القادسية*** على رأس جيش كبير، وعندما علم بذلك القائد جرير (الذي تولى القيادة بعد استشهاد المثني) بعث إلى الخليفة في المدينة يطلب المدد، فأرسل إليه الخليفة بجيش على رأسه القائد سعد بن أبي وقاص الذي تولى القيادة العليا لجيوش المسلمين في العراق.

وقد تمكن سعد من إحراز انتصار ساحق على الجيش الفارسي في موقعة القادسية الشهيرة سنة ١٦هـ، وقُتل فيها القائد رستم وعدد كبير من جنده بينما فر بقية جيشه، وتعتبر ***القادسية*** من المعارك الحاسمة في تاريخ الفتوحات الإسلامية في العراق، إذ نتج عنها سقوط العراق في يد المسلمين وانفتاح الطريق أمامهم إلى قلب الإمبراطورية الفارسية، حيث زحف سعد شرقاً واستولى ***على جلولاء*** (الواقعة بين العراق وإيران حاليا) بعد معركة قادها القعقاع بن عمرو ثم استولى على ***حلوان والموصل وغيرهما*** وفتح المسلمون عقب ذلك المدائن عاصمة الفرس التي هرب منها الإمبراطور يزدجرد إلى مدينة الري فتحصن بها[3].

وعندما وصل نبأ انتصار المسلمين في القادسية إلى الخليفة عمر في المدينة، طلب من القائد سعد بن أبي وقاص ألا يتوغل داخل الأراضي الفارسية، فكتب إليه بذلك قائلاً: " قف مكانك ولا تتبعهم، واقنع بهذا، واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنوها، ولاتجعل بيني وبينهم بحراً.."، وعلى هذا أمر سعد ببناء

---

[1] انظر ابن الأثير: نفسه، ج٢، ص٢٨٦ - ٢٨٨.

[2] انظر: الطبري، نفسه، ج٣، ص٤٥٤، سالم، نفسه، ص٢٣٥-٢٣٦.

[3] انظر المسعودي: نفسه، ج٢، ص٣٢٣ - ٣٢٩، ابن الاثير: نفسه، ج٢، حتى ٢٩٩ وما يليها، سالم نفسه، ص٢٣٨-٢٤١.

مدينة الكوفة لتكون حاضرة ومعسكراً للمسلمين في سنة ١٧هـ، وقبيل ذلك كان القائد عتبة بن غزوان قد قام بتأسيس مدينة البصرة في جنوب العراق سنة ١٤هـ وأسند إليه الخليفة عمر ولايتها[1].

وفي تلك الأثناء قرر القائد العلاء بن الحضرمي والي البحرين مواصلة الفتوحات في بلاد فارس ليصل إلى المكانة السامية التي وصل إليها سعد بن أبي وقاص، فأمر جنده بعبور الخليج في السفن لغزو الأراضي الفارسية دون استئذان من الخليفة عمر، فلقي جيشه مقاومة عنيفة هناك من الفرس وواجهوا العديد من الصعوبات، مما أدى إلى فشل حملته ولذا غضب الخليفة عمر وأمر بعزله عن البحرين لخروجه دون إذنه وتعريضه جنوده للأخطار[2].

وفي سنة ٢٠هـ قام يزدجرد ملك الفرس بحشد جيوش ضخمة لمهاجمة المسلمين، واسترداد ماسقط في أيديهم من أراض فارسية، وعندما علم بذلك الخليفة عمر أراد أن يخرج بنفسه على رأس جيش المسلمين لمواجهة الفرس غير أن كبار الصحابة أشاروا عليه بخطورة ذلك، وأنه من الأفضل أن يترك المهمة لجيوشه بالعراق، فاستحسن عمر هذا الرأي، وأسند القيادة للنعمان بن مقرن الذي اشتبك مع الفرس في معركة *عنيفة عند نهاوند* استشهد في بدايتها النعمان فتولى القيادة بعده حذيفة بن اليمان، وفتح الله على المسلمين وتمكنوا من إحراز انتصار ساحق على الفرس، أسفر عن سقوط *نهاوند* في أيدي المسلمين، ولأهمية تلك الموقعة أطلق عليها *المؤرخون اسم فتح الفتوح*، حيث نتج عنها حسم الصراع بين المسلمين والفرس حول بلاد فارس التي فُتحت تماماً، وأصبحت إقليماً تابعاً للدولة الإسلامية[3]، وبذلك سقطت الإمبراطورية الفارسية كما بشر بذلك النبي ﷺ.

ثانياً: استكمال فتح بلاد الشام:

بعد أن تولى عمر الخلافة أرسل إلى جيوشه في الشام يأمر بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العليا هناك وإسنادها إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح[4]، الذي بعث إلى الخليفة يخبره بوضع المسلمين في الشام وما أحرزوه من انتصارات على جيوش الروم، ويُعلمه بأنه يريد الزحف شمالاً لفتح دمشق، ولكن الروم يعترضون طريقه إليها عند فحل (ببلاد الأردن) وسأله أي البلدان يبدأ بالهجوم، فرد عليه الخليفه عمر رداً يوضح مدى كفاءته العسكرية وسداد رأيه، إذ كتب إليه يقول: "أما بعد فابدأوا بدمشق.. فإنها حصن الروم وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي تحب، وإن

---

[1] ابن الأثير: نفسه، ص٣٣٤، ٣٧٢.
[2] ابن الأثير: نفسه، ج٢، ص٣٨٢ - ٣٨٣.
[3] ابن الأثير: نفسه، ج٢، ص٤١١ -٤١٩، سالم، نفسه، ص٢٤٢ - ٢٤٣.
[4] الطبري، نفسه، ج٤، ص٦٦ - ٦٨.

تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيرا على فحل ..."[1].

وقد قام القائد أبو عبيدة بن الجراح بتنفيذ خطة الخليفة عمر كما رسمها له، فزحف هو وخالد بن الوليد على رأس قوة كبيرة من جيشه إلى دمشق بينما بعث بجزء من قواته إلى فحل لمحاصرتها، وشل فاعلية من بها من قوات الروم، وبالفعل نجحت خطة الخليفة، ففي الوقت الذي كانت فيه دمشق تتعرض لهجوم أبي عبيدة وخالد كان جند الروم بفحل لا تستطيع التحرك لمحاصرة المسلمين إياهم.

وانتهى الأمر بسقوط دمشق في أيدي المسلمين، ثم اتجه أبو عبيدة بصحبة خالد إلى فحل – بعد أن استخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان – وانضما بقواتهما إلى بقية قوة المسلمين التي تقوم بحصارها، وتم النصر على قوات الروم هناك، وقتل معظمهم، وغنم المسلمون أموالهم[2]، ونتج عن ذلك انفتاح الطريق أمام المسلمين للزحف شمالاً، حيث سقطت بعض مدن الساحل الشامي مثل اللاذقية علاوة على حمص وحلب وأنطاكية، غير أن المسلمين اضطروا لإخلاء دمشق عندما علموا بزحف الروم جنوباً بقيادة ماهان الأرمني لطردهم من بلاد الشام، والتقى الطرفان ***عند حوض نهر اليرموك*** سنة ١٥هـ، ودارت معركة حاسمة بينهما انتهت بانتصار ساحق للمسلمين، وأبلى خالد في تلك الموقعة بلاءً حسناً وهي تعتبر بمثابة نهاية الحكم البيزنطي في بلاد الشام.

كما كانت سبباً في رحيل الإمبراطور هرقل إلى عاصمته القسطنطينية، حيث قال عبارته الشهيرة عندما بلغه انتصار المسلمين: "عليك يا سورية السلام، تسليم المفارق، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً.."[3].

وبعد انتصار المسلمين ***في اليرموك*** واصلوا فتوحاتهم في الشام، حيث فتح عمرو بن العاص ***معظم فلسطين***، أما شرحبيل بن حسنة فقد زحف إلى ***الأردن*** وفتحها علاوة على القائد يزيد بن أبي سفيان الذي فتح مدن الساحل مثل ***صيدا وبيروت وجبيل***، أما ***بيت المقدس (إيليا) فقد حاصرها*** عمرو عدة شهور، وعندما اشتد الحصار أدرك صفر نيوس بطريق بيت المقدس صعوبة الاستمرار في المقاومة، فوافق على تسليم المدينة للمسلمين بشرط أن يحضر الخليفة عمر بنفسه ليتسلمها ويقرر شروط التسليم وبالفعل حضر الخليفة واستلم المدينة في سنة ١٧هـ وأعطى أهلها الأمان على أرواحهم وأموالهم، وتعهد لهم باحترام عقائدهم

---

[1] انظر: ابن الأثير، ج٢، ص٢٧٨، سالم، نفسه، ص٢٠٨، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج١، ص٢٣١.

[2] ابن الأثير، نفسه، ج٢، ص٢٧٩ – ٢٨٠، سالم، نفسه، ص٢٠٨ – ٢٠٩.

[3] الطبري، نفسه، ج٣، ص٦٠٣، محمد عيسى، نفسه، ص١٢٠.

ومعابدهم[1] وبذلك انتهى المسلمون من فتح بلاد الشام، وزال سلطان الروم عنها، وأصبحت الشام ولاية تابعة للدولة الإسلامية.

ثالثاً: فتح مصر:

انتهز عمرو بن العاص فرصة مجئ الخليفة عمر إلى الشام لتسليم بيت المقدس سنة ١٧هـ، وعرض عليه فكرة فتح مصر، وقد تردد الخليفة بادئ الأمر في تنفيذ تلك الفكرة لانشغال جيوش المسلمين بالجهاد في مناطق أخرى مثل بلاد فارس، ولكن عمرو بن العاص أوضح له ضرورة القيام بهذا الفتح لاعتبارات عديدة منها أن أرطبون قائد الروم ببيت المقدس تمكن من الهرب إلى مصر في محاولة لإعداد جيش بيزنطي يهاجم به المسلمين في الشام لاستردادها من أيديهم، علاوة على ثراء مصر الاقتصادي وما تحويه من خيرات مما يدعم الوضع الاقتصادي للدولة الإسلامية[2]، خاصة وأن عمرو بن العاص كان قد زار مصر عدة مرات قبل الإسلام للتجارة ويدرك تماماً أهميتها الاقتصادية والجغرافية.

وعلى هذا اقتنع الخليفة برأي عمرو بن العاص، وأرسله على رأس جيش يقدر بحوالي أربعة آلاف مقاتل، واستطاع المسلمون فتح العريش دون صعوبة، ثم زحفوا إلى حصن الفرما (كان يقع شرق بورسعيد حالياً) الذي يعتبر بوابة مصر الشرقية، وتمكنوا من فتحه بعد الانتصار على حاميته البيزنطية، ثم واصلوا زحفهم جنوباً واستولوا على بعض المناطق والحصون المهمة مثل حصن بابليون الذي يُعد أقوى الحصون البيزنطية في مصر، فحاصره المسلمون عدة أشهر، وعندما تأخر الفتح بعث إليهم الخليفة بمدد من أربعة آلاف على رأسه الزبير بن العوام، الذي نجح بحيلة بارعة في اقتحام الحصن هو وفرقته من المسلمين وبذلك تم فتح حصن بابليون، وانفتح الطريق بذلك للزحف نحو الإسكندرية عاصمة مصر آنذاك، وأثناء مسيره إليها استولى عمرو على بعض الحصون الرومانية مثل نقيوس وسلطيس (جنوب دمنهور) والكريون ثم وصل الإسكندرية، وبعد حصارها عدة أشهر تمكن عبادة بن الصامت من فتحها عنوة وقيل صلحاً سنة ٢١هـ[3].

وعلى الرغم من أن الإسكندرية فتحت عنوة على أغلب الآراء إلا أن عمرو بن العاص وافق على عقد صلح مع المقوقس (قيرس) حاكم مصر البيزنطي وهو ما يسمى بصلح الإسكندرية الذي نص على مايلي:

١. أن يدفع الأقباط جزية للمسلمين بمقدار دينارين في كل سنة ويعفي منها النساء والأطفال والشيوخ.

---

[1] ابن الأثير، نفسه، ج٢، ص ٣٤٧ – ٣٤٨، محمد عيسى، نفسه، ص١٢٠.

[2] عبد العزيز سالم، نفسه، ص٢١٣ – ٢١٦.

[3] انظر، ابن الأثير: نفسه، ج٢، ص٤٠٥ – ٤٠٨، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج١، ص٢٣٥ – ٢٤٢. عبد العزيز سالم، نفسه، ص٢١٣ – ٢٢٠.

٢. الهندنة بين الطرفين أحد عشر شهراً (ويبقى المسلمون خلالها خارج أسوار الإسكندرية لحين جلاء الروم عنها مع السماح لهم بحمل أموالهم وأمتعتهم).
٣. السماح لليهود بالإقامة في مدينة الإسكندرية.
٤. أن يقدم أهل الإسكندرية لعمرو ١٥٠ جندياً وكذلك ٥٠ مدنياً ليكونوا رهائن لضمان تنفيذ شروط الاتفاق.
٥. يتعهد المسلمون بالمحافظة على كنائسهم واحترام شعائرهم الدينية.
٦. ألا يحاول الروم استعادة الإسكندرية أو مصر مرة أخرى[١].

وبعد فتح الإسكندرية سنة ٢١هـ أرسل عمرو بن العاص بعض القادة لفتح وإخضاع مناطق الصعيد وبذلك تم فتح مصر وأصبحت ولاية عربية إسلامية، وقد انطلقت من مصر سرايا إسلامية تمكنت من إخضاع برقة وطرابلس غرباً ووافق سكان تلك المناطق من البربر على دفع الجزية للمسلمين، وبذلك تم تأمين حدود مصر الغربية.

---

[١] انظر ابن عبد الحكم، فتوح مصر وإفريقيا، ص٨٥ وما يليها، بتلر، فتح العرب لمصر، ص٦٧ وما بعدها، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ص٢٤٢ – ٢٤٣.

رابعاً: التنظيمات الإداية والمالية والقضائية

١ ـ *النظام الإداري:*

وضع الرسول ﷺ النواة الأولى لأسس الإدارة في الدولة الإسلامية الوليدة في المدينة المنورة، فأحل الشريعة الإسلامية محل العصبية أو الوحدة القبلية والتى كانت محورا لحياه العرب ، والرابط الأساسي للمجتمع العربي قبل الإسلام، حيث اعتمد نظام الحكم فيه أساساً على القبلية كوحدة سياسية وإدارية.

ولما جاء الإسلام آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار في المدينة وجعلهم أمة إسلامية واحدة، لها دينها، ومقوماتها، وخصائصها؛ وأصبح الدين الإسلامي هو دستورهم المعتمد في تحديد شكل المجتمع الإسلامي، وعلاقة الدولة مع الرعية، وعلاقة أفراد تلك الرعية مع بعضهم البعض.

ليصبح لتلك الدولة الناشئة إدارتها التي تنظم حياتها وتهيئ أفرادها لدورهم المنشود في تحقيق عالمية الإسلام، وقام النبي الكريم على رأس تلك الحكومة ينظم إدارتها فكان من مهامه الدنيوية- إلى جانب واجبه الأول وهو القيام على أمر الدين، ونشر الدعوة بين الناس، وتطبيق مبادئ الإسلام وتعليمها للناس – قيادة الجيوش وجباية الأموال وتنظيم مصادر دخل الدولة من زكاة وجزية وغنائم وغيرها، وتنظيم كيفية إنفاق هذا الدخل بشكل يحقق العدالة الإجتماعية بين الرعية، ويدرء الخصومات بينهم، ليضع بذلك أساس التراحم وينهي الإستغلال والاحتكار الذي عاناه الفقراء في المجتمع العربي قبل الإسلام، ليقيم بذلك هيكلاً إدارياً جديداً لتلك الدولة لم يألفه العرب، على أسس ومفاهيم جديدة لم تعرفها البشرية من قبل.

وكان رسول الله كثيراً ما يستعين بكبار الصحابة ويشاورهم في إدارة الدولة، ويعهد إليهم بأعمال معينة ومهام محددة [1]، بوصفه الحاكم العام للدولة، ولذا عند خروجه من حاضرتها" المدينة المنورة" لأمر من الأمور، لم يكن يترك المدينة دون من يقوم على أمرها، بل كان ينيب عنه من يحكمها ويتولى إدارة شئونها فيقوم بإمامة المسلمين في الصلاة، ويفصل في الخصومات، ويقوم على الدفاع عنها، وتزخر كتب السيرة بأسماء العديد ممن أنابهم الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر المدينة عند خروجه منها في إحدى الغزوات وغيرها، ومنهم سعد بن عبادة، وعبد الله بن أم مكتوم، وعثمان بن عفان، وأبا ذر الغفاري وسباع بن عرفطة وغيرهم.

---

[1] تردد في المصادر والمراجع المعنية بالنظم الإدارية للدولة الإسلامية زمن الرسول أنه قد عاونه صلى الله عليه وسلم عدد من كبار الصحابة كانوا بمثابة نقباء له فيمايمثل مجلساً للشورى تطبيقاً لقوله تعالى "فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله صدق الله العظيم وتذكر المصادر أن عددهم كان يقارب ١٤ نقيباً من أهل السابقة في الإسلام والرأي والتدبير سواء من الأنصار أو المهاجرين. للمزيد من التفاصيل راجع: عبد الحي الكتاني: التراتيب الإدارية والعمالات والحرف والصناعات على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومع اتساع الدولة الإسلامية بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة، وامتداد سلطانها ليشمل شبه الجزيرة العربية مع عام الوفود في العام التاسع للهجرة، بدأ ظهور طبقة العمال الإداريين، ليتوافق ذلك مع هذا الإتساع، وضرورة تقسيم الدولة إلى وحدات إدارية حتى يتيسر تنظيم شؤونها تحت قيادة الرسول المركزية من المدينة، فصار لمكة المكرمة لأول مرة والٍ يتولى تصريف أمورها بتوجيه من الرسول عليه الصلاة والسلام وهو عَتّاب بن أسيد، وربط له الرسول الكريم راتباً قدرته المصادر بدرهم واحد كل يوم، ليصبح هذا هو أول راتب يتقاضاه عامل في دولة الإسلام[1]، كما فرض أيضاً الرواتب العينية لبعض ولاته[2]، ثم تبع ذلك تقسيم الدولة إلى مقاطعات وضع الرسول على كل مقاطعة والياً (عاملاً) يقوم على إقامة الحدود، وتنفيذ الأحكام، وتوطيد النظام لصالح الدولة الإسلامية الناشئة. وكان من أوائل هؤلاء الولاة باذان أمير صنعاء، والذي يقال عنه أنه أول من أسلم من ملوك العجم، وأول أمير مسلم على صنعاء، وقد مات في حياة النبي ﷺ ، فتولى عوضاً عنه المهاجر بن أبي أمية، كما ولى الرسول الكريم زياد بن لبيد على حضرموت، والعلاء بن الحضرمي على البحرين.

كذلك توخى الرسول في اختيار عماله توافر الصفات الحسنة ومهارات القيادة تطبيقاً لقوله تعالى " إن خير من استأجرت القوي الأمين"، وقال صلى الله عليه وسلم تأكيداً لهذا الشأن وهو ضرورة اختيار الصالح والقادر من العمال، "إثنان في الأرض إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس العلماء والأمراء".

وينهض دليلاً حياً على قيام الرسول بالتأكد من صلاح عماله وتوافر شروط النزاهة والشرف والقدرة على اتخاذ القرار والعمل به ما فعله عند اختياره لمعاذ بن جبل ﷺ قاضياً على اليمن حيث قال له "إنك تقدم إلى قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى، فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فخذ منهم واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب".

ودلالة على التزام عماله ﷺ بهذه الصفات والقدرات، ما حدث مع عبد الله بن رواحه وقد أسند إليه الرسول ﷺ تقدير ثمار اليهود من أهل خيبر، فحاولوا تقديم رشوة له حتى يخفف عليهم ويتجاوز في اقتسام الثمار، فكان رد عبد الله بن رواحه قاطعاً حاسماً يشهد بنزاهته وأمانته فقال لهم: "يا معشر اليهود، إنكم لمن أبغض

---

[1] ظل عَتّاب والياً على مكة حتى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أقره أبو بكر على منصبه، وظل قائما بأمر ولايته حتى توفي في نفس يوم وفاة الصديق رضوان الله عليه سنة ١٣ هـ والصديق الذي زاد راتبه في عهده إلى درهمين يومياً لمواجهة أعباء الحياة وضمان تفرغه لشؤون مكة.

[2] جدير بالذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أحياناً يربط راتباً عينياً لبعض عماله، مثال ذلك ما ذكرته المصادر عن قيس بن مالك عندما ولاه الرسول على قومه من همذان فخصص له قطعة من الأرض يأخذ خراجها، وأمر كما يذكر البلاذري في فتوح البلدان أن يجري عليه ذلك وعلى أعقابه من بعده.

خلق الله تعالى إليّ، وماذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، أما ما عرضتم عليّ من الرشوة فإنها السحت، وإنّا لا نأكلها، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض".

كذلك كان الرسول يوالي عماله بالنصائح والتوجيهات حرصاً على سلامة حكمهم وعدم مخالفتهم للشرع من ذلك ما كتبه إلى عمرو بن حريث واليه على نجران شارحاً له الفرائض والسنن، وما يجب عليه فعله فيما يجمعه من الصدقات والديات، كذلك كان حريصاً على الاستماع لشكاوى الرعية في حق أي عامل من عماله، من ذلك ما حدث مع العلاء بن الحضرمي واليه على البحرين، وقد وفد إلى الرسول نفر من عبد القيس أكبر قبائل تلك المناطق - بشكواهم في حق العلاء، وتحقق منها الرسول الكريم فقام على عزلة بإبان بن سعيد بن العاص وأوصى الأخير خيراً بعبد القيس وساداتهم.

ولما تولى الصديق أبو بكر الخلافة، أقر عمال الرسول ﷺ على مابأيديهم من أعمال، ثم قام على تقسيم الدولة إلى عدة ولايات على رأسها:

- المدينة المنورة: وهي حاضرة الخلافة ومقر الحكم، وجُعل فيها عمربن الخطاب على القضاء على، وأبو عبيدة بن الجراح على بيت المال[١]، واستمر على نهج الرسول في استشارة أهل الرأي من الصحابة المتواجدين معه بالمدينة ومنهم عمر وعثمان وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت وغيرهم.[٢]

ونلاحظ من قائمة التقسيم الإداري للدولة زمن الخليفة الراشد الأول خلوها من العراق والشام، وذلك يرجع إلى أن حركة الفتوحات الإسلامية لهما كانت لأتزال في بدايتها ، فكان أمراء الجند يقومون على تصريف الأمور فيهما، فقائد الجيش إذا فتح بلداً يصبح والياً عليه، حيث يعقد الخليفة اللواء لقائد الجيش ويعهد له بإمارة ما يقوم على فتحه، وقد حدث ذلك زمن أبو بكر، وكذلك زمن عمر فعندما فتحت مصر في عهده عهد إلى قائد الفتح عمرو بن العاص بأمر ولايتها.

ومع اتساع رقعة الدولة زمن الخليفة عمر بن الخطاب نتيجة التوسع في حركة الفتوحات، حيث ضمت الدولة أقاليم جديدة، الأمر ندى جعل الفاروق يعيد من جديد التقسيم الإداري للدولة إلى وحدات إدارية كبرى، ليشهد النظام الإداري في عصره، نقله كبرى تدل على عنايته الفائقة بالنظم الإدارية، فترسخت التقاليد الإدارية الإسلامية، ودونت الدواوين، وفصلت السلطة التنفيذية عن السلطة التشريعية مؤكدا بذلك مبدأ استقلال القضاء، وكذلك زادت عنايته بأمر الأمصار حيث أدى اتساع مساحة الدولة في عهده كما سبق القول إلى ظهور وحدات إدارية جديدة لم تكن

---

[١] كان للدولة على الرغم من بساطتها الإدارية ميزانية أودعها الرسول بيت مال المسلمين، وكان يقسم الفيء على المسلمين الحاضرين.

[٢] راجع ما سبق عن ولايات الدولة زمن ابي بكر وولاته وعماله عليها

موجودة زمن الخليفة الراشد الأول، كما فاستلزم التنظيم الإداري ضم وحدات إدارية جديدة إلى وحدات أخرى قديمة في وحدة إدارية واحدة واسعة فظهر على سبيل المثال نتيجة لذلك ولاية الأهواز والبحرين، ثم ظهرت بعد ذلك ولاية سجستان ومكران وكرمان، وولاية طبرستان، وولاية خراسان، كما قسمت بلاد العراق إلى قسمين الأول وحاضرته الكوفة، والثاني ومركزه البصرة، كذلك بلاد الشام تم تقسيمها هي الأخرى لقسمين الأول وحاضرته حمص، والثاني وقاعدته دمشق وجعلت فلسطين وحدة إدارته قائمة بذاتها، بينما قسمت مصر إلى ثلاث وحدات إدارية مصر العليا، ومصر السفلى، أما الوحدة الثالثة فضمت غربي مصر وصحراء ليبيا الشرقية.

وقد حرص عمر ﷺ، على اختيار الولاة من العرب لمقدرتهم على فهم تعاليم الإسلام وأصول الشريعة، خاصة وأنهم ملزمون بإمامة الناس في الصلاة والقضاء بينهم بأحكام الشؤيعة الشريفة ، وكذلك تقسيم الموال والغنائم بينهم، فكان عندما يولي عاملاً يكتب له عهداً يحدد له فيه واجباته ومهامه، ويختمه بخاتمه أو توقيعه ويشهد عليه عدداً من أهل الحل والعقد من المهاجرين والأنصار، قبل مغادرة العامل الجديد إلى مقر ولاية المدينة، يجتمع المسلمون في المسجد النبوي حيث يُقرأ عليهم عهد التعيين حتى يتعرف كل مسلم على حقيقة سلطات ومهام الوالي.

وكان عمر شديداً مع العمال فيذكر الطبري أن عمر بن الخطاب ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فقال " اللهم إن أشهدك على أمراء الأنصار، إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم وأن يقسموا فيهم فيئهم، وأن يعدلوا، فإن استشكل عليهم شيء رفعوه إليّ"[1]. وكان يشترط على الوالي ألا يتخذ باباً دون حاجات الناس، وألا يرفل في نعيم الدنيا[2]، ويقول لهم يوصيهم "... أني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم فأدروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم... ولا تغلقوا دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم" واستطراواً لهذه الوصايا ما رواه الطبري دليلاً على حرص الفاروق على إتباع قواعد العدل مع الرعية من قبل ولاته، فكان يقتص من عماله إذا ما اشتكى إليه نفر من الرعية ظلم الوالي، فكان يجمع بين الوالي وصاحب الشكوى، فإن صح عليه (أي على الوالي) أمر يجب أن يأخذه به أخذه به[3].

ويظهر حرص الفاروق على استقرار الأمور في الأقاليم الإسلامية من بعده، وأن ذلك لا يتم إلا بإقرار راية العدل بينهم وذلك في وصيته حين طعن فيروي يحيى بن آدم أنه قال "أوصى الخليفة من بعدي بأهل الأمصار خيراً، فإنهم جباة

---

[1] الطبري: تاريخ الطبري، جـ ٢٠٤/٤.

[2] ابن الجوزي. سيرة عمر بن الخطاب، صـ١٣٥ ـ ١٣٦، ١٤٠.

[3] تاريخ الطبري، جـ ٢٠٤/٤.

المال وغيظ العدو وردى المسلمين، وأن يقسم بينهم فيئوهم بالعدل، وأن لا يحمل من عندهم فضلٌ إلا بطيب أنفسهم"[1].

ومن المتواتر عن تقصي عمر أحوال عماله، أنه كان يحصي أموالهم قبل إرسالهم إلى الأمصار، فيطلب من كل واحد منهم عند تعيينه تقديم قائمة بكل ما مايملك، وهو ما يطلق عليه حديثاً إقرار الذمة المالية، ثم يراقب أي زيادة غير عادية تطرأ على ثرواتهم، فإذا وجد فيها ما يريب وفيه دلالة على إستغلالهم للنفوذ قاسمهم فيما زاد على ممتلكاتهم، وصادره لصالح بيت مال المسلمين.

وتروى لنا المصادر الكثير عن اهتمام عمر بن الخطاب بمراقبة ولاته ومحاسبتهم إذا ظلموا أو قصروا نحو رعيتهم، من ذلك قيامه بعزل سعد بن أبي وقاص ﷺ – عن ولاية الكوفة عندما تظلم منه أهلها، كذلك كان يسر إذا بلغه خبر عن اهتمام عامل من عماله بامور الرعية، ويثني عليه، من ذلك ما حدث مع أحد ولاته وهو عُمير بن سعد والي حمص، حيث كتب إليه آمراً إياه أن يأتي للمدينة ومعه ما جمعه من فيء المسلمين، فلما أقبل سأله عن صنيعه في الرعية فقال عمير: "بعثتني حتى أتيت البلد، فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه، ولو نالك منه شيء لأتيتك به، فقال عمر: فمما جئتنا بشيء، فقال لا"، فلما تأكد عمر من أنه قد أنفق كل شيء على أهل حمص وفي مصارفه الصحيحة، أمر بتجديد ولايته على حمص قائلاً وددت لو أن لي رجلاً مثل عُمير بن سعد استعين به على أعمال المسلمين"، وعمير هذا الذي خطب في أهل حمص موضحاً لهم النموذج الأمثل الذي يجب أن يكون عليه سلطان المسلمين حتى تظل الدولة قائمة حيث قال " لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف، وضرباً بالسوط، ولكن قضاءً بالحق وأخذاً بالعدل".

وبهذه الطريقة استطاع عمر بن الخطاب الترسيخ للنظم الإدارية الإسلامية وفقاً للنظام الإداري المركزي، حيث أطلق الحرية لعماله في إدارة شئون ولاياتهم، مع المراقبة الدقيقة لأعمالهم، ليحاسب المقصر، ويكافئ المجتهد. وقد ظلت الأسس التي وضعها عمر بن الخطاب للتنظيم الإداري للدولة قائمة ومعمول بها طوال عهد الراشدين.

<u>نشأة الدواوين:</u>

اختلف المروخون وعلماء اللغة في أصل كلمة ديوان، فقيل أنه لفظ عربي ويعني الأصل الذي يرجع إليه، ويعمل بما فيه... ويقال دونته أي أثبته، وذهب آخرون للقول بأنه أعجمي، وقيل فارسي معرب.

---

[1] يحيى بن آدم: كتاب الحراج، تحقيق د. حسين مؤنس، دار الشروق، ط١ ١٩٨٧، صـ ١٠٧ وراجع أيضاً: ابن الجوزي: المصدر السابق، صـ ٢٤٤.

ويذكر صاحب لسان العرب " أن الديوان هو السجل او الدفتر الذي تكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء"[1] ثم صار اللفظ يطلق بعد ذلك على المكان الذي يجلس فيه الكتاب والموظفون، وتحفظ فيه السجلات وهو ما ذهب إليه الماوردي وابن خلدون فيذكر الماوردي أن " الديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال"[2].

بينما يعرّف ابن خلدون الديوان بقوله " أعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج، وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها "وقتها"، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومه تلك الأعمال"[3].

وبناء على ما سبق، يمكن تعريف الديوان بأنه يشمل القوانين التي تسير عليها الدولة في تصريف شؤونها المالية والعسكرية والسياسية، وتضم من يعمل على تنفيذ هذه القوانين. ومما لا شك فيه أن مبدأ إحصاء الناس وكتابتهم قد وجد في عهد الرسول ﷺ، كما وجد في عصره أيضاً كتابة الجند الذين أعدوا للجهاد، فقد روى البخاري بسنده عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس". فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل، ويؤكد ما ذهبنا إليه ما روى مسلم في مسنده عن ابن عباس ﷺ" سمعت النبي ﷺ يقول " لا يخلون رجل بإمرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم"، فقام رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا. قال انطلق مع امرأتك".

ولكن يمكن القول بأن الكتابة زمن الرسول الكريم لم تصل إلى مستوى التدوين الشامل لكل شيء في الدولة، فلما كان زمن عمر بن الخطاب ﷺ. واتسعت الدولة وكثرت الأموال، وزاد عدد الناس، فدونت الدواوين، ولذا فقد أجمعت المصادر التاريخية على أنه ﷺأول من دون الدواوين في الإسلام، وذكرت المصادر أن السبب في ذلك يرجع إلى أن أبا هريرة ﷺ قدم بمال من البحرين، فسأله عمر عن مقداره فقال أنه خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر، وقال: أتدري ما تقول؟ قال: نعم: مائة ألف خمس مرات، فقال عمر: أطيب هو: قال: لا أعلم إلا ذاك"، فصعد عمر وخطب في الناس قائلاً" ... قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلاً، وإن

---

[1] ابن منظور: لسان العرب دار صادر بيروت ج ١٣/١٦ مادة ديوان .

[2] الأحكام السلطانية، صـ ١٩٩.

[3] المقدمة. تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، ط٣ دار نهضة مصر، القاهرة / جـ٢ / ٦٧٥.

شئتم عددنا لكم عداً، وإن شئتم أن نزن لكم وزناكم... ، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدونون ديواناً لهم ... فدون لنا أنت ديواناً[1].

وقال آخرون: بل سببه أن عمر أرسل بعثاً، وكان عنده الهرمزان، فقال لعمر هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلف منهم رجل، وأخل بمكانه فمن أين يعلم صاحبك به، فأثبت لهم ديواناً، فسأله عن الديوان حتى فسره له.

وتتوالى الروايات عن السبب الذي من أجله دون عمر الديوان، فمنها ما ذكرته المصادر عن أبي يعلي الفراء، أن عمر استشار الناس في أمر الأموال التي كثرت من جراء الفتوحات، فأشار خالد بن الوليد عليه بقوله " قد كنت بالشام فرأيت ملوكها دونوا ديواناً وجندوا جنداً فدون ديواناً وجند جنداً فأخذ بقوله[2]. ومن الروايات أيضاً ما رواه ابن طباطبا في أحداث السنة الخامسة عشرة من الهجرة عن أن أحمال الذهب والفضة وغيرها من الجواهر النفيسة والثياب الفاخرة، قد تتابعت على المدينة، فتحير عمر فيما يصنع بها، وكيف يضبط عملية توزيعها، وكان بالمدينة آنذاك بعض مرازبة الفرس، فأشار عليه أحدهم بأن الأكاسرة كان لهم شيئاً يسمونه ديواناً، يسجل فيه جميع إيراداتهم ونفقاتهم وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل، " ففطن عمر لذلك ودون الديوان وفرض العطاء".

ومن خلال ما أوردناه من روايات، يتضح لنا أن تدوين الدواوين هي فكرة أخذها عمر بن الخطاب اقتباساً عن الفرس والروم، ودعاه إليها كثرة الأموال الواصلة للمدينة والاحتياج إلى ضبطية خاصة تضمن وتنظيم توزيعها ، وبعد مشورة أهل الرأي من الصحابة استقر الرأي على تدوين الدواوين فبدأ بديوان العطاء: حيث استدعى ثلاثة من شباب قريش ممن يجيدون الكتابة والقراءة وهم عقيل بن أبي طالب، وجبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل، وأمرهم بكتابة الناس على منازلهم، فكتبوها على ترتيب الأنساب، وبدأوا بقرابة رسول ﷺ، فالأقرب فالأقرب، ثم روعي بعد ذلك في التفضيل السابقة في الإسلام، وعند انقراض أهل السوابق يكون الشجاعة وحسن البلاء في الجهاد، والحاجة، حيث قال " لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ... فبدأ ببني هاشم من الأقرب للرسول، ففرض للعباس ابن عبد المطلب، ثم لعلي بن أبي طالب، حتى انتهوا من تقييد جميع الأسماء سيراً على القواعد السابقة حتى الأطفال فرض لهم عطاء، حيث أطلق مناديه بين المسلمين بألا يتعجلوا في فطام أولادهم، معلماً إياهم بأنه سوف يفرض عطاءً لكل مولود في الإسلام وجعله مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ مائتي درهم، فإذا بلغ زاده. كذلك فرض عمر لمن شهد بدراً من بني هاشم سواء كان من العرب أو الموالى،

---

[1] راجع: ابن الجوزي: سيرة عمر بن الخطاب، ص ١٢١ / ١٢٢ وفي رواية أخرى أوردها ابن الجوزي أيضا عن عبيد بن عبد الله أن المال الواصل مع أبي هريرة كان ثمانمائة ألف درهم.

[2] بعض المصادر نسبت هذا القول لهشام بن الوليد بن المغيرة.

ويليهم من شهد المواقع حتى الحديبية، ثم من الحديبية إلى القضاء على المرتدين، كما فرض لأزواج النبي وكانت أعلاهم عطاء السيدة عائشة ﷺ . كذلك فرض للأنصار عطاءً وكلف زيد بن ثابت بتقييد أسمائهم فبدأ بأهل العوالي ببني عبد الأشهل، ثم الأوس لبعد منازلهم، ثم الخزرج، حتى كان آخر الناس حصراً هم بني مالك بن النجار وكانت مضاربهم حول المسجد[1].

ويعد هذا التقييد أول عملية إحصاء متكاملة تتم في المدينة المنورة، وتمثل معلماً من معالم اجتهادات الخليفة الراشد ابن الخطاب في النظم الإدارية، ونلاحظ من خلال هذه العملية الإحصائية ومبادئ التفضيل التي إبتعها عمر، مدى توخيه العدل، ففضل السيدة عائشة عن ابنته حفصة في العطاء، كذلك فضل أسامة بن زيد على ولده عبد الله ضارباً بذلك القدوة والمثل لرجال الإدارة على مر العصور، كذلك هناك درس ثان يجب أن يكون نصب أعيننا، وهو نظرة الصحابة في هذا العصر للمال فهم اعتبروه مال الله يجب توزيعه على جميع الرعية، وعدم اختصاص أهل السلطة والنفوذ به يوزعونه على أنفسهم حسب أهوائهم الشخصية، بل حرصوا على أن ينال كل فرد من الرعية نصيبه الذي يكفيه، حتى المواليد كان لهم نصيباً إرساء لقواعد العدالة الاجتماعية كما نص عليها الإسلام.

وهكذا جاء ديوان العطاء معنياً بكل إيرادات الدولة النقدية والعينية وجعل على رأسه صاحب الديوان يعاونه كتبه ومعاونون وخزنة لتسجيل الوارد إليه والمنصرف منه وتحديد مستحقيه والجهات المنصرف لها.

● *ديوان الجند:*

كان عمر بن الخطاب يميل – كما أسلفنا – إلى المركزية في التنظيم الإداري، لذلك ربط الجند بالعاصمة عندما أنشأ هذا الديوان عاصمة الدولة الإسلامية، وقد ظهرت الحاجة إليه لتسجيل أسماء الجند لمواجهة الزيادة التي طرأت على أعدادهم، وضرورة إحصائهم، وترتيب أمورهم، وتوفير أعطياتهم وتنظيم قواعد صرفها، وهكذا نشأ ديوان الجند نشأة عربية مماثلة لنشأة ديوان العطاء وتطور مع مرور الوقت أسوة بغيره من النظم الإسلامية[2].

وقد وضع عمر بن الخطاب عندما أوجد هذا الديوان أسس وشروط للانتظام فيه، ويتقدم طبقاً لها أفراد الديوان في المرتبة والعطاء، وقد تداخلت هذه الشروط مع الأسس العامة التي رتب وفقها الناس عند تقدير العطاء، مما أدى للخلط بين ديوان الجيش وديوان العطاء حيث كان الديوان موضوعاً في ابتداء وضعه على دعوة العرب، ورتب فيه الناس على أساس النسب، وتفضيل العطاء معتبراً بالسابقة

---

[1] راجع: الماوردي: الأحكام السلطانية، صـ ١٩٩ – ٢٠٠ ابو يوسف: الخراج، صـ ١٤٠ – ١٤٩. وللمزيد من التفاصيل راجع: ابن الجوزي. سيرة عمر بن الخطاب، صـ ١٢٩ وما بعدها.

[2] فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية. ط٦، الدار السعودية، جدة ١٤١٧هـ صـ٩٧.

في الإسلام، وحسن الأثر في الدين، ثم روعي فيه التفضيل عند انقراض أهل السوابق بالشجاعة والبلاء في الجهاد[1].

وقد اشترط عمر في تسجيل الجند التفرغ التام للجندية والجهاد دفاعاً عن الإسلام، وقد تشدد عمر في هذا الشرط حتى لا ينشغل الجنود بمهن أخرى كالزراعة وغيرها، فتقل حماستهم العسكرية ويتصرفوا عن الجهاد والفتح، كذلك كان من الشروط اللازمة لإثبات الأفراد في هذا الديوان توافر خمسة أوصاف هي: * البلوغ ** الحرية *** الإسلام **** السلامة من الأمراض المانعة للقتال، ***** الإقدام على الحرب والدراية بفنون القتال. فإذا تكاملت هذه الأوصاف في فرد أثبت في الديوان وفقاً للطلب والاحتياج، "فيكون منه الطلب ولولي الأمر الاستجابة إلى ضمه متى دعت الحاجة لذلك[2].

أما ترتيب الأفراد في الديوان فيقوم على أساسين عام وخاص، أما الترتيب العام فيقوم على أساس النسب.. أي ترتيب الأسماء حسب قبائلها ومدى القرابة من الرسول ﷺ ، أما الترتيب الخاص فهو ترتيب الواحد وراء الآخر وفقاً لسابقته في الإسلام، فإن تساووا، فبالدين، فإن تما ثلا، فبالسن، فإن تقاربوا، فتعتبر الشجاعة معياراً للترتيب، فإن تقاربوا، فلولي الأمر الاختيار بالاقتراع بينهما أو الاجتهاد برأيه[3].

أما تقدير العطاء فمعتبر بالكفاية، والكفاية عند الماوردي معتبرة على ثلاثة أوجه:

١ عدد من يعول من الذراري والمماليك.

٢ عدد ما يرتبطه من الخيل والظهر.

٣الموضع الذي يحله من الغلاء والرخص، فيقدر على أساس ذلك كفايته من النفقة والكسوة[4].

ومما سبق يتبين لنا أن الدولة الإسلامية التزمت بتوفير احتياجات الجندي كافة، حتى لا ينشغل بالبحث عن مصدر آخر للرزق يغطي به احتياجاته، ضماناً للتفرغ للعمل العسكري دون غيره، كما نلاحظ أن الدولة لم تنفق عليه ببذخ فتقعده همته ويصاب بالترف، كما نلاحظ أيضاً مراعاة الدولة فروق المعيشة من بلد إلى آخر، فحرصت على أن يكون راتب الجندي ملائماً لظروف المعيشة في البلد الذي تواجد فيه، فإن كانت الأسعار مرتفعة في بلد زيدت رواتب الجند لمواجهة غلاء المعيشة، وإن كانت رخيصة قلت الرواتب وذلك كله ينصب في مراعاة العدالة والمساواة،

---

[1] الماوردي: المصدر السابق، صـ٢٠٢.

[2] الماوردي: المصدر السابق، صـ٢٠٤.

[3] الماوردي: المصدر السابق، صـ٢٠٥.

[4] الماوردي: المصدر السابق، صـ٢٠٥.

ويندرج تحت ذلك أيضاً تقدير حظ كل واحد من الغنائم، فالمشاة أي الراجلة، كان كل راجل يُعطى سهماً واحداً من الغنائم، والفارس له ثلاثة أسهم، سهماً له، والثاني لفرسه، والثالث لسائس فرسه، وهكذا تمت التسوية بين الجميع في المال الذي أخذه كل منهم بسبب القتال[1].

وقد التزمت الدولة الإسلامية بتدريب الجند وتوفير كل ما يلزمهم من إمدادات، وتعويضهم عما يفقدوه أو يستهلكوه من آلات الحرب، وتصرف له نفقات سفره، وإذا مات الجندي أو قتل ورث أبناؤه عطاءه، وهو دين لورثته في بيت مال المسلمين.

وكان للقائم على ديوان الجند كتبة ومعاونون يقومون على تنظيم الأوامر والمراسلات الواردة والصادرة، وتحديد رواتب الجند وأوقات استحقاقها، وتقدير وإحصاء نفقات الجيش المختلفة، كما كان به من يراقب كفاءة الجند وترتيب مواعيد إجازاتهم، وكافة ما يخصهم. كما كان يجوز لبعض ممن أثبتوا بالديوان أن يستعفوا أنفسهم من الجندية؛ أما في حالة الضرورة فلا يؤذن لهم بذلك، وإذا تخلف أحدهم عن الحرب بغير عذر مبرر ومقبول سقطت أرزاقهم.

وكانت هناك فروع لهذا الديوان، أو دواوين مماثلة لديوان الجند بالعاصمة في الولايات الإسلامية، ومنها البصرة والكوفة، والشام، ومصر، وكان على كل ديوان جُند مجموعة قومَة من الكتبة والمعاونين، وقد أمدتنا المصادر بما يفيد ذلك حيث ذكر على سبيل المثال اسم "أبو جبرة بن الضحاك الأنصاري" على أنه شغل منصب الكاتب بديوان الجند في الكوفة على عهد عمر بن الخطاب ﷺ.

وهكذا نشأ هذا الديوان كأمر ضروري ولازم للعسكرية الإسلامية، ثم تطورت نظمه وقواعده، مع اتساع الدولة والحاجة الضرورية لتأمين حدودها، وما يستلزمه ذلك من توفير الأمن والرعاية للجند حتى يتفرغوا تماماً لأداء المهام المطلوبة منهم من الزود عن الدين والدفاع عن الحدود.

● ***ديوان الخرج "الاستيفاء":***

ويتولى إحصاء خراج الأقاليم المفتوحة ، وكيفية جباية هذه الأموال الخراجية، وتنظيم أوجه الإنفاق اللازمة في المصارف التي يجب الإنفاق فيها لتنمية الثروة الزراعية للدولة بوجه خاص. وقد ظهرت الحاجة لهذا الديوان، مع تنوع مصادر الدخل، وزيادة إيرادات الدولة، وتعدد أوجه الإنفاق اللازمة تبعاً لذلك، ويذكر الماوردي أن هذا الديوان كان أهم دواوين الدولة لكونه "عماد المال والذي هو عماد الدولة وركنها القوي"، وكان يسجل في هذا الديوان أهل الذمة من كل بلد، كذلك

---

[1] أبو يوسف: الخراج، صـ٩٧.

كان هناك ديوان للخراج في العاصمة وهو الديوان الرئيسي، وتنتشر له عدة فروع بالولايات الإسلامية.

وقد جرى تنظيم العمل فيه بعد انتشار الإسلام في العراق و الشام ومصر، على النحو الذي كان قائماً بتلك الأمصار قبل الإسلام، حيث كانت لغة هذه الدواوين هي اللغات المحلية في تلك الأمصار، فكان ديوان الشام تسجل معلوماته بالرومية (اللاتينية)، وديوان العراق بالفارسية، وديوان مصر بالقبطية، واستمر أمرها جارياً على ذلك، إلى أن بدأ تعريبها زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وبدأ أولاً بتعريب ديوان الشام.

وكان لديوان الخراج صاحباً أو كاتباً أسوة بالدوارين الأخرى وروعي في اختياره ضرورة توافر العدالة والكفاية والأمانة في شخصه، كما حددت كتب النظم اختصاصاته بما يلي: "حفظ القوانين استيفاء الحقوق، محاسبات العمال، اثبات الرفوع (أي ما يرفع إليه من مستندات خاصة بمساحات الأرض، والقيمة الخراجية المقدرة عليها، والنفقة الواجبة لها"، وإخراج الأحوال" أى استشهاد صاحب الديوان على ما يثبت فيه من قوانين وحقوق، وتصفح التظلمات[1].

---

[1] الماوردي: الأحكام، صـ٢١٨.

النظام المالي

أدرك المسلمون أهمية النظم المالية، فقدموا لنا عدة مصنفات تناولت هذا الموضوع، وارتكزت في دراستها لهذا النظام على أسس وأصول فقهية، تبرز مدى اهتمامهم بمعالجة تلك النظم إدراكاً منهم لأهميتها، ويأتي في مقدمة تلك المصنفات كتاب "الخراج" للقاضي أبو يوسف والذي وضعه – كما سبق القول – استجابة لرغبة الخليفة العباسي هارون الرشيد، وتبعه في التصنيف في ذات الموضوع يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م)، وقد أطلق على كتابه اسم "الخراج" أيضاً، وقد تتابعت بعدهما مؤلفات المسلمين عن المال والخراج، فقدم لنا أبو عبيده القاسم بن سَلاّم كتاباً عن الأموال، وتبعه قُدامه بن جعفر (٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م) بمصنفه الذي عنونه باسم "الخراج وصنعة الكتابة"، كما أفرد كل من الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية" وأبو يعلى الفراء في كتابه "الأحكام" فصلاً عن الخراج، وتأتي أهمية هذه الكتابات في استنادها – كما ذكرنا أيضاً – في أحكامها الفقهية على أدلة قرآنية فيما يتعلق بالأموال على اختلاف مظانها كالزكاة والخراج والفيء والغنيمة والجزية والعشور[1].

بيت المال:

وهكذا مثّل النظام المالي في الإسلام جزءاً هاماً من النظام الإداري للدولة العربية الإسلامية، وقد ارتكز في الجهاز الذي أشرف على جمع إيرادات الدولة والصرف منها على شؤون المسلمين، ونعني به **بيت المال**، والتي ارتكزت مصادر دخله في عهد النبوة على الزكاة من المسلمين والغنيمة والفيء من الفتوحات، والجزية من أهل الذمة، مع اتساع الدولة زمن الراشدين، تم جباية الخراج من الأقاليم المفتوحة، وقد تبع ذلك ازدهار النشاط الاقتصادي في الدولة فحصلت العشور من تجار دار الحرب وغيرهم، لتزداد حصيلة الأموال الواردة لبيت المال، وصارت هذه الموارد السابقة تمثل الموارد الأساسية الإلزامية لبيت المال، الذي ضم أيضاً موارد أخرى أختيارية منها الوقف والوصايا، والهبات وغيرها.

ومما لا شك فيه أن أسس هذا النظام المالي قد وضعت أسوة بغيره من النظم الإسلامية في عهد النبوة، وهي أسس تقوم على إعمال أحكام القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، حيث حدد القرآن الكريم الزكاة والصدقات والجزية، ووضح كيفية توزيع الغنيمة والفيئ على المسلمين، وقام الرسول الكريم ﷺ بالتطبيق العملي لتلك القوانين القرآنية المتعلقة بالزكاة والجزية والمغانم، وكيفية الصرف منها على

---

[1] راجع عن ذلك: مقدمة د.: حسين مؤنس في تحقيقه لكتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي، صـ ١٤ وما بعدها، فتحي البراوي: المرجع السابق، صـ ١٣٩ – ١٤٠.

شؤون المسلمين في أوقات السلم و الحرب[1]، وهي قواعد تقررت بعد الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة المنورة وقيام الدولة العربية الإسلامية، أما عندما كان الرسول ﷺ مازال بمكة المكرمة، فلم يكن هناك نظام مالي محدد، له إيرادات معروفة أو مصارف معلومة، بل كانت الإيرادات قليلة جدا، وتتمثل في الأموال التي يجود بها أصحاب الثراء من الصحابة للصرف منها على الدعوة وفقراء المسلمين وسد النفقات الضرورية.

أما بعد الهجرة، ومع نشأة الدولة الإسلامية في المدينة، فقد نزلت الآيات القرآنية الموضحة لركائز هذا النظام المالي في الدولة، حيث أوجبت الزكاة، كأول مورد للنظام المالي في الدولة، ثم توالت الموارد الأخرى لتمثل بدورها مع الزكاة ركائز النظام المالي الإسلامي كالغنائم، والفيء، والجزية، والعشور، وقد نجح الرسول الكريم وتبعه أيضاً الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ﷺ في توجيه ثروة المسلمين على ضآلتها آنذاك لخدمة الصالح العام للجماعة الإسلامية[2]، حيث تشير بعض كتب الفقه أن بيت المال قد وُجد بعد غزوة بدر الكبرى، وكان الرسول ﷺ يقوم على تعيين العمال من أصحابه لجمع الأموال السابق الإشارة إليها، وصرفها على مستحقيها تطبيقاً للقواعد القرآنية المقررة لذلك، وكذلك فعل الراشد أبو بكر الصديق ونظراً لقلة الوارد من الأموال في تلك الفترة، كان بيت المال آنذاك بسيطاً، ولكن مع اتساع الدولة وسيطرة المسلمين على أقاليم عدة من الأراضي الفارسية والبيزنطية ، والقيام على جباية خراجها، ازداد دخل الدولة العربية الإسلامية، وظهرت الحاجة لتنظيم تلك الإيرادات بشكل يتفق وما طرأ من تطور على نظم الدولة[3]، ليستكمل بيت المال قواعده وأركانه في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، باعتباره هو الجهاز المنوط به تنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها (أي كان بمثابة وزارة المالية في العصر الحديث).

وسوف نعرض فيما يلي وبإيجاز لأبرز موارد بيت المال ومصارفه:

١ - الزكاة:

وتسمى أيضاً الصدقة، وهي الضريبة الشرعية التي فرضها الإسلام على الأغنياء والقادرين من المسلمين، وكانت في بداية الأمر اختيارية غير محددة

---

(١) فتحية النبراوي: المرجع السابق، صـ ١٤١.

(٢) في عهد أبي بكر رضوان الله عليه لم يختلف النظام المالي عن النظام في عهد رسول الله ﷺ ، فكانت موارد الدولة تأتي من أربعة مصادر هي الزكاة / الغنائم / الفيئ / الجزية / والمصارف كما هي وكان أبو بكر يساوي بين الناس في العطاء، وفي عهده حدثت بعض الفتوحات في أعقاب قتال المرتدين، حيث صالحه أهل الحيرة على الجزية، فكانت أول جزية في الإسلام.

(٣) فتحية البزاوي: المرجع السابق، صـ ١٤١.

المقادير أو الأنصبة، وتعد رصيداً مالياً لدولة الإسلام في المدينة، تنفق منها في أوجه الخير المتعددة ومنها الإنفاق على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، والجهاد في سبيل الله. وجاءت آيات الذكر الحكيم تثني في عدة مواضع على الذين يعطونها الأمر الذي يساعد على تحقيق مبدأ التكافل الإجتماعي بين أفراد المجتمع الإسلامي مثل قول الله تعالى في سورة البقرة آية "٢٧٠" إن تُبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ... "[1].

وفي سورة التوبة آية ١٠٣ "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم" والزكاة لغة مأخوذة من "زَكّى" أي "نَمَّى"، إذ أن الزكاة تنمو وتزداد بالبركة، وقيل أصلها التطهير وقيل الثناء الجميل.

ويشترط لإخراج الزكاة شرطان:

أ- ملك النصاب ومقداره يختلف باختلاف أنواع الزكاة.

ب- مرور عام على ملكية هذا النصاب.

وقد أوضحت أحكام السنة وحددت كتب الفقه مقادير الزكاة في كل نوع من أنواعها.

فعلى سبيل المثال: حددت كتب الفقه مقادير الزكاة في النقد بحوالي ٢,٥% أي ربع العشر إذا ما بلغ النقد النصاب، وحددت نصاب الذهب بعشرين مثقالاً، والفضة بمائتي درهم، كما قال الفقهاء أن زكاة الزروع والثمار يحددها نوع الري المستخدم في الزراعة، فهي العشر في الأرض التي تروى "بالمطر"، أو سيحاً من ماء القنوات والأنهار[2].

● ***مصارف الزكاة:***

حدد القرآن الكريم مصارف ثمانية للزكاة، وذلك في قول الله تعالى "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم[3].

فلجباة الزكاة وهم **"العاملين عليها"** أجورهم مقابل عملهم في جمعها، ثم تقسم باقي الزكاة على بقية المصارف السبعة الواردين في الآية الكريمة، ومنهم **"المؤلفة قلوبهم"** وهم الذين اعتنقوا الإسلام من الأقوياء وأصحاب المكانة في صدر الإسلام، وقد استلزم الأمر تأليف قلوبهم النافرة واسترضائهم بسهم من الزكاة ترغيباً لهم، وجدير بالذكر أن هذا السهم قد ألغي باجتهاد الخليفة الراشد عمر بن

---

[1] كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ الدولة العربية، صـ ٢١٩.

[2] راجع بالتفصيل عن الزكاة وأنواعها الماوردي: الأحكام السلطانية، صـ ١١٣ وما بعدها، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، جـ ١ / ٤٦٩، وجدير بالذكر أن الأرض إذا كانت تسقى بالآلات فعليها نصف العشر.

[3] سورة التوبة ، آية ٦٠.

الخطاب، بعد أن ظهر الإسلام وزادت قوته، وقد وافق معظم كبار الصحابة على اجتهاد الخليفة.

أما المقصود بـ"الرقاب" فالعبيد فالدولة تتحمل عنهم قدراً من مال الزكاة لتحريرهم من العبودية، حيث أن الإسلام حث منذ بدايته على إلغاء الرق واتبع في ذلك أسلوباً تدريجياً.

والغارمون هم العاجزون عن تسديد ديونهم، فتعين الدولة لهم من موارد الزكاة قدراً يساعدهم على الوفاء بديونهم ،وأما قوله تعالى "في سبيل الله" فالمراد به الجهاد وإعداد الجيوش للزود عن الدين والدولة. "وابن السبيل" هو الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله، فيُعطى من موارد الزكاة، ما يعينه على الوصول لموطنه، حتى ولو كان من أغنى الأغنياء في بلده.

وجدير بالذكر أنه كان للزكاة ديوان خاص بها في حاضرة الخلافة، وله فروع في سائر الأمصار الإسلامية[1].

٢ - الفيء:

وهو المال الذي أصابه المسلمون من المشركين بدون قتال، ودون إيجاف بخيل أو ركاب[2]و وكان للرسول ﷺ خمس الفيء ويقسمه إلى خمسة أقسام متساوية فالخمس الأول من هذا الخمس/ يذهب إلى الرسول ﷺ لينفق منه على بيته وأهله، ومصالح المسلمين ، وبعد وفاة الرسول رد نصيبه إلى بيت مال المسلمين، أما الأربعة أخماس الباقية من هذا الخمس، تذهب لأربابها تنفيذاً لأمر الله تعالى " ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل"[3].

وأما أربعة أخماس الفيء المتبقية فكانت تقسم بين الجند لشراء الأسلحة وإعداد الجيش، حتى قام عمر بن الخطاب بتدوين الدواوين، وقدَّر أرزاق الجند ورواتبهم.

ومع اتساع حركة الفتوحات الإسلامية زمن الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ ، كثرت الأموال والأراضي التي آلت إلى المسلمين دون قتال ، فكتب إليه القادة من مصر والشام والعراق، يسألونه أن يقسم بينهم ما أفاء الله عليهم من الأراضي كما تقسم "غنيمة العسكر"، ورفض عمر حيث كان رأيه أنه لو قسمت الأرض بين المسلمين، لما بقي شيء لمن جاء بعدهم من أجيال المسلمين، ولما تمكنت الدولة من أداء واجباتها، وكان رأيه أن تخمس الأرض ويوضع عليها الخراج وعلى أهلها الجزية يؤدونها للدولة، فتكن فيئاً لمقاتلة المسلمين والذرية ولمن يأتي من بعدهم.

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، صـ ٤٦٩.

(٢) المقصود أنهم حصلوا عليه دون أن يعدوا في تحصيله خيلا ولا إبل راجع حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، صـ٤٧٢ وهـ٤، راجع أيضا: ابن الأثير: الكامل، جـ٢/١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

وقد استند عمر في ذلك على النص القرآني الدال على وجوب ذلك حيث يقول الله تعالى في كتابه الكريم

" ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا دكون دولة بين الأغنياء".

ثم قال الله ﷻ

"للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم"[1].

وهذه الآيات هي التي اعتمد عليها الفاروق عمر في رفضه تقسيم الأراضي كقسمة الغنيمة، حيث قال لقادته " قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء، ولئن بقيت ليبلغن الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه في وجهه"[2].

وقد صدرت توجيهات الخليفة عمر بن الخطاب إلى قادة الفتح بضرورة ترك الأرض وعدم قسمتها بين الجند، وأن يكتفوا بتقسيم الغنيمة فقط عليهم ،وكان ذلك من منطلق خشيته أن ينشغل الأجناد عن الجهاد بملكية الأرض والزراعة والاستقرار فتفتر حماستهم عن الجندية والقتال[3].

وقد نهج الخليفتان عثمان وعلي رضي الله عنهما نهج عمر في التنظيم المالي للدولة، فأصبحت الأراضي التي يفتحها المسلمون فيئاً موقوفاً، أي ملكاً عاماً للأمة الإسلامية بدلاً من أن تكون ملكاً متقاسماً بين الأفراد ويتوارثه الأبناء عن الآباء، وهكذا قام عمر بمسح الأراضي وتقدير الخراج، كما حدد الجزية ومقدارها من ٤٨:٢٤:١٢ درهماً على الفرد كل على حسب طاقته، وأعفى منها النساء والصبيان وغير القادرين من أهل الذمة[4].

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧ ــ ١٠.

(٢) ابو يوسف : المصدر السابق، صـ ١١١ ــ ١١٢، وما بعدها.

(٣) فتحية النبراوي: المرجع السابق، صـ١٤٤.

(٤) ابو يوسف : نفسه ، صـ ٢٧٢ ، ٢٧٣.

٣ـ الغنيمة:

هي كل ما أصابه المسلمون من أهل الشرك بالقتال، وتشتمل على أربعة أقسام هي: الأسرى، والسبي، والأراضي، والأموال: فالأسرى هم المقاتلون من أهل الشرك الذين يقعون في أسر جند الإسلام، والسبي: هم النساء والأطفال الذين يقعون في أيدي المسلمين، فلا يجوز قتلهم، وإنما يقسمون في جملة الغنائم وإذا كانت النساء السبايا من غير أهل الكتاب، وامتنعن عن الإسلام يقتلن أو يسترققن، ويجوز قبول الفدية عنهم. أما الأراضي التي تؤخذ عنوة إثر الحرب يخرج أهلها منها لأنها غنيمة كالأموال[١].

اما الأموال فكانت تُقسم بين المقاتلين وكذلك الحال بالنسبة للأسلاب كثياب القتلى وأسلحتهم ودوابهم فكان الرسول يقسمها حسبما يرى، وإن كانت بعض كتب الفقه قد أوردت أنَّ هذه الأسلاب حقاً لمن قتل هذا المشرك عملاً بحديث يرفعه بعضهم إلى النبي ﷺ "من قتل قتيلاً فله سلبه" وكان الغرض من ذلك تشجيع المقاتلين على حسن البلاء في المعارك.

وتشير المصادر الإسلامية إلى أنه قد ترتب على حروب النبي ﷺ بعض المغانم، لعل أولها بعض إبل قريش وكانت تحمل زبيباً وأدماً وغيرها من تجارات قريش وهي التي غنمتها سرية عبد الله بن جحش[٢]. ثم يليها غنائم غزوة بدر الكبرى وقد وقع اختلاف حول كيفية تقسيم تلك الغنائم فنزلت الآية الكريمة "يسالونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين"[٣]، ويقال أن تلك الغنائم لم تُخمس، بل ساوى الرسول في قسمة غنائم بدر بين المسلمين[٤].

وأول غنيمة خُمَست هي التي غنمها الرسول ﷺ هي التي غنمها من يهود بني قينقاع إثر إجلائهم عن المدينة لنقضهم العهد بعد بدر، فغنم المسلمون أموالهم، وقسمها النبي الكريم وفقاً للنص القرآني الوارد في سورة الأنفال[٥] "

---

(١) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، صـ٤٧٣.

(٢) يذكر ابن هشام أن بعض آل عبد الله بن جحش قالوا بأنه "أي عبد الله" قد قال لأصحابه أن لرسول الله مما غنمنا الخمس، وكان هذا قبيل نزول آية تقسيم الغنيمة، فعزل للرسول ﷺ خمس العير، وفرق سائرها بين اصحابه راجع: السيرة النبوية، ق١ صـ٦٠٣.

(٣) سورة الأنفال: آية (١).

(٤) يذكر أبو يوسف أن الرسول ﷺقسم غنائم بدر للفارس سهمان وللراجل سهم راجع: كتاب الخراج، صـ ٩٨. ويذكر ابن الأثير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قسم غنائم بن قريظة للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً واحدا راجع الكامل جـ٢ / ٧٦.

(٥) آية ٤١.

واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم تؤمنون بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير".

وكان الخمس في عهد الرسول على خمسة أسهم: لله وللرسول سهم، ولذي القربى "بنو هاشم وبنو عبد المطلب"[1] سهم، ولليتامى، والمساكين، وابن السبيل ولكل منهم سهم، ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان ﷺ على ثلاثة أسهم، وأسقط سهمي الرسول وذوي القربى، فرد سهم الرسول لبيت المال، وسهم ذوي القربى قسم على الثلاثة الباقين، ثم قسمه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على نحو ما قسم الراشدون الثلاثة الأول[2].

وفي عهد أبي بكر الصديق ﷺ لم يختلف النظام المالي عن النظام الذي كان سارياً في عهد الرسول ﷺ، حيث كانت موارد الدولة أربعة هي "الزكاة – الغنائم – الفيء - الجزية"، والمصارف كما هي، وقد ساوى الصديق بين الناس في العطاء، وفي عهده ﷺ حدثت بعض الفتوحات في أعقاب قتال المرتدين، حيث صالحه أهل الحيرة، ودفعوا له الجزية، فكانت أول جزية في الإسلام تأتي من العراق[3].

٤ - الجزية:

هي أحد الموارد الرئيسة لبيت المال، وهي مقدار معلوم من المال يُحَصله المسلمون على الرؤوس من أهل الذمة، وتسقط عنهم بدخولهم الإسلام، وقد وجبت الجزية استناداً لقول الله تعالى "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتو الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"[4].

ويفهم من الآية الكريمة السابقة أن الأصل في فرض الجزية على أهل الذمة، هو إيجاد نوع من التوازن بين رعايا الدولة من المسلمين وأهل الذمة في الحقوق والواجبات، ففرضت الجزية على أهل الذمة مقابل فرض الزكاة على المسلمين، فهي تؤخذ منهم مقابل حماية الدولة لهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية.

وجدير بالذكر أنها لا تؤخذ ولا تفرض إلى على الحر القادر، وأعفي منها الفقراء، ومن لا عمل لهم، والنساء والصبيان، والعبيد.

وتشير المصادر الإسلامية إلى أن الرسول ﷺ قد قبل الجزية من نصارى اليمن[5]، كما أن أهل أيلة قد صالحوا النبي إثر غزوة تبوك على الجزية وأشارت

---

[1] أبو يوسف : كتاب الخراج ، صـ ١٠٣.
[2] أبو يوسف : المصدر السابق ، صـ ١٠١.
[3] فتحية النبراوي. المرجع السابق ، ص ١٤٦،
[4] سورة التوبة أية ٢٩.
[5] ابن الأثير: الكامل جـ ١٦٢/٢.

إلى أن مقدارها كان حوالي ٣٠٠ دينار، كما صالح أهل أذْرُح[١] على مائة دينار يؤدونها في غرة رجب من كل عام[٢].

ويذكر ابن الأثير في حوادث عام ٦هـ أن العلاء بن الحضرمي والي اليمن من قبل الرسول ﷺ ، قد صالح أهلها من اليهود والنصارى والمجوس على الجزية من كل حالم دينار[٣].

وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان نصرانياً من كندة، فحاربه وأسره ، وقدم به على رسول الله ﷺ"فحقن دمه وصالحه على الجزية وخلّى سبيله فرجع إلى قريته"[٤].

وقبل الخليفة الراشد الأول (أبو بكر الصديق) - كما سبق القول جزية أهل الحيرة، وكان خالد بن الوليد قد صالح أهلها على جزية بعث بها إلى المدينة عام ١٢ هـ وكان مقدارها ٩٠ ألف درهم، فكانت أول جزية أخذت من الفرس في الإسلام[٥].

وأما عمر بن الخطاب ﷺ فقد كتب إلى أمراء الأجناد في الأقاليم بأن يفرضوا الجزية في إقليمهم، وأمر بأن يعفى منها النساء والصبيان[٦].

وقد اهتم الخلفاء الراشدون بضمان العدالة عند جباية الجزية، وأوجبوا على عمالهم ضرورة الرفق عند جبايتها والحرص على معاملة أهل البلاد المفتوحة معاملة تظهر فيها بوضوح سماحة الإسلام وعدله تنفيذاً لقول رسول الله ﷺ "من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه"[٧].

٥- *الخراج:*

للخراج عدة معايير في اللغة منها الأجر والغلة والإتاوة، واسم لما يخرج، والحصة المعينة من المال يخرجها القوم في السنة، وقال الماوردي: إن الخراج هو ما يوضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها، بمعنى أن الخراج مقدار معين من المال أو الحاصلات (الغلة) يفرض على الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة

---

(١) أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة من نواحي البلقاء وعمان راجع ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ١٥٢ هـ١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٢ / ١٥١ - ١٥٢. كما صالح أهل جرباء (من أعمال عمان) على الجزية وكذلك أهل حقنا (قرية قرب أيلة) على ربع ثمارهم.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٢ / ٩٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ٢ / ١٥٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ٢ / ٢٣٨.

(٦) للمزيد عن الجزية راجع أبو يوسف: الخراج، صـ ١٣٠ وما بعدها،ص ٢٧١ وما بعدها. حيث حدد عمر أن الجزية واجبة كل عام يدفع الموسر ٤٨ درهما، والوسط ٢٤ درهما والفقير (أي العامل بيده والحارث) ١٢ درهما

(٧) راجع في ذلك: أبو يوسف: المصدر السابق صـ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨

أي بالحرب، حيث ظلت تلك الأراضي في أيدي أصحابها الأصليين يقومون على زراعتها نظير دفع ضريبة سنوية لبيت المال تسمى الخراج[1].

ويؤخذ الخراج على نوعين من الأرض:

١- الأرض التي فتحت عنوة عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين وأوقفها للمصلحة العامة بعد تعويض المقاتلين عن نصيبهم فيها، أو استرضائهم كما فعل الخليفة الفاروق ﷺ[2].

٢- الأرض التي أفاءها الله على المسلمين دون قتال: فملكوها وصالحوا أهلها على أن يؤدوا الخراج عنها.

وقد وضع المسلمون قواعد تُعَامل وَفقاً لها أرض الخراج، فخراج الأرض يحدد سنوياً ويراعى عند تحديد قيمته عدة معايير منها سهولة الري وصعوبته، زيادة الغلة ونقصانها، ونوعها، وما يسقى بماء المطر، وما يروى بمياه النهر، ونوعية الأرض (أي جودة الأرض وخصوبتها)، والآفات التي تصيب الزرع[3]، إلى غير ذلك مما يؤكد حرص الدولة الإسلامية على الصالح العام.

وكانت ضريبة الخراج تدفع إما نقداً أي مالاً يحدد كل سنة على الأرض المزروعة، أو جزء معين مما تخرجه الأرض من حاصلات وهو ما اصطلح على تسميته فيما بعد "بالمزارعة" أو "المعاملة"، فقد عامل مثلاً النبي صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على نصف ما يخرج من الأرض قليلاً كان أو كثيراً، ولم يكن مقدار الخراج معروفاً زمن الراشدين، كما لم يكن ثابتاً، بل يقل ويكثر حسب الأحوال[4]، وقد وضع للخراج ديوان، يشرف صاحبه على جمع الأموال، ويساعده في ذلك مجموعة من العمال والجُبَاة والكُتَّاب.

ونختتم الحديث عن الخراج بالإشارة إلى أنواع الأراضي الأخرى والتي لا يفرض عليها الخراج، وهي ثلاثة أشار الماوردي إلى أنها غير خراجية بل يدفع عنها أصحابها ما يسمى بالعشر (الزكاة)، ولذا تعرف بالأراضي العشرية وهي كما يلي:

١- ما أحياه المسلمون من أراض فهي أرض عشر لا يستحق عليها خراج.

٢- الأرض التي أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب، فهذه تترك لهم مقابل أن يدفعوا عنها ضريبة العشر (الزكاة)، ولا يجوز أن يوضع عليها خراج.

---

(١) الماوردي: الأحكام، صـ١٤٧، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، صـ ٤٦١ - ٤٦٢.

(٢) ابو يوسف: الخراج، صـ١١٢ - ١١٣ وما بعدها.

(٣) عند ذلك كانت ضريبة الخراج تخفض نتيجة انخفاض انتاجية الأرضي راجع: عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية صـ٣٩ - ٤٠.

(٤) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، صـ٤٦٢ - ٤٦٣.

٣- الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة وقهراً، فتكون غنيمة يقسمها الخليفة على الفاتحين، وتعتبر من الأراضي العشرية ولا يفرض عليها خراج.

وقد طبقت هذه القواعد سواء الخراجية أو العشرية على الأراضي المفتوحة في العرق والشام وفارس ومصر وغيرها منالأقطار المفتوحه[١].

٦- *العشور:*

يُعرف نظام العشور حديثاً بنظام الرسوم الجمركية على الوارد عبر الموانئ والثغور، كما عُرف في بعض المصادر الإسلامية المتأخرة بالمكوس أو الخمس، وهو مال أو ضريبة أو رسوم تؤخذ على أموال وعروض تجارة أهل الحرب (أي بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد)، وأهل الذمة المارين بها على أراضي وثغور الإسلام[٢].

ويرجع العمل بنظام العشور إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما بعث إليه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه بكتاب من العراق يذكر فيه "أن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر"[٣]، فكتب إليه عمر "خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر، ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً(أي ربع العشر)، وليس في فيما دون المأتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم، وما زاد فبحسابه"[٤].

أما بالنسبة للتجارة الداخلية فليس عليها شيء، ولا تحصل العشور إلا مرة واحدة في السنة[٥]. ويرى القاضي أبو يوسف ضرورة أن يتولى جباية العشور "قوماً من أهل الصلاح والدين"، ويؤمروا أن لا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به، ولا يظلموهم ولا يأخذوا منهم أكثر من المفروض عليهم، وأن يمتثلوا بالأوامر الخلافية الصادرة لذلك، وإذا خالفوا وجب عزلهم وعقابهم[٦].

- أوجه الإنفاق (مصارف بيت المال):

أوضح الماوردي أن هناك عدة مصارف أو أوجه إنفاق لعل من أهمها ما يلي:

١- الإنفاق على مصالح الدولة المختلفة حسبما يرى الإمام ومنها دفع أرزاق أي رواتب الجند والولاة والقضاة والعمال وغيرهم من موظفي الدولة.

---

(١) فتحية النبراوي: المرجع السابق، صـ١٤٥.

(٢) أبو يوسف: المصدر السابق، صـ٢٨٩، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، صـ

(٣) أبو يوسف: نفسه ، صـ٢٩٣.

(٤) أبو يوسف: نفسه ، صـ٢٩٣

(٥) راجع عن ذلك: أبو يوسف: المصدر السابق، صـ٢٩٥.

(٦)أبو يوسف: الخراج ، صـ٢٨٨ – ٢٨٩.

٢- إصلاح المجاري المائية والترع التي تستمد مياهها من الأنهار، وذلك لتوصيل المياه لري الأراضي البعيدة، وكذلك بناء الجسور وحفر الترع والقنوات لزيادة المساحة المنزرعة.
٣- إعداد الجيش والأسطول وتسليحهما.
٤- النفقة على الأيتام والأرامل والأسرى والمسجونين من مأكل وملبس ودفن من يموت منهم.
٥- الإنفاق على العمران سواء المدني أوالحربي أوالديني مثل الحمامات والبيمارستانات، والقلاع والأسوار والمدارس والمساجد وغير ذلك.
٦- **العطايا والمنح** للعلماء والأدباء وذوي المواهب[١]
٧- **العملة:** أقر الخليفة عمربن الخطاب نظام العملة المتداول بين أهل البلاد المفتوحة وكذلك في بلاد العرب، وهي العملة الفارسية والبيزنطية، حيث كان الدينار البيزنطي من الذهب، والدرهم الفارسي من الفضة، لأنه كان من الصعب على العرب في تلك الفترة سك عملة جديدة لهم، ورغم ذلك فقد حرص عمر على إضافة بعض النقوش العربية والشعارات الإسلامية مثل الحمد لله، محمد رسول الله، وبعض الكلمات مثل طيب وجائز ووافٍ إشارة إلى الوزن الصحيح للعملة، وظل نظام العملة هكذا إلى أن تم تعريبها وسك أول عملة عربية إسلامية خالصة في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.
٨- **نظام القضاء:** يعتبر القضاء أهم النظم الإدارية في الدولة الإسلامية، حيث كان للقاضي منزلة كبيرة في الدولة، وتولى الرسول ﷺ بنفسه القضاء بين الناس في مسجده بالمدينة، أما في عهد أبي بكر فقد أُسند القضاء إلى عمر. وعندما اتسعت الدولة الإسلامية في خلافة عمر أصبح من العسير أن يجمع الخليفة بين الحكم أي تولي أمور الدولة وبين القضاء في آن واحد ولذا قام بتعيين قضاة من كبار الصحابة في الأمصار أو الولايات الإسلامية وأمر بجعل القضاة مستقلين عن الولاة وينوبون عن الخليفة في الفصل في المنازعات بين الناس، وخصص لهم رواتب شهرية تعينهم على أعباء الحياة، فكان من هؤلاء القضاة: أبو الدرداء الذي تولى قضاء المدينة، وأبو موسى الأشعري في البصرة، (٢)وعثمان بن قيس بن أبي العاص في مصر وشريح بن الحارث الكندي في الكوفة.(٣)

---

[١] راجع: كمال أبو مصطفى: محاضرات في تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية، ٢٠٠٤، صـ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ،وانظرأيضا. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، صـ ٤٧٥.
(٢) وقيل كعب بن سوار الأزرى. راجع ابن الأثير : الكامل ج٢/٤٦٨،٤٠٣.
(٣)ابن الأثير: الكامل ، ج ٢/ ٤٠٣، ٤٢٤، ٤٢٨.

٩- <u>تأسيس الأمصار أو الحواضر في البلاد المفتوحة:</u>

حرص *الخليفة* عمر على إنشاء مدن أوحواضر إسلامية في البلاد المفتوحة، تكون معسكرات للجند وقواعد حربية، وتحولت تلك الحواضر بعد فترة وجيزة إلى مراكز لنشر الإسلام واللغة العربية بين أهل البلاد المفتوحة، ومن أمثلة تلك الأمصار أو الحواضر التي أسست في عهد عمر مدينة البصرة والكوفة والفسطاط، وقد حرص المسلمون على أن يؤسسوا أولاً في وسط تلك المدن المسجد الجامع وبجواره كانت تبنى دار الإمارة، وحولهما اختط الجند دوراً لهم، كذلك أوصاهم الخليفة بألا يجعلوا بينه وبين المسلمين بحراً عند تأسيسهم للأمصار الجديدة، وأن تكون بعيدة عن سواحل البحر حتى لا تتعرض للغزو البحري.(٣)

١٠- *<u>التقويم الهجري</u>*: يرجع الفضل للخليفة عمر في وضع نظام التقويم الهجري حيث جعل من عام هجرة الرسول من مكة إلى المدينة (وهو يوافق سنة ٦٢٢ م) بداية للتقويم أوللتأريخ عند المسلمين (٤)، والذي مازال معمولاً به حتى وقتنا هذا، والمعروف أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤرخون بالحوادث المهمة التي تمر بهم مثل حادثة الفيل وحرب الفجار وغير ذلك.

١١- *<u>نظام العسس</u>*: وهو يعتبر نواة للشرطة في الإسلام، حيث قام عمر بوضع أول نظام للعسس ليلاً، للمحافظة على أرواح وأموال أهل المدينة، وتأمينهم ليلاً وبعث الطمأنينة في نفوسهم[١].

<u>وفاة الخليفة عمر:</u>

كانت وفاة الخليفة عمر في أواخر ذي الحجة سنة ٢٣هـ، حيث قتل على يدي أبي لؤلؤ المجوسي وأصله من نهاوند - وهو غلام المغيرة بن شعبة والي الكوفة - أثناء تأدية صلاة الفجر، وكان هذا المجوسي يحقد على الخليفة عمر لإنهاء إمبراطورية الفرس على يديه، وعندما أفاق الخليفة من طعنته سأل عن قاتله، فقيل له غلام المغيرة، فحمد الله أنه لم يقتله رجل سجد لله سجدة يحاجه بها عند الله[٢].

---

[١] ابن الأثير، نفسه، ج٢، ص٤٥٤، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج١، ص٤٧١.

[٢] ابن عبد البر، نفسه، ج، ص ١١٥٢؛ ابن الأثير، نفسه، ج٢، ص ٤٤٧.

(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٥٨، ٢٦١

(٤) أبن عبد البحر : نفسه ٢ج٣/ ١١٤٥، أبن الأثير: الكامل ج٢/٤٥٤.

(٣)

خلافة عثمان بن عفان

٢٣ ـ ٣٥ هـ

نسبه ونشأته وإسلامه:

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص الأموي القرشي، ولد بعد عام الفيل بخمس أو ست سنوات، وكان أبوه عفان من كبار أثرياء قريش، ، ومن ذوي الشرف فيها وكانت له تجارة واسعة ، وقد ورث عثمان أبيه تجارته وأمواله الضخمة، ونشأ عثمان على الخصال الحميدة والكرم، ولذا كان محبوباً في قومه ومن سادة قبيلة قريش(١).

وقد أسلم عثمان على يد أبي بكر الصديق حين عودته من تجارة له بالشام، فالتقي به أبو بكر وحدثه عن الإسلام والدعوة إلي الوحدانية التى أتي بها النبيﷺ فانشرح صدره للإسلام، فكان من السابقين الأولين وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وتعرض عثمان للإيذاء و التعذيب بسبب دخوله في الإسلام، حيث حاول عمه الحكم بن أبي العاص أن يرده عن الإسلام فأوثقه بالحبال وحبسه، ولكنه ظل متمسكاً بالدعوة الإسلامية وفاضطر عمه إلي إطلاق سراحه.

وتزوج عثمان من رقية بنت رسول الله، وهاجر بها إلي الحبشة، وعندما توفيت يوم غزوة بدر زوجه رسول الله من ابنته أم كلثوم ولذا لقب بذي النورين، لأنه شَرُفَ بمصاهرة النبي ﷺ في ابنتيه، وبعد وفاة أم كلثوم سنة ٩ هـ قال له النبي ﷺ " لو كان لنا ثالثة لزوجناكها"، مما يدل على مكانة عثمان ومنزلته الرفيعة لدي النبي ﷺ .

وشهد عثمان جميع الغزوات مع رسول الله عدا غزوة بدر لمرض زوجته الشديد الذي توفيت فيه، وكان سفير النبيﷺ إلي قريش يوم الحديبية، وأنفق معظم أمواله في سبيل الله والإسلام، فهو الذي اشتري بئر رومة من اليهودي في المدينة ووهبها للمسلمين، كما كان له دور كبير في تجهيز جيش العسرة لغزوة تبوك، مما جعل النبي ﷺ يقول: "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم". ، كما أثر عنه ﷺ أنه قال: "

---

(١) انظر : المسعودي، ج٢، ٣٣١-٣٣٢؛ حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج١، ص٢٥٦؛ يوسف علي يوسف ـ نفسه ، ص١١٥-١١٦.

من جهز جيش العسرة فله الجنة" كذلك كان عثمان واحداً من كتاب الوحي لمعرفته القراءة والكتابة، وساهم في عهد الخليفة عمر في التخفيف آنذاك للقحط والمجاعة فتصدق عثمان بقافلة له كانت آتية من بلاد الشام، وكان ﷺ وأحدا من الستة الذين اختارهم الخليفة عمر ليكون أحدهم خليفة للمسلمين من بعده[1] .

مبايعته بالخلافة:

عندما شعر الخليفة عمر بدنو أجله، فكر في مصير المسلمين من بعده، وخشي عليهم من الاختلاف وتفرق الكلمة بعد وفاته إذا ترك الأمر شوري مطلقة بينهم جميعاً، كما لم يرغب في أن يستخلفه شخصاً معيناً، وآثر أن يختار للمسلمين ستة من كبار الصحابة توفي الرسول وهو عنهم راض وهم : عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، على أن يختار هؤلاء الستة واحداً من بينهم، تجتمع عليه الكلمة ويبايعه المسلمون. وأوصاهم عمر بألا يتجاوز هذا الاختيار ثلاثة أيام بعد وفاته،وإذا تعادل فريقين في الرأي، فليرجح ابنه عبد الله أحدهما، وأوصاه عمر بأن يكون مع الفريق الذي فيه عبد الرحمن بن عوف، ولم يلبث عمر أن توفي عقب ذلك، ودارت مشاورات بين كبار الصحابة أو أهل الشورى الذين اختارهم عمر، وانتهت مبايعتهم لعثمان بن عفان، وبايعه المسلمون في المدينة عند منبر مسجد الرسول ﷺ في آخر ذي الحجة سنة ٢٣هـ[2].

ومن أهم مميزات عهد الخليفة عثمان ما يلي:-

أولا:استمرار حركة الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً

مثلما كانت في عهد أمير المؤمنين عمر، فقد شهد عهد الخليفة عثمان مقتل يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس سنة ٣١هـ على يد بعض أتباعه الذين تآمروا عليه بعد أن حاول إعداد العدة لمقاومة المسلمين عقب هزيمته في نهاوند.

ومن ناحية أخرى قام المسلمون ببعض الفتوحات المهمة شرقاً، حيث تم فتح بلاد طبرستان على يد سعيد بن العاص، واضطر ملك جرجان إلي دفع الجزية للمسلمين، كذلك فتحت منطقة أرمينية البيزنطية على يد القائد حبيب بن مسلمة ووافق أهلها على دفع الجزية سنة ٢٤هـ، أما القائد الأحنف بن قيس فقد عبر نهر جيحون، وأخضع معظم بلاد ما وراء النهر[3].

---

[1] انظر، يوسف علي يوسف، ص ١١٦-١١٧.

[2] انظر : ابن الأثير، نفسه، ج٢، ص ٤٥٩ ومايليها.

[3] انظر: الطبرى، نفسه، ج٤، ص ٢٤٦-٢٤٧، ٢٦٩، ٣٠٩-٣١٣.

وجدير بالإشارة أن معاوية بن أبي سفيان والي الشام أسهم أيضاً بدوره في الفتوحات حيث عرض على الخليفة عثمان ضرورة امتلاك المسلمين لأسطول بحري لمواجهة الروم في البحر المتوسط خاصة وأن الدولة الإسلامية أصبحت لها سواحل بحرية مما يعرضها لخطر الغزو البحري، وعلى هذا وافق الخليفة على رأي معاوية الذي تمكن من إنشاء أول أسطول بحري للمسلمين في حوض البحر المتوسط بمساعدة من أقباط مصر وبعض أهل الشام وعرب اليمن، واستطاع المسلمون عن طريق هذا الأسطول فتح جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ وكذلك رودس ثم خاض الأسطول الإسلامي أول موقعة بحرية ضد الأسطول البيزنطي قرب سواحل آسيا الصغري(وقيل قرب ساحل الإسكندرية) هي موقعة ذات الصواري سنة ٣٤هـ التي انتصر فيها المسلمون على البيزنطيين، وبذلك تم وضع نواة الأسطول الإسلامي وتأسيس البحرية الإسلامية في عهد عثمان ﷺ[١].

أما ولاية مصر فقد انتهز الروم (البيزنطيون) فرصة عزل عمرو بن العاص عنها وعودته إلي المدينة وتولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمرمصر بدلاً منه وقاموا بغارة بحرية على الإسكندرية بقيادة مانويل سنة ٢٥ هـ واستولوا عليها واستنجد أهلها بالخليفة عثمان، والتمسوا منه إعادة عمرو إلي ولاية مصر لخبرته بحروب الروم وهيبته في نفوسهم، فإعاده الخليفة على الفور إلى مصر وتمكن من الانتصار على الروم وهم في طريقهم نحو الفسطاط، ثم طاردهم حتى الإسكندرية، فاضطروا للانسحاب والهرب في سفنهم [٢].

ثم تولي على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي قام في ٢٧هـ بحملة على إفريقية (المغرب الأدني) وانتصر على الروم في موقعة سبيطلة سنة ٢٨هـ[٣] ،كما قام بحمله على بلاد النوبة وعقد صلحاً مع حاكمها سنة ٣١هـ. وبذلك اتسعت الدولة الإسلامية في عهد الخليفة عثمان اتساعاً كبيراً، فأصبحت تمتد من بلاد ما وراء النهر شرقاً حتى طرابلس غرباً،ومن أرمينية شمالاً حتى بلاد النوبة جنوباً.

ثانياً:- المصحف العثماني (توحيد القراءات):

بدأت في عهد الخليفة عثمان تبرز ظاهرة اختلاف الناس في القراءة أي تعدد القراءات للقرآن الكريم، فقد حدث أن اجتمع حذيفة بن اليمان في جامع الكوفة مع عبد الله بن مسعود صاحب المصحف الذي يتبعه أو يقرأه أهل الكوفة وأبي موسي الأشعري (وكان له مصحف يقرأ عليه أهل البصرة) وأوضح لهما حذيفة

---

[١] الطبري: نفسه، ج٤، ص ٢٨٨-٢٩٢.
[٢] الطبري: نفسه، ج٤، ص٢٥٠.
[٣] تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٥٩، الطبري، نفسه، ج٤، ص٢٥٤.

ضرورة توحيد المصاحف أو القراءات خاصة وأن هذه الظاهرة وُضحت أيضاً في المسجد الجامع بالمدينة وصارت هناك مجادلات بين الناس حول القراءة الصحيحة.

ومما أوضح خطورة تلك الظاهرة أن حذيفة بن اليمان شهد فتح أرمينية وكان بالجيش قوات من العراق وأخرى من الشام، فكان جند العراق يتعصبون لقراءة (مصحف) عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري بينما يتعصب جند الشام لمصحف أوقراءة المقداد بن الأسود وأبي الدرداء ، وأخذ كل فريق في تفضيل قراءته على الآخر،ولذا دب الخلاف بينهما، مما أنذر بحدوث فتنة في صفوف جش المسلمين بأرمينية في ظل ظروف عصيبة، وعلى هذا أسرع حذيفة إلي المدينة لمقابلة الخليفة عثمان وأخبره بالخطر الذي يوشك وقوعه بين المسلمين لاختلاف القراءات وقال له: "أدرك هذه الأمة قبل تهلك".

واقتنع الخليفة بحديث حذيفة، فجمع أهل الشورى والرأي من كبار الصحابة وعرض عليهم المشكلة، واقترح توحيد قراءات المصحف في قراءة واحدة، فوافقوا على رأيه بالإجماع، ثم بعث إلي أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأخذ من عندها نسخة القرآن الكريم التي كانت قد جمعت في عهد أبي بكر، ثم أمر زيد بن ثابت كاتب الوحي أن يكتب المصحف وأن يملي عليه سعيد بن العاص الأموي بحضور بعض كبار الصحابة من الحفاظ أو القراء، وإذا اختلفوا في لفظة فليكتبوها بلهجة قريش لأن القرآن نزل على رجل من قريش، وبعد أن قاموا بهذا العمل المهم خير قيام، أمرهم الخليفة بنسخ عدة نسخ منه (قيل خمس مصاحف أو سبعة) أرسلت إلي الأمصار الإسلامية، بينما احتفظ الخليفة بنسخة في المدينة، وأمر بأن يلتزم الناس بهذا المصحف العثماني الذي بعث به إلي الأمصار لأنه المصحف الإمام، ولضمان تنفيذ ذلك أمر بأن يجمع ما عداه من مصاحف وأن تحرق.

وبهذا العمل الحاسم الجليل الذي قام به الخليفة عثمان زال شبح الخوف على كتاب الله وأنقذ القرآن من تحريف خطير كان أن يلحق به بمرور الزمن، كما أنقذ المسلمين من فتنة أوشكت أن تقع بينهم[1].

<u>ثالثاً :- فتنه: مقتل عثمان</u>

<u>أ- أسباب الفتنة:</u>

<u>أشارت المراجع إلي عدة أسباب للفتنة ومنها ما يلي:</u>

١- من المعروف أن الخليفة عثمان تولي الخلافة وكان شيخاً مسناً في حوالي السبعين من عمره، واتسم بصفات اللين والتسامح، مما أطمع فيه الطامعون

---

[1] انظر : يوسف علي يوسف، نفسه، ص ١٤١-١٤٢، حلمي سالم، ص٨٧-٨٨.

والحاقدون والمفسدون في الأرض الذين أخذوا يتهمونه بالاتهامات الباطلة، ويشيعون عنه الأكاذيب، وحولوا بخبثهم بعض حسناته إلي سيئات مثل توحيد القراءات أو اللهجات في قراءة واحدة لكتاب الله.

٢- سياسة التساهل والترف بعد التشدد والتقشف: كانت صفات الزهد والتقشف والخشونة والتشدد مع الولاة والعمال تغلب على الخليفة عمر، الذى ألزم كبار الصحابة بعد الفتوحات باتباع حياتهم الأولي القائمة على الخشونة والتقشف ومنعهم من مغادرة المدينة خشية افتتان الناس بهم أو أن يتأثروا بتيار الترف والبذخ الدي يسود في البلاد المفتوحة، ولذلك أمر جنده في البلاد المفتوحة بالإقامة في معسكرات خارج المدينة يعيشون فيها حفاظاً على خشونتهم التى صقلتهم وجعلت منهم محاربين أشداء، غير أن تلك السياسة لم تستمر في عهد الخليفة عثمان الذي سمح لكبار الصحابة بمغادرة المدينة والسكن في الأمصار وامتلاك الدور الفخمة والأراضي والضياع، والأموال فيها، والتف الناس من حولهم، وافتتنوا بمظاهر الحضارة والترف السائدة بتلك الأمصار[١] ومن ناحية أخري كان الخليفة عثمان نفسه ثرياً يعيش حياة الأغنياء من الترف والتمتع بطيب الطعام والملبس ويسكن داراً فخمة مبنية بالحجر والكلس ويمتلك الأموال والجنان والأراضي بالمدينة وغيرها، مما جعل بعض كبار الصحابة مثل أبي ذر الغفاري - ينكر عليه ذلك وتحوله عن سياسة التقشف والزهد التي اتبعها الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر[٢].

<u>ثالثاً : التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الأمصار الإسلامية:</u>

في الواقع أن الفتوحات الإسلامية وإنشاء المدن أو الأمصار الإسلامية الجديدة في البلاد المفتوحة وانتقال الكثير من القبائل العربية علاوة على بعض كبار الصحابة إلى تلك البلاد والاستقرار فيها واختلاطهم بأهل البلاد المفتوحة والنظم والتيارات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة فيها قد أدي إلي تطور خطير في الدولة الإسلامية، حيث بدأت تلك الأمصار الجديدة مثل البصرة والكوفة والفسطاط تلعب دوراً مهماً ومؤثراً في سياسة الدولة الإسلامية[٣].

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن مثيري الفتنة ضد الخليفة تركزوا في تلك الأمصار الثلاثة مدفوعين في عدائهم للخليفة بأغراض شخصية، ففي الكوفة - وعلى سبيل المثال - حدث تطور في مجتمع الكوفة بأن أصبحت اليد العليا هناك بيد اللواحق الذين لحقوا بالفاتحين العرب الأول بينما لا وجود في المجتمع الكوفي

---

(١) حلمي سالم، نفسه ، ص٨٨-٨٩.
(٢) المسعودي، نفسه، ج٢،ص٣٣٢، ٣٤٠.
(٣) عبد الشافي غنيم، التاريخ الإسلامي، ص ١٤٣.

للسابقين في الإسلام وممن جاهدوا في سبيل نصرته، مما دفع سعيد بن العاص والي الكوفة أن يرسل إلي الخليفة ينبهه إلي تلك الظاهرة الخطيرة، التي اهتم بها الخليفة وسمح لبعض الصحابة بالهجرة إلي الكوفة والاستقرار فيها، كما امر واليها بأن يكون لهم الكلمة النافذة، وأن يكون اللواحق تبعاً لهم، مما أوغر صدورهم على الخليفة[1]، وفي نفس الوقت فإن سُكني كبار الصحابة بالأمصار كان موضع إعجاب وافتتان العامة بهم وبماضيهم العريق في خدمة الإسلام، فالتف حول كل واحد منهم فريق يودون أن تصبح الخلافة في يده لينالوا المكانة والنفوذ لديه[2].

رابعاً :- انتقاد تصرفات الخليفة الشخصية:

انتقد بعض الصحابة الكثير من التصرفات الشخصية للخليفة عثمان منها قيامه بعزل الولاة والعمال القدامي والأكفاء الذين كانوا يتولون في الأمصار منذ عهد عمر وتوليته آخرين من أقربائه أساءوا السيرة في الرعية وتجاوزوا الحدود، كما أخذوا عليه سماحة لكبار الصحابة بالإثراء وامتلاك الدور والقصور والضياع، وإغداقه الأرزاق والأعطيات على أقوام بالأمصار لم يكونوا من الصحابة أو السابقين في الإسلام، ولم يجاهدوا في سبيل نصرة الدعوة الإسلامية، وقيامه بإعادة عمه الحكم بن أبي العاص إلى المدينة بعد أن غربه النبي ﷺ وأبعده عنها لإيذائه له بلسانه[3]، علاوة على ابتعاده عن سياسة الشيخين أبي بكر و عمر التقشفية، واستخدامه السوط لأول مرة في ضرب ظهور الناس وتجاوز عن الدرة والخيرزان، وقيامه بنفي الصحابي أبي ذر إلي الربذة خارج المدينة لانتقاده تصرفات الخليفة، وإساءته معاملة بعض الصحابة مثل عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود[4] ، غير أن القاضي أبا بكر بن عربي في كتابه "العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة " شكك في تلك الروايات وأوضح أن أبا ذر كان زاهداً وهو الذي خرج باختياره زاهداً إلى الربذة، ويُضيف بأن ضربه لابن مسعود وعمار ما هو إلازور وإفك[5].

خامساً:- دور عبد الله بن سبأ:

ابن سبأ أصله من يهود فارس وسكن اليمن، وقد أسلم متأخراً في عهد الخليفة عثمان؛ وقيل أنه تظاهر باعتناق الإسلام لكي يثير الفرقة والفتنة في

---

(1) حلمي سالم ، نفسه، ص٩٠-٩١.

(2) يوسف علي يوسف، نفسه، ص١٤٥-١٤٦.

(3) المسعودي، نفسه، ج٢، ص ٣٣٤.

(4) المسعودي، نفسه، ج٢، ص٣٣٨، ٣٤١، عبد العزيز سالم، نفسه، ص ٢٨٥- ٢٨٨.

(5) راجع التفاصيل في :ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٦١ وما يليها.

صفوف المسلمين، حيث أخذ بعد إسلام يجوب الأمصار الإسلامية لكي ينشر فيها أفكاره الهدامة المتطرفة، وهي مبادئ غريبة عن الإسلام ومنها مبدأ الرجعة أي عودة رسول الله إلي الحياة إما في صورته أو في صورة علي بن أبى طالب وكذلك مبدأ تناسخ الأرواح أي خروج الروح من الجسد وحلولها في جسد آخر، ومبدأ الوصاية أو الوصية ويتلخص في أن لكل نبي وصيّ وأن علي بن أبي طالب هو وصي النبيﷺ بمعنى أن رسول الله أوصي لعلي بالخلافة من بعده، واستند في ذلك إلي روايات ضعيفة وأحاديث موضوعة منسوبة للنبي ﷺ وكان هدف ابن سبا من تلك الإدعاءات:

أ- أن عثمان مغتصب للخلافة من صاحبها الشرعي وهو علي بن أبي طالب، وذلك لكي يُحدث الانقسام والمنازعات بين المسلمين[1].

وقد استطاع ابن سبأ أن ينشر أفكاره الهدامة في بعض الأمصار الساخطة على سياسة الخليفة عثمان مثل البصرة الكوفة والفسطاط، واستعان في ترويج أكاذيبه برجلين من قريش انضما إليه وكانا من الحاقدين على الخليفة وهما: محمد بن إبي بكر الصديق الذي كان يميل لعلي للصلة الوثيقة بينهما: (حيث تزوج علي من أمه أسماء بنت عُميس بعد وفاة الخليفة أبي بكر فتربي محمد في بيت علي)، أما الآخر فهو محمد بن أبي حذيفة، والده أبو حذيفة من كبار الصحابة، ونشأ ابنه محمد في كنف ورعاية الخليفة عثمان بعد استشهاد والده، ولكنه كان ساخطاً على الخليفة لأنه لم يسند إليه حكم أحدي الولايات، ولعل هذا يفسر تأييدهما لحركة ابن سبأ [2]

سادساً:- قضية وفد مصر (مشكلة الكتاب المزور) :

خرجت وفود من الأمصار الإسلامية الساخطة على سياسة الخليفة عثمان إلي المدينة في سنة ٣٥هـ لمواجهته بما أخذوه عليه من مآخذ في سياسته ومطالبته بإصلاح الأمور، فتذكر المصادر أن وفد مصر كان من خمسمائة (وقيل ألف) على رأسهم محمد بن أبي بكر وعبد الرحمن بن عُديس البلوي - من زعماء عرب مصر - كذلك خرجت وفود من البصرة والكوفة إلي المدينة بحجة أداء العمرة، ولكنهم لم يلبثوا أن حاصروا المدينة.

وقد توسط علي بن أبي طالب بين الخليفة عثمان ووفد مصر، وأخبرهم بأن الخليفة قد تاب، فطالب وفد مصر بعزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح وتولية

---

[1] عبد العزيز سالم، نفسه ، ٢٨٩-٢٩٠.

[2] يوسف علي يوسف ، نفسه، ص١٥١.

محمد بن أبي بكر مكانه، فوافق الخليفة بعد أن أقنعه علي بن أبي طالب بذلك، وبدأ وفد مصر في العودة إلي بلده بصحبه جماعة من المهاجرين والأنصار، لمراقبة ما يحدث بين وفد مصر وابن أبي سرح.

وأثناء عودة وفد مصر قابلوا في الطريق مبعوثاً من الخليفة معه رسالة عليها خاتم الخليفة موجهة إلي ابن أبي سرح والي مصر يأمره فيها بقتل زعماء الوفد وعلى رأسهم محمد بن أبي بكر، ويُقره على ولايته بمصر، فانزعجوا لذلك وعادوا إلي المدينة في حالة سخط شديد وقرأوا الكتاب بحضور بعض الصحابة، مما أغضب أهل المدينة على الخليفة عثمان، فذهب إليه علي بن أبي طالب وأطلعه على الكتاب، فأقسم الخليفة بأنه ما كتبه ولا علم له به أي أن الكتاب مزور وباطل، فطلبوا منه أن يسلمهم كاتبه مروان بن الحكم (ابن عمه) فرفض مما أدي إلي ازدياد التوتر والسخط على الخليفة[1].

سابعاً: - العصبية القبلية:

من الأسباب السياسية أيضا للفتنة عودة العصبية القبلية، حيث نتج عن الفتوحات الإسلامية هجرة الكثير من القبائل العربية إلي الأمصار والبلاد المفتوحة مما ساعد على قيام نوع من الإقليمية الجديدة أو العصبيات القبلية، أخذت معها القبائل تنظر بنوع من الفخر إلي موطنها الجديد لارتباط مصالحها بهذه المناطق الجديدة التي استقروا فيها مثلما حدث في البصرة والكوفة والفسطاط كذلك أخذت هذه القبائل تنظر بعين الحسد لقريش لما أصبحت تتمتع به من ثراء ونفوذ سياسي، فالخلافة استأثرت بها قريش التي أغدق عليها الأعطيات والأرزاق، ما دفع تلك القبائل الأخرى إلي إظهار سخطها على قريش[2].

مقتل الخليفة عثمان سنة ٣٥ هـ:

عندما عاد وفد مصر إلي المدينة وهم في حالة تذمر وسخط على الخليفة، بسبب الرسالة التي عثروا عليها مع غلامه، وتأكيد الخليفة عثمان لهم بأنه ما كتبها ولا علم بها وتأكيد علي بن أبي طالب لهم صدق قول الخليفة، رد زعماء وفد مصر بأنه إما صادق أو كاذب، فإن كان كاذباً فقد استحق خلعه من الخلافة، وإن كان صادقاً فقد استحق أن يخلع نفسه لضعفه عن هذا الأمر (أي تولي حكم المسلمين) وغفلته وخُبث بطانته، ومن ثم طلبوا منه أن يخلع نفسه من الخلافة، فرفض عثمان وقال لهم: " لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله"، وهنا تأزم الموقف خاصة

---

[1] ابن الأثير، نفسه، ج٣، ص ٥٩؛ عبد العزيز سالم، نفسه، ص ٢٩٠-٢٩٢.
[2] عبد الشافي غنيم، نفسه، ص ١٤٤.

عندما علم ثوار الأمصار أن ولاة عثمان مثل معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن عامر وابن أبي سرح بدأوا في إرسال قواتهم إلى المدينة لنجدة الخليفة ومواجهة الثوار، الذين أخذوا في محاصرة دار الخليفة ومنعوا عنه الطعام والماء وذلك في شوال سنة ٣٥هـ، وقام علي بن أبي طالب وأولاده علاوة على عبد الله بن الزبير وأقرباء الخليفة مثل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وبعض أبناء الصحابة بجهد كبير في الدفاع عن الخليفة ولكن كثرة أعداد الثوار جعلتهم ينجحون في اقتحام دار الخليفة وقتله ظلماً أثناء تلاوته للقرآن في ١٨ ذي الحجة من هذا العام [1] مما كان إيذاناً باندلاع فتنة كبرى بين المسلمين.

---

[1] ابن الأثير ، نفسه ، ج٣، ص ٥٨-٦٨.

(٤)

خلافة علي بن أبي طالب

٣٥-٤٠هـ

التعريف به:

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي، وأمه هي فاطمة بنت أسد بن هاشم، فهو لذلك هاشمي النسب من جهة أبيه وأمه، وولد رضي الله عنه قبل بعثة رسول الله بعشر سنوات، وهو أول من أسلم من الصبيان حيث تربي في بيت النبي ﷺ لأن مكة كانت قد تعرضت للجدب والقحط فأراد النبي وعمه العباس التخفيف عن أبي طالب ومساعدته في المعيشة لكثرة أولاده وقلة ماله بأن يعولا بعض أبنائه، فأخذ الرسول ﷺ علياً، بينما ضم العباس إليه جعفر بن أبي طالب[1].

وكان لنشأة علي في بيت النبوة أثر كبير في تكوين شخصيته وأخلاقه، حيث تأثر بأخلاق رسول الله، واهتدى بهديه ، واقتدي به، وأجاب الدعوة الإسلامية منذ صغره وقام بدور بارز في نصرة الدعوة والجهاد في سبيل الله.

ويعتبر علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أول فدائي في الإسلام، فقد نام في فراش النبي ﷺ في ليلة الهجرة عندما تآمر المشركون على قتله، ومكث بمكة بضعة أيام بعد الهجرة حتى يرد الأمانات التي تركها النبي ﷺ إلي أهلها، ثم لحق برسول الله في قباء، وزوجه من ابنته فاطمة التي أنجبت له الحسن والحسين ـ سيدا شباب أهل الجنة ـ وزينب ﷺ[2] .

وكان علي من كتاب الوحي وشهد مع رسول الله جميع الغزوات عدا غزوة تبوك حيث استخلفه النبي ﷺ على المدينة، وأبلى في الجهاد بلاء حسناً، فقد بارز المشركين يوم غزوة بدر وانتصر عليهم وقتلهم، كما قتل عمرو بن عبد ود يوم الخندق، وأعطاه النبي ﷺ الراية في غزوة خيبر وانتصر على اليهود واقتحم حصونهم المنيعة، وهو الذي قام بتجهيز رسول الله بعد وفاته تنفيذاً لوصيته عليه الصلاة والسلام، وكان من أهل الشورى والرأي في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان لرجاحة عقله وسداد رأيه وتفقهه في الدين وتقواه.

---

*إعداد : أ.د كمال السيد أبومصطفى

[1] انظر :تاريخ خليفة بن خياط ص ١٨٠، يوسف علي يوسف، نفسه، ص١٦٦-١٦٧.
[2] الطبرى ، نفسه ، ج٥، ص١٥٣-١٥٥..

موقف على الخلافة:

لم يتخلف أحد من كبار صحابة رسول الله عن مبايعة الخليفة أبي بكر عدا سعد بن عبادة الأنصاري (سيد الخزرج) الذي كان يعتقد في أحقيته في الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ . أما بالنسبة لعلي بن أبي طالب فقد أشارت معظم المصادر إلي أنه لم يتخلف عن مبايعة أبى بكر بالخلافة حيث يذكر الطبرى أن علياً عندما بلغه خبر البيعة العامة لأبي بكر في المسجد أسرع لمبايعته هناك، وإن كانت هناك رواية أخرى ـ لا نميل إليها ـ تفيد بأن علياً لم يبايع إلا بعد وفاة زوجته فاطمة [١]، وذلك أن آل بيت رسول الله (أو بني هاشم) كانوا يرون أن علياً أحق المسلمين بخلافة النبي ﷺ لكونه ابن عمه وزوج ابنته ومن السابقين الأولين في الإسلام، ومن أبرز المجاهدين لنصرة الدعوة الإسلامية، ومما يذكره بعض المؤرخين في هذا الصدد أن العباس بن عبد المطلب ـ عم رسول الله ـ طلب من علي ابن أخيه أن يدخلا على النبي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه ويلتمسا منه أن يعهد له بعد وفاته ولكنه رفض، كما لم يستجب للعباس عندما طلب منه أن يبسط يده ليبايعه بالخلافة عقب وفاة النبي ﷺ خوفا من حدوث فتنة بين المسلمين، أو أن يفسروا ذلك بأنه يشبه الحكم الوراثي الذي لم يألفه العرب. ومن ناحية أخرى لم يتخلف علي عن مبايعة عمر وعثمان ولم يخرج عن إجماع المسلمين رغم اعتقاده في بأحقيته في الخلافة.

مبايعته بالخلافة :

ذكر المؤرخ الطبرى عدة روايات حول كيفية تقلد علي بن أبي طالب الخلافة ، ففي رواية يفيد بأن كبار الصحابة بالمدينة طلبوا من علي أن يتقلد أمور المسلمين عقب مقتل الخليفة عثمان، فامتنع في بادئ الأمر، ولكنهم عادوا مرة أخرى وضغطوا عليه إلي أن وافق على تقلد الخلافة[٢] . ويضيف الطبرى أنه اشترط عليهم ألا تكون بيعته خفية أي سراً ولا تكون إلا عن رضا المسلمين، ولذا قام زعماء المهاجرين وعلى رأسهم طلحة والزبير علاوة على زعماء الأنصار بمبايعته في مسجد رسول الله بالمدينة، ثم بايعه بقية المسلمين هناك، وإن كانت هناك رواية أخرى للطبرى تذكر أن طلحة والزبير بايعا علياً كرهاً أي تحت تهديد من زعماء ثوار الأمصار في المدينة [٣] .

---

[١] يوسف على يوسف ، نفسه. ص ٢٨-٢٩.

[٢] الطبرى. نفسه ، ج٤ ، ص ٤٢٧.

[٣] الطبرى، نفسه ، ج٤ ، ص٤٢٩

وتفيد رواية أخرى حول ظروف مبايعة علي بالخلافة أن الدولة الإسلامية ظلت حوالي خمسة أيام دون خليفة بعد مقتل عثمان مما هدد بحدوث الفوضى واستفحال الفتنة، وكان يسيطر على مقاليد الأمور في المدينة أحد زعماء الثوار ويدعى الغافقي بن حرب، وأثناء ذلك كان وفد مصر يحاول إقناع علي بتولي الخلافة ولكنه كان يمتنع ، أما وفد الكوفة فكان يرغب في الزبير الذي لم يستجب، في حين أن وفد البصرة كان يريد توليه طلحة الخلافة ولكنه رفض الاستماع إليهم، وعندئذ قام زعماء ثوار الأمصار بالذهاب إلي علي مرة أخرى وضغطوا عليه، وأوضحوا له خطورة الموقف والخشية من اختلاف الناس وتفرقهم، فاضطر إلى قبول الخلافة، فكان من بايعه كما يزعم أهل الكوفة هو الأشتر النخعي وبايعه غالبية الصحابة وأهل أول المدينة وثوار الأمصار بها [1].

وهكذا تمت مبايعة علي بالخلافة في أواخر ذي الحجة سنة ٣٥هـ وعقب مبايعته صعد المنبر بمسجد رسول الله وخطب فيهم خطبة كان يحتاجها المسلمون في تلك الظروف العصيبة، حيث ذكرهم فيها بكتاب الله تعالي الذي أنزله هادياً للناس وبين فيه الخير والشر، كما دعاهم إلي عمل الخير واجتناب الشر، وأوصاهم بالتزام الفرائض، ومراعاة حرمات الله وأهمها حرمة المسلم ـ وأضاف بأن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده وأنه لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب[2].

عزل ولاة عثمان ونتائج ذلك:

قام الخليفة علي عقب توليه الحكم بعزل ولاة عثمان الذين كانوا أحد أسباب الفتنة بالأمصار، رغم أن بعض الصحابة مثل عبد الله بن العباس والمغيرة بن شعبة نصحوه بأن يتريث بعض الوقت، ويُقر ولاة عثمان على نفس ولاياتهم إلي أن تهدأ الأمور ويستتب الوضع وتتوطد خلافته، وعلى هذا تم تغيير الولاة دون مشاكل عدا ولاية الشام التي كان يتولاها معاوية بن أبي سفيان، الذي أعلن أن علياً لم يقع الإجماع على مبايعته، وأن عثمان قتل ظلماً ويطالب بدمه، ولذا فهو يرفض الانصياع لأمر الخليفة علي.

وهنا قام الخليفة بجمع أهل المشورة والرأي من كبار الصحابة في المدينة لبحث مشكلة معاوية، وأثناء ذلك وصلت الأنباء إليه بأن جموعاً من الساخطين عليه من أنصار وأقارب الخليفة المقتول عثمان بدأوا يتجمعون في مكة وانضم إليهم

---

[1] الطبرى، نفسه ، ج٤ ، ص٤٢٣؛
[2] انظر ، نص خطبة الخليفة علي في نفس المصدر السابق، ج٤، ص ٤٣٦؛ يوسف علي يوسف، نفسه. ص ١٧٨-١٧٩.

طلحة والزبير والسيدة عائشة وكانت تؤدي العمرة - والتي أعلنت أيضاً أن عثمان قتل مظلوماً ولا بد من القصاص من قتلته - وبذلك كان علي الخليفة مواجهة مشكلتين : الأولى مشكلة معارضة معاوية بالشام، والثانية مشكلة طلحة والزبير والسيدة عائشة وأتباعهم في مكة [1].

أولا : مشكلة طلحة والزبير (موقعة الجمل) سنة ٣٦ هـ:

بدأ الخليفة علي بمواجهة المعارضة الأضعف وتتمثل في طلحة والزبير ومعهم السيدة عائشة وأنصارهم، الذين غادروا مكة واتجهوا إلي البصرة حيث انضم إليهم العديد من المؤيدين هناك وذلك لميل أهل البصرة إلي طلحة ،وعندما علم الخليفة بذلك خرج بجيشه إلي الكوفة ليكون قريباً من مراكز المعارضة، ومن هناك بعث برسالة إلي طلحة والزبير يوضح لهما موقفه من مقتل عثمان ويدعوهما إلي الطاعة وحقن دماء المسلمين، ولكنهما رفضا، فاضطر إلي الزحف نحو البصرة، فنزل أولا بموضع ذي قار، وبعث ابنه الحسن وعمار بن ياسر لاستنفار أهل الكوفة، ثم اتجه علي بعد ذلك إلى موضع يسمي الزاوية قرب البصرة واصطف الفريقان للقتال، غير أن الخليفة قام بمحاولة أخيرة للصلح وحقن الدماء بأن بعث القعقاع بن عمرو إلي طلحة والزبير يدعوهما إلي الطاعة ويوضح لهما بأنه سوف يقتص من القتلة ولكن بعد أن تهدأ الأمور ويقوى موقفه في المدينة - خاصة وأن الثوار كانوا القوة المسيطرة على المدينة آنذاك - كما بعث إلى الزبير يذكره بقول رسول الله له وفي حضور علي "تقاتله وأنت ظالم له" وهنا بدأ الزبير يراجع موقفه ويميل إلى الصلح والدخول في الطاعة، غير أن ابنه عبد الله بن الزبير - وكان شاباً يغلب عليه الحمية والاندفاع - اتهم والده بالضعف والخوف من الموت وبدأ في تحريض جند والده على القتال، كما أن الكثير من جند علي كانوا من ثوار الأمصار ومعهم جماعة من أتباع ابن سبأ، رأوا أن الصلح يمثل خطراً عليهم لأن معناه تفرغ الخليفة للاقتصاص منهم لاشتراكهم في قتل الخليفة عثمان ولذا أخذوا يتحرشون بجند طلحة والزبير [2].

وعلى هذا تأزم الموقف وأفلت الزمام من يد قادة الطرفين ودارت الحرب بينهما - والتي عرفت بموقعة الجمل - وانتهت بهزيمة طلحة والزبير ومقتلهما وقام بعض جند علي بعقر جمل السيدة عائشة وقتل سبعون ممن كانوا يحيطون بالجمل وقام محمد بن أبي بكر بإنزال أخته عائشة في خيمة، وأكرمها الخليفة علي بأن

---

(1) الطبري، نفسه، ج٤، ص٤٤٠، ٤٤٦-٤٤٩.

(2) انظر الطبري، نفسه، ج٤، ص٥٠٨ وما يليها.

أعادها معززة إلي المدينة بصحبة أخيها محمد وبعض النساء وفي حراسة جماعة من جنده[١] .

ثانيا : مشكلة معاوية (موقعة صفين سنة ٣٧ هـ):

أخذ معاوية بن أبي سفيان والي الشام، ومن أقرباء الخليفة عثمان - في إثارة وتأليب أهل الشام ضد الخليفة علي متهماً إياه بالتهاون في الاقتصاص من قتلة عثمان وإيوانهم في جيشه - ولكي يؤثر معاوية في نفوس الشاميين أمر بوضع قميص عثمان المخضب بالدماء على منبر جامع دمشق.

وبعد أن انتهي الخليفة علي من القضاء على المعارضين في البصرة بدأ يتفرغ لمواجهة مشكلة معاوية وإخضاع الشام، فأرسل في البداية برسالة إلي معاوية يوضح فيها سلامة موقفه من فتنة مقتل عثمان ويدعو معاوية إلي الدخول في الطاعة والمبايعة لحقن دماء المسلمين، ولكن معاوية رفض مبايعته معلناً أنه لا بد أولا من القصاص من القتلة قبل البيعة [٢] .

والحقيقة أن معاوية كان يدرك تماماً صعوبة قيام الخليفة علي بالقصاص من القتلة لقوتهم وكثرتهم العددية وسيطرتهم على الأمور في المدينة والأمصار آنذاك - كما سبقت الإشارة ، وعلى هذا كان لا مفر من المواجهة الحربية بين الطرفين، فالتقيا عند صفين على الضفة الغربية لنهر الفرات ولم تحدث مصادمات في بادئ الأمر حيث تبادلا الرسائل كمحاولة لحقن الدماء، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل ولم تخفف من حدة التوتر بين الطرفين، وعلى هذا اندلعت الحرب بينهما في أول صفر سنة ٣٧هـ، وكانت موقعة عنيفة استمرت ثلاثة أيام (وقيل ستة) وفي اليوم الثالث بدأت الهزيمة تحل بجيش معاوية، وهنا بادر قائد جيشه عمرو بن العاص باستخدام الحيلة لإنقاذ الموقف، إذ أمر جنده الشاميين برفع المصاحف على أسنة الرماح مطالبين بتحكيم كتاب الله بين الطرفين، فاضطر معظم جيش علي من العراقيين للتوقف عن القتال، وطلبوا من الخليفة على الموافقة على تحكيم القرآن وضغطوا عليه في ذلك رغم تحذيره لهم بأنها بمثابة خدعة من عمرو بن العاص لإحساسه بوقوع الهزيمة بجيشه [٣] .

---

[١] الطبري، نفسه ، ج٤ ، ص٥٤٤.
[٢] الطبري، نفسه ، ج٤ ، ص٥٦١ وما يليها، يوسف علي يوسف، نفسه، ص١٨٣-١٨٤ .
[٣] الطبري، نفسه، ج ٤، ص٥٧٣ وما بعدها، ج٥، ص ٤٨ وما بعدها.

وتوقف القتال بين الفريقين، وتمت الموافقة على قبول فكرة التحكيم. وذلك بتعيين حكمين يمثلانهما ليحكما في الخلاف الناشئ بينهما، فاختار معاوية قائده عمرو بن العاص ممثلا له، أما الخليفة علي فقد أراد ترشيح عبد الله بن العباس - ابن عمه - ولكن أتباعه من الجند العراقيين أكرهوه على اختيار أبي موسي الأشعري لتمثيله في التحكيم [1].

التحكيم وظهور الخوارج:

اجتمع الحكمان أبو موسي الأشعري وعمرو بن العاص في صفر سنة ٣٧هـ، وكتبا وثيقة تضمنت قبول الطرفين المتنازعين لمبدأ تحكيم القرآن وألا يتبعان الهوي، ولا يداهنان، وحددا في الوثيقة أن يكون اجتماعها المقبل للحكم وفض النزاع في موضع يُعرف بدوتة الجندل (شمال الحجاز) في رمضان من نفس السنة (سنة ٣٧هـ).

غير أن الخليفة علي عقب قبوله التحكيم بدأ يواجه مشكلة خطيرة داخل جيشه، ذلك أن الكثير من جنده العراقيين الذين أجبروه على وقف القتال وقبول مبدأ تحكيم القرآن راجعوا أنفسهم وأيقنوا أنهم اخطأوا لقبولهم التحكيم، وطلبوا من الخليفة بأن يتبرأ هو الآخر من التحكيم ويستأنف الحرب.

ولكن الخليفة علي رفض مطلبهم لأنه ليس بالرجل الذي ينقض عهده، وبذلك دب الانقسام في جيشه وخرجوا عن طاعته وكانوا حوالي أثني عشر ألفا عرفوا بالخوارج [2] وقام هؤلاء الخوارج باعتزال الخليفة وأتباعه ونزلوا بموضع حروراء قرب الكوفة، وعاثوا في الأرض فساداً، واستحلوا حرمات الله، وقاموا بقتل كل من لا يعتنق أفكارهم، فاضطر الخليفة إلي الزحف إليهم على رأس جيشه واشتبك معهم في موقعة النهروان أوائل ٣٨هـ (وقيل أواخر ٣٧هـ) وانتصر عليهم، وقتل الآلاف من الخوارج في تلك الموقعة وشتت شملهم [3]

وجدير بالذكر أن الخوارج استندوا في رأيهم على أن الخليفة علي بويع بيعة صحيحة، ولذا فإن من امتنع عن بيعته فهو عاص وباغ، وبالتالي فهو كافر في رأيهم، ومن هنا فإن خروج معاوية عن طاعة الإمام (الخليفة) بغي، وقتاله ضد الإمام إنما هو حرب لله ورسوله، وحينئذ يكون له ولأتباعه حد مقرر في

---

[1] تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٩١ -١٩٢.

[2] الطبري، نفسه ، ج٥ . ص ٦٤-٦٦.

[3] تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٩٧.

القرآن لا معني للتحكيم فيه، ومن ناحية أخرى فإن قبول علي التحكيم معناه التهاون في حق الدين وشك في أحقيته في الخلافة وبالتالي لا يصلح أن يكون خليفة للمسلمين [1].

على أية حال اجتمع الحكمان في دومة الجندل (أواخر سنة ٣٧هـ) وقام عمرو بن العاص بخداع أبي موسي الأشعري، حيث تقدم أبو موسي وقام وخلع علياً ومعاوية وترك الأمر شوري بين المسلمين، أما عمرو بن العاص فخدعه بأن قام وخلع علياً وثبت معاوية في الخلافة.

وأدي هذا إلى غضب الطرفين من جند علي الذين رفضوا التحكيم واخذوا يستعدون لمحاربة جيش معاوية ولكن ميزان القوي كان قد تحول لصالح معاوية الذي تمكن من انتزاع مصر من يد أتباع الخليفة علي كما استولي على مدينة البصرة وأخذ يغير على أطراف العراق وشبه الجزيرة العربية، في الوقت الذي كان فيه الخليفة علي يحاول جمع شمل أتباعه العراقيين واستنفارهم للقتال دون جدوى.

وفي تلك الأثناء اتفق ثلاثة من الخوارج هم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي على قتل الخليفة علي ومعاوية وعمرو بن العاص حتى تهدأ تلك الفتنة ثم يختار المسلمون خليفة تتفق عليه الكلمة.
وفى صباح السابع عشر من رمضان سنة ٤٠هـ تمكن عبد الرحمن بن ملجم من قتل الخليفة علي بالسيف وهو خارج لصلاة الفجر بالكوفة، بينما فشل الآخران في قتل معاوية وعمرو [2]. وبذلك انفرد معاوية بخلافة المسلمين دون منازع، خاصة بعد أن تنازل له الحسن بن علي عن حقه في الخلافة حقناً لدماء المسلمين في سنة ٤١هـ الذي عُرف بعام الجماعة.

وبمقتل الخليفة علي ينتهي عصر الخلفاء الراشدين ويبدأ عصر جديد في تاريخ الدولة الإسلامية هو عصر الدولة الإموية حيث أسس معاوية خلافة توارث الأمويون حكمها ما يقرب من تسعين عاماً.

---

[1] عبد الشافي غنيم، نفسه، ص ١٣٦.
[2] تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٩٨، الطبرى، نفسه، ج٥، ص ١٤٣-١٤٥.

الفصل الخامس

جوانب من عصر الدولة الأموية

الفصل الخامس
جوانب من عصر الدولة الأموية

قائمة بأسماء الخلفاء الأمويين

١ - معاوية بن أبي سفيان	(٤١-٦٠هـ)
٢- يزيد بن معاوية	(٦٠-٦٤هـ)
٣- معاوية بن يزيد (معاوية الثاني)	(٦٤هـ)
٤- مروان بن الحكم	(٦٤-٦٥هـ)
٥- عبد الملك بن مروان	(٦٥-٨٦هـ)
٦- الوليد بن عبد الملك	(٨٦-٩٦هـ)
٧- سليمان بن عبد الملك	(٩٦-٩٩هـ)
٨- عمر بن عبد العزيز	(٩٩-١٠١هـ)
٩- يزيد بن عبد الملك	(١٠١-١٠٥هـ)
١٠- هشام بن عبد الملك	(١٠٥-١٢٥هـ)
١١-الوليد بن يزيد بن عبد الملك	(١٢٥-١٢٦هـ)
١٢-يزيد بن الوليد بن عبد الملك	(١٢٦هـ)
١٣-إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	(١٢٦هـ)
١٤-مروان بن محمد	(١٢٧-١٣٢هـ)

(١)
الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ)

مؤسس الدولة الأموية

ينتسب الأمويون إلي أمية بن عبد شمس القرشي، أما الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية، فهو ينتسب إلي أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية [١] وقد ولد معاوية قبل هجرة النبي ﷺ إلي المدينة بخمسة عشر عاماً وأسلم ووالده أبو سفيان يوم فتح مكة سنة ٨هـ، وكان من كتاب الوحي لدي رسول الله لمعرفته القراءة والكتابة.

وشارك معاوية وأخوه يزيد بن أبي سفيان في الفتوحات الإسلامية بالشام، ثم أسند إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولاية الشام بعد وفاة أخيه يزيد، واستمر والياً عليها في خلافة عثمان، إلي أن حدثت فتنة مقتل عثمان، ونشب الصراع بينه وبين الخليفة علي بن إبي طالب وانتهي آخر الأمر بمقتل الخليفة علي على أيدي الخوارج، وانفراد معاوية بحكم الدولة الإسلامية - كما سبقت الإشارة.

وقد تمكن معاوية خلال خلافته من فرض سيطرته بإحكام على كافة ولايات الدولة الإسلامية، ونشر فيها الأمن والاستقرار، علاوة على قيامه ببعض الفتوحات الخارجية، وساعده على تحقيق كل ذلك عدة عوامل منها:-

__أولاً:-__ أن القبائل العربية المستقرة بالشام منذ ما قبل الفتح الإسلامي كانت خاضعة للروم (البيزنطيين)وتعودت على نظام الحكم البيزنطي القائم على المركزية،مما سهل خضوعها للمسلمين،وبالتالي لم تسبب أية مشاكل للخليفة معاوية أولخلفائه [٢].

__ثانياً:-__ أن القبائل العربية التي هاجرت من شبه الجزيرة واستقرت بالشام عقب الفتح اختلطت مع العرب الشاميين واندمجت معهم ، وخضع الجميع للحكم المركزي، مما سهل من مهمة الخليفة معاوية.

__ثالثاً:-__ أن معاوية تولي ولاية الشام حوالي عشرين سنة استطاع خلالها تقوية نفوذه وتكوين أنصار له في الشام، كما جهز جيشاً وأسطولاً قوياً ساعده على القيام بالفتوحات الخارجية.

---

[١] ابن الأثير ، نفسه، ج٣، ص، ص٢٧٢.

[٢] عبد الشافي غنيم ، التاريخ الإسلامي، ص١٤٨.

رابعاً:- أن معاوية كان يتمتع بصفات شخصية عديدة تؤهله لحكم المسلمين، حيث امتاز بالسياسة وبُعد النظر وسداد الرأي، علاوة على السخاء والكرم الذي اعانه على اجتياز العديد من الصعاب، وإتباعه سياسة الترغيب والترهيب، وبذلك تمكن من اجتذاب قلوب خواص الناس(أي زعمائهم) وعامتهم [١] .

أحوال الأمصار أو الولايات الإسلامية في خلافة معاوية:-

من الملاحظ أن رد الفعل لدي المسلمين إزاء اعتلاء معاوية الخلافة اتسم بالتباين، فهناك فريق بايع معاوية عن رغبة واقتناع لما يمتاز به من مواهب وصفات تجعلهِ أجدر من يتولي خلافة المسلمين، ويتركز هذا الفريق بصفة خاصة في ولاية الشام، والفريق الثاني بايع عن رهبة وخوف من شدة معاوية وبطشه، وإن كان في قرارة نفسه غير راض عن هذا الأمر.

أما الفريق الثالث والأخير فقد عارض خلافته علانية ويتمثل هذا الفريق في حزبي الخوارج والشيعة [٢].

وكانت ولاية العراق من أخطر الولايات في عهد معاوية، وأكثرها اضطرباً وسببت الإزعاج الدائم للأمويين بصفة عامة ويرجع ذلك إلي عدة أسباب منها:-

١- أن القبائل العربية التي استقرت بالعراق بعد الفتح لم تتعود على نظام الحكم المركزي وبالتالي لم تخضع بسهولة للسلطة المركزية في دمشق.

٢- أن ولاية العراق تمثل أنصار علي بن أبي طالب، فكانت مدينة الكوفة هي مقر ومركز الخليفة علي في أواخر عهده، وكان أهل العراق هم شيعة وأنصار الخليفة علي.

٣- أن الحركات المناوئة للأمويين نشأت وتمركزت في ولاية العراق ونعني بذلك حركات الشيعة والخوارج وهما من ألد أعداء الدولة الأموية [٣]

وعلى هذا كانت ولاية العراق من الولايات الثائرة على بني أمية فهي مركز معارضة الشيعة (أتباع العلويين) والخوارج الذين قاموا بعدة ثورات ضد الخليفة معاوية وكلها انتهت بالفشل، وتمكن ولاة العراق من إخمادها [٤]

---

[١] المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ٣١، عبد الشافي غنيم، نفسه، ص ١٤٩.

[٢] حلمي سالم، في تاريخ الدولة العربية، ص١١١.

[٣] غنيم ، نفس المرجع، ص١٥١.

[٤] ابن الأثير، نفسه، ج٣، ص٢٧٥، وما يليها.

ونظرا لخطورة ولاية العراق وتعدد ثوراتها، فقد أسند معاوية حكمها إلي ولاة عُرفوا بالشدة والحزم والدهاء، مثل المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه ثم ابنه عبيد الله بن زياد الذين اشتدوا في معاملة أعداء الأمويين.
أما ولاية الحجاز: فمن الثابت أن انتقال عاصمة الخلافة الإسلامية إلي دمشق بالشام في عصر الأمويين أدي إلي ضعف الدور السياسي للحجاز، فتحول مركز الثقل إلي الشام، وبالتالي سادها الهدوء والاستقرار خاصة وأن الخليفة معاوية تمكن من القضاء على عوامل الفتنة بين المسلمين وأخضعهم له، وقبول الأمر الواقع سواء بالرغبة أو الرهبة، ومن ناحية أخرى فإن زعماء الحجاز من أبناء كبار الصحابة مثل الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بين العوام كانوا يظنون أن الحكم الأموي إنما هو فترة مؤقتة وسوف ينتهي بوفاة معاوية لأن ابنه يزيد لا يصلح لخلافة المسلمين لانغماسه في حياة اللهو والملذات .

وفيما يتعلق بولاية الشام: فقد سادها الهدوء والاستقرار لأن أهل الشام هم أنصار الأمويين، حيث أقام معاوية بينهم حوالي أربعين عاماً، نصفها وهو والٍ والنصف الآخر وهو خليفة، واتخذ من مدينة دمشق حاضرة للخلافة، وأحاط الشاميين، بالرعاية والإكرام ، فاكتسب محبتهم، كما استطاع أن يحقق التوازن بين عرب الجنوب (اليمنية أو الكلبية) وبين عرب الشمال (القيسية أو المضرية)، فلم يتحيز لقبيلة ضد أخرى، علاوة على حسن معاملته لأهل الذمة في الشام مما ساعد على دخول الكثير منهم في الإسلام [١] .

كذلك كانت *ولاية مصر* تنعم بالاستقرار في عهد الخليفة معاوية الذي كان يدرك أهميتها الاقتصادية وموقعها الاستراتيجي على الطريق المؤدي إلي بلاد المغرب، ولذا أسند ولايتها إلي قائده الكفء والمخلص عمرو بن العاص (فاتح مصر) الذي كان محبوباً من المصريين، وذلك تقديراً لخدماته الجليلة ووقوفه إلى جانب معاوية أثناء الصراع بينه وبين الخليفة علي بن أبي طالب.

جهود الخليفة معاوية في تأسيس الدولة الأموية:
قام معاوية بعدة جهود من أجل تأسيس دولة الأمويين منها ما يلي:-
أولاً:- اتخاذه من مدينة دمشق مركزاً للخلافة الأموية، حيث أنصاره من أهل الشام، وأحاط نفسه بالفخامة وأبهة المُلك، فنزل بقصر الخضراء الملاصق للجامع، وجعل لنفسه سريرا على غرار أباطرة الروم وأكاسرة فارس.

---
[١] عبد الشافي غنيم ، ص١٥٦-١٥٩

ثانيا:- طور معاوية من نظم الحكم والإدارة في الدولة، حيث استعان بأهل الذمة لأول مرة في مناصب الدولة لخبرتهم الإدارية وخصوصاً في الدواوين والكتابة، كذلك يعتبر معاوية أول من أنشأ ديوانا للبريد في الدولة الإسلامية لكي تصل إليه أخبار الولايات سريعاً، كما أنه أول من أنشأ ديوانا للخاتم، لختم رسائل الخليفة وحفظها حتى لا تتعرض للتزوير ، وهو أيضا أول من اتخذ الحرس وطور نظام الشرطة في الدولة الإسلامية .

ثالثاً:- قام معاوية بجهود كبيرة في أعمال البناء والتشييد خصوصاً في المجال الحربي حيث رمم الحصون الساحلية في عكا وصور وحشد فيها المقاتلة، كما أنشأ عدة حصون أو قلاع لحماية الثغور وتأمينها من خطر غارات الروم على السواحل الإسلامية، كما قام بتوطين المسلمين في المدن التي انسحبت منها الروم [١] .

علاوة على قيامه بالفتوحات الخارجية في أواسط آسيا وبلاد السند وجهوده في تأسيس البحرية الإسلامية في البحر المتوسط.

تولية العهد لابنه يزيد

أوضح ابن الأثير أنه في سنة ٥٦هـ قام المسلمون بمبايعة يزيد بن معاوية بولاية عهد أبيه، ويضيف أن السبب وراء ذلك هو أن المغيرة بن شعبة والي الكوفة علم بأن الخليفة معاوية يريد عزله عن ولايته، فاتجه من فوره إلي دمشق وقابل هناك يزيد بن معاوية وأقنعه بفكرة أن يوليه والده عهده من بعده، وأبلغ يزيد بدوره تلك الفكرة إلي والده معاوية الذي رحب بها بطبيعة الحال بعد أن تعهد له المغيرة بأن يحمل إليه بيعة أهل الكوفة لولي العهد يزيد، كما بايعه أهل الشام والمدينة، ولم يأبه معاوية لمعارضة أبناء كبار الصحابة من زعماء المدينة مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، فاستخدم معهما الشدة وهددهما بالقتل، وبذلك تمت ولاية العهد ليزيد [٢] وتحول نظام الخلافة من الشورى والاختيار إلى نظام وراثي مثل النظام الملكي.

وفي سنة ٦٠هـ أصيب الخليفة معاوية بالمرض، ولم يلبث أن توفي ودفن بدمشق بعد أن أوصى ابنه يزيد خيراً بأهل الحجاز والشام، وحذره من ثلاثة رجال من قريش هم :-

الحسين بن علي ... وابن عمر ... وابن الزبير [٣]

---

[١] عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية، ص ٣٤٦-٣٤٩

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص ٣٤٩-٣٥٥.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص ٣٦٨.

(٢)

الفتوحات في عصر الدولة الأموية

أ- الفتوحات الإسلامية في المشرق [١]

فتح بلاد ما وراء النهر

استمرت حركة الفتوحات الإسلامية في عصر الدولة الأموية، حيث اتخذ المسلمون في عهد معاوية من مدينة مرو قاعدة للفتوحات فيما يلي خراسان سنة ٤٣ هـ ووصلوا إلي بخاري وسمر قند في عهد الخليفة يزيد ثم واصل المهلب بن أبي صفرة(والي خراسان في عهد عبد الملك بن مروان) غزواته في بلاد السند، ووصل حتى لاهور، وأدت إليه بلاد الصغد الإتاوة أو الجزية.

ولم يبدأ الفتح الحقيقي والمنظم لبلاد ما وراء النهر إلا في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، حيث تولى على خراسان القائد الشهير قتيبة بن مسلم الباهلي، وقاد الحملات التي وجهت إلي تلك البلاد. وتمكن خلال ولايته من فتح بلاد ما وراء النهر واستولي على المدن الهامة مثل بخاري وسمر قند. كما فتح طخارستان ووصل بفتوحاته إلي دلتا نهر جيحون عند خوارزم وسيطر عليها، وفي عام ٩٦هـ وصل في زحفه إلي كاشغر التي كانت تدخل ضمن ممتلكات الصين آنذاك، فاضطر ملك الصين إلي الصلح وأرسل الهدايا إليه، وتوقف قتيبة بفتوحاته عند هذا الحد عندما بلغه وفاة الخليفة الوليد سنة ٩٦هـ.

فتح جرجان وطبرستان

عقب مقتل قتيبة قام الخليفة سليمان بن عبد الملك بتولية يزيد بن المهلب بن أبي صفرة على العراق وخراسان سنة ٩٧هـ وقد وجه يزيد جهده لفتح منطقة جُرجان وطبرستان، وزحف يزيد أولاً إلي إقليم جرجان، وحاصر قهستان وكان يسكنها قوم من الترك، وتمكن من فتحها صلحاً، ثم اتجه إلي جرجان، فطلب أهلها الصلح وأجابهم إلي ذلك مقابل دفع الجزية.

وبعد فتح جرجان شجعه ذلك على الزحف نحو طبرستان التي تقع جنوب بحر قزوين، ويسكنها قوم (من الفرس)، واشتبكوا مع المسلمين في معركة عنيفة، انتهت بهزيمة المسلمين، مما شجع أهل جرجان على نقض الصلح مع

---

[١] أنظر : حسن إبراهيم حسن، نفسه،ج١، ص٣٠٦ وما يليها.

المسلمين، وإزاء ذلك قام يزيد مع حاكم طبرستان حتى يتفرغ لاستعادة جرجان، واتجه إليها،وتمكن بعقد صلح من استعادتها مرة أخرى وأسر من كان بها.

فتح السند:

وصلت فتوحات المسلمين على عهد الخليفة الوليد بن الملك إلي الجنوب الشرقي من آسيا فشملت منطقة السند الواقعة على بحر الهند.

ففي عهد الخليفة الوليد قام والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بتنظيم عملية فتح تلك المنطقة. وتشير المصادر العربية إلي أن سبب هذا الفتح يرجع إلي أن بعض قراصنة السند سبوا نسوة لتجار المسلمين كانوا على سفينة تجارية قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان)، فأرسل الحجاج إلى ملكهم داهر يطلب منه معاقبتهم، غير أنه لم يفعل ذلك، فقام الحجاج على أثر ذلك بتجهيز حملة أسند قيادتها إلي ابن أخيه ويدعي محمد بن القاسم الثقفي، ووجهه إلي بلاد السند،فزحف ابن القاسم من مكران في سنة ٨٩هـ، وفتح أرمنيل (شرق مكران)، ثم زحف إلي ميناء الديبل (وهو ميناء السند) ويقع على ساحل بحر الهند، فوافته هناك سفن إسلامية تحمل الكثير من الجند والسلاح، وحاصر ثغر الديبل براً وبحراً، وتمكن من فتحه عنوة وبنى به مسجداً.

وواصل محمد بن القاسم فتوحاته في تلك البلاد حتى بلغ نهر السند(كان يسمى آنذاك بنهر مهران) وهناك اصطدم بداهر ملك السند في معركة شديدة حيث كان جيش داهر يستخدم الفيلة في حروبه وانتهت بهزيمة جند داهر ومقتله.

وهكذا استطاع ابن القاسم أن يمد فتوحاته في كافة أرجاء بلاد السند، ثم تابع هذه الفتوحات حتى وصل إلي أقصي حدود بلاد كشمير، وقد انتهي أمره بعزله من ولاية السند وذلك عقب وفاة الخليفة الوليد سنة ٩٦هـ، حيث ولي بعده أخوه الخليفة سليمان ولذا تعرض ابن القاسم للسجن والتعذيب لكراهية الخليفة له.

وعندما تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة (٩٩-١٠١هـ) كتب إلي الأمراء والملوك ببلاد السند والهند يدعوهم إلي الإسلام، ووعدهم بأن يقرهم على ممتلكاتهم وإماراتهم، وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فكان لهذا رد فعل إيجابي، حيث أقبل بعضهم على الدخول في الإسلام.

ب- الفتوحات الإسلامية في المغرب الإسلامي [1]

١- فتح المغرب:

بدأت غزوات المسلمين لبلاد المغرب منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فبعد أن فتح المسلمون مصر بقيادة عمرو بن العاص، قام هذا القائد بفتح إقليمي برقة وطرابلس سنة ٢٣هـ لتأمين حدود مصر الغربية من خطر الروم (البيزنطيين) الذين كانوا يسيطرون على منطقة المغرب الأدني (افريقية).

وتذكر المصادر الإسلامية أن عمرو بن العاص أراد بعد استيلائه على طرابلس أن يواصل فتوحاته ويقوم بغزو افريقية ولكن الخليفة رفض طلبه لخوفه على جيوش المسلمين من الانتشار في تلك المناطق الشاسعة خاصة وأن نفوذهم لم يتوطد بعد في البلاد التي تم فتحها، كما إنهم لا يزالون يحاربون في جبهات أخرى مثل بلاد فارس.

وعندما تولي معاوية بن أبى سفيان الخلافة قرر إعادة فتح افريقية وعهد بذلك الأمر إلي قائده معاوية بن حديج سنة ٤٥هـ،الذي وصل بجيشه حتى افريقية (تونس الحالية) وهزم البيزنطيين هناك واستولي على قابس وبنزرت وسوسه.

ولم يلبث معاوية أن عزل ابن حديج وولي مكانه القائد المشهور عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ، وهو يعتبر من أوائل المجاهدين في المغرب الذين لعبوا دوراً مهماً في الفتوحات الإسلامية في تلك المنطقة، وقد رأي عقبة في بداية ولايته على افريقية أن يعمل على توطيد نفوذ المسلمين فيها بأن يؤسس لهم فيها مدينة إسلامية تكون قاعدة عسكرية ثابتة في تلك البلاد المغربية.

وعلى هذا بدأ عقبة في بناء مدينة القيروان وانتهي من بنائها في سنة ٥٥هـ، وهي نفس السنة التي أمرفيها الخليفة معاوية بعزله، وربما يرجع سبب العزل إلي اتباعه سياسة العنف والشدة مع البربر سكان المغرب أولوشايات والي مصر مسلمة بن مخلد.

وتولي علي افريقية رجل لا يقل خبرة ومهارة عن عقبة وهو أبو المهاجر دينار الذي كان سياسياً بارعاً، ترك سياسة العنف والشدة مع البربر ولجأ إلي سياسة اللين محاولاً استمالتهم عن طريق نشر الإسلام بينهم، وقد نجح في سياسته

---

[1] انظر : ابن عبد الحكم: فتوح مصر وافريقية، ص ٥٩ ـ ٦٣، ابن عذارى، البيان المغرب، ج١، ص ٩-٤٠، عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية ، ص٣٦٢، وما يليها؛ العبادي، نفسه، ص١٠ وما بعدها.

هذه إذ استمال البربر البرانس إلي جانب المسلمين وأسلم زعيمهم كسيله، وكان نصرانياً متحالفاً مع الروم ضد المسلمين، وقد تمكن أبو المهاجر دينار بفضل مؤازرة البربر البرانس بزعامة كسيلة أن يفتح المغرب الأوسط (الجزائر) ويصل حتى مدينة تلمسان (غرب الجزائر).

وفي سنة ٦٠هـ توفي الخليفة معاوية بن أبي سفيان وخلفه ابنه يزيد، الذي قام بإعادة عقبة مرة أخرى إلي ولاية افريقية، وعزل أبا المهاجر دينار سنة ٦٢هـ وبذلك تبدأ الولاية الثانية لعقبة على إفريقية والتى استمرت من سنة ٦٢هـ حتى سنة ٦٤هـ، وأثناء تلك الفترة قام عقبة بغزوته الكبرى في المغرب من أدناه إلي أقصاه ووصل حتى شاطئ المحيط الأطلسي، وتوغل أيضاً في بلاد السوس بالمغرب الأقصي وخاض هناك معارك عنيفة ضد البربر، ثم رأي أن يعود إلي القيروان، غير أنه أثناء حملته تلك استطاع كسيلة أن يفر من جيشه وينضم إلي البربر المعادين للمسلمين - بسبب إساءة عقبة له - وتحالف البربر بدورهم مع الروم (البيزنطيين)، والتقوا بعقبة عند تهودة (جنوبي جبال أوراس حيث دارت معركة انتهت بهزيمة المسلمين واستشهاد عقبة).

وإزاء مقتل عقبة اضطر نائبه في القيروان ويدعي زهير بن قيس أن ينسحب بالجيش الإسلامي إلي برقة مترقباً الفرصة المواتية لاسترداد شمال افريقية والانتقام من كسيلة والروم الذين سيطروا على تلك المنطقة.

وفي سنة ٦٥هـ تولي الخلافة عبد الملك بن مروان الذي صمم على استعادة القيروان والانتقام من كسيلة، فأمد زهير بن قيس بقوات زحف بها من برقة نحو القيروان، فاضطر كسيلة إلى الانسحاب منها واتجه إلي مكان حصين فى جنوبها الغربي يسمي ممس، حيث دارت هناك معركة انتهت بمقتل كسيلة وهزيمة جيشه، وبدأ زهير في العودة مرة أخرى إلي برقة لقيام الروم بغارة عليها، ولكن أثناء الطريق اعترضته قوة بيزنطية كانت قد قدمت - أثناء انشغال بحرب كسيلة - من البحر فقطعت عليه خط الرجعة، وانتهى الأمر باستشهاد زهير وعدد كبير من جنده سنة ٦٩هـ.

لم ييأس الخليفة عبد الملك بن مروان من هذه الهزيمة فأعد جيشاً ضخماً وزوده بأسطول بحري وعهد بقيادته إلي حسان بن النعمان الغساني وذلك في سنة ٧٣هـ، وقد اتجه حسان إلي القيروان وجعلها مركزاً لعملياته الحربية، وكانت خطته تعتمد على مقابلة أعدائه منفردين حتى يسهل القضاء عليهم الواحد بعد

الآخر، فبدأ بقتال الروم، وتمكن من الانتصار عليهم والاستيلاء على قرطاجنة وعلى بعض المدن الساحلية وطرد البيزنطيين منها ، ثم بدأ يتفرغ لمحاربة البربر البتر وكان يتزعمهم امرأة تتصف بالدهاء والمكر تدعي الكاهنة(لأنها كانت تدعي بأن تتنبأ أو تتكهن بالغيب)، وتم اللقاء بين جيش المسلمين بقيادة حسان وجيش البربر في أحواز جبال أوراس سنة ٧٥هـ، وانتهي بهزيمة حسان وانسحابه إلي برقة، وهنا انتهز الروم الفرصة وتمكنوا من استرداد مدينة قرطاجنة.

وفي سنة ٨٠هـ خرج حسان على رأس جيش كبير حيث التقي بالكاهنة عند مدينة قابس وانتصر عليها وثأر لهزيمته وأخذ يطاردها إلى أن قضي على جيشها وقتلها سنة ٨٢هـ عند مكان يعرف ببئر الكاهنة في جبل أوراس، ثم اتجه حسان إلي قرطاجنة واستردها من أيدي الروم وأمر بتخريبها حتى لا يعودوا إليها مرة أخرى.

وفي أوائل خلافة الوليد بن عبد الملك (عام ٨٦هـ) أمر بعزل حسان وتولية موسي بن نصير، الذي استمال البربر وأشركهم في الجيش الإسلامي بالمغرب، وعهد إلي فقهاء المسلمين بتعليمهم قواعد الإسلام، واللغة العربية ووطد موسي نفوذ المسلمين في المغربين الأدنى والأوسط، ثم قام بغزو المغرب الأقصى حتى شواطئ المحيط الأطلسي، ولم تستعص عليه سوي مدينة سبته لحصانتها ومناعتها - التى كان يحكمها أمير نصراني من قبل القوط أو البيزنطيين يدعي يليان، وبعد ذلك قام موسي بتعيين مولاه طارق بن زياد على ثغر طنجة المجاور لسبته وأمره بمراقبتها، وهكذا تم للمسلمين فتح بلاد المغرب، وبدأوا يتجهون ببصرهم نحو الشاطئ المقابل حيث الأندلس.

فتح الاندلس [1] :

في الوقت الذى كانت فيه أسبانيا تعاني من الانقسام السياسي والتفكك الاجتماعي كان العرب (المسلمون) يمثلون قوة لها وزنها على الشاطئ الآخر أي في المغرب، وبدأوا ينتهزون الفرصة لتدخل اسبانيا أو الأندلس تحت راية الإسلام.

وتختلف الرواية العربية عن الرواية الاسبانية حول دوافع الفتح الإسلامي للأندلس(اسبانيا)، فالمصادر الإسلامية ترجع هذا الفتح إلي وازع الانتقام

---

[1] أنظر حول ذلك : ابن عذاري، نفسه، ٢، ص٦-٣٤؛ العبادي، نفسه، ص٥١-٧٨؛ مؤنس، معالم تاريخ المغرب والاندلس، ص ٢٣٤-٢٤٠.

الشخصي، وتذكر لنا قصة خيالية أو أسطورية ملخصها أن الكونت يوليان (جوليان) حاكم سبتة كان قد أرسل ابنته فلورندا إلي القصر الملكي بطليطله كي تتأدب بآداب الأمراء والطبقة الراقية. وعندما رآها الملك الإسباني لذريق - وكانت على قدر كبير من الجمال - اعتدي على شرفها، فأرسلت إلي أبيها بخبرها، فغضب لما حدث لابنته وصمم على الانتقام. وعلى هذا اتصل يوليان بموسي بن نصير وحرضه على غزو أسبانيا مبيناً له سهولة ذلك وسوء أحوالها، فاستجاب موسي لطلبه وأقدم على هذا الغزو بعد أن استأذن الخليفة الوليد.

أما المصادر الإسبانية فتذكر أن سبب الفتح يرجع إلي أن الملك القوطي وقلة لما عزل عن ملكه بيد الملك لذريق ذهب أنصاره إلي حليفه يوليان حاكم سبتة طالبين مساعدته، فأخذهم بدوره إلي موسي بن نصير والي المغرب حيث تم الاتفاق على أن يمدهم موسي بجيش إسلامي يسترد به ملكهم المعزول عرشه في نظير جزية سنوية يؤديها للمسلمين، والملاحظ أن هذه الرواية الإسبانية أقرب إلي الحقيقة من الرواية السابقة لأنها تتفق مع طبيعة الأحداث في ذلك الوقت.

ومهما يكن من أمر فقد استشار موسي الخليفة الوليد بن عبد الملك في قيام العرب بفتح إسبانيا، فوافق الخليفة على أن يختبرها أولاً بالسرايا ولا يغرر بجيش المسلمين.

وتنفيذاً لأوامر الخليفة الوليد قام موسي بعدة غارات استكشافية على جنوب الساحل الجنوبي لإسبانيا حيث أرسل يوليان على رأس حملة فسبي وغنم ورجع سالماً، ثم قام أحد قواد المسلمين بجيش موسي ويدعي طريف بن مالك بشن غارة أخرى على الساحل الجنوبي سنة ٩١هـ ونزل بجنده في المكان المعروف باسمه حتى الآن (جزيرة طريف) حيث أغاروا على تلك المنطقة وأصابوا سبياً كثيراً، ورجع طريف سالماً إلي المغرب.

وعلى هذا أعد موسي جيشاً كبيراً عهد بقيادته لقائده طارق بن زياد نائبه على طنجة، وقد أبحر طارق من سبته سنة ٩٢هـ ونزل بمراكبه في الجبل المعروف باسمه إلي الآن(جبل طارق) حيث تمكن من الانتصار على بعض القوات القوطية هناك واستولي على جبل طارق ثم اتجه إلي الجزيرة الخضراء واستولي عليها وجعلها قاعدة عسكرية لحماية ظهره في حالة الانسحاب أو الهزيمة.

وعندما علم الملك القوطي لذريق (أو ذريق) بأنباء نزول المسلمين جنوب إسبانيا أعد العدة لمواجهتهم حيث حشد جيشاً ضخماً اتجه به إلي الجنوب لمواجهة المسلمين، وقد انزعج طارق لتلك الحشود القوطية الضخمة فأرسل إلي قائده موسي يطلب المدد، وبالفعل أمده موسي بحوالي خمسة آلاف جندى فأصبح مجموع جيش المسلمين بالأندلس حوالي اثني عشر ألفاً معظمهم من البربر.

وقد دارت المعركة الحاسمة بين المسلمين والقوط في جنوب غرب إسبانيا في منطقة شذونة في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ/ ٧١١م واستمرت ثمانية أيام، وكانت معركة عنيفة انتهت بانتصار كبير للمسلمين ومقتل معظم جيش القوط وعلى رأسهم الملك لذريق.

وقد فتح هذا النصر الباب أمام المسلمين للتوغل داخل إسبانيا، حيث تمكنوا من الاستيلاء على العاصمة طليطلة وكذلك على المُدن الهامة مثل قرطبة، واستجه والبيرة (غرناطة).

وفي رمضان سنة ٩٣هـ عبر موسي المضيق بجيش كبير ونزل بجنوب إسبانيا حيث استولي علي مدن أخرى لم يستول عليها طارق مثل اشبيلية وقرمونة وما رده، والتقي بطارق عند طليطلة، ثم واصل القائدان سيرهما إلي شمال إسبانيا حيث تم فتح الشمال الشرقي وشمال إسبانيا، ولم يتبق إلا منطقة الجبلية في الشمال الغربي تسمي جليقية تركها المسلمون زهداً فيها، ولكن تلك البقعة الجبلة أصبحت فيما بعد مركز التجمع للمقاومة الإسبانية ضد المسلمين وبدأوا منها حركة استعادة بلادهم من يد المسلمين، والتي يطلق عليها اسم حركة الاسترداد المسيحي وعقب رحيل موسي إلي المشرق واصل ابنه عبد العزيز الفتوحات واستكمل فتح بلاد الأندلس.

ثانيا:- أهم الثورات والفتن في العصر الأموي [1].

أ- ثورات العراق ضد الأمويين:

عقب وفاة معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠ هـ أدرك الحسين بن علي بن أبي طالب أنه أصبح في حل من بيعة الأمويين، وأن من واجبه أن يطالب بحقه في الخلافة، وساعده على ذلك مساندة أهل الكوفة له فعمل على استرداد الخلافة من أيدي الأمويين مستغلاً إنشغال الخليفة الجديد يزيد بن معاوية بحياة اللهو والملذات وعدم جدارته للقيام بأعمال الخلافة.

ورأي الحسين أن يرسل أولا ابن عمه مسلم بن عقيل أبي طالب إلي الكوفة كي يجس النبض ويستطلع الموقف قبل أن يقوم بثورته، وقد استقبل أهل الكوفة مبعوث الحسين(مسلم) استقبالاً عظيماً ولقي ترحيباً منهم، وكان والي الكوفة وقتذاك النعمان بن بشير المتهم من جانب الأمويين بالمسالمة إلي حد الاستضعاف لعدم قدرته على مواجهة الموقف خاصة بعد أن جاهر أهل الكوفة بنصرة وتأييد الحسين، وعلى هذا أمر الخليفة يزيد بن معاوية بعزله عن الكوفة وضمها هي والبصرة إلي حكم الوالي الأموي عبيد الله بن زياد المعروف بالشدة والبطش.

وعندما وصل ابن زياد إلي الكوفة تمكن من اكتشاف مكان اختفاء مسلم بن عقيل وقبض عليه وقتله، وكان ابن عقيل قبل مقتله قد أرسل إلي الحسين بمكة يؤكد له تأييد أهل الكوفة ومبايعتهم له، وأنهم يترقبون قدومه إليهم، وهنا بدأ الحسين يتجهز مع أتباعه وأهل بيته للمسير إلي الكوفة، ولم يستمع إلي نصيحة عبد الله بن العباس بعدم المسير لأن أهل الكوفة سبق أن غدروا بأبيه علي بن أبي طالب، غير أن رسالة ابن عقيل إليه أكدت له بيعة أهل الكوفة لخلافته ووقوفهم إلي جانبه ضد الأمويين.

وزحف الحسين إلي الكوفة وأثناء سيره علم بمقتل ابن عمه مسلم وتردد أهل الكوفة في مساندته واستعدادات ابن زياد والي الكوفة والبصرة، ورغم هذا استمر في سيره حتى وصل إلي موضع كربلاء حيث تم لقاء غير متكافئ بين أتباع الحسين وجيش ابن زياد، وانتهي بمقتل الحسين، ومعظم أهل بيته في العاشر من محرم سنة ٦١هـ وذلك في موقعة كربلاء.

---

[1] حسن إبراهيم حسن، نفسه، ص٢ ،٧٠٤-٤١٢؛ سالم، نفسه، ص٣٧٦ وما بعدها.

وبعد ذلك ظهرت في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان حركة **التوابين** و هم من الشيعة العلويين يتزعمهم رجل يدعي (سليمان بن صرد) وقد أعلنوا ندمهم على خذلانهم للحسين بن علي وأظهروا سخطهم على الأمويين، وقد دعا التوابون إلى الأخذ بثأر الحسين من قتلته وعلى رأسهم ابن زياد، فخرجوا في ربيع الأخر سنه ٦٥ هـ إلى قبر الحسين فترحموا عليه وتابوا عنده من خذلانه، ثم اتجهوا لملاقاة جيش ابن زياد، واشتبكوا معه في معركة عنيفة تسمي **عين الوردة** انتهت بمصرع ابن صرد ومعظم أتباعه وهزيمة التوابين.

وأعقب هذه الحركة حركة أخرى في عهد الخليفة عبد الملك أيضاً تُنسب إلي المختار بن أبي عُبيد الثقفي ولذا سميت بالمختارية، والمختار كان أحد قادة المسلمين الذين يميلون للعلويين، وادعي في الكوفة أنه موفد من قبل محمد بن على بن إبي طالب المعروف بابن الحنفية للأخذ بثأر الحسين ، ونجح المختار فى ضم بقايا التوابين إلى حركته كما استجاب له كثير من الشيعة وزاد أتباعه ونفوذه فى أوائل عهد الخليفة بن الملك بن مروان وأصبح يشكل قوة خطيرة مناونة للنفوذ الأموي ونفوذ عبد الله بن الزبير فى العراق .

ولما كانت الكوفة والبصرة خاضعتين وقتئذ لعبد الله بن الزبير (الذى ثار هو أيضا ضد الأمويين) لذلك كان من الطبيعى أن يصطدم المختار مع أتباع ابن الزبير فى هاتين المدينتين ، وانتهى هذا الصدام بهزيمة المختار وقتله سنه ٦٨هـ .
وفى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ـ ١٢٥ هـ) قامت ثورة شيعية أخرى بالعراق وتزعمها رجل من نسل على بن أبى طالب وهو زيد بن على زين العابدين الحسين بن على بن أبى طالب .

وقد اتجه زيد إلى الكوفة حيث بايعه أهلها ، وأعلن ثورته بالعراق التى كان بها مجموعة كبيرة من أنصاره وكذلك بمنطقة خراسان ، غير أن أهل الكوفة خذلوا زيد العلوي كما خذلوا جده الحسين فاضطرزيد أن يحارب جيش والى العراق الأموى بفئة قليلة ظلت مخلصة له حتى قتلوا وقتل معهم ، وانتهت ثورته بالفشل وتفرق بقية أتباعه الذين عرفوا منذ ذلك الوقت باسم الزيدية [1].

---

[1] انظر : المسعودي، نفسه، ج٣، ص ٢٠٦ -٢٠٧.

ب – ثورات الحجاز [1]: -

لم تقتصر الثورة ضد الأمويين على العراق بل شملت أيضاً بلاد الحجاز . ففى عهد يزيد بن معاوية أعلن أهل المدينة خلعهم ليزيد ثم قاموا بطرد عامله على المدنية وضيقوا على من كان بها من بنى أمية وعلى رأسهم شيخهم مروان بن الحكم الذى أرسل يستنجد بالخليفة يزيد .

وعندما وصلت تلك الأنباء إلى الخليفة الأموي يزيد بدمشق أرسل جيشًا عهد بقيادته إلى أحد جبابرة العرب ودهاتهم ويدعى مسلم بن عقبة، الذى سار إليها وحاصرها من جهة الحرة من ظاهر المدينة وتمكن من دخولها عنوة ثم أباحها لجنده ثلاثة أيام ، وتعرف تلك المعركة ، **بموقعة الحرة (المحرم سنة ٦٤هـ)** ، ولم يكتف مسلم بن عقبة بذلك بل أسرف هو وجنده فى القتل والنهب والسلب ، واستشهد فى تلك المعركة التى كان شرًا على الإسلام والمسلمين زهرة أهل المدينة ، وبعض أبناء الصحابة ومن الفرسان ومن خيرة أصحاب الرسول عليه السلام ، وهكذا أباح الأمويون المدينة ودنسوها وبعد أن انتهى مسلم بن عقبة من إخضاع أهل المدينة أمره الخليفة يزيد بالاتجاه إلي مكة حيث أعلن عبد الله بن الزبير بن العوام الثورة ضد الأمويين، ودعا لنفسه فيها.

عندما اقترب مسلم من مكة أصيب بمرض شديد وتوفي، فخلفه الحصين بن نمير وذلك تنفيذاً لأوامر الخليفة، فسار الحصين بجيشه إلي مكة وحاصرها فترة، ثم خرج إليه ابن الزبير ودارت بينهما معركة عنيفة أصيبت خلالها الكعبة ببعض الأضرار ثم وصل إلي الجيش الأموي خبر وفاة الخليفة يزيد (ربيع الأخر سنة ٦٤هـ)، فتوقفوا عن القتال، وأرسل الحصين إلي ابن الزبير يطلب مهادنته، ووافق الخليفة الجديد مروان بن الحكم (سنة ٦٤هـ) على ذلك ، ثم تمكن الأمويون من استرداد مصر من يد ابن الزبير، وأرسلوا جيشاً إلي الحجاز بقيادة يوسف الثقفي وابنه الحجاج، واستطاع هذا الجيش أن يدخل المدينة فى مبدأ الأمر غير أن جيوش ابن الزبير التي قدمت من العراق تمكنت من إلحاق الهزيمة به في الموضع المعروف بالربذة قرب المدينة فاضطر على أثرها الجيش الأموي إلي الانسحاب.

ولم تلبث حركة عبد الله بن الزبير أن أخذت تضعف في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان خاصة بعد انتصار ابن مروان على مصعب بن الزبير والي الكوفة وإعادة سيطرته على العراق، وعقب ذلك اتجه الجيش الأموي بقيادة الحجاج

---

[1] حسن ابراهيم حسن، نفسه ،ج١، ص٤ سالم، نفسه، ص٣٨٦-٢٤٠، ٣٨٩.

بن يوسف الثقفي إلي مكة وحاصرها وضربها بالمنجنيق، فاضطر أتباع ابن الزبير إلي الانصراف من حوله، ورغم ذلك ظل مستمراً في الصمود والدفاع إلي أن تمكن الحجاج وجنده من اقتحام مكة وقتله في جمادي الأخره عام ٧٢هـ.

٣ ـ الصراع بين اليمنية والقيسية (موقعة مرج راهط):

عقب تنازل معاوية بن يزيد (معاوية الثاني) عن الخلافة عام ٦٤هـ حدثت بعض الفوضي والاضطرابات، فاضطر الأمويون إلي حسم الموقف بمبايعة كبيرهم وقتئذ وهو مروان بن الحكم بالجابية قرب دمشق في ذي القعدة سنة ٦٤هـ.
وأثناء ذلك اشتد التنافس والخلاف بين القيسية بزعامة الضحاك بن قيس بدمشق وبني اليمنية أنصار الأمويين، حيث أن القيسية كانوا يميلون إلي عبد الله بن الزبير لتولي الخلافة بينما كان الكلبية أو اليمنية هم أنصار الأمويون وأصهارهم الذين اعتمد عليهم الخليفة معاوية بن أبي سفيان في مواجهة العديد من المشاكل الخطيرة.

وكان القيسيون في حالة سخط على بني أمية لأن معاوية بن أبي سفيان كان يميل نسبياً إلى جانب الكلبيين أو اليمنية، لأنه كان صهراً لهم حيث تزوج من ميسون والدة يزيد وهي من الكلبية.

وعلى أية حال نشب الصراع بين القيسية بقيادة الضحاك، وبين الأمويين وأنصارهم الكلبية بقيادة مروان بن الحكم في موضع يعرف بمرج راهط، واستطاع مروان بن الحكم وأنصاره من اليمنية أن يلحق هزيمة فادحة بالقيسية ويقتل زعيمهم الضحاك (في ذي القعدة ٦٤هـ) وعلى أثرها استعاد الأمويون سلطتهم كاملة على الشام، واضطر القيسية إلي هجر الشام والانتقال إلي منطقة الجزيرة بأعالي دجلة والفرات (شمال العراق).

ونتج عن تلك الموقعة عدة نتائج هامة منها: أن نفوذ ابن الزبير بدأ يضعف في الولايات التابعة له، كما فتحت تلك الموقعة باب العداء والصراع بين القيسية واليمنية، وأدت إلي إشعال الفتن بينهما في مناطق عديدة من الدولة الإسلامية سواء في المشرق أو المغرب والأندلس[1] .

---

[1] سالم : نفسه، ص٣٩٢؛ عبد الشافي غنيم، نفسه، ص ١٧٩-١٨٠.

٤ - ثورات الخوارج:

أ- الخوارج في عهد معاوية

عندما تولي معاوية الخلافة بدأت تظهر على مسرح الحوادث في الدولة الإسلامية ثلاث أحزاب: أنصار بني أمية والشيعة العلويين و الحزب الثالث الخوارج وهم أعداء الأوليين يستحلون دماءهم ويرون أنهم من الخارجين على الدين.

ويعتبر الخوارج من ثلاثة اخطر هذه الأحزاب أو الفرق، وكان من الصعب ردهم إلي جماعة المسلمين بالحجة والإقناع لأنهم كانوا يكفرون غيرهم من المسلمين ويستبيحون دماءهم وأموالهم، ولذا اضطر معاوية إلي اتباعضدهم سياسة الشدة والقمع ليأمن شرهم.

وكان الخوارج يبغضون معاوية لسياسة الترف التي اتبعها علاوة على اتخاذه القصور والحراس والحُجاب وما إلي ذلك من مظاهر البذخ والملك التي اقتبسها عن البلاط البيزنطي، كما أنه لم يبايع بالخلافة عن إجماع كل المسلمين.
وعندما استتب الأمر لمعاوية عام ٤١هـ استعد الخوارج لقتاله بزعامة فروة بن نوفل الأشجعي، فأرسل إليهم معاوية جيشاً من أهل الشام إلا أن هُزم أمام الخوارج قرب الكوفة ليتمكنوا من دخولها سنة ٤٣هـ ولكن واليها الأموي المغيرة بن شعبة ظل يحاربهم ويهتم بالقضاء عليهم قبل أن يستفحل خطرهم، فسجن الكثير منهم وضيَق على بقيتهم فآثروا مغادرة الكوفة وأخذوا ينتقلون في البلاد الإسلامية[1]

وعندما لاحظ الخليفة معاوية تفاقم خطر الخوارج بالعراق ولي عليها زياد بن أبيه (سنة ٤٥هـ) الذي تمكن من كسر شوكتهم باستخدام سياسة البطش والقسوة في معاملتهم.

وبعد وفاة معاوية وتوليه ابنه يزيد الخلافة قام واليه على العراق عبد الله بن زياد بتشديد الهجوم على الخوارج ومطاردتهم فاضطروا للهرب إلي بلاد الأهواز الواقعة شرق دجلة بين البصرة وفارس.

---

[1] ابن الأثير، نفسه، ج٣، ص ٢٧٦ وما بعدها، حسن إبراهيم حسن ، نفسه ، ج١، ص ٢٨٧ وما يليها.

ب- *الخوارج في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان:*

لم يلبث أن ظهر خطر الخوارج في منطقة الأهواز تحت زعامة نافع ابن الأزرق، وقد تزايد هذا الخطر بتأييد هؤلاء الخوارج لثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز حيث وقفوا إلي جانبه في الدفاع عن مكة؛ وعندما أدرك الخوارج أن ابن الزبير يهدف إلي الانفراد بالحكم أو الخلافة بدأوا يتخلون عن تأييده.

وعاد الخوارج يركزون نشاطهم في العراق وأخذوا يهاجمون البصرة وينشرون الرعب والفزع فيها، فاضطر أهلها للتكتل ضدهم دفاعاً عن أنفسهم مما دفع الخوارج إلي الانسحاب إلي الأهواز مرة ثانية، حيث انقسموا على أنفسهم وتشعبوا إلي عدة فرق من أهمها فرقة الأزارقة نسبة إلي نافع بن الأزرق وفرقة الصفرية وهم أتباع زيادة بن الأصفر وفرقة الإباضية أتباع عبد الله بن إباض، وظل ولاة الأمويين وقادتهم يحاربون الخوارج بلا هوادة طوال عهد الخليفة عبد الملك بن مروان حتى قضوا على خطرهم.

٥- *الثورة في بلاد المغرب والأندلس ضد الأمويين (ثورات البربر):*

قام البربر في المغرب بالثورة احتجاجاً على سياسة الاستبداد والعنف التي اتبعها معهم عمال بني أمية وقيامهم بفرض الجزية على البربر رغم اعتناقهم الإسلام، مما أدي إلي تقبل البربر لمبادئ الخوارج التى تنادي بالمساواة بين جميع المسلمين.

وفي سنة ١٢٢ هـ قام البربر في المغرب الأقصي بثورة عامة يقودهم زعيم منهم يدعى ميسرة المطغري الزناتي الذي اعتنق مبادئ الخوارج الصفرية. وأعلن الثورة ضد الأمويين وانتصر عليهم قرب طنجة سنة ١٢٢هـ وبسط نفوذه على المغرب الأقصى، ثم جاء بعده خالد بن حميد الزناتي الذي استطاع أن يهزم الجيوش العربية الأموية هزيمة أخرى قرب طنجة سنة ١٢٣هـ وقتل فيها عدد كبير من أشراف العرب ولذا سميت **بغزوة الأشراف**، وعندما سمع بذلك الخليفة هشام بن عبد الملك أرسل جيشاً كبيراً من عرب الشام التقي مع البربر عند مكان يسمى بقدوره على ضفاف نهر سبو قرب تاهرت في أوائل عام ١٢٤هـ، وفي هذه الموقعة هزمت جيوش العرب للمرة الثانية هزيمة منكرة أمام البربر وقتل الكثير منهم بينما فر الناجون بقيادة بلج بن بشر القشيرى إلى سبته وتحصنوا بها، وأثناء ذلك ثار البربر بالأندلس أيضاً ضد العرب تضامناً مع إخوانهم بربر المغرب، فاضطر والي الأندلس عبد الملك بن قطن إلي الاستعانة بفلول الشاميين

المحصورين في سبته لإخماد حركة البربر في الأندلس، ونجح عرب الأندلس ومن وفد عليهم من عرب الشام في القضاء على ثورة البربر في الأندلس.

كما تمكن حنظلة بن صفوان والي المغرب من إخماد ثورة البربر هناك بعد انتصاره عليهم في موقعتي الأصنام والقرن[1].

عوامل اضمحلال وسقوط الدولة الأموية[2]:

لقد ظهرت عوامل الاضمحلال في الدولة الأموية في أواخر عصرها بشكل واضح مما أدي إلي انهيارها سريعاً، ويمكن أن نلخص عوامل الضعف والسقوط فيا يلي:-.

أولا:- سوء سياسة الخلفاء الأمويين الأواخر:

بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١هـ ساءت سياسة الخلفاء الأمويين حيث كان الخليفة عمر يعامل الطوائف المختلفة باللين والمساواة وحسن السياسة ولكن من جاءوا بعده عدلوا عن ذلك إلي المعاملة السيئة القاسية والشدة والعنف فمن ناحية القبائل والعصبية نجد أنه كان هناك عصبيتان عربيتان وهما العصبية اليمنية والعصبية المصرية أو القيسية، وقد ساعدت سياسة الأمويين على إعادة الروح الجاهلية القديمة التي تقوم على التعصب بالأنساب والقبائل وهو الأمر الذي نهي الإسلام عنه ولكن بعض الخلفاء الأمويين الأواخر أرادوا أن يستغلوا ذلك لتحقيق أغراض ومصالح لهم فكان كل خليفة بعد عمر بن عبد العزيز وحتى مروان بن محمد آخر الخلفاء نجده يميل إلي حزب معين ويعادي الحزب الآخر في حين أن السياسة الحكيمة تقضي أن يعدل الخليفة بين جميع الطوائف ولا يتحيز لأحدهما، وهكذا نجد أن هؤلاء الخلفاء الأواخر كانوا يتحيزون للحزب المضري أو القيسي ويعادون اليمنية ويضطهدونهم مما أدي إلى سخط اليمنية على الدولة الأموية وبالتالي انضموا إلي الثورة العباسية ضد الأمويين وهكذا تصدعت قوة الدولة التي تعتمد أساساً على العرب وذلك بسبب سوء سياسة الخلفاء[3].

ثانيا.- انقسام البيت الأموي:

ظلت الأسرة الأموية تنعم بالتماسك والوحدة حتى ١٢٦هـ حيث بدأت تتعرض للانقسام والاختلاف ذلك أن الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي تولي

---

[1] انظر ابن عذاري، نفسه، ج١، ص٣٠ ومايليها: العبادي، نفسه، ص٩٠-٩٣؛ عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٥٣-١٦٠..

[2] أنظر حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج١؛ عبد الشافي غنيم، نفسه، ص ٢٦٤-٢٦٥؛ حلمى سالم، نفسه، ص ١٧١-١٧٢.

[3] المسعودى، نفسه، ج٣، ص ٢٢٠، ٢٢٦.

سنة ١٢٦ هـ كان منشغلا بحياة اللهو والملذات إلي جانب اضطهاده لليمنية فثار عليه أحد أقربائه وهو يزيد بن الوليد بن عبد الملك وحاصر العاصمة دمشق وانتهي الأمر بقتل الخليفة الوليد بن يزيد وتولي يزيد بن الوليد الخلافة سنة ١٢٦ هـ وهو الذي حاول جاهداً القيام بالإصلاح مثل عمر بن عبد العزيز، ولكنه توفي بعد أشهر قليلة من توليه الحكم وتولي أخوه إبراهيم، غير أن مروان بن محمد الذي كان أميراً على أرمينية لم يكن راضياً على هذا الوضع ولذا أشعل الثورة واستولي على دمشق وأعلن نفسه خليفة سنة ١٢٧هـ بعد قتل إبراهيم بن الوليد مما أدي إلي انقسام الدولة الأموية فالخليفة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين كان لا يثق في بعض أهل بيته وأصبح يشك في إخلاصهم له فكل هذه الحوادث ساعدت على تصدع البيت الأموي وضياع هيبة الدولة في نفوس المسلمين.

ثالثاً- سوء معاملة الموالي والخوارج والشيعة:

نجد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان ينتهج سياسة المساواة واللين في معاملة الأحزاب المعارضة مثل الموالي والخوارج والشيعة ولكن من جاء بعده حاد عن تلك السياسة الحكيمة فالموالي يعانون من العسف والظلم وتؤخذ منهم الضرائب غير الشرعية مما أدي إلي قيام الموالي البربر بالثورة في بلاد المغرب سنة ١٢٢هـ وفي ذلك الوقت أيضا، ظهر بعض الثائرين في منطقة خراسان بفارس واستطاعوا أن يستميلوا الموالي الفرس إلي جانبهم بعد أن وعدوهم بالمساواة مع العرب وهذا ساعد على جعل خراسان تربة خصبة لنشر الدعوة العباسية.

أما الشيعة فقد تعرضوا للاضطهاد والبطش ففي سنة ١٢٢هـ تعرض الشيعة العلويين لمأساة جديدة وهي أن واحداً من زعمائهم يدعي زيد العلوي (من نسل الحسين بن علي) قد اضطهده الأمويين فثار ضدهم وانتهي الأمر بقتله كما قتلوا ابنه يحيي سنة ١٢٥هـ مما أدي إلي ازدياد سخط الشيعة أيضاً على الأمويين [١] .

أما بالنسبة للخوارج الذين ركنوا إلي الهدوء نسبياً في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يلبثوا أن عادوا إلي الثورة والتمرد من جديد فأشعلوا الثورات في العراق واليمن والحجاز مما أنهك قوي الدولة الأموية.

رابعاً- انغماس بعض الخلفاء الأمويين في الترف واللهو [٢] :

كان لانشغال بعض خلفاء بني أمية في حياة اللهو والترف والبذخ والتي دخلت إلي الدولة الأموية بتأثير الروم (البيزنطيين) أثر كبير في سقوط دولتهم فقد

---

[١] المسعودي، نفسه، ج٣، ص٢٠٦-٢٠٧، ٢١٢.

[٢] المسعودي، نفسه ، ج٣، ص٢١٥-٢١٦، ٢٢٨.

اشتهر يزيد بن معاوية بحبه للهو، أما يزيد بن عبد الملك فإنه لم يكن أحسن حالاً من يزيد بن معاوية فقد كان كما تذكر الرواية صاحب لهو كما اشتهر ابنه الوليد بالمجون واللهو، وكان لهذا كله أثره في عدم الاهتمام بأمور الرعية والدولة، وإثارة مشاعر المسلمين في عدم الاهتمام بأمور الرعية وسولة، وإثارة مشاعر المسلمين ضد تصرفات هؤلاء الخلفاء.

خامساً:- مهارة العباسيين في التخطيط لنشر الدعوة العباسية:

نجح العباسيون في نشر دعوتهم خاصة بين الموالي الفرس في إقليم خراسان الذين كانوا يتطلعون إلي المساواة والتخلص من سيطرة ونفوذ العنصر العربي الذي تعتمد عليه الدولة الأموية ولذا انضموا إلي الدعوة العباسية.

سادساً:- استنزاف جهود الدولة الأموية:

وذلك في مواجهة الفتن والثورات الداخلية العديدة طوال العصر الأموي مما أنهك قواها في النهاية وساعد على إضعافها في مواجهة العباسيين.

الملاحق

ملحق (١)

"عهد رسول الله ﷺ إلي أهل نجران "

عن ابن اسحاق أن النبي ﷺ كتب لعمرو بن حزم حين بعثه إلي نجران : " بسم الله الرحمن الرحيم". هذا كتاب أمان من الله ورسوله، يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود "سورة المائدة :[١] ، عهد من النبي لعمرو بن حزم حين بعثه إلي اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله.. وأن يأخذ من المغانم خمس الله جل ثناؤه وما كتب على المؤمنين في الصدقة من الثمار وأن نسخه كتاب النبيﷺ لهم التي في أيديهم:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران - أذ كان له عليهم حكمه - في كل ثمرة أو صفراءاً وبيضاء أورقيق فأصَل ذلك عليهم واترك ذلك كله لهم على ألفي حلة من حلل الأواقى في كل رجب وفي كل صفر ألف حلة مع كل حلة أوقية من الفضة، فما زادت حُللَ الخراج [٢] أو نقصت عن الأواقي فبالحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم فبالحساب، وعلى نجران مؤونة رسلي ومبعثهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ، ولا تحبس رسلي فوق شهر وعليهم عارية ثلاثون درعاً وثلاثون فرساً وثلاثون بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعرة، وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسلي حتى يؤروه إليهم، ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم ومساكنهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيتة ولا كاهن من كهانته، وليس عليه رَ بَية ولا دم جاهلية، ولا يُحشرون ولا يُعشَرُون ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فسهمهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين . ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتي منه برينة ولا يؤخذ رجل منهم بظل آخر، وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله أبداً حتى يأتى الله بأمره، ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم غير متقلتين بظلم".

شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بنى نصر والأقرع بن حابس الحنظلى والغيرة بن شعبة

---

[١] سورة المائدة

[٢] عن كتاب الخراج لأبي يوسف، ص ٧٧-٧٨.

ملحق (٢)

نسخة من كتاب أبي بكر إلى جميع المرتدين[1]

(عن مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدرى آبادى ص٢٦٠-٢٦٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

من أبى بكر خليفة رسول الله، إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة، أقام علي إسلامه أو رجع عنه: سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدي إلي الضلالة والعمى، فإن أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، نقر ونعترف بما جاء به، ونكفر من أبي ونجاهده.

أما بعد : فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلي خلقه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلي الله بإذنه وسراجا منيراً" **لينذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين".** فهدي الله بالحق من أجاب إليه، وضرب رسول الله بإذنه من أدبر عنه، حتى صار إلي الإسلام طوعاً وكرهاً، ثم توفي الله رسوله ﷺ ، وقد نفذ لأمر الله، ونصح لأمته، وقضى الله عليه، وكان الله قد بين له ذلك، ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل فقال: **"إنك ميت وأنهم ميتون"**، وقال : **" وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون"** وقال: **" وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين"**، فمن كان يعبدا محمداً، فإن محمداً قد مات ، ومن يعبد الله وحده لاشريك له ، فإن الله له بالمرصاد حي قيوم لا يموت، لا تأخذه سنة ولا نوم، حافظ لأمره، منتقم من عدوه يجزيه.

وأني أوصيكم بتقوي الله، وحظكم ونصيبكم من الله وما جاء به نبيكم ﷺ وأن تهتدوا بهداه وأن تعتصموا بدين الله، فإن من لم يهده الله ضار، وكل من لم يعافه مبتلي، وكل من لم يعنه الله مخذول، فمن هداه الله كان مهتدياً، ومن أضله كان ضالاً، قال الله تعالي:" **من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً"**. ولم يُقبل منه عمل في الدنيا حتى يقر به. ولم يقبل منه في الآخر صرف ولا عدل.

---

[1] عن د. عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية. ص ٤٤٣-٤٥٠.

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه، بعد أن أقر بالإسلام وعمل به، اغترار بالله وجهالة بأمره رغبة للشيطان، قال الله تعالى:" وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا أبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهو لكم عدو، بئس للظالمين بدلا" وقال: " إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير".

وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقاتل أحد حتى يدعوه إلي داعية الله. فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً، قبل منه وأعانه عليه، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتله، وأن يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن اتبعه فهو خير له ولكم ومن تركه فلن يعجز الله.

وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم، والداعية الأذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا، كفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم، وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقروا قبل منهم حمل على من ينبغي لهم.

ملحق (٣)

عهد أبي بكر لأمراء الأجناد ضد المرتدين[1]

(من مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدرى آبادي ص ٢٦٣-٢٦٤).

(هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان، حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله، سره وعلانيته، أمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولي عنه، ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي له، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم، ولا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم".

فمن أجاب إلي أمر الله عز وجل وأقر له، قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله عن الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يُجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مُراغمه، لايقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه، ومن أبي قاتله. فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغنا، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وأن لا يُدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هو لئلا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتي المسلمون من قبلهم.

وأن يقتصد بالمسلفين ويرفق في السير والمنزل، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحة ولين القول.

---

[1] عن د. عبد العزيز سالم، نفس المرجع السابق

ملحق (٤)

نص وثيقة التحكيم

(من كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص١٩٤-١٩٦)

" هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. وشيعتهما فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، قضية علي على أهل العراق شاهدهم وغائبهم، وقضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم إنا تراضينا أن نقف عند حكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلي خاتمته، نحيي ما أحيا، ونميت ما أمات، على ذلك تقاضيا وبه تراضيا، وإن عليا وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظراً وحاكماً ورضي معاوية وشيعته بعمرو بن العاص ناظراً وحاكماً، على أن علياً ومعاوية أخذا علي عبد الله بن قيس [1] وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه، وذمته وذمة رسوله أن يتخذوا القرآن إماماً، ولا يعدوا به إلي غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً، وما لم يجدا في الكتاب رداه إلي سنة رسول الله الجامعة، لا يتعمدان لها خلافاً، ولا يبغيان فيها بشبهة.

وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضي بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه، وليس لهما أن ينقضا ذلك، ولا يخالفاه إلي غيره، وهما آمنان في حكمهما على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما ما لم يعدو الحق، رضي به راض أو سخطه ساخط، وأن الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما هو في كتاب الله، فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة، فلشيعته وأصحابه أن يختاروا مكانه رجلا من أهل المعدلة والإصلاح على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق، وأن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدد في هذه القضية فلشيعته أن يولوا مكانه رجلا يرضون عدله، وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة، ورفع السلاح، وقد وجبت القضية على ما سميناه في هذا الكتاب من موقع الشرط على الأميرين والحكمين والفريقين، والله أقرب شهيد، وكفي به شهيداً، فإن خالفا وتعديا فالأمة بريئة من حكمهما ولا عهد لهما ولا ذمة، والناس آمنون على أنفسهم وأهاليهم وأولادهم إلي انقضاء الأجل، والسلاح موضوعة والسبل آمنة، والغائب من الفريقين مثل الشاهد في الأمر، وللحكمين أن ينزل منزلا متوسطاً عدلاً بين أهل العراق وأهل الشام، ولا يحضرهما فيه إلا من أحبا

[1] هو ابو موسي الأشعري.

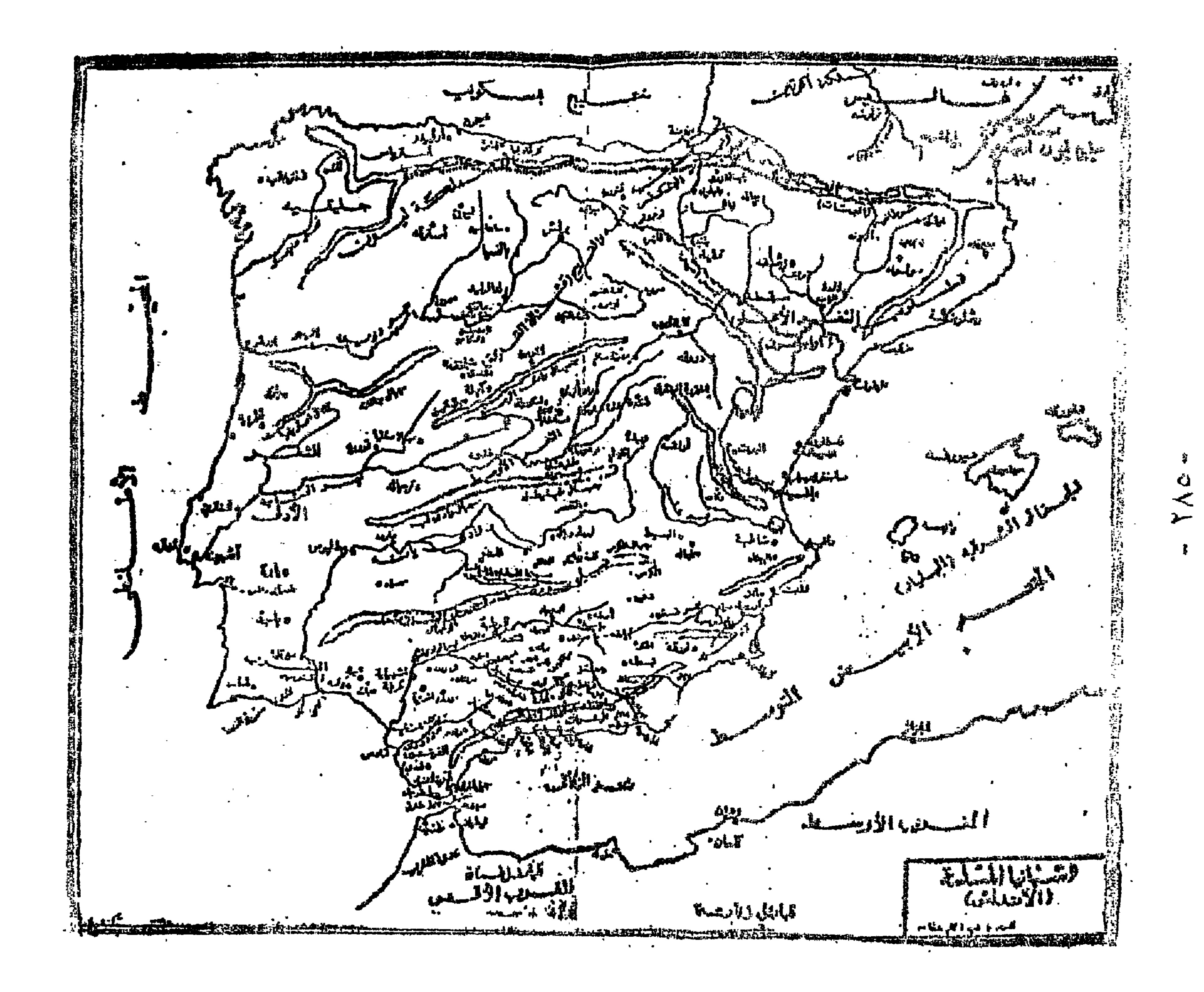
عن تراض منهما، والأجل إلي انقضاء شهر رمضان، فإن راي الحكماء تعجيل الحكومة وعجلاها، وإن رأيا تأخيرها إلي آخر الأجل أخراها، فإن هما لم يحكما بما في كتاب الله وسنة نبيه إلي انقضاء الأجل، فالفريقان على أمرهم الأول في الحرب، وعلى الأمة عهد الله وميثاقه في هذا الأمر، وهم جميعاً يد واحدة على من أراد في هذا الأمر إلحاداً أو ظلماً أو خلافاً.

شهد على ما في هذا الكتاب الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب، وعبد الله ابن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والأشعث بن قيس، والأشتر بن الحارث، وسعيد بن قيس، والحصين والطفيل ابنا الحارث بن عبد المطلب، وأبو سعيد بن ربيعة الأنصاري، وعبد الله بن خباب بن الأرت، وسهل بن حنيف، وأبو بشر بن عمر الأنصاري، وعوف بن الحارث بن عبد المطلب، ويزيد بن عبد الله الأسلمي، وعقب بن عامر الجهني، ورافع بن خديج الأنصاري، وعمرو بن الحمق الخزاعي، والنعمان بن العجلان الأنصاري، وحر بن عدي الكندي، ويزيد بن حجية النكرى، ومالك بن كعب الهمداني، وربيعة بن شرحبيل، والحارث بن مالك، وحجر بن يزيد، وعلبة بن حجية.

ومن أهل الشام: حبيب بن مسلمة الفهري، وأبو الأعور السلمي، وبسر ابن ارطأة القرشي، ومعاوية بن حديج الكندى، والمخارق بن الحارث، ومسلم ابن عمرو السكسكي، وعبد الرجمن بن خالد بن الوليد، وحمرة بن مالك، وسبيع بن يزيد الحضرمي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعلقمة بن يزيد الكلب، وخالد بن الحصين السكسكي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن أبجر العبسي، ومسروق بن جبلة العكي، ويسر بن يزيد الحميرى، وعبد الله ابن عامر القرشي، وعتبة بن أبي سفيان، ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، وعمار بن الأحوص الكلبي، ومسعدة بن عمرو العتبي، والصباح ابن جلهمة الحميرى ، وعبد الرحمن بن ذي الكلاع، وثمامة بن حوشب، وعلقمة بن حكم.

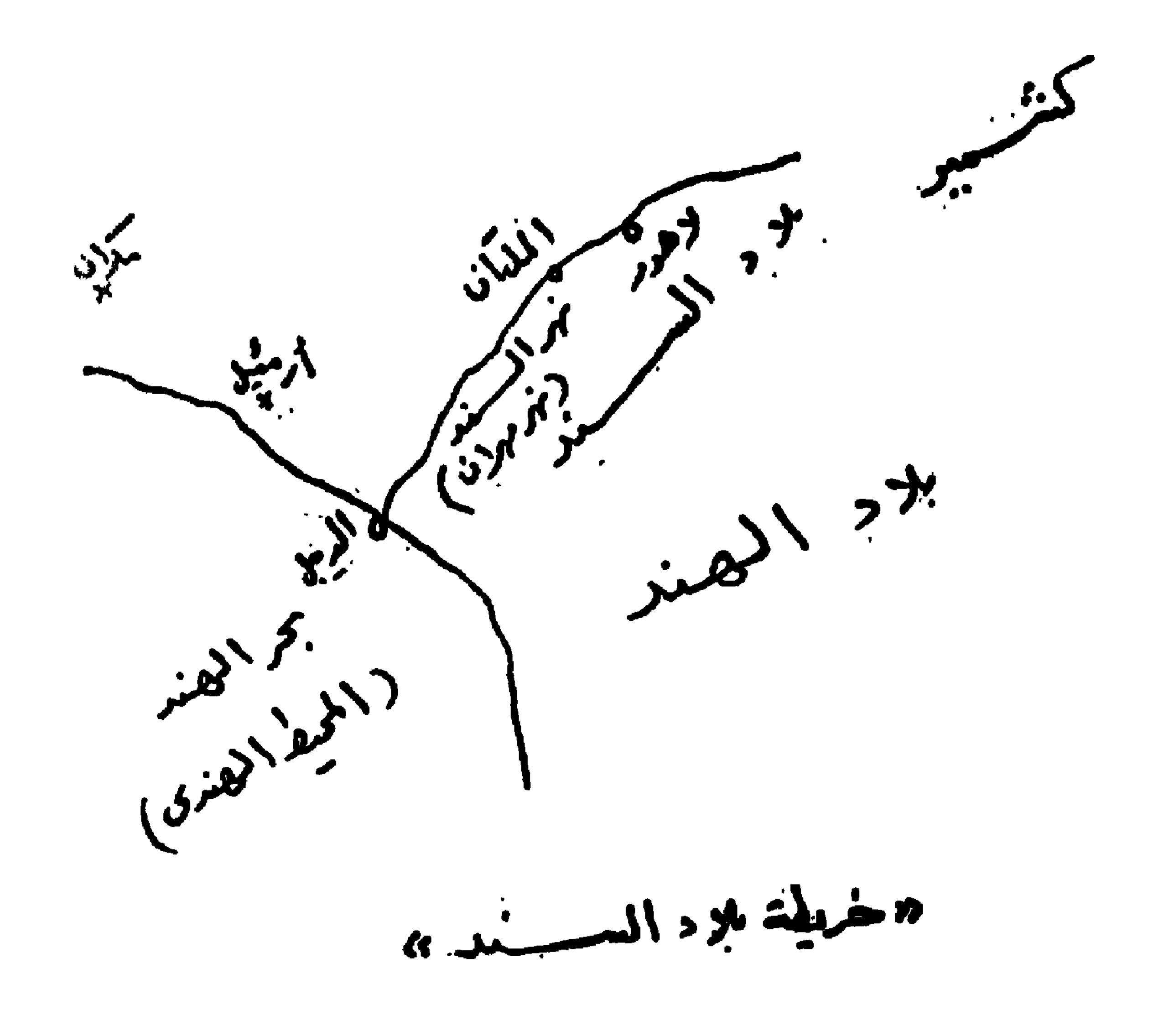
(وكتب يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين).

الخرائط والصور


اسبانيا المسلمة
(الأندلس)
المحيط الأطلنطي
البحر الأبيض المتوسط
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى

خريطة بلاد المغرب

(البحر الابيض المتوسط)
بحر الشام (بحر الروم)
الأندلس
بحر الظلمات
(المحيط الاطلسي)
قرطاجنة
بجاية
الجزائر
تونس
القيروان
افريقية (المغرب الأدنى)
المهدية
سوسة
صفاقس
قابس
طرابلس
المغرب الأوسط
تهودة
وهران
تاهرت
تلمسان
بلاد قسطيلية
جبال الأوراس
سبتة
طنجة
المغرب الأقصى
فاس
الرباط
تامسنا
مراكش
بلاد السوس



«خريطة بلاد السند»

بلاد الصين

كاشغر (كشغر)

الشاش (طشقند)

نهر سيحون

خوارزم

نهر جيحون

سمرقند

بخارى

فرغانة

بلاد ما وراء النهر

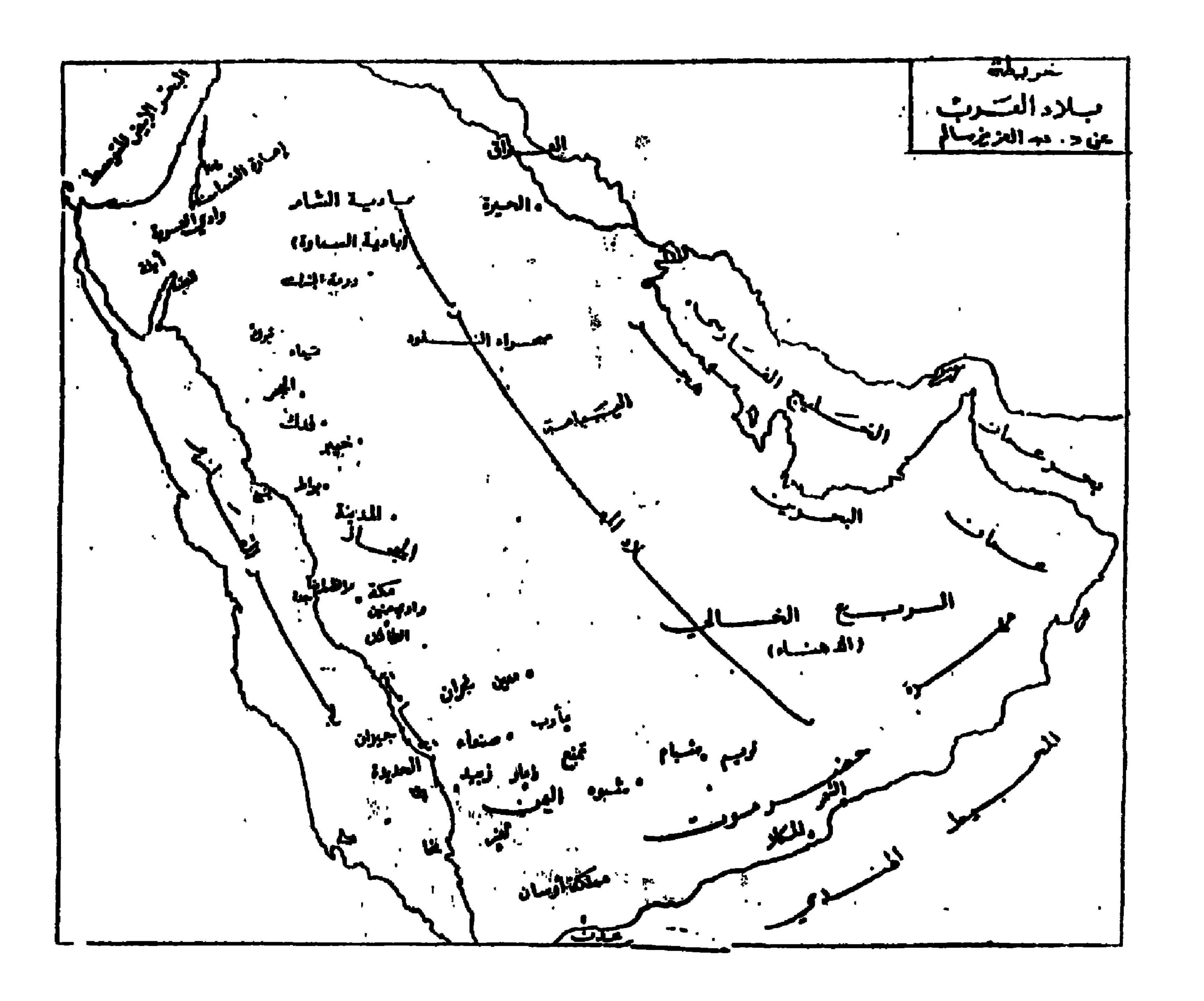
إقليم خراسان

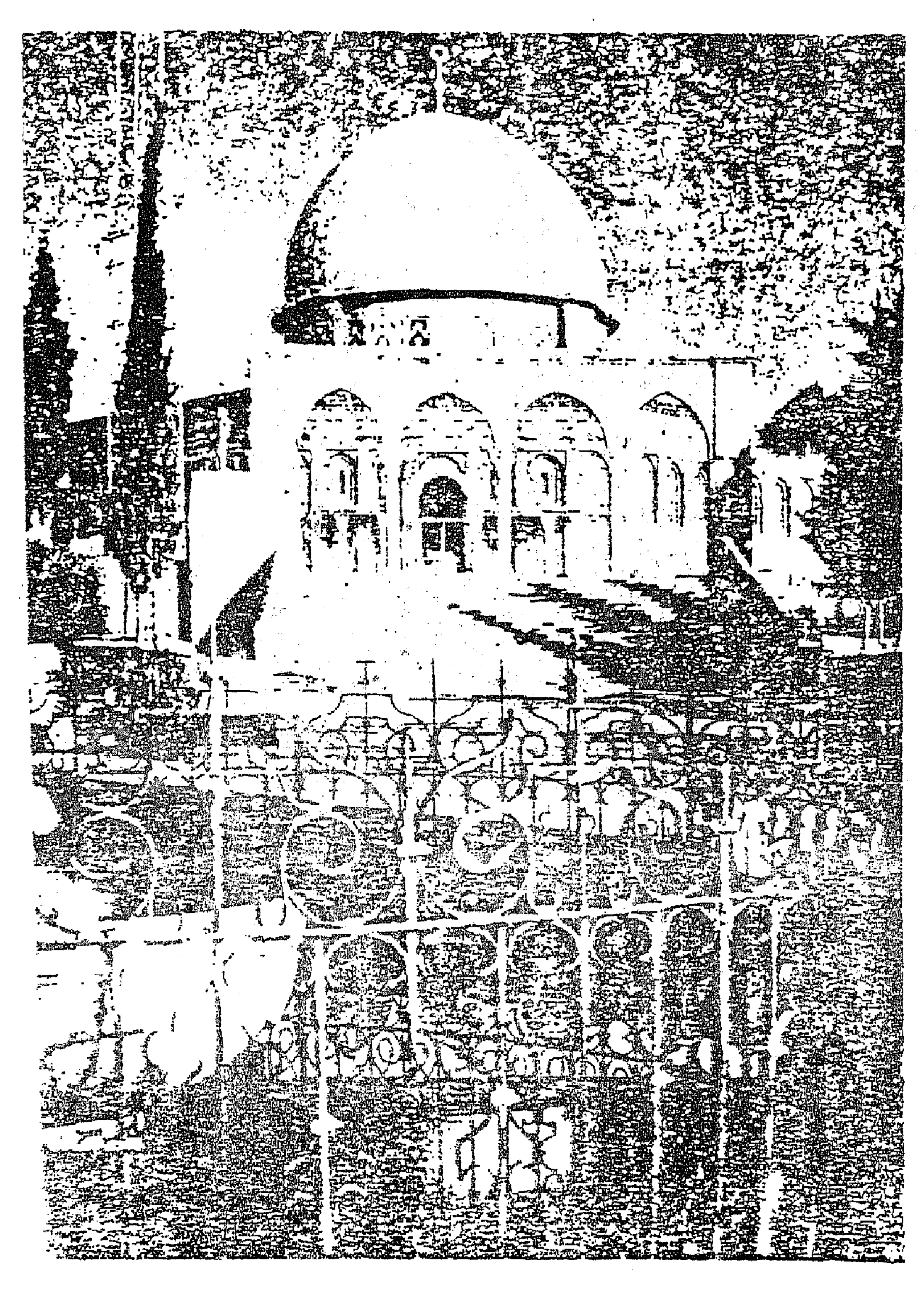
بحيرة طبرستان (قزوين)

جرجان

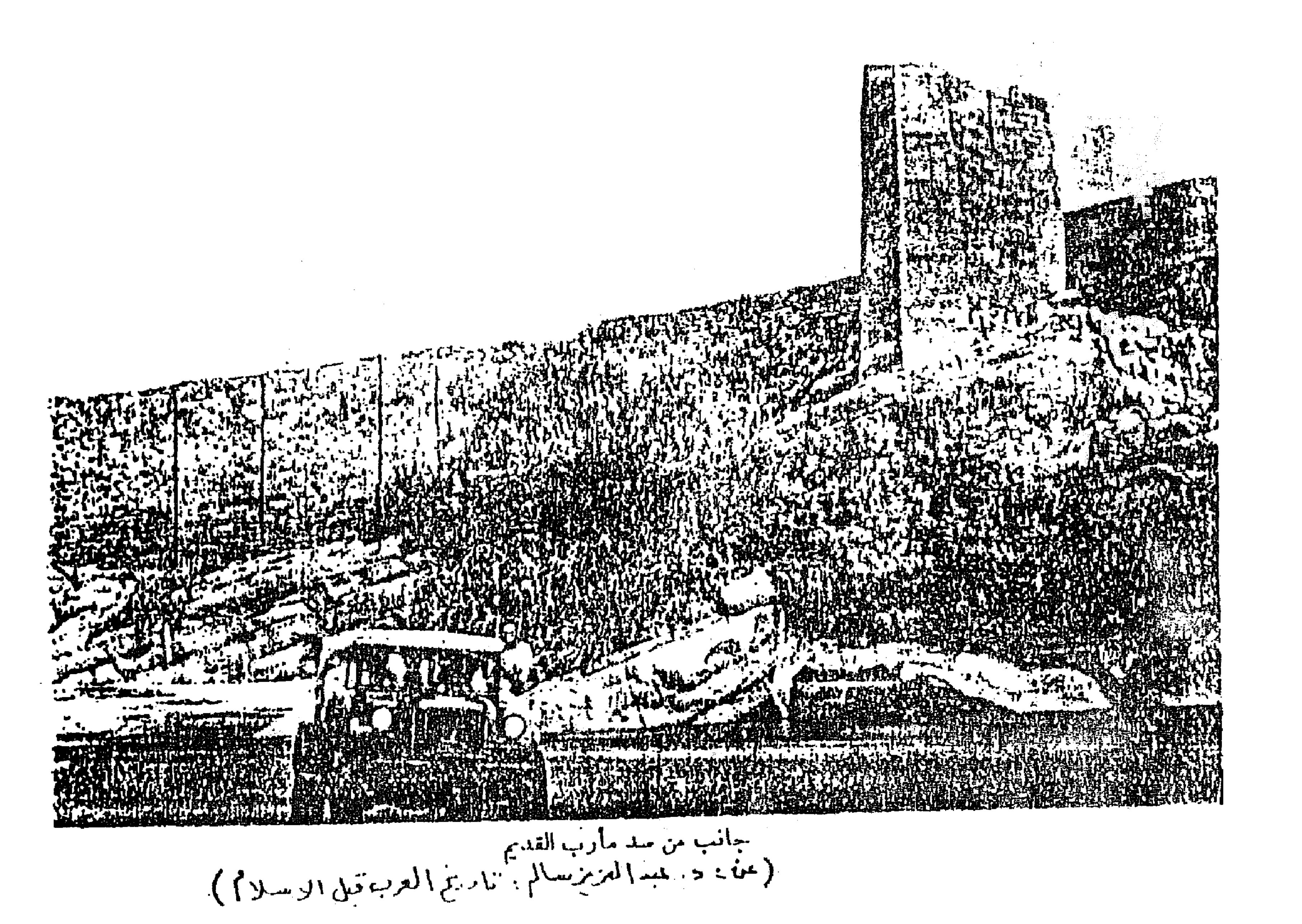
طبرستان

«خريطة بلاد ما وراء النهر»

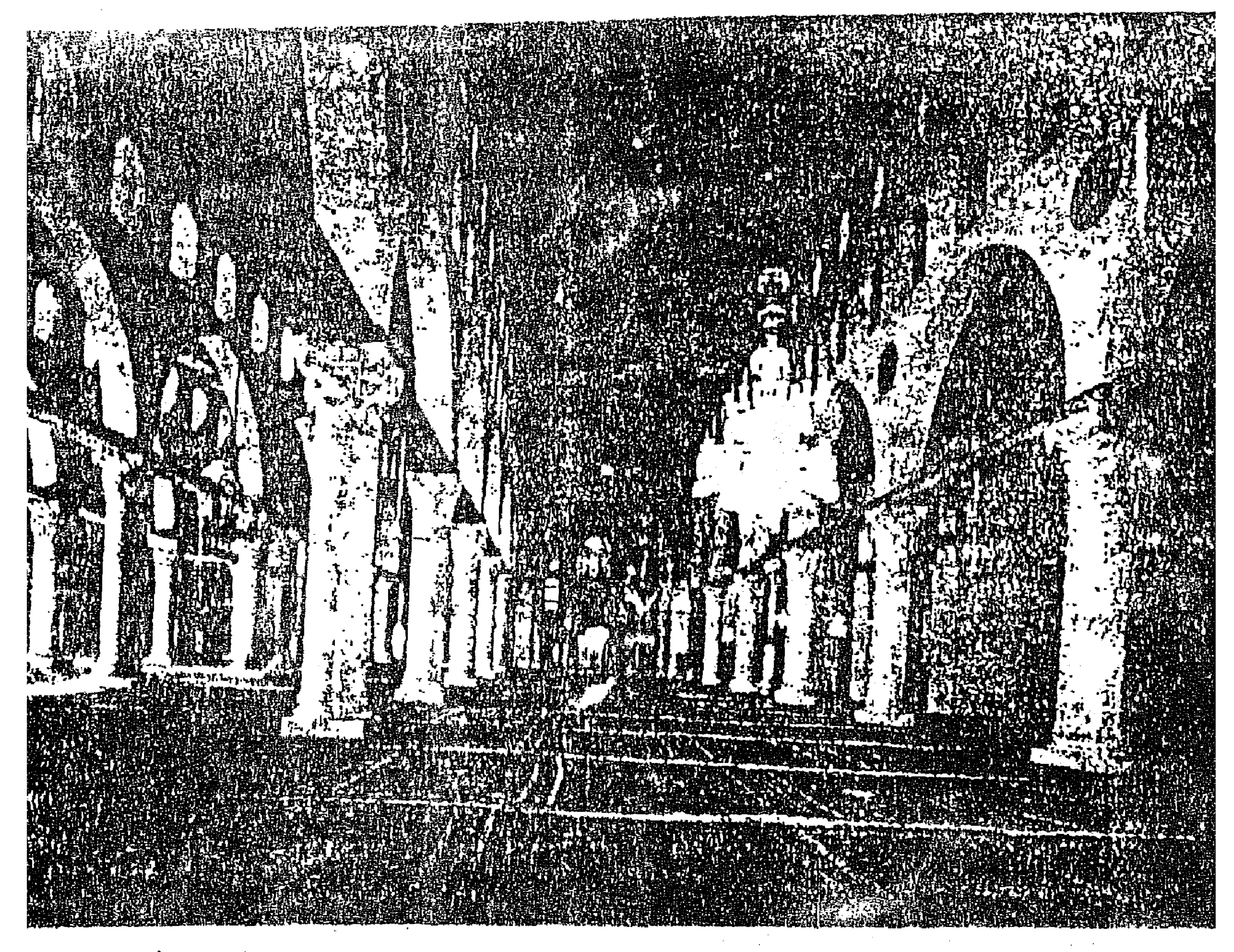

خريطة
بلاد العرب
عن د. عبد العزيز سالم
العراق
الحيرة
بادية الشام
(البادية السماوة)
صحراء النفود
اليمامة
الخليج الفارسي
البحرين
عمان
الربع الخالي
(الدهناء)
تيماء
الحجر
خيبر
المدينة
الحجاز
مكة
الطائف
نجران
مأرب
صنعاء
زبيد
شبوة
اليمن
شبام
حضرموت
المكلا
جيزان
الحديدة
عدن



قبة الصخرة ببيت المقدس (عن [illegible])



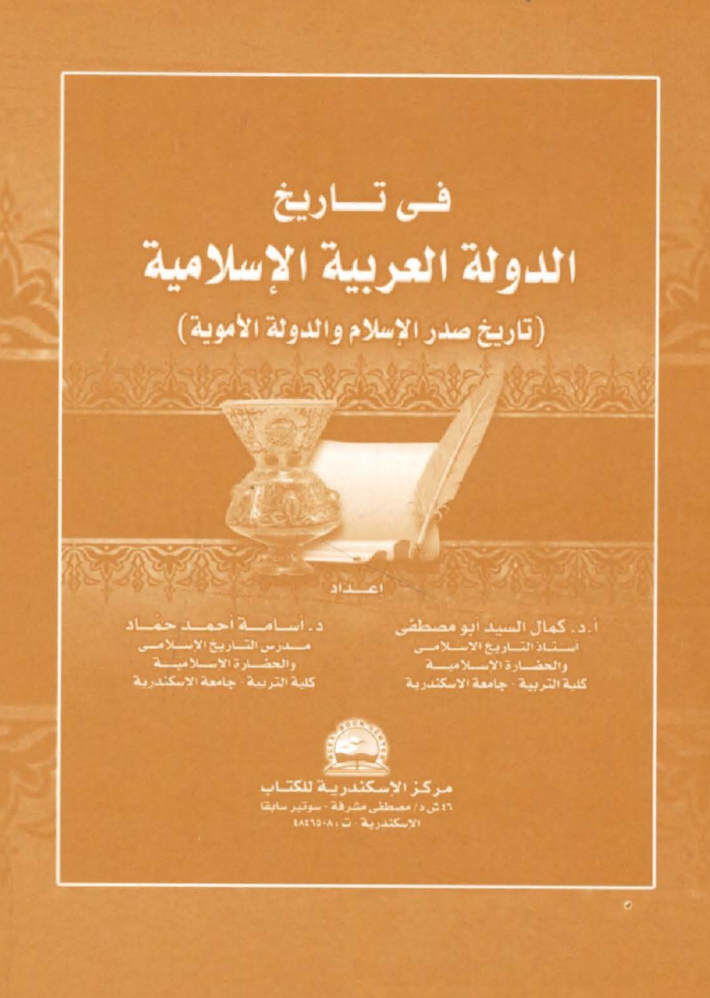
جانب من سد مأرب القديم
(عن: د. عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام)



الجامع الأقصى ببيت المقدس (عن د. عبد العزيز سالم)

فهرس

الموضوع	رقم الصفحة
تمهيد: جغرافية بلاد العرب	٧ - ١٥
الفصل أولاً :	
أحوال العرب قبل الإسلام	١٩ - ٨٢
الفصل الثانى :	
السيرة النبوية (الفترة المكية)	٨٥ - ١٠٣
الفصل الثالث :	
الفترة المدنية "دولة الرسول ﷺ فى المدينة"	١٠٧ - ١٥٦
الفصل الرابع :	
عصر الخلفاء الراشدين	١٥٩ - ٢٥١
الفصل الخامس :	
جوانب من عصر الدولة الأموية	٢٥٤ - ٢٧٤
الملاحق	٢٧٨ - ٢٨٢
الخرائط والصور	٢٨٥ - ٢٩٢


فى تاريخ
الدولة العربية الإسلامية
(تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية)
اعداد
أ.د. كمال السيد أبو مصطفى
أستاذ التاريخ الاسلامى
والحضارة الاسلامية
كلية التربية - جامعة الاسكندرية
د. أسامة أحمد حماد
مدرس التاريخ الاسلامى
والحضارة الاسلامية
كلية التربية - جامعة الاسكندرية
مركز الإسكندرية للكتاب
٤٦ ش د/ مصطفى مشرفة - سوتير سابقا
الاسكندرية - ت : ٤٨٤٦٥٠٨